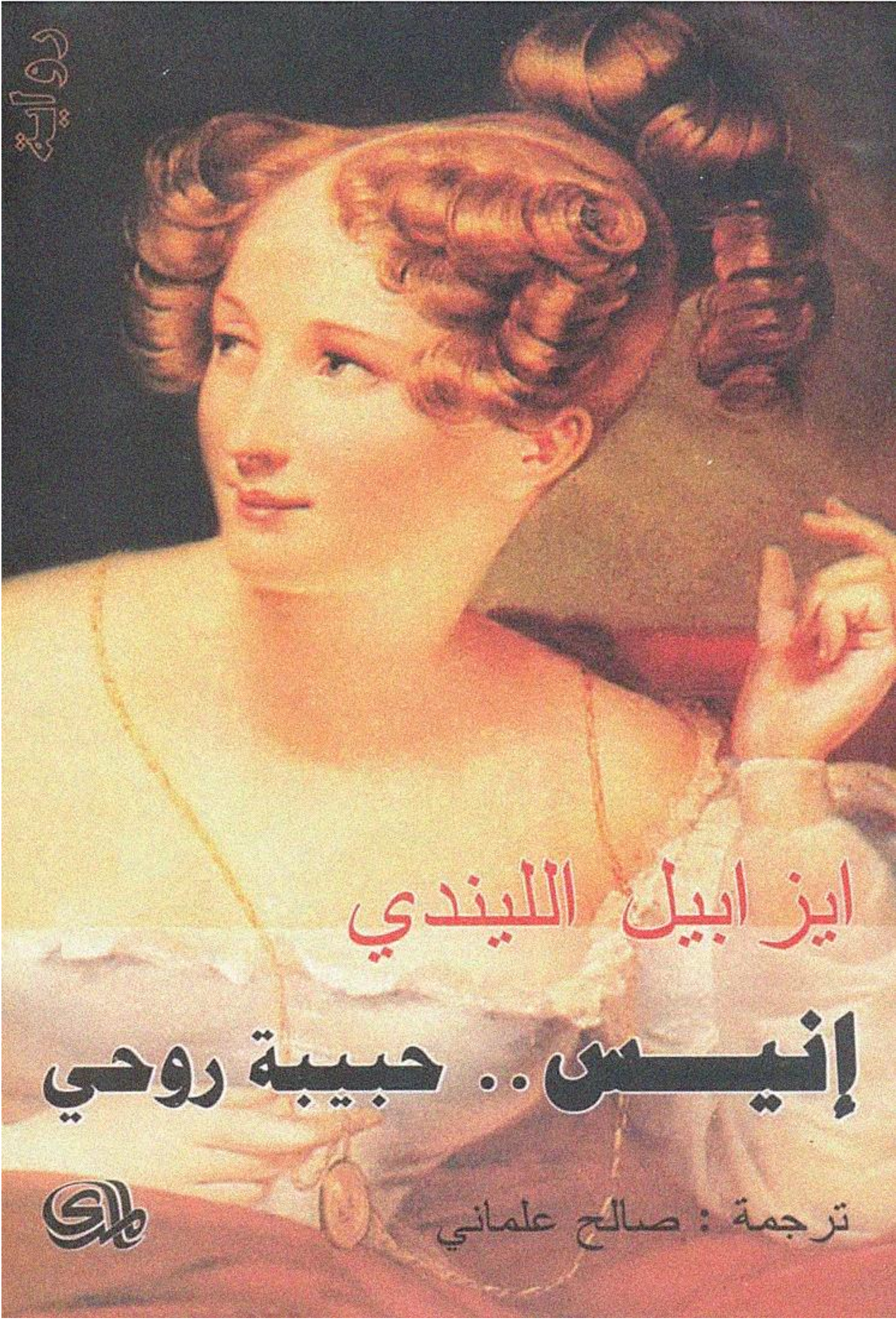

رواية
ايزابيل الليندي
إنيس.. حبيبة روحي
ترجمة : صالح علماني

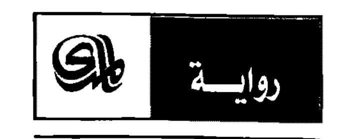
إيزابيل الليندي

إنيس، حبيبة روحي

ترجمة: صالح علماني



إنيس، حبيبة روحي



المؤلف: إيزابيل الليندي
عنوان الكتاب: إنيس، حبيبة روحي
المترجم: صالح علماني
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠٠٧
الطبعة الرابعة: ٢٠١٣

Author: Isabel Allende
Title: Inés, del alma mia
Translator: Saleh Almani
Al-Mada: P.C.
First Edition: 2007
Fourth Edition: 2013

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت-الحمراء-شارع ليون-بناية منصور-الطابق الأول-هاتف: ٠٠٩٦١-١-٧٥٢٦١٦ تلفاكس: ٠٠٩٦١-١-٧٥٢٧١٧

www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84305-873-8

الفصل الأول

أوروبا، 1500 – 1537

أنا إنيس سواريث، من سكان مدينة سنتياغو دي إستريمادورا الجديدة، في مملكة تشيلي، في العام 1580 لميلاد سيدنا المسيح. لست متأكدة بدقة من تاريخ ميلادي؛ لكنني ولدت، على حدّ قول أمي، بعد المسغبة والطاعون الرهيب الذي اجتاح إسبانيا عند موت الملك فيليبه الجميل. أنا لا أعتقد أن موت الملك هو السبب في انتشار الوباء، مثلما كان الناس يقولون وهم يرون مرور الموكب الجنائزي الذي خلّف، طيلة أيام، رائحة لوز مرّ طافية في الهواء؛ ولكن من يدري إن كان ما قالوه صحيحاً. الملكة خوانا، وكانت لا تزال شابة وجميلة، جابت أنحاء قشتالة طوال أكثر من سنتين، حاملة النعش من مكان إلى آخر، وكانت تفتحه بين حين وآخر لتقبّل شفتي زوجها، على أمل أن ينبعث حياً. غير أن الجميل كان يعبق برائحة النتانة، على الرغم من مراهم المُحنِّط وزيوته. عندما جئتُ إلى الدنيا، كانت الملكة التعيسة، وقد أصابها الجنون، محتجزة في قصر تورديسيّاس مع جثة قرينها؛ هذا يعني أن لديّ سبعين سنة على الأقل ما بين صدري وظهري، وسوف أموت قبل حلول أعياد الميلاد. يمكنني القول إن غجرية على ضفاف نهر «خيرتي» قد تنبأت بموعد موتي، لكن نبوءتها زائفة دون ريب، مثل تلك التي تُصاغ عادة في الكتب، ولكونها مطبوعة تبدو أنها صحيحة. الغجرية تكهنت لي بحياة مديدة، وهو ما يقولونه دائماً عن العملة.

قلبي النزق هو الذي ينبئني باقتراب النهاية. كنت أعرف على الدوام

أنني سأموت هرمة بسلام، في فراشي، مثل كل نساء أسرتي؛ ولهذا لم أتردد في مواجهة أخطار كثيرة، فليس هناك من ينتقل إلى العالم الآخر قبل أن تحين ساعته المحددة. «أنت ستموتين بالشيخوخة وحدها، يا سيدتي»، كانت كاتالينا تطمئنني، بقشتاليتها البيروية اللطيفة، عندما كان خبب الخيول اللجوج الذي أشعر به في صدري يرمي بي على الأرض. لقد نسيت ما هو اسم كاتالينا بلغة الكيتشوا، وقد فات الأوان الآن لسؤالها عنه ـ فقد دفنتها في فناء بيتي منذ سنوات طويلة ـ لكنني واثقة تماماً من صحة نبوءاتها ودقتها. دخلت كاتالينا لخدمتي في مدينة كوسكو القديمة، درة بلاد الإنكا، في عهد فرانثيسكو بيثارّو، ذلك النغل الباسل الذي كان، كما تقول ألسنة السوء، يرعى الخنازير في إسبانيا، وانتهى به الأمر لأن يكون المركيز حاكم البيرو، مثقلاً بطموحه وخياناته المتعددة. هكذا هي سخريات عالم بلاد الهند الجديد هذه، حيث لا تسود قوانين التقاليد، وكل شيء مختلط بفوضى: قديسون وخطأة، بيض، سود، سمر، هنود، خلاسيون، نبلاء، وخدم. ويمكن لأي شخص أن يجد نفسه في أحد الأيام مكبلاً بالأغلال، وموسوماً بحديد محمى؛ وفي اليوم التالي، يرفع القدر مكانته في انقلاب مفاجئ. لقد عشت أكثر من أربعين سنة في العالم الجديد، ولم أعتد حتى الآن على الفوضى، بالرغم من أنني أنا نفسي استفدتُ منها؛ لأنني لو ظللت في مسقط رأسي لكنتُ اليوم عجوزاً بائسة وعمياء من كثرة العمل في التطريز على ضوء قنديل. هناك كنتُ سأظل إنيس الخياطة في شارع أكويدوكتو. أما هنا، فأنا دونيا إنيس سواريث، سيدة رفيعة المقام، أرملة سمو الحاكم دون رودريغو دي كيروغا، فاتح مملكة تشيلي ومؤسسها.

لي من العمر، كما قلت، سبعون سنة على الأقل، عشتُها بكل أبعادها، غير أن روحي وقلبي اللذين مازالا عالقين في شرخ الشباب، يتساءلان عن الشياطين التي أصابت الجسد. حين أنظر إلى نفسي في المرآة

الفضية، أول هدية قدمها إليّ رودريغو عندما تزوجنا، لا أتعرف على هذه الجدة المكللة بشعر أبيض وتردُّ لي النظرة. من هي هذه التي تسخر من إنيس الحقيقية؟ أتفحصها عن قرب على أمل أن أجد في أعماق المرآة الطفلة ذات الجدائل والركبتين المجرحتين التي كنتها يوماً، أو الشابة التي كانت تهرب إلى بساتين أشجار الفواكه لتمارس الحب خفية، أو المرأة الناضجة ومشبوبة العاطفة التي تنام محتضنة رودريغو دي كيروغا. إنهن هناك قابعات، أنا متأكدة من ذلك، لكنني لا أتمكن من رؤيتهن. لم أعد أمتطي فرسي، ولم أعد أرتدي شبكة الزرد أو أحمل السيف، ليس ذلك لنقص في الحماسة، وهذا ما كان لدي فائض منه على الدوام، وإنما بسبب غدر الجسد. إنني أفتقد القوة، تؤلمني مفاصلي، عظامي متجمدة وبصري غائم. ولولا نظارة الكاتب العمومي، التي أوصيت عليها من البيرو، لما كان بمقدوري كتابة هذه الصفحات. لقد رغبتُ في مرافقة رودريغو - فليحفظه الرب في ملكوته المقدس - في معركته الأخيرة ضد هنود المابوتشي، لكنه لم يسمح لي. «لقد صرتِ عجوزاً جداً على هذه الأمور يا إنيس»، قال ذلك ضاحكاً. فأجبته: «بقدر ما أنت عجوز»، لكن قولي هذا لم يكن صحيحاً، لأنه كان يصغرني بعدة سنوات. كنا نظن أننا لن نعود للقاء، لكننا تبادلنا الوداع بلا دموع، موقنين بأننا سنلتقي في الحياة الأخرى. كنت أعرف منذ بعض الوقت أن أيام رودريغو صارت معدودة، على الرغم من أنه بذل المستحيل لإخفاء ذلك. لم أسمعه يشكو يوماً، كان يتحمل وهو يضغط على أسنانه، وكان العرق البارد على جبهته هو ما يشي بآلامه. انطلق إلى الجنوب محموماً، شاحباً، مع دمل متقيح في إحدى ساقيه لم تتمكن كل أدويتي وصلواتي أن تشفيه؛ كان ذاهباً لإنجاز رغبته في الموت كجندي في أوار المعركة، لا كعجوز بين ملاءات فراشه. وكنت أرغب في أن أكون معه هناك لأسند رأسه في اللحظة الأخيرة، وأشكره على الحب الذي أسبغه عليّ على امتداد عمرينا المديدين. «انظري يا إنيس - قال لي

وهـو يشـير إلى حقولنـا التي تمتـد حتـى سـفوح سلسـلة الجبـال ـ. هـذه الأمـلاك كلها، وأرواح مئات الهنود، وضعها الرب تحت وصايتنا. ومثلما هـو واجبي مقاتلة المتوحشين في أراوكانيا، فإن واجبكِ حماية مُلكياتنا ومن هم تحت وصايتنا».

السبب الحقيقي لذهابه وحيداً هـو عـدم رغبته فـي جعلـي أرى مشـهد مرضـه الكئيـب، وتفضيله أن يكـون محاطـاً بالفرسـان، وأن يكـون علـى رأس شجعانه، يقاتل فـي المنطقة المقدسة إلى الجنوب من نهر بيو_بيو، حيث استعدت الجيوش المابوتشية المعادية الضارية. إنه ضمن حقه كقائد، لهذا تقبلت أوامره كما لو أنني الزوجة الوديعة المنقادة التي لم أكنها قط. حملوه إلى ميدان المعركة على أرجوحة نوم، وهناك قيده زوج ابنتـه، مـارتين رويـث دي غـامبوا، إلى الحصـان، مثلمـا فعلـوا بالسـيد الكمبيـدور، كـي يخيـف العدو بوجوده فقـط. انـدفع علـى رأس رجالـه كمـن بـه مـس، متحديـاً الخطـر واسمي على شفتيه، لكنه لم يجد الموت المنشود. أعادوه إلـيّ، مـريضـاً جـداً، على محمل مرتجل. كان سُمُّ الدمل قد انتشر فـي جسـده. ولـو أنـه رجل آخـر لناء بآلام الداء وتعب الحـرب، لكـن رودريغـو كـان قويـاً. «لقد أحببتُكِ منـذ أول لحظـة رأيتـكُ فـيها، وسـأحبك إلى أبـد الآبدين يـا إنيس»، قـال لـي فـي احتضـاره، وأضـاف أنـه يرغـب فـي أن يُـدفن دون ضـجة، وأن يقـام ثلاثـون قداسـاً لراحة نفسه. رأيتُ الموتَ يترصد، كـان غائمـاً بعض الشـيء، مثلمـا أرى الحـروف علـى هـذه الورقـة، لكنـه كـان مؤكـداً. عندئـذ اسـتدعيتُكِ يـا إيزابيـل، كـي تسـاعديني فـي إلباسـه، لأن رودريغـو شـديد الكبريـاء، لا يكشـف آثـار المـرض أمـام الخادمـات. ولم يكـن يسـمح لأحـد سـواكِ، أنـتِ ابنته، ولي أنا، بإلباسـه دروعـه الكاملة وجزمتـه الجلدية المجعدة. بعـد ذلـك أجلسناه علـى أريكتـه المفضلة، وخوذتـه وسيفه فوق ركبتيـه، كـي يتلقـى أسـرار الكنيسة ويمضي بكامل وقاره، مثلما عاش حياته. شبح الموت كـان ينتظـر علـى مقربـة منـه، متربصـاً برصـانة إلى أن ننتهـي مـن تهيئتـه، وعنـدما انتيهنا أحاطه الموتُ بذراعيه الأموميتين، وأومـأ لـي كـي أقترب وأتلقـى زفـرة

زوجي الأخيرة. انحنيتُ فوقه وقبّلت فمه، قبلة عاشقة. لقد مات في هذا البيت، بين ذراعيّ، في عصر يوم صيفي حار.

لم أستطع الوفاء بوصية رودريغو بأن يجري وداعه دون صخب، لأنه كان أكثر الرجال حظوة بالمحبة والاحترام في تشيلي. مدينة سنتياغو خرجت عن بكرة أبيها تبكيه، وجاء من مدن المملكة الأخرى ما لا حصر له من مواكب الحزن والأسى. قبل سنوات من ذلك، كان الأهالي قد خرجوا إلى الشوارع للاحتفال بالزهور وإطلاق نيران البنادق بعد تعيينه حاكماً. دفناه، بما يستحقه من تكريم، في كنيسة سيدتنا عذارء الرحمة التي أمرنا، أنا وهو، ببنائها لمجد العذراء المقدسة. أوصيت بأموال كثيرة لرهبان أخوية الإحسان كي يخصوه بقداس أسبوعي طيلة ثلاثمئة سنة من أجل راحة نفس زوجي، السيد النبيل دون رودريغو دي كيروغا، جندي إسبانيا الباسل، القائد المتقدم، والفاتح، وحاكم مملكة تشيلي مرتين، والفارس في أخوية فرسان القديس سنتياغو. وقد بدت هذه الشهور من دونه أبدية.

يجب ألا أستبق الأمور؛ لأنني إذا ما رويت وقائع حياتي دون صرامة وانسجام، فسوف أضيع في الطريق؛ لا بد لرواية الأخبار من أن تتوالى بالتسلسل الطبيعي للأحداث، حتى لو كانت الذاكرة ركاماً مختلطاً بلا منطق. إنني أكتب ليلاً، جالسة إلى منضدة عمل رودريغو، ومتدثرة بعباءته التي من فرو الألبكة. ويحرس الحجرة بلتسار، الحفيد الثاني للكلب الذي جاء معي إلى تشيلي ورافقني طوال أربعة عشر عاماً. أما ذلك البلتسار الأول، فمات عام 1553، السنة نفسها التي قتلوا فيها بالديبيا، لكنه خلّف لي نسله، وكلهم كلاب ضخمة، بقوائم لا رشاقة فيها ووبر قاس. هذا البيت بارد بالرغم من السجاجيد، والستائر، والمخامل المعلقة ومجامر التدفئة التي يبقيها الخدم ممتلئة بالفحم المشتعل. كثيراً ما تتذمرين يا إيزابيل لأن التنفس غير ممكن هنا من شدة الحر؛ لابد أن البرودة ليست في الهواء وإنما هي في داخلي. أستطيع أن أُدوّن ذكرياتي وأفكاري بحبر وورق بفضل

الكاهن غونثالث دي مارموليخو الذي وجد متسعاً من الوقت ليعلمني القراءة، وسط عمله في تنصير المتوحشين ومواساة المسيحيين. كان آنذاك مجرد كاهن عادي، لكنه توصل إلى أن يكون أول مطران لتشيلي، وأغنى رجل في هذه المملكة، مثلما سأروي لاحقاً. ومات دون أن يحمل معه شيئاً إلى القبر، لكنه خلّف أثراً بأعماله الصالحة التي منحته محبة الناس. فالمرء لا يملك، في نهاية المطاف، إلا ما قدمه، مثلما كان يقول رودريغو، أوسع الرجال كرماً.

فلنبدأ من البداية، من ذكرياتي الأولى. لقد ولدتُ في بلاسينثيا، في شمالي إستريمادورا، مدينة إسبانية حدودية، محاربة ومتدينة. بيت جدي الذي ترعرعت فيه، يبعد رمية حجر عن الكاتدرائية المسماة تحبباً بالقديمة، مع أن بناءها يرجع إلى القرن الرابع عشر فقط. ترعرعتُ في ظل برجها الغريب المغطى بأحجار منحوتة. لم أعد إلى رؤية السور العريض الذي يحمي المدينة، ولا ميدان الساحة الكبرى، ولا شوارعها الكالحة، ولا قصورها الحجرية وردهاتها المقنطرة، ولا بيت جدي الصغير، حيث مازال يعيش أحفاد أختي الكبرى. كان جدي، الحرفي في نجارة الأثاث، ينتمي إلى *أخوية الصليب الحقيقي* - وهذا شرف أسمى بكثير من وضعه الاجتماعي - ومقرها في أقدم دير في المدينة. هذه الأخوية تتقدم المواكب الدينية في الأسبوع المقدس. وكان جدي يرتدي غفارة بنفسجية مع حزام أصفر وقفازين أبيضين، وكان واحداً ممن يحملون الصليب المقدس. وكانت هناك بقع دم على عباءته، دم من الجلد بالسياط الذي يطبقه على نفسه كي يشاطر المسيح آلامه في طريقه إلى الجلجلة. في الأسبوع المقدس كانت كوى أبواب البيوت تُغلق لإبعاد ضوء الشمس، ويصوم الناس ويتبادلون الكلام همساً؛ وتُختزل الحياة إلى صلوات، وزفرات، واعترافات، وتضحيات. في يوم جمعةٍ حزينةٍ استيقظت أختي أسونثيون، وكان عمرها آنذاك إحدى عشرة سنة، وعليها ندوب جراح المسيح، قروح رهيبة مفتوحة في راحتيّ يديها،

وعيناها بيضاوان مقلوبتان نحو السماء. أعادتها أمي إلى الدنيا بصفعتين، وعالجتها بنسيج عنكبوت في يديها ونظام حمية صارم من مغلي البابونج. ظلت أسونثيون محبوسة في البيت إلى أن التأمت الجراح، ومنعتنا أمي من ذكر الواقعة لأنها لا تريد أن يأخذوا ابنتها من كنيسة إلى كنيسة كأنها ظاهرة سوق شعبي عجيبة. ولم تكن أسونثيون هي الفتاة الوحيدة ذات القروح في المنطقة، ففي كل سنة، في الأسبوع المقدس، تتعرض طفلة ما لشيء مماثل، كأن ترتفع طافية فوق سطح الأرض، أو تتضح بأريج ورد، أو تظهر لها أجنحة؛ فتتحول في الحال إلى هدف لحماسة المؤمنين. وحسب ما أتذكر، انتهى المطاف بهن جميعهن بالتحول إلى راهبات في أحد الأديرة، باستثناء أسونثيون التي شفيت من المعجزة دون عقابيل، بفضل احتياطات أمي وصمت الأسرة. وقد تزوجت وأنجبت أبناء عديدين، منهم ابنة أختي كونستانثا، التي ستظهر في ما بعد في هذه القصة.

إنني أتذكر المواكب الدينية لأني تعرفتُ في أحدها على خوان، الرجل الذي قُدر له أن يكون زوجي الأول. كان ذلك في العام 1526، سنة زواج إمبراطورنا كارلوس الخامس من ابنة خالته الجميلة إيزابيل البرتغالية، والتي سيحبها مدى الحياة، وهي السنة نفسها التي توغل فيها سليمان العظيم (القانوني) مع قواته التركية حتى وسط أوروبا، مهدداً ديار المسيحية. الإشاعات عن قسوة المسلمين أرعبت الناس، وصار يُخيَّل لنا أننا نرى تلك الشراذم الشيطانية حول أسوار بلاسينثيا. في تلك السنة، وصلت الحميّة الدينية، يحفزها الخوف، إلى حدود الجنون. كنتُ أمضي في الموكب دائخة من الصيام ودخان الشموع، من رائحة الدم والبخور، وجلبة تراتيل وتأوهات من يجلدون أنفسهم بالسياط، أمشي كالنائمة وراء أسرتي. ووسط حشد المقنعين والتائبين لمحتُ خوان فوراً. كان من المستحيل عدم رؤيته، لأن طول قامته كان يزيد شبراً عن الآخرين، ورأسه يبرز فوق الجموع. كان له ظهر محارب، وشعر أجعد وقاتم، وأنف روماني وعينا هرّ ردتا على نظرتي

بفضول. «من هو هذا؟»، قلتُ لأمي وأنا أشير إليه، لكنّ الردّ الذي تلقيته كان ضربة مرفق والأمر القاطع بغض بصري. لم يكن لي خطيب لأن جدي قرر أن أظل عازبة كي أقوم على رعايته في سنواته الأخيرة، تكفيراً عن ولادتي بدل الحفيد الذكر الذي كان يرغب فيه. ولم تكن لديه الموارد لتزويج حفيدتين ودفع دوطتهما، وقرر أن لدى أختي أسونثيون فرصاً أكبر مني للزواج، لأنها ممتلئة وذات جمال شاحب يفضله الرجال، كما أنها مطيعة بانصياع؛ أما أنا بالمقابل، فمجرد عظم وعضل، وعنيدة فوق ذلك مثل بغلة. لقد جئت مثل أمي وجدتي المتوفاة اللتين لم تكونا مثالاً في العذوبة. وكان يقال آنذاك إن أفضل صفاتي المميزة هما عيناي القاتمتين وشعر المهرة الذي لي، وهذا ما يمكن أن يقال عن نصف فتيات إسبانيا. لكنني كنت، والحق يقال، ماهرة اليدين، فليس هناك في مدينة بلاسينثيا وما حولها من تتقن الخياطة والتطريز أفضل مني. وبهذه المهنة كنتُ أساهم، منذ الثامنة من عمري، في نفقات الأسرة، وأدّخر للدوطة التي لا يريد جدي أن يقدمها لي. كنت مصممة على الحصول على زوج، لأني أفضل مصير الصراع مع أبناء على المصير الذي ينتظرني مع جدي الخرف. في ذلك اليوم من الأسبوع المقدس، ودون أن أنصاع لما طلبته أمي، دفعتُ طرحتي إلى الوراء وابتسمت للرجل المجهول. هكذا بدأت غرامياتي مع خوان، المتحدر من مدينة مالغا. عارض جدي ذلك في أول الأمر، وتحولت الحياة في بيتنا إلى مستشفى مجانين؛ تتطاير فيه الشتائم والأطباق. وأدى صفق الأبواب بقوة إلى إحداث شرخ في أحد الجدران، ولولا أمي التي كانت تفصل بيننا، لكنا أنا وجدي قضينا أحدنا على الآخر. لقد ضايقته إلى حدّ اضطره التعب في نهاية المطاف إلى التنازل والموافقة. لستُ أدري ما الذي رآه خوان فيّ، ولكن ليس مهماً، فما جرى هو أننا اتفقنا، بعد قليل من تعارفنا، على الزواج بعد سنة، وهو الوقت اللازم كي يجد عملاً، وكي أتمكن أنا من جمع دوطتي الهزيلة.

كان خوان واحداً من أولئك الرجال الوسيمين والمرحين الذين لا يمكن

لأي امـرأة مقـاومتهم فـي البـدء، ولكنهـا تتمنـى بعـد ذلـك لـو تـكـون أخـرى غيرها قد أخذته، لأنهم يتسببون في الكثير من المعاناة. لا يـزعج نفسـه فـي أن يكون مغوياً، مثلما لا يزعج نفسه في أي شيء آخـر، إذ يكفـي حضـوره الذكوري المتأنق لاستثارة النسـاء. منـذ الرابعـة عشـرة مـن عمـره، السـن التي بدأ فيها باستغلال مفاتنه، عاش على نفقتهن. وكان يقول ضاحكاً إنه لم يعد يعـرف عـدد الرجـال الـذين ركّبت لهـم نسـاؤهم قرونـاً بسببه، ولا عـدد المناسبات التي هرب فيها متملصاً من زوج غيور. «لكن هذا كلـه انتهـى الآن وأنا معك يا حياتي»، كان يضيف ليطمئنني، بينما هو ينظر بطرف عينه إلى أختي. وكانت وسامته ولطفه يكسبانه تقدير الرجـال أيضـاً. كـان شـريباً ومقامراً بارعاً، ويحفظ قائمة لانهائية من الحكايات الجريئة، ولديه خطـط خارقة لكسب المال السهل. سرعان مـا أدركـت أن ذهنـه موجـه نحـو الأفـق وإلى الغد، وأنه غير راض على الدوام. ومثل كثيرين غيره فـي ذلـك الزمـان، كـان يتغـذى علـى القصـص الخياليـة عـن العـالم الجديـد، حيـث الكنـوز الكبرى والتشـريفات فـي متنـاول يـد الشـجعان المستعدين للمجازفـة. وكـان يرى أنه مرصود لمآثر عظيمة، مثل كريستوف كولـومبس الـذي انـدفع إلى البحـر بشـجاعة هـي رأسمالـه الوحيـد، ووجـد نفسـه فـي النصـف الآخـر مـن العالم، أو مثل هيرنان كورتيس الذي حصل على المكسيك، أثمـن درة فـي الإمبراطورية الإسبانية.

- يقولون إنه تم اكتشاف كل شيء في ذلك الجانب من العالم - كنت أتعلل علني أثنيه عن أفكاره.

- كم أنت جاهلة يا امرأة! مازالت هناك مناطق لغزوهـا أكثـر مـن تلـك التي فُتحت. من بنمـا وإلى الجنوب لا تـزال هنـاك أراضٍ بكـر، تضـم ثـروات أضخم من ثروات سليمان.

كانت مشاريعه ترعبني لأنهـا تعنـي أن ينفصـل أحدنـا عـن الآخـر. أضـف إلى ذلك أنني سمعتُ من جدي الذي عرف ذلك أيضاً مـن أحاديـث سمعهـا فـي

الحانات، بأن أزتيك المكسيك يقدمون قرابين بشرية. تتشكل صفوف تمتد لفرسخ، آلاف وآلاف من الأسرى عاثري الحظ ينتظرون دورهم لارتقاء أدراج المعابد، حيث الكهنة ـ أولئك الفزاعات مشعثة الشعر، تغطيهم طبقة من الدم المتيبس، ويقطرون دماً طازجاً ـ ينتزعون قلوب الأسرى بمدى من حجر السبج. وتتدحرج الأجساد على الأدراج لتتراكم في الأسفل؛ أكوام من اللحم الآخذ في التفسخ. المدينة تقبع على بحيرة من الدم، والجوارح المتخمة باللحم البشري، ثقيلة إلى حدّ تعجز معه عن الطيران. وأجسام الجرذان اللاحمة يصل إلى حجم كلاب الرعاة. لم يكن هناك إسباني يجهل تلك الوقائع، لكنها لم تكن تخيف خوان.

بينما كنت أطرز وأخيط منذ الفجر حتى منتصف الليل، وأدخر النقود كي نتزوج، كان خوان يقضي أيامه في الحانات والساحات، يغوي آنسات عفيفات وبغايا على السواء، ويسلي رواد الحانات ويحلم بالإبحار إلى بلاد الهند، الوجهة الوحيدة الممكنة لرجل له مثل إمكاناته، كما يؤكد. وكان يختفي في بعض الأحيان لأسابيع، وحتى لشهور، يرجع بعدها دون أن يقدم أي تفسير. أين كان يذهب؟ لم يقل لي أي شيء قط. ولكن، بما أنه كان يتحدث دائماً عن اجتياز البحر، فقد كان الناس يسخرون منه ويسمونني «خطيبة بلاد الهند». تحملت سلوكه الضال بصبر أكبر مما هو مطلوب، لأن الشهوة كانت تُعمي بصيرتي، وكان جسدي يتوقد كالجمر، مثلما يحدث لي دوماً في الحب. كان خوان يُضحكني، ويمتعني بأغنيات وأشعار لاذعة، ويلينني بالقبّلات. يكفيه أن يلمسني كي يحوّل بكائي إلى تنهدات، وغضبي إلى شهوة. كم هو ممتع الحب الذي يغفر كل شيء! لم انسَ عناقنا الأول، ونحن مختبئان بين شجيرات غابة. كان صيفاً، وكانت الأرض تنبض، دافئة، خصبة، عابقة برائحة الغار. خرجنا من بلاسينثيا منفصلين، كي لا نفتح المجال للأقاويل، ونزلنا الرابية مخلفين وراءنا المدينة المسورة، والتقينا عند النهر، وركضنا متماسكي الأيدي نحو الدغل، حيث

بحثنا عن مكان بعيد عن الطريق. جمع خوان أوراق شجر ليصنع لنا عشاً، خلع جبته كي أجلس عليها، ثم علمني بعد ذلك، دون تسرع، بعض طقوس المتعة. كنا قد حملنا معنا زيتوناً وخبزاً وقارورة نبيذ، سرقها من جدي وشربناها في رشفات شقاوة كلٌ من فم الآخر. قبلات، نبيذ، ضحك، والحر الذي ينبعث من الأرض، ونحن العاشقان. خلع عني بلوزتي وقميصي الداخلي، ولحس نهديّ. قال إنهما ناضجان وحلوا المذاق مثل الدراق، مع أنني كنت أرى أنهما أشبه بحبتي خوخ صلبتين. وواصل ارتيادي بلسانه حتى خيل إليّ أنني أموت تلذذاً وحباً. أتذكر أنه استلقى على ظهره فوق الأوراق وجعلني أمتطيه، عارية، مبللة بالعرق والشهوة، لأنه أراد أن أضبط أنا نفسي إيقاع رقصنا. وهكذا، شيئاً فشيئاً، وكما لو أننا نلعب، دون خوف أو ألم، وضعت حداً لبكارتي. وفي لحظة نشوة، رفعتُ عيني نحو قبة الغابة الخضراء، وفوقها سماء الصيف المتوقدة، وصرخت طويلاً بسعادة خالصة ومجردة.

كانت عاطفتي تبرد بغياب خوان، وتشتد حرارة غضبي وأصمم على إقصائه من حياتي؛ لكنه ما إن يظهر بعذر تافه وبيديه الخبيرتين كعشيق جيد، حتى أعود للخضوع. وهكذا تبدأ دورة أخرى مماثلة للسابقة: إغواء، وعود، استسلام، وسعادة الحب ومعاناة فراق جديد. انقضت السنة الأولى دون أن نحدد موعداً للزفاف، وانقضت بعدها السنة الثانية والثالثة أيضاً. وفي أثناء ذلك، كانت سمعتي قد صارت في الحضيض، لأن الناس راحوا يقولون إننا نمارس القذارات وراء الأبواب المغلقة. كان ذلك صحيحاً، ولكن لم يجد أحد دليلاً عليه قط، فقد كنا حذرين جداً. والغجرية نفسها التي تنبأت لي بعمر مديد، باعتني سرَّ النجاة من الحبَل: إدخال قطعة إسفنج مبللة بالخل. وكنت أعرف، من تعاليم أختي أسونثيون وصديقاتي، أن أفضل طريقة للسيطرة على الرجل هي في حرمانه من معاشرتي، غير أنه لم يكن بإمكان قديسة شهيدة أن تفعل ذلك مع خوان دي مالغا. كنتُ أنا من أتحين

الفرص لأنفرد به ونمارس الحب في أي مكان، وليس وراء الأبواب فقط. كان يتمتع بمهارة استثنائية، لم أجد لها مثيلاً في غيره من الرجال، في إسعادي بأي وضع وخلال دقائق قليلة. وكان يهتم بمتعتي أكثر من اهتمامه بمتعته. حفظ عن ظهر قلب خريطة جسدي، وعلمني كيف أستمتع وحدي. وكان يكرر لي: «انظري كم أنتِ جميلة يا امرأة». لم أكن أشاطره رأيه المتملق، لكنني كنت فخورة بأنني أستثير شهوة أشد الرجال وسامة في إقليم استريمادورا. ولو أن جدي عرف أننا نفعل مثل الأرانب حتى في أركان الكنيسة المظلمة، لكان قتلنا معاً؛ فقد كان بالغ التشدد في ما يتعلق بشرفه. وهذا الشرف يعتمد إلى حدّ كبير على فضيلة نساء الأسرة، ولهذا، عندما بلغت أولى إشاعات الناس أذنيه كثيفتي الشعر، امتلأ بالغضب المقدس وهددني بإرسالي إلى الجحيم ضرباً بالهراوة. «لطخة الشرف لا يغسلها إلا الدم»، قال لي. اعترضت أمي سبيله ويداها على خاصرتيها، بنظرتها تلك القادرة على وقف ثور وهو في أوج اندفاعه، لتريه أن لدي أفضل الاستعدادات للزواج، وما ينقصني هو إقناع خوان بذلك. عندئذ استعان جدي بأصدقائه في أخوية الصليب الحقيقي، وهم رجال متنفذون في بلاسينثيا، من أجل ليّ ذراع خطيبي المتردد، والذي صار يكثر من التوسل للإسراع في الزواج.

تزوجنا في يوم ثلاثاء مشرق من شهر أيلول (سبتمبر)، وهو يوم السوق في الساحة الكبرى، عندما كان شذى الأزهار، والثمار، والخضار الطازجة يعبق في المدينة. وبعد حفلة الزفاف، أخذني خوان إلى مالفا، حيث أقمنا في غرفة مستأجرة، لها نوافذ تطل على الشارع، حاولتُ تجميلها بستائر من عيدان رفيعة متشابكة، وأثاث صنعه جدي في مشغله. تسنم خوان موقعه كزوج دون أي أملاك سوى طموحه الخيالي، ولكن بحماسة فحل، بالرغم من أن كلاً منا كان يعرف الآخر مثل زوجين قديمين. ففي بعض الأيام كانت تطير الساعات ونحن نمارس الحب دون أن نجد الوقت لارتداء ملابسنا، بل إننا كنا نأكل في الفراش. وعلى الرغم من تجاوزات

العاطفة، سرعان ما لاحظتُ أن هذا الزواج، من وجهة النظر المصلحية، كان خطأ. لم يفاجئني خوان في أي شيء، إذ كان قد أظهر لي طبعه الحقيقي خلال السنوات السابقة، لكن رؤية نقائصه عن بعد كأن شيئاً مختلفاً عن التعايش معها. الفضائل الوحيدة التي أتذكرها من زوجي هي غريزته في منحي المتعة في الفراش ومظهره الذي هو أشبه بمصارع ثيران لا أكلُّ من الإعجاب به.

- هذا الرجل لا نفع فيه - حذرتني أمي ذات يوم جاءت فيه لزيارتي.

- إذا كان سيمنحني أبناء، فلا يهمني أي شيء آخر.

- ومن سيعيل الصغار؟ - ألحت هي.

فرددتُ متحدية:

- أنا نفسي. فلهذا لدي خيط وإبرة.

كنتُ معتادة على العمل من شروق الشمس حتى مغيبها، ولم يكن ينقصني زبائن لخياطتي وتطريزي. وكنت، فضلاً عن ذلك، أصنع فطائر مائدة، محشوة باللحم والبصل، وأخبزها في مخابز الطواحين العامة، وأبيعها عند الفجر في الساحة الكبرى. ولكثرة التجريب، توصلت إلى نسب دقيقة من الدهن والدقيق للحصول على عجينة متماسكة، لدنة، ورقيقة. اكتسبت فطائري شعبية واسعة؛ وبعد وقت قصير، صرت أكسب من صنعها أكثر مما أكسبه من الخياطة.

أهدت إليّ أمي تمثالاً منحوتاً من الخشب لسيدتنا عذراء النجاة، صاحبة المعجزات الكثيرة، كي تبارك بطني، ولكن العذراء كانت مشغولة دون شك بشؤون أكثر أهمية، لأنها تجاهلت توسلاتي. منذ حوالي سنتين لم أعد أستخدم قطعة الإسفنج المبللة بالخل، ولكن لا شيء عن الأبناء. العاطفة التي كنت أتبادلها وخوان أخذت تتحول إلى استياء لكلينا. وكلما كنتُ أطالبه بالمزيد وأقلل من التسامح معه، كان يبتعد عني أكثر. وأخيراً لم أعد أكلمه تقريباً، أما هو فيكلمني صارخاً فقط، لكنه لم

يكن يتجرأ على ضربي، لأنه في المرة الوحيدة التي رفع فيها قبضته، ضربته بمقلاة حديدية على رأسه، مثلما فعلت جدتي بجدي، ومن بعدها أمي بأبي. ويقال إن أبي غادرنا بسبب ضربة المقلاة تلك، ولم نره بعدها قط. لقد كانت أسرتي مختلفة في هذا الشأن على الأقل: الرجال لا يضربون النساء، وإنما الأبناء فقط. الضربة التي وجهتها إلى خوان كانت خفيفة أشبه بمداعبة، لكن حديد المقلاة كان ساخناً وخلّف ندبة في جبهته. ذلك الحرق التافه كان مأساة بالنسبة لرجل مثله مزهو بوسامته، غير أنه أجبره على أن يحترمني: لقد وضعت ضربة المقلاة حداً لتهديداته، لكنني أعترف بأنها لم تسهم في تحسين علاقتنا؛ فكلما كان يلمس ندبة الحرق، يطل من حدقتيه وميض إجرامي. لقد عاقبني بحرماني من المتعة التي كان يقدمها إلي قبل ذلك بسخاء. تبدلت حياتي، وصارت الأسابيع والشهور تتجرجر متثاقلة مثل حكم بالأشغال الشاقة في التجديف في السفن، مجرد عمل ولا شيء غير العمل؛ مغمومة على الدوام لكوني عاقر وفقيرة. تحولت نزوات زوجي وديونه إلى مسؤولية ثقيلة أتولاها لتفادي عار مواجهة دائنيه. وذهبت إلى غير رجعة ليالينا الطويلة في تبادل القبلات، وصباحات التكاسل في الفراش؛ وتباعدت مضاجعاتنا وصارت قصيرة وفظة، أشبه بالاغتصاب. وقد تحملتها فقط لمجرد الأمل بالحصول على ابن. الآن، عندما صار بإمكاني تأمل حياتي كلها من سكينة الشيخوخة، أدرك أن مباركة العذراء الحقيقية لي هي في حرماني من الأمومة، لتتيح لي بذلك قدراً استثنائياً. فبوجود أبناء كنت سأظل مقيدة، مثلما هنّ النساء دائماً؛ وبوجود أبناء كنت سأظل أخيط وأصنع الفطائر بعد أن هجرني خوان دي مالغا؛ وبوجود أبناء ما كان يمكن لي أن أفتح مملكة تشيلي هذه.

واصل زوجي التزين مثل غندور متأنق والإنفاق كنبيل، واثقاً من أنني سأجترح المستحيل كي أسدد ديونه. كان يشرب كثيراً ويتردد على شارع البغايا، حيث اعتاد الضياع هناك لعدة أيام، إلى أن ادفع لبعض الخدم كي

يذهبوا للبحث عنه. فكانوا يأتونني به مغطى بالقمل ومجللاً بالعار؛ وكنت أنظفه من القمل وأغذي عاره. لم أعد أنظر بإعجاب إلى صدره وإلى بروفيله الذي كتمثال، وبدأت أحسد أختي أسونثيون المتزوجة من رجل له هيئة خنزير بري، لكنه شغيل وأب طيب لأبنائه. كان خوان يضجر، وأنا أيأس، ولهذا لم أحاول منعه عندما صمم أخيراً على الذهاب إلى بلاد الهند بحثاً عن الدورادو، المدينة المشيدة من الذهب الخالص، حيث الأطفال يلعبون بالياقوت والزمرد. بعد بضعة أسابيع غادر دون وداع، بين منتصف الليل وقداس الفجر، حاملاً معه حزمة ملابس ومدخراتي الأخيرة التي أخرجها من المخبأ وراء الموقد.

لقد تمكن خوان من أن ينقل إليّ عدوى أحلامه، بالرغم من أنني لم أصادف قط أي مغامر يعود من بلاد الهند ثرياً؛ فهم يرجعون، على العكس من ذلك، بائسين، ومرضى، ومجانين. ومن يجمعون منهم ثروة، يفقدونها، ومن يملكون مزارع فسيحة كالتي يقال إن هناك الكثير منها، لا يستطيعون إحضارها معهم. ومع ذلك، فإن هذه الأسباب وغيرها تتبخر حيال جاذبية العالم الجديد. ألا تمرّ من شوارع مدريد عربات محملة بسبائك الذهب الآتي من بلاد الهند؟ أنا لا أؤمن، مثل خوان، بوجود مدينة من الذهب، ومياه مسحورة تمنح الشباب الأبدي، وأمازونيات يستمتعن بالرجال ثم يُطلِقنهم محملين بالجواهر، لكن الشكوك تراودني بأن هناك ما هو أثمن من كل هذا: الحرية. فكل شخص في بلاد الهند هو سيد نفسه، لا يتوجب الانحناء أمام أحد، ويمكن للمرء اقتراف أخطاء ثم العودة للبدء من جديد، وأن يكون شخصاً آخر، ويعيش حياة أخرى. لا أحد هناك يحمل العار لزمن طويل، وحتى أشد الناس مهانة يمكنه أن يرتقي بنفسه. «لا شيء فوق رأسي سوى قبعتي ذات الريش»، هذا ما كان يقوله خوان. كيف يمكن تأنيب زوجي على هذه المغامرة التي ما كنت لأمتنع أنا نفسي، لو أنني رجل، عن خوض غمارها؟

بعد ذهاب خوان، رجعتُ إلى بلاسينثيا، لأعيش مع أسرة أختي وأمي، لأن جدي كان قد توفي في تلك الأثناء. لقد تحولتُ إلى واحدة أخرى من «أرامل بلاد الهند»، مثل نساء كثيرات في إستريمادورا. وكما هي العادة، كان عليّ أن أرتدي ثياب الحداد مع حجاب سميك على وجهي، والتخلي عن الحياة الاجتماعية، والخضوع لمراقبة أسرتي، وكاهن اعترفاتي، والسلطات. صلوات، عمل، ووحدة، هذا هو ما يخبئه لي المستقبل، ولا شيء أكثر. ولكنني لا أتمتع بطبع الشهداء. وإذا كانت حياة الفاتحين شاقة في بلاد الهند، فإن زوجاتهم في إسبانيا يعشن في وضع أسوأ بكثير. تدبرت اموري لأخدع أختي وصهرها، وكانا يخافانني بقدر ما يخافان أمي تقريباً، ولأنهما لا يريدان المواجهة معي، فقد امتنعا عن التدخل في حياتي الخاصة. كانا يكتفيان بألا أقدم على اقتراف فضيحة مشينة. واصلت تلبية طلبات زبائني في الخياطة، والذهاب لبيع فطائري في الميدان الكبير، بل كنت أمتع نفسي بحضور الاحتفالات الشعبية. وكنت أذهب إلى المستشفى لمساعدة الراهبات في رعاية المرضى وضحايا الطاعون وطعنات المُدى، لأن مهنة العلاج اجتذبت اهتمامي منذ الصغر، ولم أكن أدري أنها ستكون في ما بعد مهنة لابد منها في حياتي، مثلما هي موهبتي في الطبخ وفي العثور على الماء. فمثل أمي، ولدتُ بموهبة القدرة على تحديد أماكن وجود المياه الجوفية. وكثيراً ما يكون عليها وعليّ مرافقة فلاح ـ أو سيد في بعض الأحيان ـ إلى الريف لنحدد له أين يحفر بئراً. الأمر سهل جداً، أمسكُ بيدي قضيباً من شجرة سليمة، وأمشي ببطء على أرض العقار، إلى أن ينحني القضيب عند الشعور بوجود الماء. وهناك يتوجب عليهم الحفر. الناس يقولون إنه يمكن لي ولأمي أن نثري من هذه الموهبة، لأن بئراً في إستريمادورا هو كنز حقيقي، لكننا كنا نفعل ذلك مجاناً على الدوام؛ فالموهبة تُفقد إذا ما تقاضينا أجراً مقابل هذه الخدمة. سيأتي يوم تفيدني فيه هذه الموهبة في إنقاذ جيش كامل.

لم أتلقَ طيلة سنوات عديدة سوى أخبار قليلة جداً من زوجي، باستثناء ثلاث رسائل قصيرة آتية من فنزويلا قرأها لي كاهن الكنيسة وساعدني في الرد عليها. يقول خوان فيها إنه يعمل كثيراً وسط مخاطر شديدة، فهناك ينتهي المطاف بأشد الرجال فساداً، ويكون عليهم أن يتجولوا دوماً وأسلحتهم جاهزة، يترصدون من فوق أكتافهم. ويوجد هناك كثير من الذهب، لكنه لم يرَ شيئاً منه بعد، وسوف يعود ثرياً ليشيد لي قصراً ويمنحني حياة دوقة. وفي أثناء ذلك كانت أيامي تمضي بطيئة، مضجرة وبائسة جداً، لأنني لا أنفق إلا ما يقيم أودي، وما يزيد عن ذلك أخبئه في حفرة في الأرض. ودون أن أخبر أحداً، كي لا أستثير الأقاويل، كنت أنوي اللحاق بخوان في مغامرته، وليكلفني ذلك ما سيكلفني، ليس بدافع الحب، لأنه لم يعد موجوداً، وليس بدافع الوفاء، لأنه لا يستحقه، وإنما سعياً وراء الحرية. فهناك، حيث لا يعرفني أحد، يمكن لي أن أقود نفسي بنفسي.

محرقة جزع تحرق جسدي. لياليَّ جحيم، أتقلب في الفراش مستذكرة المعانقات السعيدة مع خوان، في الزمن الذي كنا فيه متحابين. أعاني الحر حتى في أوج الشتاء، أعيش غاضبة من نفسي ومن العالم لأني ولدت امرأة، ولأني محكومة بسجن العادات. كنت أشرب مغلي الخشخاش، عملاً بنصيحة راهبات المستشفى، لكنه لم يؤثر بي. أحاول الصلاة، مثلما يطلب مني الكاهن، لكنني كنت أعجز عن إنهاء «أبانا الذي في السماء» دون أن أشرد في أفكار مُهَيِّجة، لأن الشيطان الذي يُعَقِّد كل شيء كان يهيجني. «إنكِ بحاجة إلى رجل يا إنيس. يمكن عمل كل شيء بتكتم»، قالت لي أمي، العملية دوماً، وهي تتنهد. وكان تحقيق ذلك بالغ السهولة لامرأة في مثل وضعي؛ حتى إن متلقي اعترافاتي، وهو كاهن شبق وكريه الرائحة، راودني على الخطيئة معه في حجرية الاعتراف المغبرة، مقابل مغفرة تقصّر من فترة عقوبتي في المطهر. لكنني لم أقبل قط؛ فقد كان

عجوزاً ملعوناً. ولو أنني أردت رجالاً، لما افتقدتهم؛ وقد نلتُ بعضهم أحياناً، عندما كان منخس الشيطان يعذبني كثيراً، لكنها كانت مضاجعات بدافع الحاجة، وبلا مستقبل. لقد كنت مقيدة إلى شبح خوان، وفريسة الوحدة. لم أكن أرملة حقاً، فأنا لا أستطيع الزواج ثانية، ودوري هو الانتظار، الانتظار وحسب. أليس من الأفضل مواجهة أخطار البحر والأراضي الهمجية قبل أن أشيخ وأموت دون أن أكون قد عشت.

وأخيراً حصلتُ على الإذن الملكي بالإبحار إلى بلاد الهند، بعد مساعٍ استغرقت سنوات. فالتاج يحمي الروابط الزوجية، ويسعى إلى جمع شمل الأسر من أجل إعمار العالم الجديد بأزواج شرعيين ومسيحيين، لكنه لا يعجل قراراته؛ فكل شيء بطيء ومتأخر في إسبانيا، مثلما نعرف جميعنا جيداً. فهم لا يمنحون الإذن إلا لنساء متزوجات للالتحاق بأزواجهن، شريطة أن يكنَّ برفقة فرد من الأسرة أو شخص محط احترام. وفي حالتي، كانت مرافقتي هي كونستانثا ذات الخمسة عشر عاماً، ابنة أختي أسونثيون. وهي فتاة خجولة، ذات ميول دينية، وقد اخترتها لأنها أكثر أفراد الأسرة تمتعاً بالصحة. لأن الضعفاء لا نفع منهم في العالم الجديد. لم نسألها رأيها، لكنني أعتقد أن سبب ما أصابها من عصبية هو أن الرحلة لم ترق لها. سلّمني إياها أبواها بوعد مكتوب ومختوم أمام كاتب بالعدل، بأن أعيدها إلى إسبانيا فور التقائي بزوجي، وأن أزودها بنفقة لتدخل إلى الدير، وهو وعد لم أستطع إنجازه، ليس لعدم نزاهة من جانبي، وإنما بسببها هي نفسها كما سنرى في ما بعد. ومن أجل الحصول على أوراقي، كان لابد من شاهدين يصدّقان على أنني لستُ من الأشخاص الممنوعين، ولست مسلمة أو يهودية، وإنما مسيحية قديمة. هددت الكاهن بالوشاية بشهواته أمام المحكمة الكنسية، وبهذا انتزعتُ منه شهادة مختومة عن نوعيتي الأخلاقية. وبما لدي من مدخرات، اشتريت ما أحتاج إليه لعبور المحيط، وهي قائمة طويلة من الأشياء التي لا أستطيع تفصيلها هنا، لكنني أتذكرها

كلها. ويكفي أن أقول إنني حملت معي مأكولات تكفي ثلاثة أشهر، بما في ذلك قفص دجاج، إضافة إلى ملابس وأثاث منزل من أجل الاستقرار في بلاد الهند.

❖ ❖ ❖

ترعرع بيدرو دي بالديبيا في منزل كبير مبني من الحجر في كاستويرا، عقار نبلاء ريف أصابهم الفقر، على بعد مسيرة ثلاثة أيام تقريباً إلى الجنوب من بلاسينثيا. يؤسفني أننا لم نتعارف في شبابنا، عندما كان حامل راية مهيباً، يمرّ مروراً عابراً من المدينة، لدى رجوعه من إحدى حملاته العسكرية. ربما نكون قد مشينا في اليوم نفسه عبر شوارع المدينة الملتوية، وكان هو رجلاً مكتمل الرجولة، يتدلى سيفه على خصره ويرتدي زي فرسان الملك البديع، بينما كنتُ لا أزال صبية بجدائل حمراء، مثلما كانوا يصبغونها في ذلك الزمن، مع أنها اسودت في ما بعد. ويمكن أن نكون قد تصادفنا في الكنيسة، ويمكن ليده أن تكون قد لمست يدي عند جفنة الماء المقدس، وربما تكون نظراتنا قد التقت، دون أن يتعرف أحدنا على الآخر. ما كان بإمكان ذلك الجندي الخشن المجرب في مشقات العالم؛ ولا أنا، الصبية الخياطة، أن نتكهن بما يخبئه لنا القدر.

كان بيدرو يتحدر من أسرة عسكريين دون ثروة، لكنهم من سلالة نبيلة، مآثرهم ترجع إلى نضالهم ضد الجيش الروماني، قبل ميلاد المسيح، وتتواصل خلال سبعمئة سنة ضد المسلمين. واستمر إنجاب الأسرة لرجال أشداء شاركوا في الحروب الأزلية بين ملوك العالم المسيحي. كان أسلافه قد نزلوا من الجبال ليستقروا في إستريمادورا. وقد ترعرع وهو يسمع أمه تروي مآثر الأشقاء السبعة الذين من وادي إيبا، الأخوة بالديبيا، وخوضهم معركة ضارية ضد مسخ مرعب. وبرأي الأم المهيبة، لم يكن ذلك المخلوق تنيناً عادياً - جسد حرذون، وجناحا خفاش، ورأسا أو ثلاثة رؤوس أفعوان -،

مثل تنين القديس جورج، وإنما بهيمة أكبر عشر مرات وأشد شراسة، ولها من القِدم قرون كثيرة، تجسد شرور كل أعداء إسبانيا، ابتداء من الرومان والعرب، وحتى الأشرار الفرنسيين الذين تجرؤوا منذ عهد قريب على منازعة عاهلنا حقوقه. «تصور يا بني، يريدوننا نحن أن نتكلم الفرنسية!»، كانت السيدة تردد ذلك مرات ومرات وهي تروي القصة. وقد سقط الأخوة بالديبيا واحداً فواحداً محروقين باللهب الذي يبصقه المسخ أو ممزقين بمخالبه التي كمخالب النمر. عندما لقي ستة منهم مصرعهم وتبين أن المعركة خاسرة، قام أصغر الأخوة، وكان لا يزال منتصباً، فقطع غصن شجرة سميكاً، ونحت طرفيه بصورة مدببة ودسه بين شدقي البهيمة. بدأ التنين يتقلب من الألم، فشقت ضربات ذيله الرهيبة الأرض، وأثارت زوبعة غبار وصلت في الهواء حتى أفريقيا. عندئذ امتشق البطل سيفه بكلتا يديه، ودفنه في قلب التنين، مخلصاً بذلك إسبانيا منه. من ذلك الشاب، الشجاع بين الشجعان، يتحدر بيدرو من خيط أمومي مباشر، ويكفي دليلاً على ذلك غنيمتان اثنتان: السيف الذي مازالت الأسرة تتوارثه، وشعار السلاح الذي يظهر عليه رسم ثعبانين يعضان جذع شجرة في حقل ذهبي. وقد كان شعار الأسرة: «عدم الخوف من الموت، يمنح مزيداً من الحياة». بوجود مثل هؤلاء الأسلاف، كان من الطبيعي أن يلبي بيدرو نداء السلاح وهو في مطلع الشباب. وقد أنفقت أمه ما تبقى لديها من دوطتها في تجهيزه لهذه المهمة: رداء من الزرد ودرع كاملة، أسلحة فارس، وحامل أسلحة، وحصانين. أما سيف آل بالديبيا الأسطوري، فكان حديداً صدئاً، أثقل من هراوة، ليس له إلا قيمته التزينية والتاريخية، ولهذا اشترت له سيفاً آخر، مرناً وخفيفاً، من أفضل فولاذ طليطلي. وبهذا السيف سيحارب بيدرو ضمن جيوش إسبانيا، تحت راية كارلوس الخامس، وبه سيفتح أقصى مملكة في العالم الجديد، وسيموت ومعه هذا السيف نفسه، مكسوراً، ويقطر دماً.

الشاب بيدرو دي بالديبيا الذي ترعرع بين الكتب وفي كنف أمه، انطلق

إلى الحرب بحماسة من لم يرَ سوى مجزرة الخنازير في ساحة مسلخ، مشهد فظيع يجتذب الشعب كله. لم تدم براءته إلا لوقت قصير، مثل الراية الجديدة التي تحمل شعار أسرته، والتي تحولت إلى مزق مفتتة منذ المعركة الأولى.

كان هناك بين قوات إسبانيا نبيل باسل آخر، يدعى فرانثيسكو دي أغيرّي، سيتحول على الفور إلى أفضل صديق لبيدرو. كان فرانثيسكو متبجحاً وصاخباً بقدر ما كان بيدرو جدياً، لكن كليهما كان ينعم بسمعة الشجاعة. وقد كانت أسرة أغيرّي باسكية الأصل، لكنها استقرت في تالافيرا دي لارينا، بالقرب من طليطلة. ومنذ البدء، أبدى الشاب جرأة انتحارية؛ فكان يرمي نفسه في الخطر لأنه يؤمن بأنه محمي بصليب أمه الذهبي الذي يحمله معلقاً في عنقه. وفي السلسلة نفسها يعلق علبة صغيرة فيها خصلة شعر كستنائي، من شعر الفتاة الجميلة التي أحبها منذ طفولته حباً محرماً، ذلك أنها ابنة عمه شقيق أبيه. وقد أقسم فرانثيسكو أن يظل أعزب، مادام غير قادر على الزواج من ابنة عمه، لكن ذلك لم يمنعه من السعي لنيل خدمات أي أنثى تكون في متناول طبعه الناري المندفع. كان طويل القامة، وسيماً، له ضحكة صريحة وصوت مغني تينور صادح، صوت مناسب تماماً لبعث الحماسة في الحانات، ولمحبة النساء، حيث لا وجود لمن تستطيع مقاومته. كان بيدرو ينبهه ويطلب منه توخي الحذر، لأن الداء الفرنسي لا يرحم مسلماً أو يهودياً أو مسيحياً. لكنه كان يثق بصليب أمه، وإذا كان الصليب قد أثبت حماية مؤكدة في الحرب، فلا بد أن يكون فعالاً كذلك ضد تبعات الفجور. أغيرّي اللطيف ومغازل النساء في المجتمع، كان يتحول إلى وحش ضارٍ في ميدان المعركة، خلافاً لبالديبيا الذي يبدي الهدوء والشهامة في مواجهة أشد المخاطر. وكان الشابان يتقنان القراءة والكتابة، فقد درسا وأحرزا ثقافة أكبر من ثقافة معظم النبلاء. تلقى بيدرو تعليماً دقيقاً على يد أسقف، هو عم أمه، عاش بيدرو معه في صباه، وكان يقول بصوت خافت إنه أبوه في الحقيقة، لكنه لم يتجرأ قط على سؤاله

عن ذلك. لأن سؤاله سيكون إهانة لأمه. كان أغيرّي وبالديبيا يشتركان كذلك في أنهما جاءا إلى الدنيا في العام 1500، وهو العام نفسه الذي ولد فيه الإمبراطور كارلوس الخامس، عاهل إسبانيا، وألمانيا، والنمسا، والفلاند، وجزر الهند الغربية، وجزء من أفريقيا، وغيرها مزيد ومزيد من العالم. لم يكن الشابان يؤمنان بالشعوذات، لكنهما يفاخران بأنهما مرتبطان مع الملك تحت النجم نفسه، وأنهما مكرسان بالتالي لمآثر عسكرية مماثلة لمآثره، ويعتقدان أنه لا وجود في هذه الحياة لهدف أفضل من أن يكون المرء جندياً تحت قيادة ذلك القائد الجسور؛ كانا معجبين بقامة الملك الجبار، وبشجاعته الجامحة، وبراعته كفارس ومبارز، وعبقريته كاستراتيجي في الحرب وكرجل علم في السلم. وكان بيدرو وفرانثيسكو يحمدان حسن طالعهما في كونهما كاثوليكيين، فهذا ضمان لخلاص روحيهما، ولكونهما إسبانيين، وهذا يجعلهما فوق بقية البشر الفانين. إنهما نبيلان من إسبانيا، سيدة العالم بطوله وعرضه، وأقوى من الإمبراطورية الرومانية القديمة، خصها الرب باكتشاف واستيطان وتنصير وتأسيس وإعمار أقصى أركان الأرض. كانا في العشرين من العمر عندما انطلقا للقتال في الفلاند، وبعد ذلك في حملة إيطاليا، حيث أدركا أن القسوة في الحرب فضيلة، وأنه من الخير للمرء أن يكون مستعداً روحياً، لأن المنية رفيقة دائمة.

كان الضابطان يخدمان تحت أمرة عسكري استثنائي، مركيز بيسكارا، يمكن لمظهره شبه المخنث أن يكون خادعاً؛ فتحت درعه الذهبي وهندامه الحريري الموشى باللؤلؤ الذي يدخل به ميدان المعركة، كان يوجد عسكري يتمتع بعبقرية نادرة، مثلما أثبت ألف مرة ومرة. في العام 1524، وسط الحرب بين فرنسا وإسبانيا، في نزاعهما للسيطرة على إيطاليا، اختفى المركيز وألفان من خيرة الجنود الإسبان بصورة غريبة، ابتلعهم الضباب الشتوي. وانتشرت الإشاعة بأنهم انشقوا عن الجيش وهربوا،

وجرى تداول مقطعات غنائية ساخرة تتهمهم بالخيانة والجبن، بينما كانوا في الحقيقة مختبئين في قلعة، يستعدون بأقصى قدر من التكتم. كانوا في شهر تشرين الثاني، والبرد يجمد روح الجنود التعساء المخيّمين في الفناء. لم يدركوا لماذا يبقونهم هناك، مخدرين من البرد والجزع، بدلاً من أخذهم للقتال ضد الفرنسيين. لم يكن مركيز بيسكارا متعجلاً، فهو ينتظر اللحظة المناسبة بصبر صياد متمرس. وأخيراً، بعد أن انقضت عدة أسابيع، أعطى الإشارة لضباطه كي يستعدوا للعمل. أمر بيدرو دي بالديبيا رجال كتيبته بأن يرتدوا دروعهم فوق ملابسهم الداخلية الصوفية، وكانت مهمة شاقة، فبمجرد لمس حديد الدروع الجليدي، كانت الأصابع تلتصق به، ثم وزع عليهم ملاءات بيضاء يتغطون بها. وهكذا، كأشباح بيضاء، انطلقوا بصمت تام، طوال الليل، وكانوا يرتجفون من البرد، إلى أن وصلوا عند الفجر إلى مقربة من الحصن المعادي. أحس حراس الأبراج بحركة على الثلج، لكنهم ظنوا أنها ظلال الأشجار تحركها الريح. لم يروا الإسبان يزحفون في موجات بيضاء على الأرض البيضاء حتى اللحظة الأخيرة، عندما انقض هؤلاء مهاجمين وصعقوهم بالمفاجأة. حوّل هذا النصر الساحق مركيز بيسكارا إلى أشهر عسكري في عصره.

بعد سنة من ذلك، شارك بالديبيا وأغيرّي في معركة بافيا، المدينة الجميلة ذات المئة برج، حيث هُزم الفرنسيون أيضاً. ووقع ملك فرنسا الذي كان يقاتل بيأس، أسيراً في قبضة جندي من فرقة بيدرو دي بالديبيا، أوقعه عن حصانه دون أن يدري من يكون، وكان على وشك أن يجز عنقه، لولا تدخل بالديبيا لمنعه من ذلك في الوقت المناسب، محوّلاً بذلك مسار التاريخ. ظلّ على أرض المعركة أكثر من عشرة آلاف قتيل، وظل الهواء مترعاً بأسراب الذباب لأسابيع، والأرض بالجرذان. ويقال إن الكرنب والقرنبيط في تلك المنطقة مازالا ينموان وبين ثنايا أوراقهما شظايا عظم. أدرك بالديبيا أن سلاح الفرسان لم يكن، لأول مرة، هو العامل الحاسم في

النصر، وإنما سلاحين جديدين: البنادق، معقدة الحشو، لكنها بعيدة المدى؛ ومدافع البرونز، وهي أخف وزناً وأسهل حركة من مدافع الحديد الثقيل. وعنصر آخر حاسم هو مشاركة آلاف المرتزقة السويسريين والألمان المشهورين بقسوتهم، ومن كان بالديبيا يزدريهم، لأن الحرب في نظره، مثل كل الأشياء الأخرى، هي مسألة شرف. وقد حملته معركة بافيا إلى التأمل حول أهمية الاستراتيجية والأسلحة الحديثة: الجرأة الجنونية لرجال مثل فرانثيسكو أغيرّي ليست كافية، فالحرب هي علم يتطلب الدراسة والمنطق.



بعد معركة بافيا، رجع بيدرو دي بالديبيا إلى بيته في كاستويرس، مستنفداً وأعرج من طعنة رمح في وركه، عالجوها بزيت يغلي، لكن الجرح ظل ينفتح من جديد لدى أدنى جهد. وكان قد صار في سن الزواج، «ليخلد اسمه ويتولى مسؤولية أراضيه التي أقحلت لطول الغياب والإهمال»، مثلما كانت تردد أمه دون كلل. والأمر المثالي أن يختار عروساً تقدم دوطة محترمة، لأن هذا ما تحتاجه بشدة مزرعة آل بالديبيا المفتقرة. كان هناك عدد من مرشحات اختارت بعضهن الأسرة وأخريات اختارهن الكاهن، وجميعهن من عائلات طيبة وثرية، سيأخذ بالتعرف عليهن في أثناء النقاهة من جرحه. لكن الخطط لم تسر كما هو مأمول. فقد رأى بيدرو ذات يوم مارينا أورتيث دي غايتي في المكان الوحيد الذي يمكنه اللقاء بها أمام الملأ: عند الخروج من القداس. كانت مارينا في الثالثة عشرة من عمرها، وكانوا لا يزالون يلبسونها تنانير الطفولة المنشاة. كانت برفقة مدبرة المنزل وجارية، تحمل مظلة فوق رأسها، بالرغم من أن النهار كان غائماً. لم يكن شعاع واحد من ضوء الشمس المباشر قد لمس البشرة الشفافة لتلك لفتاة الشاحبة. كان لها وجه ملاك، وشعر أشقر مضيء، ومشية مترددة كمن تحمل الكثير من التنانير الداخلية، ومظهر شديد البراءة، نسي بيدرو معه على الفور النية في تحسين وضع مزرعته. لم يكن رجل حسابات دنيئة؛ وقد

أغواه جمال الشابة وفضيلتها على الفور. ومع أنها كانت تفتقر إلى المال، ودوطتها أقل بكثير من مزاياها، إلا أنه سرعان ما بادر إلى مغازلتها فور معرفته بأنها غير مخطوبة. وكان آل أورتيث يرغبون بدورهم في زيجة مجزية مادياً لابنتهم، لكنهم لم يستطيعوا رفض فارس ذي لقب مشهور وشجاعة مجربة مثل بيدرو دي بالديبيا، وكان شرطهم الوحيد هو أن يتم الزفاف بعد أن تكمل الفتاة الرابعة عشرة من عمرها. وفي أثناء ذلك، استسلمت مارينا لرعاية خطيبها بخوف أرنب، ولكنها تدبرت الأمر لجعله يعرف مع ذلك أنها هي أيضاً تعدّ الأيام المتبقية لزواجها. كان بيدرو في أوج فحولته، قامة متينة، وصدر قوي، وإمكانات جيدة، وتقاطيع نبيلة: أنف بارز، ذقن متسلطة وعينان زرقاوان، معبرتان جداً. وكان في ذلك الحين يمسرّح شعره إلى الخلف، مربوطاً في ذيل قصير على رقبته، مع خدين حليقين، وشارب مصمغ، ولحية ضيقة ميزته طيلة حياته. كان يلبس بتأنق، ويومئ بحركات حاسمة، ويتكلم ببطء ويفرض على الآخرين احترامه؛ لكنه قادر كذلك على أن يكون مغازلاً ورقيقاً. فكانت مارينا تتساءل بإعجاب عن السبب الذي دفع هذا الرجل شديد الكبرياء والشهامة إلى الاهتمام بها. تزوجا في السنة التالية، عندما بدأت الفتاة حيضها، واستقرا في عزبة آل بالديبيا المتواضعة.

دخلت مارينا دنيا الزواج بأطيب النوايا، لكنها كانت فتية جداً، وكان هذا الزوج ذو الطبع المتكبر والمحب للدراسة يخيفها. لم يكن لديهما ما يتكلمان فيه. كانت تتقبل، مشوشة، الكتب التي يقترحها عليها، دون أن تتجرأ على الاعتراف له بأنها تكاد لا تعرف أن تقرأ أكثر من جملتين أوليتين وتوقيع اسمها بخط مخربش. فقد عاشت محمية من مخالطة العالم، وهي ترغب في الاستمرار على تلك الحال؛ وكلام زوجها حول السياسة أو الجغرافية يرعبها. ما يهمها هو حضور القداديس وتطريز أردية قداس بديعة للكاهن. لم تكن لها خبرة في تولي مسؤوليات البيت، ولم يكن الخدم

يستجيبون للأوامر التي توجهها إليهم بصوت طفولي، مما دفع حماتها إلى مواصلة إصدار الأوامر، بينما عُوملت هي كطفلة مثلما هي في الواقع. أبدت استعدادها لتعلم مهمات البيت المزعجة، بمساعدة نساء الأسرة الكبيرات، غير أنه لم يكن هناك من تسأله عن مظاهر الحياة الزوجية الأخرى، الأكثر أهمية من إعداد الطعام أو ضبط الحسابات.

عندما كانت العلاقة مع بيدرو تتلخص في زيارات تراقبها مدبرة المنزل ورسائل لطيفة ومهذبة، كانت مارينا سعيدة؛ لكن الحماسة تبخرت حين وجدت نفسها في الفراش مع زوجها. كانت تجهل تماماً ما الذي سيحدث في ليلتها الأولى كمتزوجة؛ لم يهيئها أحد لتلك المفاجأة المؤسفة. كان هناك في صندوق جهازها عدد من قمصان النوم القطنية الرقيقة، طويلة حتى الكاحلين، ومغلقة عند العنق والمعصمين بشرائط من الساتان، مع فتحة لها شكل الصليب من الأمام. لم يخطر لها أن تسأل عن فائدة تلك الفتحة، ولم يشرح لها أحد أنه سيتم من هناك الاتصال مع أعضاء زوجها الحميمة. ولأنها لم تكن قد رأت ذكراً عارياً من قبل، فقد كانت تظن أن الفروق بين الرجال والنساء هي في شعر الوجه ونبرة الصوت. عندما أحست في الظلمة بأنفاس بيدرو، وبيديه الكبيرتين تتلمسان طيات قميص نومها بحثاً عن الفتحة المطرزة البديعة، دفعته عنها بقوة بغلة وقفزت مطلقة الولولات في ردهات البيت الحجري. وبالرغم من طيب نواياه، إلا أن بيدور لم يكن بالعاشق الحذر، فتجربته تقتصر على مضاجعات عابرة مع نساء يقدمن خدمات متفاوض عليها. لكنه سيحتاج إلى صبر كبير، فزوجته لا تزال طفلة، وجسدها بدأ التطور لتوه، وليس من الملائم إكراهها. حاول مبادرتها بالتدريج، لكن براءة مارينا التي اجتذبته في البدء، سرعان ما تحولت إلى عقبة من المستحيل تجاوزها. كانت الليالي إحباطاً له وعذاباً لها، ولم يكن أي منهما يتجرأ على الحديث في الموضوع في وضح النهار. انغمس بيدرو في دراساته وفي متابعة شؤون أراضيه وفلاحيه، بينما كان

يستنفد طاقته في المبارزة والفروسية. وفي أعماقه كان يتهيأ ويتراجع. وعندما صار نداء المغامرة لا يُقَاوَم، انضوى مجدداً تحت رايات الإمبراطور كارلوس الخامس، أملاً في تحقيق حلمه السري ببلوغ أمجاد مركيز بيسكارا العسكرية.

❖ ❖ ❖

في شهر شباط من العام 1527، كانت القوات الإسبانية تحت أمرة القائد العام دي بوربون تقف أمام أسوار روما. وكان الإسبان، تدعمهم خمس عشرة كتيبة من المرتزقة السويسريين والألمان، ينتظرون الفرصة لدخول مدينة القياصرة وإشباع نهمهم بعد شهور طويلة أمضوها دون رواتب. كانت عصبة جند جائعين وغير منضبطين، مستعدين لإفراغ كنوز روما والفاتيكان. لكنهم لم يكونوا جميعهم محتالين ومرتزقة؛ فبين جنود إسبانيا يوجد ضابطان صارمان، بيدرو دي بالديبيا وفرانثيسكو دي أغيرّي، وقد التقيا بعد سنتين من الفراق. وبعد أن تعانقا كأخوين، أطلع كل منهما الآخر على المستجدات في حياته. عرض بالديبيا على صديقة مدالية عليها رسم مارينا بريشة رسام منمنمات برتغالي، يهودي متحول إلى النصرانية استطاع خداع محاكم التفتيش. وقال:

- لم ننجب أبناء بعد، لأن مارينا مازالت فتية جداً، ولكن لدينا متسع من الوقت لذلك، إذا شاء الله.

- من الأفضل أن تقول: إذا لم يقتلونا قبل ذلك! - صاح صديقه.

واعترف فرانثيسكو بدوره أنه مازال على حبه الأفلاطوني والسري لابنة عمه التي هددت بالتحول إلى راهبة إذا ما أصر أبوها على تزويجها من رجل آخر. ورأى بالديبيا أنها ليست بالفكرة السخيفة، فكثير من النساء النبيلات يجدن أن دخول الدير مع بطانة كاملة من الخادمات، ومع أموالهن وما اعتدن عليه من رفاهية، أفضل لهن من زواج يُفرض عليهن بالإكراه.

ـ في حالة ابنة عمي سيكون ذلك هدراً مؤسفاً يا صديقي. فشابة بمثل جمالها وحيويتها المفرطة، خُلقت من أجل الحب والأمومة، يجب ألا تتكفن وهي حية في مسوح الرهبنة. غير أنك محق من جانب آخر، فأنا أُفضِّل رؤيتها وقد تحولت إلى راهبة على رؤيتها متزوجة من آخر. لا يمكنني السماح بذلك، سيكون علينا أن نضع حداً لحياتينا معاً ـ أكد فرانثيسكو بتفخيم.

ـ وتحكمان بذلك على نفسيكما بمراجل الجحيم؟ أنا واثق من أن ابنة عمك ستفضل اختيار الدير. وأنت؟ ما هي مشاريعك للمستقبل؟ ـ سأله بالديبيا.

ـ مواصلة خوض الحرب ما دمتُ قادراً على ذلك. وزيارة ابنة عمي في حجرتها كراهبة في الليل ـ وضحك فرانثيسكو وهو يلمس الصليب والعلبة الصغيرة المعلقة على صدره.

كانت تحصينات روما في حالة سيئة في زمن البابا كليمنت السابع، وهو رجل أكثر كفاءة في المكايد السياسية منه في الاستراتيجية الحربية. وما كادت القوات المعادية تقترب من جسور المدينة، وسط ضباب كثيف، حتى هرب الحبر الأعظم من الفاتيكان، عبر سرداب سريّ، إلى قلعة سان أنجلو، المدججة بالمدافع. وكان برفقته ثلاثة آلاف شخص، منهم النحات والصائغ المشهور بينفينوتو سيلليني، المعروف بموهبته البارزة كفنان بقدر ما هو معروف بطبعه الرهيب. وقد أوكل إليه البابا اتخاذ القرارات العسكرية بعد أن استنتج أنه إذا كان هو نفسه يرتجف خوفاً أمام الفنان، فلن يكون هناك ما يسوغ ألا ترتجف منه جيوش القائد العام البربوني أيضاً.

في الهجوم الأول على روما، تلقى القائد العام الإسباني طلقة بندقية قاتلة في إحدى عينيه. وقد راح بيتفينوتو سيلليني يتبجح في ما بعد بأنه هو من أطلق تلك البندقة التي قتلته، بالرغم من أنه لم يكن في الواقع قريباً من المكان؛ ولكن، من ذا الذي يتجرأ على مخالفة قوله؟ وقبل أن يتمكن القادة من فرض النظام، كانت القوات التي فقدت قائدها ولم يعد هناك من

يسيطر عليها، تندفع بالحديد والبارود نحو المدينة العزلاء، واستولت على المدينة خلال ساعات. في الأيام الثمانية الأولى، كانت المذبحة بالغة القسوة. فقد سال الدم في الشوارع، وصار يتخثر بين الأحجار العريقة. هرب أكثر من خمس وأربعين ألف نسمة، وخضع بقية الأهالي المرعوبين لهول الجحيم. أحرق الغزاة المنتصرون الكنائس والأديرة، والقصور والبيوت. وقتلوا الناس بالجملة، بمن فيهم المجانين والمرضى نزلاء الملجأ، والحيوانات الداجنة؛ وعذبوا الرجال لإجبارهم على تسليم ما يمكن لهم أن يكونوا قد خبّؤوه؛ واغتصبوا كل امرأة أو طفلة وجدوها؛ وقتلوا الجميع، من الأطفال الرضع حتى العجزة المسنين. وتواصل النهب، مثل حفلة مجون بلا نهاية، طيلة أسابيع. فكان الجنود الثملون بالدم والخمر يسحلون في الشوارع الأعمال الفنية المهشمة والآثار الدينية، ويقطعون رؤوس التماثيل والبشر على السواء، ويسرقون ما يستطيعون وضعه في أجربتهم، ويحطمون ما سوى ذلك. وقد نجت جداريات كنيسة السيستين المشهورة، لأنهم سجوا فيها جثمان القائد العام البريوني. كانت آلاف الجثث تطفو في نهر التيبر، ورائحة اللحم المتفسخ تملأ الجو بالنتانة. والكلاب والغربان تلتهم الأجساد الملقاة في كل مكان. وتلا ذلك مجيء صديقيّ الحرب الوفيين: الجوع والوباء اللذين انقضا أيضاً على أهل روما التعساء وعلى جلاديهم.

خلال تلك الأيام العصيبة، كان بيدرو دي بالديبيا يجوب أنحاء روما غاضباً والسيف في يده، يحاول دون جدوى أن يوقف النهب والقتل، وأن يفرض بعض الانضباط بين الجند، لكن المرتزقة ما كانوا يعترفون بقائد أو قانون، وكانوا مستعدين لتصفية كل من يحاول اعتراض سبيلهم. وشاءت المصادفة أن يكون بالديبيا أمام أبواب أحد الأديرة عندما تعرض ذلك الدير لهجوم من حوالي اثني عشر مرتزقاً ألمانياً. وكانت راهبات الدير المدركات أنه لا يمكن لأي امرأة أن تفلت من الاغتصاب، قد اجتمعن في الفناء متحلقات حول صليب، وفي وسط الدائرة، كانت المستجدات الشابات

متيبسات، يمسكن بأيدي بعضهن بعضاً، ويخفضن رؤوسهن، ويصلّين متلعثمات. كن يبدون من بعيد كالحمائم. يتوسلن إلى الرب أن ينقذهن من التعرض لوصمة الدنس، وأن يكون رحيماً بهن، فيرسل إليهن موتاً سريعاً.

- إلى الوراء! من يتجرأ على تخطي هذه العتبة عليه أن يواجهني! - زمجر بيدرو دي بالديبيا وهو يهز سيفه بيمناه، وخنجراً بيسراه.

وقف عدد من المرتزقة متفاجئين، ربما كانوا يفكرون في ما إذا كان هناك ما يستحق عناء المواجهة مع هذا الضابط الإسباني المتوعد والحازم، أو أنه من الأفضل الانتقال إلى البيت المجاور. لكن آخرين منهم اندفعوا مهاجمين. وكان في مصلحة بالديبيا أنه العسكري الوحيد المحتفظ بتوازنه، فاستطاع بأربع ضربات صائبة أن يُخرج من المعركة أربعة من الألمان؛ لكن الآخرين كانوا قد خرجوا من ترددهم الأولي في أثناء ذلك، واندفعوا نحوه. ومع أن أذهانهم كانت مشوشة بفعل الكحول، إلا أن الألمان كانوا مقاتلين لا يقلون براعة عن بالديبيا، وسرعان ما أحاطوا به. وكان يمكن لذلك اليوم أن يكون الأخير في حياة الضابط الإسترابمادوري، لو لم يظهر هناك فجأة فرانثيسكو دي أغيرّي، ويسارع إلى الوقوف إلى جانب صديقه.

- إليّ أيها الألمان أبناء العاهرة! - صاح ذلك الباسكي الرهيب، الضخم، وقد احمرّ وجهه من الغضب، وهو يهز سيفه كما لو أنه هراوة.

اجتذبت المشادة انتباه إسبان آخرين كانوا يمرون من هناك، ورأوا مواطنيهم في وضع حرج. وبأسرع مما تتطلبه مني رواية ما حدث، نشبت مناوشة أمام مبنى الدير. وبعد نصف ساعة من ذلك، انسحب المهاجمون مخلفين وراءهم عدداً من الجرحى النازفين في الشارع، واستطاع الضابطان إحكام أبواب الدير. طلبت رئيسة الدير من الراهبات المتماسكات أن ينقلن الأخريات اللواتي أغمي عليهن، ويضعن أنفسهن تحت أمرة فرانثيسكو دي أغيرّي الذي عرض عليهن تنظيم الدفاع عن الدير وتعزيز أسواره وتمتينها.

ـ لا أحد آمن في روما. لقد انسحب المرتزقة الآن، لكنهم سيرجعون دون ريب، ومن الخير أن يجدونكن متأهبات حينذاك ـ حذرهن أغيرّي.

ـ ساحصل على بعض البنادق، وسيتولى فرانثيسكو تعليمكن استخدامها ـ أعلن بالديبيا الذي لم يغب عنه بريق الخبث في نظرة صديقه وهو يتخيل نفسه وحيداً مع نحو عشرين عذراء مستجدة، وحفنة من الراهبات الناضجات، لكنهن ممتنات ومازلن مشتهيات.

بعد انقضاء ستين يوماً توقفت، أخيراً، أعمال النهب المريعة في روما، ووضعت بذلك نهاية حقبة ـ عصر بابوية النهضة في إيطاليا ـ، وستبقى للتاريخ كلطخة مشينة في حياة إمبراطورنا كارلوس الخامس، بالرغم من انه كان بعيداً جداً عن روما.

استطاع قداسة البابا أن يغادر ملجأه في قلعة سان أنجلو، لكنه اعتُقل ولقي معاملة سيئة من السجناء العاديين، بل إنهم انتزعوا منه خاتمه البابوي، وركلوه على مؤخرته ليقع أرضاً على وجهه وسط ضحك الجنود.

يمكن اتهام بينفينوتو سيلليني بعيوب كثيرة، لكنه لم يكن ممن ينسون ردّ الجميل. فعندما زارته رئيسة الدير لتخبره كيف أنقذ ضابط شاب مجمعها الديني وظل عدة أسابيع في المبنى للدفاع عنه، وعادت بعد ساعات ومعها فرانثيسكو دي أغيرّي إلى القصر، استقبله سيلليني في أحدى قاعات الفاتيكان، وسط الأنقاض والأثاث الذي حطمه المهاجمون ومزقوه. تبادل الرجلان بعض عبارات اللياقة المهذبة. ثم توجه سيلليني الذي لا يحب المداورة، إلى فرانثيسكو بالسؤال:

ـ أخبرني أيها السيد، ما الذي تريده مقابل تدخلك الشجاع؟

اصطبغ وجه أغيرّي بالاحمرار وهو يمد يده غريزياً إلى مقبض سيفه، وهتف:

ـ لقد أهنتني!

تدخلت رئيسة الراهبات لتقف بينهما بكل ثقل سلطتها، وأبعدت

احدهما عن الآخر بإيماءة ازدراء، إذ ليس لديها متسع لسماع التبجحات. فهي تنتمي إلى أسرة قائد فرق الجند الجنويين أندريا دوريا، وامرأة ثرية وكريمة النسب، وممتادة على إصدار الأوامر.

ـ كفى! وأرجو منك الصفح عن هذه الإساءة غير المقصودة يا سيد فرانثيسكو أغيرّي. إننا نعيش أزمنة صعبة، فقد سالت دماء كثيرة، وارتُكبت خطايا مرعبة، وليس مستغرباً أن تُستبعد عادات السلوك الحميدة إلى مكانة ثانوية. السيد سيلليني يعرف أنك لم تدافع عن ديرنا طمعاً بمكافأة، وإنما لاستقامة قلبك. وآخر ما يرغب فيه السيد سيلليني هو إهانتك. وسيكون امتياز لنا أن تقبل برهاناً على تقديرنا وامتناننا...

أومات كبيرة الراهبات للنحات كي ينتظر، ثم أمسكت أغيرّي من كمه وسحبته إلى الجانب الآخر من القاعة. سمعهما سيلليني وهما يتهامسان لوقت طويل. وعندما بدأ صبره القليل بالنفاد، رجعا إليه وعرضت الأم الكبيرة رغبة الضابط الشاب، بينما كان هذا يتعرق، وعيناه مصوبتان إلى مقدمة جزمته.

وهكذا حصل بينفينوتو سيلليني على إذن من البابا كليمنت السابع، قبل أن يجري اقتياد هذا إلى المنفى، يسمح لفرانثيسكو أغيرّي بالزواج من ابنة عمه. هرع الشاب الباسكي مبتهجاً إلى حيث صديقه بيدرو دي بالديبيا ليخبره بما جرى. كانت عيناه مضمختين وصوته يرتعش، غير مصدق حدوث تلك الأعجوبة.

ـ لا أدري إذا ما كان خبراً طيباً يا فرانثيسكو. فأنت تهوى مراكمة الغزوات النسائية مثلما يهوى إمبراطورنا المقدس جمع أنواع الساعات. لا أستطيع تصورك متحولاً إلى زوج ـ أكد بالديبيا.

ـ ابنة عمي هي المرأة الوحيدة التي أحببتها! أما الأخريات فهن كائنات بلا وجوه، ولا وجود لهن إلا للحظة من أجل إشباع الرغبة التي وضعها الرب فيَّ.

ـ الشيطان يضع فينا الكثير من الرغبات المتنوعة، لكن الرب يمنحنا

الوضوح الأخلاقي للتحكم بها. وهذا ما يميزنا عن الحيوانات.

ـ لقد كنتَ جندياً لسنوات طويلة يا بيدرو، ومازلت تعتقد أننا نختلف عن الحيوانات... ـ قال أغيرّي ساخراً.

ـ لا شك في ذلك. قدر الإنسان أن يرتقي فوق البهيمية، وأن يقود حياته وفق أنبل المُثل، وأن يُخَلّص روحه.

ـ إنت ترعبني يا بيدرو، إنك تتكلم مثل كاهن. لو أنني لا أعرف رجولتك مثلما أعرفها، لظننت أنك تفتقر إلى الفريزة الأساسية التي تحرك الرجال.

ـ لست أفتقر إلى هذه الغريزة، أؤكد لك؛ لكنني لا أسمح لها بأن تتحكم بسلوكي.

ـ لستُ نبيلاً إلى الحد الذي أنت عليه، لكنني استعدت الحب العفيف والطاهر الذي أكنه لابنة عمي.

فابتسم بالديبيا بسخرية:

ـ مشكلة كبيرة ستواجهك الآن وأنت تنوي الزواج من تلك الفتاة التي حوّلتها إلى مثل أعلى. كيف ستوفق بين هذا الحب وعاداتك الشهوانية؟

وأجابه أغيرّي وهو يموت من الضحك:

ـ لن تكون ثمة مشكلة يا بيدرو. سأُنزل ابنة عمي بالقبلات من مذبحها كقديسة وأقيدها بعاطفة هائلة.

ـ وماذا عن الوفاء؟

ـ ابنة عمي ستتكفل بألا يغيب الوفاء عن زواجنا، أما أنا فلا أستطيع التخلي عن النساء، مثلما لا يمكنني التخلي عن النبيذ أو السيف.

سافر فرانثيسكو دي أغيرّ مسرعاً إلى إسبانيا ليتزوج قبل أن يبدل الحبر الأعظم المتردد رأيه. ومن المؤكد أنه وفق بين مشاعر ابنة عمه الأفلاطونية وحسيّته الجامحة، واستجابت هي له دون ذرة من الخفر، لأن هياج هذين الزوجين صار أسطورياً. ويقال إن الجيران كانوا يجتمعون في

الشارع، أمام بيت آل أغيرّي، ليتلذذوا بالصخب الفاضح ويتبادلوا الرهانات حول عدد الهجمات الغرامية التي سيقومان بها في تلك الليلة.



بعد الكثير من الحروب والدماء، والبارود والوحل، رجع بيدرو دي بالديبيا إلى مسقط رأسه أيضاً، تسبقه شهرة حملاته العسكرية، وقد اكتسب تجربة واسعة، وجراباً ممتلئاً بالذهب يفكر في استثماره للنهوض بميراثه المفتقر. كانت مارينا تنتظره وقد صارت امرأة. وخلّفت وراءها تكشيراتها كطفلة مدللة. لقد صارت في السابعة عشرة، وكان جمالها الأزلي والهادئ يغري بتأملها كعمل فني. وكان لها مظهر ساه كمن تسير في نومها، أو كما لو أنها تحدس أن حياتها ستكون انتظاراً أبدياً. في الليلة الأولى التي أمضياها معاً، كرر كلاهما، كإنسانين آليين، الحركات السابقة نفسها والصمت نفسه. في ظلمة الحجرة اتحد الجسدان دون بهجة؛ هو يخشى أن يخيفها وهي تخشى أن تقع في الخطيئة؛ هو يرغب في حبها وهي ترغب في أن يطلع الصباح سريعاً. وفي النهار، يستغرق كل منهما في الدور المخصص له، يتعايشان في الحيز نفسه دون أن يتلامسا. استقبلت مارينا زوجها بعاطفة جزعة ومجاملة، تسبب له الضيق بدل الإغواء. لم يكن بحاجة إلى كل تلك الرعاية، وإنما إلى شيء من الحب، لكنه لم يكن يتجرأ على طلبه، لأنه يفترض أن الحب لا يليق بامرأة محترمة ومتدينة مثلها. كان يشعر بأنه مراقب من مارينا، سجين روابط غير مرئية لمشاعر لا يعرف كيف يتجاوب معها. تضايقه النظرة المتوسلة التي تلاحقه بها عبر البيت، وحزنها الأبكم عند وداعه، وملامح التأنيب المؤرق عند استقباله بعد غياب قصير. كانت مارينا تبدو له غير قابلة للمس، وإنما هي للتمتع بتأملها عن بعد وحسب، بينما هي تطرز، مستغرقة في أفكارها وصلواتها، مضاءة مثل قديسة كاتدرائية بنور ذهبي يدخل من النافذة. بالنسبة لبيدرو، كانت اللقاءات وراء الستائر الثقيلة والمغبرة للسرير الزوجي الذي استخدمته ثلاثة

اجيال من آل بالديبيا ، قد فقدت جاذبيتها ، لأن مارينا كانت ترفض ارتداء قميص النوم ذي الفتحة التي لها شكل الصليب بدل ثوب أقل حميمية كانت ترتديه. اقترح عليها بيدرو أن تستشير نساء أخريات، لكن مارينا لم تكن تستطيع التكلم في هذا الموضوع مع أحد. وبعد كل عناق كانت تصلي لساعات وهي جاثية على الأرضية الحجرية التي تكنسها تيارات الهواء، جامدة ومتذللة لأنها غير قادرة على إرضاء زوجها. ولكنها كانت تستمتع مع ذلك، سراً، بتلك المعاناة التي تميزها عن النساء العاديات وتقرّبها من القداسة. كان بيدرو قد أوضح لها أنه لا وجود لخطيئة الشبق بين الأزواج، لأن الهدف من المضاجعة هو إنجاب الأبناء، غير أن مارينا لم تكن قادرة على منع نفسها من التجمد حتى النخاع كلما لمسها. وليس عبثاً أن كاهن اعترافها كان يكرر عليها كثيراً الخشية من الجحيم وعار الجسد. منذ أن عرفها بيدرو، لم يرَ من زوجته سوى وجهها ويديها، وفي بعض الأحيان قدميها. راودته الرغبة في تمزيق اللعين إلى نتف، لكن الرعب الذي تعكسه حدقتاها يكبحه حين يقترب منها، وهو رعب يتناقض مع عذوبة نظرتها خلال النهار، عندما يكونان بملابسهما العادية. لم تكن مارينا تتمتع بالمبادرة في الحب ولا في أي مظهر آخر من مظاهر الحياة المشتركة، كما أنها لم تكن تبدل من ملامحها أو حماستها. لقد كانت نعجة هادئة. كل ذلك السهو يستثير حفيظة بيدرو، بالرغم من اعتباره له سمة أنثوية. لم يكن يفهم مشاعرها. وعندما فض بكارتها، حين كانت لا تزال طفلة، أراد أن يبقيها في حالة البراءة والطهارة التي أغوته في البدء، لكنه لا يرغب الآن إلا في أن تتمرد عليه وتتحداه.

كان بالديبيا قد وصل إلى رتبة قائد بسرعة كبيرة بسبب شجاعته الفائقة وقدراته القيادية، لكنه لم يكن يشعر بالفخر من ماضيه، على الرغم من مسيرته العسكرية المتألقة. فبعد نهب روما، صارت تعذبه كوابيس متواترة تظهر فيها أم شابة تحتضن أبناءها، وتستعد للقفز من فوق

جسر إلى نهر من الدماء. كان يعرف حدود الخسة البشرية والأعماق المظلمة للروح، وكان يعرف أنه يمكن للرجال المعرضين لقسوة الحرب أن يقترفوا فظاعات رهيبة، ولم يكن يشعر أنه مختلف عن الآخرين. لقد كان يعترف طبعاً، ويغفر له الكاهن دوماً بتكفير بسيط، لأن الأخطاء المقترفة باسم إسبانيا والكنيسة لا يمكن اعتبارها خطايا. ألا تراه يطيع أوامر رؤسائه؟ Ego te absolve ab omnibus censures et peccatis, in nominee Patri, et Filii, et Spiritus Sancti, Amen.[1] وكان بيدرو يفكر في أنه لا وجود لمن جرب هيجان القتل من مهرب أو خلاص. فقد ذاق طعم العنف، وهذا هو العيب السري في كل جندي، لأنه من غير الممكن خوض الحرب بطريقة أخرى. فرفاقية المتاريس الفظة، وكورال الصراخ الأحشائي الصارم الذي يطلقونه معاً للمعركة، وعدم المبالاة المشتركة حيال الألم والخوف، هي ما تجعل الجندي يشعر بأنه حي. تلك المتعة القاسية في اختراق جسد بالسيف، وتلك القوه الشيطانية في بتر حياة إنسان آخر، ذلك الافتتان بالدم المسفوك، كانت إدماناً قوياً ومتسلطاً. يبدأ القتل بدافع الواجب، وينتهي إلى عمل ذلك بدافع الاستثارة. لا شيء يمكن مقارنته بهذا. وحتى هو الذي يخاف الله ويفاخر بأنه قادر على التحكم بأهوائه، ما إن تنفلت فيه غريزة القتل، حتى تكون أقوى من غريزة الحياة. فالرجل يُختزل في الأكل والمضاجعة والقتل، كما يرى صديقه فرنثيسكو أغيرّي. الخلاص الوحيد لروحه هو في تفادي إغواء السيف. وبينما هو جاث على ركبتيه أمام المذبح الكبير في الكاتدرائية، أقسم على قضاء ما تبقى من حياته في عمل الخير، وخدمة الكنيسة وإسبانيا، وعدم اقتراف تجاوزات، وضبط حياته وفق مبادئ أخلاقية صارمة. لقد كان على وشك الموت في مناسبات عديدة وأتاح له الرب أن يظل حياً ليكفر عن خطاياه. علق سيفه الطليطلي إلى جانب سيف أسلافه القديم وقرر تهدئة رأسه.

---

(1) باللاتينية في الأصل: أنا أغفر لك كل الذنوب والخطايا، باسم الأب والابن والروح القدس، آمين.

تحول القائد إلى جار وديع يهتم بشؤون العامة، والمواشي والمحاصيل، الجفاف والصقيع، نزاعات الناس وأحقادهم، القراءة، ألعاب الورق، الصلوات والمزيد من الصلوات. ولأنه كان دارساً للقانون المكتوب والحقوق، كان الناس يستشيرونه في مسائل قانونية، بل إن السلطات القضائية كانت تنحني احتراماً لنصائحه. لقد كانت الكتب هي متعته الكبرى، لاسيما أخبار الرحلات والخرائط التي يدرسها بالتفصيل. كان قد حفظ عن ظهر قلب قصيدة *السيد الكمبيادور*، وافتتن بأخبار سولينو الخيالية، ورحلات جون مانديفيل المتخيلة، لكن قراءاته المفضلة حقاً هي أخبار العالم الجديد التي تُنشر في إسبانيا. تؤرقه مآثر كريستوف كولمبس، وفرناندو ماجلان، وأميركو فيسبوتشي، وهيرنان كورتيس وغيرهم، ولا تتيح له النوم ليلاً: فيظل نظره مثبتاً على قبة السرير التي من البروكار، ويحلم مستيقظاً باكتشاف أماكن نائية على الأرض، وفتحها، وتأسيس مدن، وإيصال الصليب إلى أراض همجية من أجل مجد الرب، وخطّ اسمه بالنار والحديد في التاريخ. وفي أثناء ذلك كانت زوجته تطرز بدلات قداس بخيوط ذهبية، وتصلي سبحة بعد أخرى في ترتيل لا ينتهي. وبالرغم من أن بيدرو كان يغامر عدة مرات كل أسبوع من خلال الفتحة المُذلّة في قميص نوم مارينا، إلا أنه لم يستطع إنجاب الأبناء الذين يرغب فيهم. وهكذا انقضت سنوات مضجرة وبطيئة، في سبات الصيف المتقد والانكماش الشتوي... قسوة متمادية هي إستريمادورا.

◆ ◆ ◆

بعد سنوات عديدة، عندما كان بيدرو دي بالديبيا قد أذعن لبلوغ شيخوخة دون أمجاد إلى جانب زوجته في بيته الصامت في كاستويرا، جاء لزيارته رحالة عابر يحمل رسالة من فرانثيسكو دي أغيرّي. كان اسمه خيرونيمو الديريتي، متحدر من أوليدو. له وجه لطيف، وشعر أجعد كثيف بلون العسل، وشارب تركي يصمغ طرفيه إلى أعلى، وعينا حالم متوهجتان.

استقبله بالديبيا بكرم الضيافة الذي لابد منه لأي إسباني طيب، وقدم له بيته الذي يخلو من الفخامة والترف، لكنه أكثر راحة وأماناً من الخانات العامة. كان الوقت شتاءً، وكانت مارينا قد أمرت بإشعال موقد في القاعة الرئيسية، لكن الحطب لم يكن يبدد تيارات الهواء ولا الظلال. في تلك الحجرة المتقشفة، شبه الخاوية من الأثاث والزينات، كانت تدور حياة الزوجين، وهناك كان هو يقرأ، وتتكب هي على أشغال الإبرة، هناك يأكلان، وهناك، في المركعين المواجهين للمذبح المستند إلى الجدار، كانا يصليان. قدمت مارينا للرجلين نبيذاً حريفاً، من صنع البيت، وبعض السجق والجبن والخبز، ثم انسحبت إلى ركنها لتطرز على ضوء شمعدان، بينما هما يتبادلان الحديث.

كان خيرونيمو ألديريتي يقوم بمهمة تجنيد رجال لأخذهم إلى بلاد الهند، ولكي يغريهم، يعرض عليهم في الحانات والساحات عقداً من كرات ذهب كبيرة مشغولة، منظومة في خيط متين من الفضة. وكانت الرسالة المرسلة من فرانثيسكو دي أغيرّي إلى صديقه تدور حول العالم الجديد. تحدث ألديريتي إلى مضيفه بحماسة عن الإمكانات الخرافية لتلك القارة التي تتداولها الألسن. قال إنه لم يعد هناك مجال لاجتراح مآثر نبيلة في أوروبا الفاسدة، الهرمة، الممزقة بالمؤامرات السياسية، ومكايد القصور ودعوات الهراطقة من أمثال اللوثريين الذين قسموا المسيحية. وأكد أن المستقبل في الجانب الآخر من المحيط. فهناك الكثير مما يمكن تحقيقه في بلاد الهند أو أميركا، وهذا هو الاسم الذي أطلقه على تلك البلاد رسام خرائط ألماني تكريماً لأميركو فيسبوشي، الملاح الفلورنسي المتباهي الذي لم يكن له امتياز الاكتشاف، مثلما فعل كريستوف كولومبس. وحسب رأي ألديريتي، كان يتوجب أن تُطلق على تلك البلاد تسمية كريستوفالينا أو كولومبسيا. وأضاف قائلاً إن التسمية قد أُطلقت، ولم تعد هذه هي المسألة الآن. فما يحتاج إليه العالم الجديد أكثر من أي شيء آخر هو نبلاء

جامحو القلوب، يحملون السيف في يد والصليب في الأخرى، ويكونون مستعدين لأعمال الاكتشاف والفتح. من المستحيل تصور اتساع تلك المناطق، وخضرة غاباتها غير المتناهية، ووفرة أنهارها البلورية، وعمق بحيراتها ذات المياه الهادئة، وثراء مناجم الذهب والفضة فيها. وليس الحلم بالكنوز وحدها، وإنما الحلم بالمجد، عيش الحياة بكل أبعادها، قتال المتوحشين، تحقيق قَدَرٍ أسمى، والعمل بنعمة من الله على تأسيس سلالة حاكمة. وقال إن هذا كله، وغيره كثير، ممكن التحقيق في الحدود الجديدة للإمبراطورية الإسبانية، حيث توجد طيور لها ريش كأنه مزين بالجواهر، ونساء لبشرتهن لون العسل، عاريات ومتساهلات... وأضاف: «اعذريني يا دونيا مارينا، فهذا ليس إلا طريقة في الكلام وحسب...». ولا تكفي كلمات اللغة القشتالية لوصف وفرة ما تطرحه تلك البلاد: لآلئ بحجم بيوض السمان، ذهب يسقط عن الأشجار، والكثير من الأراضي والهنود، بحيث يمكن لأي جندي أن يتحول إلى مالك إقطاعية باتساع مقاطعة إسبانية كاملة. والأهم من ذلك كله، واصل مؤكداً، أن هناك شعوباً كثيرة تنتظر كلمة الرب الواحد والحقيقي، ورفق الحضارة القشتالية النبيلة وطيبتها. وأضاف أن فرانثيسكو أغيرّي، صديقهما المشترك، يرغب أيضاً في الإبحار، وأنه متعطش إلى المغامرة، ومستعد لترك زوجته المحبوبة وأبناءه الخمسة الذين منحته إياهم خلال هذه السنوات.

- أتظن أنه مازالت هناك فرصٌ ممكنة لرجال مثلنا في العالم الجديد؟ - سأله بالديبيا -. لقد انقضت ثلاث وخمسون سنة على نزول كولومبس هناك، وست وعشرون سنة على فتح كورتيس للمكسيك...

- وستٌ وعشرون سنة أيضاً على بدء فرناندو ماجلان رحلته حول العالم. الأرض آخذة بالتوسع كما ترون، والفرص غير متناهية. فليس العالم الجديد وحده هو المشرع للاكتشاف، وإنما كذلك أفريقيا، والهند، وجزر الفيليبين، وغيرها كثير- أصر الشاب الديريتي.

وكرر عليه ما كان يقال في كل أنحاء إسبانيا: فتح البيرو وفخامة كنوزها. فقبل حوالي سنتين من ذلك، اجتمع جنديان مجهولان، هما فرانثيسكو بيثارّو ودييغو ألماغرو، في مهمة الوصول إلى البيرو. وتحديا أخطاراً هوميرية في البحر والبر في رحلتين متتاليتين: انطلقا بسفنهما من بنما، وتقدما متلمسين الطريق بمحاذاة شاطئ المحيط الهادي، دون خرائط، باتجاه الجنوب، ودائماً صوب الجنوب. توجههما الإشاعات التي سمعاها من هنود عدة قبائل، عن أماكن يستخدمون فيها أدوات للطبخ والزراعة مرصعة بالزمرد، وتنساب في الأنهار فضة سائلة، وأوراق الشجر والخنافس من الذهب الحي. ولأنهم ما كانوا يعرفون وجهتهم بدقة، فقد كان عليهم أن يتوقفوا وينزلوا إلى الأرض لاكتشاف تلك المناطق التي لم تطأها قدم أوروبية من قبل. في الطريق مات قشتاليون كثيرون، وهناك آخرون ظلوا على قيد الحياة وهم يقتاتون على الأفاعي والدويبات. وفي الرحلة الثالثة التي لم يشارك بها دييغو ألماغرو، لأنه كان يجند جنوداً وتمكن من الحصول على تمويل سفينة أخرى، استطاع بيثارّو ورجاله الوصول أخيراً إلى أراضي الإنكا، نزل الإسبان من سفنهم التي كانت في حالة مزرية، وحطوا على الأرض الطيبة ذات الوديان الخصيبة والجبال المهيبة، والمختلفة كثيراً عن أدغال الشمال المسممة. كانوا اثنين وستين فارساً يتقدمون متجرجرين، ومئة وستة من جنود المشاة المستنفدين. انطلقوا في المسير بدروعهم الثقيلة، رافعين صليباً في المقدمة، بنادقهم محشوة وسيوفهم مشرعة. خرج للقائهم أناس لهم لون الخشب، يرتدون أقمشة فاخرة ملونة، ويتكلمون لغة ذات حروف صوتية عذبة، ويبدون خائفين لأنهم لم يروا من قبل قط ما يشبه أولئك البشر الملتحين، نصفهم بهيمة ونصفهم بشر[1]. ولابد أن المفاجأة كانت مماثلة لدى

---

[1] لم تكن الخيول معروفة في العالم الجديد قبل الغزو الإسباني، وقد رأت بعض قبائل السكان الأصليين في الفارس الإسباني وحصانه كائناً خرافياً واحداً، نصفه حيوان ونصفه بشر.

الجانبين، ذلك أن البحارة ما كانوا يتوقعون وجود حضارة مثل تلك. فقد اذهلتهم الأعمال الهندسية والمعمارية، والأقمشة والمجوهرات. في ذلك الحين، كان الإنكا أتاوالبا، عاهل تلك الإمبراطورية، في حمامات مياه استشفائية ساخنة، حيث يعسكر بترف يشبه ترف سليمان العظيم، يرافقه آلاف الندماء. وإلى هناك وصل أحد قادة جيش بيثارّو كي يدعوه للتباحث والحوار. استقبله الإنكا مع حشد باذخ من حاشيته في خيمة بيضاء، تحيط بها أزهار وأشجار مثمرة مزروعة في أصص من المعادن الثمينة، وبين مسابح المياه الساخنة، حيث تلعب مئات العذارى وجموع من الأطفال. كان أتاوالبا مختفياً وراء ستار، لأنه لا يمكن لأحد النظر إلى وجهه، لكن الفضول كان أقوى من البروتوكول، فأمر أتاوالبا برفع الستارة كي يرى الغريب الملتحي عن قرب. وجد القائد الإسباني نفسه في مواجهة ملك شاب لطيف القسمات، يجلس على عرش من الذهب الخالص، تحت مظلة من ريش الببغاوات. وعلى الرغم من غرابة الظروف، فقد لمع وميض تعاطف متبادل بين الجندي الإسباني وعاهل الكيتشوا النبيل. أقام أتاوالبا لجماعة الزائرين الصغيرة مأدبة في صحاف من الذهب والفضة، مرصعة بالجمشت والزمرد. ونقل الضابط الإسباني إلى الإنكا دعوة بيثارّو، لكنه شعر بالضيق لأنه يعرف أن تلك الدعوة ليست إلا مكيدة لأسر أتاوالبا، مثلما هي إستراتيجية الفاتحين المعهودة في مثل هذه الحالات. كانت بضع ساعات كافية لجعله يتعلم احترام أولئك السكان المحليين، فليس فيهم شيء من المتوحشين؛ بل هم، على العكس من ذلك، أكثر تحضراً من شعوب كثيرة في أوروبا. أدركَ بإعجاب أن لدى شعب الإنكا معارف متقدمة في الفلك، وأنهم وضعوا تقويماً شمسياً؛ ولديهم فوق ذلك تعداد لملايين سكان إمبراطوريتهم الشاسعة، وأنهم يديرون تنظيماً اجتماعياً وعسكرياً متقناً. لكنهم يفتقرون مع ذلك إلى الكتابة، وأسلحتهم بدائية، ولا يستخدمون العجلة ولا حيوانات الحمولة أو الركوب، باستثناء نوع حساس من النعاج ذات القوائم الطويلة وعيون العرائس، يسمونها لاما. وهم يعبدون الشمس التي لا تطلب سوى

قرابين بشرية في بعض الحالات المأساوية، كمرض الإنكا أو محن الحرب، وعندئذ يتوجب تهدئة غضبها بتقديم عذراوات أو أطفال قرابين لها. وبعد أن خدعوه بوعود الصداقة الزائفة، ذهب الإنكا وحاشيته الواسعة دون أسلحة إلى مدينة كاخامركا، حيث كان بيثارّو قد أعد لهم كميناً. وكان سفر العاهل في محمل من الذهب يحمله أعوانه؛ ويتبعه حشد من العذارى الحسناوات. وبعد أن قتل الإسبان آلافاً من حاشية الملك وأعوانه، ممن حاولوا حمايته بأجسادهم، ألقوا القبض على أتاوالبا.

- لم يكن هناك من حديث آخر سوى كنوز البيرو. وانتشرت عدوى الخبر كالحمى في إسبانيا. قل لي، هل صحيح ما يُروى؟ - سأله بالديبيا.

- إنه صحيح وإن بدا أشبه بالكذب. فمقابل إطلاق سراحه، عرض الإنكا على بيثارّو أن يملأ له بالذهب حجرةً طولها اثنان وعشرون قدماً وعرضها سبعة عشر، وارتفاعها تسعة أقدام.

- هذا مبلغ مستحيل!

- إنها أكبر فدية في التاريخ. جاءت على شكل حليّ وتماثيل وكؤوس، لكنها صُهرت كلها لسكبها في سبائك موسومة بخاتم إسبانيا الملكي. ولم ينل أتاوالبا أي فائدة من تسليم هذه الثروة التي جلبها رعاياه من أقاصي أنحاء الإمبراطورية كالنمال الدؤوبة؛ فبعد أن أبقاه بيثارّو أسيراً تسعة أشهر، حكم عليه بالحرق حياً. وفي اللحظة الأخيرة خفف الحكم إلى ميتة أخف وطأة، بالمخنَقة، مقابل أن يوافق الإنكا على تعميده - قال الديريتي موضحاً. وأضاف أن بيثارّو كان يعتقد أن لديه أسباباً وجيهة لعمل ذلك، إذ زُعم أن الأسير قد حرض من زنزانته على التمرد. فحسب ما قاله الجواسيس، كان هناك مئتا ألف من أبناء الكيتشوا الآتين من كيتو، وثلاثون ألف كاريبي، ممن يأكلون لحوم البشر، يستعدون للهجوم على الفاتحين الإسبان في كاخامركا، لكن موت الإنكا جعلهم يتراجعون. وقد تبين فيما بعد أنه لا وجود في الحقيقة لذلك الجيش الجرار.

فقال بيدرو دي بالديبيا:

ـ من الصعب على أي حال تفسير كيف أمكن لحفنة من الإسبان أن تهزم تلك الحضارة الراقية التي تصفها. إننا نتحدث عن أراض أكثر اتساعاً من أوروبا.

ـ لقد كانت إمبراطورية فسيحة جداً، لكنها هشة وفتية. فعندما وصل بيثارّو لم يكن قد مضى على إنشائها أكثر من قرن واحد. أضف إلى ذلك أن الإنكا كانوا يعيشون في استرخاء، ولم يستطيعوا عمل شيء في مواجهة شجاعتنا، وأسلحتنا وخيولنا.

ـ أعتقد أن بيثارّو قد تحالف مع خصوم الإنكا، مثلما فعل هيرنان كورتيس في المكسيك.

ـ أجل. كانت هناك حرب أخوية بين أتاوالبا وأخيه هوسكار، وقد استفاد من ذلك بيثارو ـ ثم ألماغرو الذي وصل إلى البيرو بعد قليل ـ كي يهزم الاثنين.

أوضح الديريتي أنه لم تكن تتحرك ورقة في إمبراطورية البيرو دون معرفة السلطات، فالجميع كانوا عبيداً. وبجزء من الإتاوات التي تدفعها الرعية، كان الإنكا يُطعم ويحمي الأيتام والأرامل والمرضى والمسنين، ويحتفظ باحتياطات من المؤن للأزمنة الصعبة. ولكن، على الرغم من هذه الإجراءات العقلانية، غير الموجودة في إسبانيا، كان الشعب يكره العاهل وحاشيته، لأنه يعيش خاضعاً لنير عبودية الأعيان من العسكريين والكهنة. وقال إن الشعب لا فرق لديه في أن يكون تحت حكم الإنكا أو الإسبان، ولهذا لم يبدِ مقاومة كبيرة للغزاة. وقد أدى موت أتاوالبا، على أي حال، إلى انتصار بيثارّو؛ فبعد القضاء على رأس الإمبراطورية، انهارت كلها.

ـ هذان الرجلان، بيثارو وألماغرو، ما هما إلا ابنا زنا بلا تعليم وبلا ثروة، وهما أفضل مثل على ما يمكن للمرء الوصول إليه في العالم الجديد. فهما لم يصبحا ثريين وحسب، وإنما غمرهما إمبراطورنا بالتشريفات والألقاب ـ أضاف الديريتي.

فقال بالديبيا:

ـ الحديث يقتصر على المجد والثروة، ولا كلام إلا عن الأعمال الناجحة: الذهب، اللؤلؤ، الزمرد، الأراضي والشعوب التي يتم إخضاعها، ولكن لا يقال أي شيء عن الأخطار.

- أنت محق. فالأخطار غير محدودة. وغزو تلك الأراضي العذراء يتطلب رجالاً شديدي البأس.

احمرّ وجه بالديبيا. أيرتاب هذا الشاب بشدة بأسه؟ لكنه أعمل فكره فوراً، ورأى أن ضيفه محق إذا ما فكر على هذا النحو. لأنه هو نفسه يرتاب في ذلك؛ بعد أن مضى زمن طويل لم يختبر فيه شجاعته. إن العالم يتغير بخطوات عملاقة. وقد قُدر له أن يولد في عصر باهر راحت تتكشف فيه أسرار الكون: لم يقتصر الأمر على تبين أن الأرض مكورة، بل هناك من يشير إلى أنها تدور حول الشمس، وليس العكس. وما الذي يفعله هو بينما هذا كله يحدث؟ يحصي الخراف والماعز، يجمع البلوط والزيتون. ومرة أخرى وعى بالديبيا ضجره. فقد مل المواشي والفلاحة، ولعب الورق مع جيرانه، والقداديس والتسابيح، وإعادة قراءة الكتب نفسها ـ وجميعها تقريباً تحظرها محاكم التفتيش ـ وسئم أعواماً عديدة من المعانقات الاضطرارية والقاحلة مع امرأته. وهاهو ذا القدر، مجسداً بهذا الشاب المتألق حماسة، يطرق بابه مرة أخرى، مثلما فعله في أزمنة حروب لومبارديا، والفلاند، وبافيا، وميلان، وروما.

- متى ستبحرون إلى بلاد الهند؟

- في هذه السنة بالذات، إذا ما وفقنا الرب.

ـ يمكنكم اعتباري واحداً منكم ـ قال بيدرو دي بالديبيا بصوت هامس، كي لا تسمعه مارينا. وكانت نظرته مصوبة إلى سيفه الطليطلي المعلق فوق المدفأة.

❖ ❖ ❖

في العام 1537 ودّعتُ أسرتي التي لن أعود لرؤيتها، وسافرت مع ابنة أختي كونستانثا إلى مدينة اشبيلية الجميلة المعطرة بزهر البرتقال والياسمين، ومن هناك أبحرنا في مياه نهر الوادي الكبير، ووصلنا إلى ميناء مدينة قادش الصاخبة، بأزقتها المرصوفة وقبابها الموريسكية. صعدنا إلى سفينة القبطان مانويل مارتين ذات الثلاث صواري، وزنة مئتين وأربعين طناً، بطيئة وثقيلة، لكنها آمنة. حمل رتل من الرجال الحمولة إلى السفينة: براميل ماء، وجعة، ونبيذ، وزيت. أكياس من الطحين، ولحم مجفف، وطيور حية، وبقرة وخنزيران لاستهلاكها خلال الرحلة، فضلاً عن عدد من الخيول التي تباع في العالم الجديد بسعر الذهب. تأكدت من أن أمتعتي، وهي موضبة جيداً، قد نُقلت إلى المكان الذي خصصه القبطان لي. وكان اول ما فعلته، بعد الاستقرار مع ابنة أختي في قمرتنا الصغيرة، هو ترتيب مذبح لسيدتنا عذراء النجاة.

- أنت شجاعة جداً بتجرئك على القيام بهذه الرحلة يا دونيا إنيس. أين ينتظرك زوجك؟ - أراد القبطان مانويل مارتين أن يعرف.

- الحقيقة أنني أجهل ذلك أيها المعلم.

- ماذا؟ ألا ينتظرك في غرناطة الجديدة؟

- لقد أرسل إليّ رسالته الأخيرة من مكان يسمى كورو، في فنزويلا، ولكن ذلك كان منذ زمن، ويمكن أن يكون قد انتقل من هناك.

- بلاد الهند أكثر اتساعاً من بقية العالم المعروف. لن يكون من السهل عليك العثور على زوجك.

- سأبحث عنه إلى أن أجده.

- وكيف ستفعلين ذلك يا سيدتي؟

- مثلما هو معهود، بالسؤال...

- أتمنى لك حظاً طيباً. هذه هي أول مرة أسافر فيها ومعي نساء. أرجوكما، أنت وابنة أختك، أن تكونا حذرتين - أضاف القبطان.

ـ ما الذي تعنيه؟

ـ أنتما شابتان ولا تبدوان سيئتي المظهر. وأنت تدركين دون ريب ما الذي أعنيه. فبعد أسبوع في عرض البحر، يبدأ البحارة بالمعاناة من افتقاد المرأة، وبوجود امرأتين على متن السفينة، سيكون الإغراء أشد وطأة. ثم إن البحارة يعتقدون أن وجود النساء يجلب العواصف ونكبات أخرى. لهذا أُفضّل، من أجل خيركما وراحة بالي، ألا تتعاملا مع رجالي.

كان القبطان غاليسياً قصيراً، عريض المنكبين وقصير الساقين، له أنف بارز، وعينا حيوان قارض، وبشرة مدبوغة، مثل الجلود، بملح البحار ورياحها. كان قد بدأ الإبحار، كصبي بحار، وهو في الثالثة عشرة من عمره، ويمكنه أن يعد على أصابع يد واحد السنوات التي قضاها على اليابسة منذ ذلك الحين. وكان مظهرة الخشن يتعارض مع شهامة سلوكه وطيب روحه، مثلما سيتبين بجلاء في ما بعد، عندما هرع لمساعدتي في لحظة بالغة الحرج.

من المؤسف أنني لم أكن أعرف الكتابة آنذاك، لأنني كنت سأبدأ بتدوين ملاحظات. ومع أنني ما كنت أتصور أن حياتي تستحق أن تروى، إلا أنه كان يتوجب تسجيل كل تفاصيل تلك الرحلة، لأن أناساً قليلين كانوا يجتازون امتدادات المحيط المالحة، تلك المياه الرصاصية التي تمور بحياة سرية، اتساعات هائلة ورعب، زبد وريح، وعزلة. وفي هذه القصة التي أكتبها بعد سنوات طويلة من الأحداث، أرغب في أن أكون وفيّة قدر الإمكان للحقيقة، غير أن للذاكرة نزواتها على الدوام؛ فهي حصيلة ما نعيشه، وما نرغب فيه، وما نتخيله. والخط الفاصل بين الواقع والخيال رفيع جداً، ولا أهمية له في مثل سني لأن كل شيء يصير ذاتياً. فالذاكرة أيضاً تصطبغ بالغرور والاعتداد بالنفس. الموت يجلس الآن على كرسي بالقرب من منضدتي، ينتظر، ولكن الاعتداد بالنفس مازال يسمح لي، ليس فقط بوضع قليل من الطلاء الأحمر على خديّ عندما يأتيني زائرون، وإنما كذلك

بكتابة قصتي. وهل هناك ما هو أكثر غروراً من كتابة سيرة ذاتية؟

لم أكن قد رأيت المحيط من قبل؛ وكنت أظن أنه نهر عريض جداً، لكنني لم أتصور قط أنه لا يمكن رؤية ضفته الأخرى. امتنعتُ عن تبادل التعليقات كي أخفي جهلي والخوف الذي جمد عظامي لدى خروج السفينة إلى المياه الفسيحة، وبدء تأرجحها. كنا سبعة مسافرين، وشعرنا جميعنا بالدوار، باستثناء كونستانثا التي تميزت بقوة المعدة. وقد كان توعكي شديداً إلى حدّ توسلت معه إلى القبطان، في اليوم التالي، أن يوفر لي زورقاً كي أجدف راجعة إلى إسبانيا. فأطلق قهقهة مدوية، وأجبرني على ابتلاع بينتا[1] من خمرة الروم تكفلت بنقلي إلى عالم آخر لمدة ثلاثين ساعة، انبعثت بعدها حية من جديد، خائرة القوى وخضراء؛ وعندئذ فقط استطعت تناول حساء قدمته لي ابنة أختي اللطيفة ملعقة بعد أخرى. كنا قد خلّفنا وراءنا اليابسة وصرنا نبحر في مياه قاتمة، تحت سماء لامتناهية وفي أعظم هجران. لم أستطع أن أتصور كيف يمكن للربان التوجه في هذا المشهد المتشابه دوماً، باستخدام إسطرلابه ونجوم القبة السماوية. أكد لي أنه يمكنني الاطمئنان، لأنه قام بهذه الرحلة مرات كثيرة، والطريق معروفة جيداً للإسبان والبرتغاليين الذين يجوبونها منذ عقود. حتى الإنكليز الملاعين امتلكوا خط السير هذا. لكن وثائق طريق الإبحار في مضيق ماجلان أو شواطئ المحيط الهادي هي شيء آخر، كما شرح لي، لأنها أثمن من كل كنوز العالم الجديد.

لم أعتد أبداً على حركة الأمواج، وطقطقة ألواح الخشب، وصرير الحديد، والاصطفاق المتواصل للأشرعة التي تصفعها الريح. كنت أكاد لا أستطيع النوم في الليل. ويعذبني في النهار ضيق المكان، وفوق ذلك، عيون الكلاب الشبقة التي ينظر بها الرجال إليّ. كان عليّ أن أقتحم دوري في

---

[1] بينتا pinta: مكيال قديم للسوائل يساوي حوالي نصف لتر.

استخدام الموقد لأضع عليه قدر طعامنا، وكذلك الانفراد من أجل استخدام المرحاض، وهو صندوق فيه فتحة تطل مباشرة على ماء المحيط تحتها. أما كونستانثا بالمقابل، فلم تكن تشكو، بل كانت تبدو سعيدة. وبعد شهر من بدء الرحلة، بدأت الأغذية تشح؛ وصار الماء، وقد تعفن، يُوزع بالتقنين. نقلتُ الدجاجات إلى قمرتنا لأنهم كانوا يسرقون بيضها، وكنت أُخرجها مرتين في اليوم إلى الهواء الطلق وهي مقيدة بحبل من إحدى قوائمها.

اضطررتُ في إحدى المناسبات إلى استخدام مقلاتي الحديدية للدفاع عن نفسي من بحار أكثر تمادياً من الآخرين، اسمه سيباستيان روميرو، وهو اسم لن أنساه أبداً لأننا سنلتقي معاً في المطهر. ففي زحمة السفينة، كان ذلك الرجل يستغل أدنى فرصة ليلقي بنفسه عليّ، متذرعاً بحركة الأمواج الطبيعية. وقد حذرته مرة بعد أخرى أن يتركني بسلام، لكن ذلك كان يزيد من استثارته. وفي إحدى الليالي فاجأني وأنا وحيدة في الحيز الضيق تحت جسر السفينة المخصص كمطبخ. وقبل أن يتمكن من الانقضاض عليّ، أحسست بأنفاسه النتنة على رقبتي. فاستدرت، دون أن أفكر في الأمر مرتين، ووجهت إليه ضربة مقلاة على رأسه، مثلما فعلتُ قبل سنوات مع المسكين خوان دي مالغا، عندما حاول ضربي. وقد كان رأس سيباستيان روميرو أكثر طراوة من رأس خوان، فهوى على الأرض وقد انفرجت ساقاه، وظل غائباً عن الوعي عدة دقائق، بينما رحتُ أبحث عن بعض الخرق لأضمد جرحه. لم ينزف كثيراً من الدم مثلما هو متوقع، لكن وجهه انتفخ في ما بعد وصار بلون الباذنجان. ساعدته على النهوض، واتفقنا على القول إنه اصطدم بإحدى الدعامات الخشبية، لأنه من غير الملائم لكلينا أن يعرف الآخرون الحقيقة.

❖ ❖ ❖

كان بين المسافرين في السفينة مدون أخبار ورسام يدعى دانييل بيلالكاثار، موفد من قبل التاج بمهمة رسم خريطة وتدوين شهادة عن

مشاهداته. كان رجلاً في الثلاثين وبضع سنوات، نحيل وقوي، له وجه مربع وبشرة ذات لون أصفر كئيب، كأندلسي. يركض خبباً من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها ذهاباً وإياباً طوال ساعات، كي يمرّن عضلاته، ويسرّح شعره في جديلة قصيرة، ويعلق هلالاً من الذهب في أذنه اليسرى. والمرة الوحيدة التي سخر فيها منه أحد ملاحي السفينة، طرحه أرضاً بلكمة على أنفه، فلم يعد أحد إلى مضايقته منذ ذلك الحين. وبيلالكاثار الذي بدأ الترحال منذ شبابه المبكر، وعرف الشواطئ النائية في أفريقيا وآسيا، روى لنا في إحدى المناسبات أنه وقع أسيراً بيد القرصان التركي باربا روجا، وبيع كعبد في الجزائر، وقد استطاع الهرب من هناك بعد سنتين، عرف خلالهما الكثير من الآلام والمعاناة. وكان يحمل تحت إبطه طيلة الوقت دفتراً سميكاً، يلفه بقماش كتيم، ويكتب فيه أفكاره بخط دقيق جداً، كأنه النمل. ويتسلى برسم البحارة المنهمكين في مهماتهم، لكنه يُكثر بصورة خاصة من رسم ابنة أختي. وكانت كونستانثا، استعداداً منها للانضمام إلى الدير، ترتدي ملابس راهبة مستجدة، مؤلفة من رداء من قماش خشن خاطته بنفسها، وتغطي رأسها بمثلث من القماش نفسه، لا يترك شعرة واحدة ظاهرة، ويغطي نصف جبهتها، وتعقده تحت ذقنها. ومع ذلك، لم تكن تلك الملابس الفظيعة تخفي هيئتها المتكبرة وعينيها البديعتين، السوداوين واللامعتين كأنهما حبتي زيتون. وقد تمكن بيلالكاثار من إقناعها أول الأمر بأن تجلس ليرسمها، ثم أقنعها بعد ذلك بأن تخلع المنديل عن رأسها، وأقنعها أخيراً بأن تفك عقيصة شعرها العجوزية، وتسمح للهواء بمداعبة خصله السوداء. مهما كان ما تقوله الوثائق الرسمية المختومة عن نقاء دم عائلتنا، فإنني أعتقد أن كثيراً من الدم المسلم يجري في عروقنا. فقد كانت كونستانثا، وهي من دون مسوحها، تبدو كواحدة من أولئك المحظيات اللواتي يظهرن على السجاجيد العثمانية.

جاء يومٌ بدأنا نعاني فيه من الجوع. عندئذ تذكرت الفطائر، وأقنعتُ

الطاهي، وهو زنجي من شمال أفريقيا، وجهه مطرز بندوب، بأن يعطيني بعض الدقيق والدهن، وقليلاً من اللحم المقدد الذي نقعته بماء البحر قبل أن أطهوه. وأضفتُ مما تبقى من مؤونتي الخاصة زيتوناً وزبيباً وبعض البيض المسلوق المقطع إلى قطع صغيرة، كي يتوزع أكثر، وكموناً، وهو بهار رخيص يمنح الطعام مذاقاً خاصاً. وكنتُ مستعدة لتقديم أي شيء مقابل بضع بصلات، من تلك المتوفرة بكثرة في بلاسينثيا، غير أنه لم يكن قد بقي ولو واحدة منها في مستودع السفينة. طهوت الحشوة، ووضعتها في العجين وصنعت فطائر مقلية، لأنه لم يكن هناك فرن. وقد لاقت فطائري نجاحاً كبيراً، وصار الجميع منذ ذلك اليوم يساهمون بشيء من مؤونتهم من أجل الحشوة. صنعتُ فطائر بالعدس، والحمص، والسمك، والدجاج، والسجق، والجبن، ولحم الإخطبوط، وسمك القرش، وكسبتُ بذلك تقدير الملاحين والمسافرين. أما الاحترام فاكتسبته بعد عاصفة هوجاء، بمعالجة الجراح وتجبير كسور عظام البحارين، مثلما تعلمت في مستشفى الراهبات في بلاسينثيا. وكان هذا هو الحادث الوحيد الذي يستحق الذكر، فضلاً عن تمكننا من الهرب من قراصنة فرنسيين يترصدون السفن الإسبانية. ولو أنهم استطاعوا اللحاق بنا ـ مثلما أوضح الربان مانويل مارتين ـ لكنا لقينا نهاية مريعة، لأنهم كانوا مسلحين جيداً. وحين عرفنا الخطر الذي يحيق بنا، جثوتُ أنا وابنة أختي قبالة تمثال سيدتنا عذراء الرحمة متوسلتين إليها بكل حمية الإيمان أن تنجينا، وقد حققت لنا المعجزة بغمامة كثيفة حجبتنا عن أعين الفرنسيين. وقال دانييل بيلالكاثار إن الغمامة كانت موجودة قبل أن نبدأ صلواتنا، وكل ما تطلبه الأمر هو إدارة الدفة باتجاهها.

كان بيلالكاثار رجلاً ضعيف الإيمان، لكنه مسلٍ جداً. يمتعنا في الأمسيات بقصص عن أسفاره وعما سنراه في العالم الجديد. وكان يقول ساخراً: «لن تجدوا هناك سيكلوبات، ولا مردة، ولا بشراً بأربع أذرع ورؤوس كلاب، لكنكم ستجدون بكل تأكيد كائنات بدائية وشريرة،

وخاصة من القشتاليين». أكد لنا أن أهالي العالم الجديد ليسوا متوحشين جميعهم؛ فالأزتيك، والمايا، والإنكا أكثر تحضراً منا، فهم يستحمون على الأقل، ولا يغطيهم القمل. وأضاف قائلاً:

- إنه الجشع، ولا شيء سوى الجشع. فاليوم الذي وطئ فيه الإسبان أرض العالم الجديد، كان نهاية تلك الثقافات. لقد استقبلونا في أول الأمر بالترحاب. وكان فضولهم يتغلب على حذرهم. وحين رؤوا أن الغرباء الملتحين الذين جاؤوا من البحر محبون للذهب، ذلك المعدن الطري وغير المفيد الذي يوجد لديهم منه الكثير، قدموه إليهم بملء أيديهم. ومع ذلك، سرعان ما تكشفت لهم عدوانية شهيتنا التي لا تعرف الشبع، وفظاظة كبريائنا. وكيف لا! فقد صار جنودنا يسيئون إلى النساء، ويدخلون البيوت ويأخذون ما يرغبون فيه دون إذن، وأول من يعترض سبيلهم يجهزون عليه بضربة من سيوفهم. يزعمون أن هذه الأرض التي وصلوها لتوهم هي من أملاك عاهلهم الذي يعيش في الجانب الآخر من البحر، ويريدون من الأهالي أن يعبدوا قطعتي خشب متصالبتين.

- حذار أن يسمعوك تقول هذا يا سيد بيلالكاثار! سيتهمونك بخيانة الإمبراطور والهرطقة - قلتُ له محذرة.

- لا أقول سوى الحقيقة. وسترين يا سيدتي أن الفاتحين هم أناس بلا خجل أو حياء. يأتون كالمتسولين، ويتصرفون كلصوص، ويظنون أنهم سادة.

كانت تلك الشهور الثلاثة في رحلة عبور المحيط طويلة كأنها ثلاث سنوات، لكنها أفادتني في تذوق طعم الحرية. لم يكن هناك أحد من أسرتي - باستثناء كونستانثا الخجولة -، ولا من الجيران أو الكهنة لمراقبتي. ولم أكن مضطرة إلى تقديم حساب لأحد. تجردت من ثياب الترمل السوداء، ومن المشدات التي تضغط لحمي. وأقنع بيلالكاثار ابنة أختي كونستانثا بأن تتخلص من مسوح الرهبنة وترتدي واحداً من فساتيني.

كانت النهارات تبدو بلا نهاية، والليالي أطول منها بكثير. فالقذارة، وضيق المكان، وشح الطعام وسوءه، وتعكر مزاج الرجال، كانت كلها تساهم في ذلك المطهر الذي مثلته رحلة العبور. لكننا نجونا على أي حال من ثعابين البحر الهائلة التي يمكنها ابتلاع سفينة كاملة، ومن المسوخ، وسمندلات الماء، ومن حوريات البحر اللواتي يسبب الجنون للبحارة، ومن أرواح الغرقى والسفن الشبحية، والنيران الكاذبة. حذرنا الملاحون من هذه الأخطار وغيرها مما هو معهودة في أعالي البحار، لكن بيلالكاثار أكد أنه لم ير قط شيئاً من ذلك كله.

في يوم سبت من شهر آب نزلنا إلى اليابسة. كانت مياه المحيط السوداء والعميقة قد تحولت زرقاء سماوية وبلورية. وحملنا الزورق حتى الشاطئ ذي الرمال المتموجة التي تلحسها أمواج وديعة. عرض علينا البحارة أن يحملونا؛ لكننا، كونستانثا وأنا، شمرنا ثيابنا وخضنا في الماء مفضلتين أن نكشف سيقاننا على أن نُحمل كأكياس الطحين على ظهور الرجال. ولم أتخيل قط أن يكون ماء البحر دافئاً؛ إذ كان يبدو لي من السفينة شديد البرودة.

كانت القرية مؤلفة من بضعة أكواخ من القصب، سقوفها من السعف؛ والشارع الوحيد كان موحلاً. ولم يكن ثمة وجود للكنيسة، وإنما صليب من الخشب فوق صخرة متقدمة في البحر يشير إلى بيت الرب. سكان تلك الضيعة المنسية القليلون هم خليط من البحارة العابرين، والزنوج والسمر، إضافة إلى الهنود الذين كنتُ أراهم أول مرة، أناساً فقراء شبه عراة وبائسين. أحاطت بنا طبيعة كثيفة، خضراء، حارة. وكانت الرطوبة تبلل كل شيء، حتى الأفكار؛ والشمس تسقط فوقنا دون رحمة. صارت الثياب لا تطاق، فخلعنا الياقات، والمعاصم، والأجربة والأحذية.

وسرعان ما اكتشفتُ أن خوان دي مالفا لم يكن هناك. الشخص الوحيد الذي يتذكره هو الأب غريفوريو، وهو كاهن دومنيكاني عاثر الحظ، مريض بالملاريا، ومتحول إلى عجوز هرم قبل وقته، فهو يكاد لا

يتجاوز الأربعين من عمره، لكنه يبدو في السبعين. لقد أمضى عقدين في الأدغال يقوم بمهمة تعليم ديانة يسوع ونشرها، وقد التقى بزوجي مرتين خلال تجواله. أكد لي أن خوان قد أصيب، مثل إسبان آخرين كثيرين، بلوثة البحث عن مدينة الذهب الخرافية.

ـ إنه طويل القامة، وسيم الهيئة، محب للرهان والخمر. ولطيف المعشر ـ قال لي.

لا يمكن أن يكون أحد سواه.

ـ مدينة الذهب «إلدورادو» هي من اختلاق الهنود للتخلص من الغرباء الذين يموتون في سعيهم للعثور على الذهب ـ أضاف الكاهن.

قدَّم الأب غريغوريو كوخاً لي ولكونستانثيا، حيث استطعنا الراحة، بينما كان البحارة يسكرون بخمرة قوية من النخيل، ويسحبون الهنديات، بالإكراه، إلى الآجام الكثيفة التي تحيط بالقرية. وعلى الرغم من أسماك القرش التي لحقت السفينة طيلة أيام عديدة، إلا أن دانييل بيلالكاثار نقع جسده لساعات في ذلك البحر الصافي. وعندما خلع قميصه، رأينا على ظهره ندوباً متقاطعة هي آثار ضرب بالسياط، لكنه لم يقدم تفسيراً، ولم يتجرأ أحد على طلب ذلك منه. وقد تبين لنا خلال الرحلة أن لدى هذا الرجل عادة الاغتسال المستهجنة، وهو ما يشير إلى أنه عرف شعوباً أخرى تفعل ذلك. طلب من كونستانثا أن تدخل معه في البحر، حتى وهي بملابسها، لكنني لم أسمح لها؛ فقد وعدت أبويها بأن أعيدها كاملة وليس مقضومة بأسنان سمكة قرش.

عندما غابت الشمس، أشعل الهنود ناراً كبيرة بحطب أخضر لمقاومة البعوض الذي انقض على القرية. كان الدخان يعمي عيوننا، ويكاد لا يسمح لنا بالتنفس، لكن البديل كان أسوأ، لأننا ما إن نبتعد عن النار حتى تنقض علينا أسراب الحشرات. تناولنا عشاء من لحم الدانتا أو التابير، وهو حيوان يشبه الخنزير، ونوع من البطاطا الطرية يسمونها مندوكا؛ كانت

الطعوم غريبة، لكن العشاء، بعد ثلاثة شهور من السمك والفطائر، بدا لنا أميرياً. وتذوقتُ كذلك لأول مرة شراباً رغوياً يُعدُّ من الكاكاو، فيه شيء من المرارة بالرغم من التوابل التي أضفتها إليه. وحسب قول الأب غريغوريو، فإن الأزتيك وغيرهم من الهنود الأمريكيين يستخدمون بذور الكاكاو مثلما نستخدم نحن النقود، أي أنها ثمينة جداً لديهم.

أمضينا المساء في سماع مغامرات الكاهن، وكان قد توغل عدة مرات في الأدغال لتنصير الأنفس. واعترف أنه جرى في شبابه أيضاً وراء حلم إلدورادو الرهيب. كان قد أبحر في نهر أورينوكو، الهادئ مثل بحيرة في بعض الأحيان، والهائج الصاخب في أجزاء أخرى منه. حدثنا عن شلالات هائلة تولد بين السحب وتنفجر في الأسفل على شكل قوس قزح زبدي، وعن أنفاق من الخضرة في الغابة، وعن غسق خضرة سرمدي يكاد لا يصله ضوء النهار. قال إن هناك أزهاراً آكلة لحم لها رائحة الجثث، وأخرى حساسة وشذية ولكنها واخزة؛ وحدثنا كذلك عن طيور لها ريش بديع الألوان، وعن شعوب من القردة لها وجوه بشر تترصد الدخلاء من بين الخضرة الكثيفة.

- بالنسبة لنا نحن القادمين من إستريمادورا الكالحة والجافة، حيث لا شيء سوى الحجارة والتراب، يستحيل علينا تخيل هذا الفردوس - علقتُ.

- إنه فردوس في المظهر فقط يا دونيا إنيس. ففي هذا العالم الحار، المستنقعي والشره الذي تجتاحه الزواحف والحشرات السامة، كل شيء يتفسخ بسرعة، وخاصة الروح. الأدغال تحوّل الرجال إلى أوغاد وقتلة.

- من يتوغلون هناك بدافع الجشع وحده هم فاسدون مسبقاً يا أبتاه. وكل ما تفعله الأدغال أنها تكشف حقيقة الرجال - ردّ دانييل بيلالكاثار، بينما هو يدون بسرعة محمومة كلمات الكاهن في دفتره، لأنه يفكر في التوغل في الطريق عبر نهر الأورينوكو.



تلك الليلة الأولى على اليابسة، ذهب الربان مانويل مارتين وبعض ملاحيه للنوم في السفينة من أجل حراسة حمولتها؛ هذا ما قالوه، لكنني أظن أنهم كانوا يخشون في الحقيقة ثعابين الغابة وحشراتها. وفضّل الآخرون الضجرون عدم حبس أنفسهم في قمرات السفينة الضيقة، وأن يستريحوا في القرية. غلب النوم كونستانثا المنهوكة فوراً في أرجوحة النوم التي خصوها بها، محمية بكلّة قماشية متسخة؛ أما أنا فتأهبت لقضاء ساعات مؤرقة. كان الليل هناك شديد السواد، يغص بالغموض والأسرار، ليل صاخب، شذي، مخيف. خُيِّلَ إلي أنني محوطة بالمخلوقات التي تحدث عنها الأب غريغوريو: حشرات ضخمة، أفاعٍ تقتل عن بعد، وحوش غير معروفة. ومع ذلك، ما كان يخيفني أكثر من هذه الأخطار الطبيعية هي شرور الرجال المخمورين. لم يكن بإمكاني إغماض عيني.

انقضى ما يزيد على ساعتين أو ثلاث ساعات، وعندما بدأت أغفو أخيراً، سمعت شيئاً أو أحداً يحوم حول الكوخ. ظننت أول الأمر أنه حيوان، لكنني تذكرت فوراً أن سيباستيان روميرو قد ظل على اليابسة، واستنتجت أنه يمكن للرجل، بعيداً عن سلطة الربان مانويل مارتين، أن يكون خطراً. لم أخطئ الظن. وربما كان روميرو سيتمكن من بلوغ ما أراده لو أنني كنت نائمة. لكنني، لسوء طالعه، كنت أنتظره بمدية موريسكية، صغيرة وحادة مثل إبرة، اشتريتها من قادش. الضوء الوحيد في الكوخ كان ينعكس من بقايا جمر الموقد الذي شووا عليه الدانتا. وكانت هناك فتحة لا باب لها تفصلنا عن الخارج، ولم تكن عيناي قد اعتادتا على الظلمة. دخل روميرو زاحفاً على أربع، يتشمم مثل كلب، واقترب من أرجوحة النوم التي يفترض أن أكون مستلقية فيها مع كونستانثا. تمكن من رفع يده كي يزيح الكلّة، لكن حركته تجمدت حين أحس برأس المدية على عنقه، وراء الأذن.

- أرى أنك لا تفهم أيها الصعلوك - قلتُ له دون أن أرفع صوتي، كي لا أثير فضيحة.

ـ فليأخذك الشيطان أيتها العاهرة! لقد تلاعبتِ بي طيلة ثلاثة شهور، وها أنت تتظاهرين الآن بأنك لا تريدين ما أريده ـ تمتم بغضب.

استيقظت كونستانثا مرعوبة، واجتذبت صرخاتها الأب غريغوريو ودانييل بيلالكاثار وآخرين ممن ينامون في أماكن قريبة. أشعل أحدهم شعلة وحملوا جميعهم الرجل بالقوة خارج الكوخ. أمر الأب غريغوريو بتقييده إلى شجرة إلى أن يستفيق من سكرة خمر النخيل، فظل يصرخ هناك متوعداً وشاتماً لوقت طويل، إلى أن انهار أخيراً، عند الفجر، وقد غلبه التعب، وعندئذ استطاع الآخرون النوم.

بعد بضعة أيام من ذلك، وبعد التزود بماء طازج، وفواكه مدارية ولحم مملح، حملتنا سفينة الربان مانويل مارتين إلى ميناء كارتاخينا، وكانت له في ذلك الحين أهمية بالغة، لأن كنوز العالم الجديد كانت تُشحن من هناك إلى إسبانيا. كانت مياه البحر الكاريبي زرقاء ونظيفة مثل نوافير قصور المسلمين. وكان الهواء يعبق برائحة الأزهار والثمار والعرق. والسور المشيد بأحجار ملتحمة ببعضها بعضاً بملاط من الكلس ودم الثيران، كان يتلألأ تحت شمس لا ترحم. وكان مئات السكان الأصليين، عراة ومثقلين بالسلاسل، يحملون أحجاراً ضخمة، تحثهم سياط مراقبي العمال. ذلك السور الحصين، يحميه أسطول إسباني من القراصنة وأعداء آخرين للإمبراطورية. وكانت تتأرجح في البحر عدة سفن راسية في الخليج، بعضها حربية وأخرى تجارية، بما في ذلك سفينة نخاسة تنقل حمولتها من أفريقيا لبيعها في مزاد سوق العبيد، وتتميز عن السفن الأخرى بالرائحة التي تعبق بالبؤس البشري والشر. بالمقارنة مع أي مدينة قديمة في إسبانيا، مازالت كارتاخينا أشبه بقرية. ولكن فيها كنيسة، وشوارع حسنة التخطيط، ومساكن مطلية بالكلس، وأبنية حكومية متينة البنيان، وعنابر تخزين، وسوق، وحانات. والحصن الذي مازال في طور البناء، يهيمن من أعلى رابية، بمدافعه التي نُصبت في مواضعها وصُوبت نحو الخليج.

سكانها شديدو التنوع، والنساء السافرات والجريئات بَدَون لي جميلات، لاسيما الخلاسيات منهن. قررت البقاء لبعض الوقت لأني علمت أن زوجي كان هناك منذ أكثر من سنة بقليل. وله في أحد المخازن حزمة ملابس تركها كرهن، مع الوعد بأن يدفع لدى عودته النقود التي يدين بها.

في النزل الوحيد في كارتاخينا لا يقبلون استقبال نساء وحيدات، لكن الربان مانويل مارتين الذي يعرف أناساً كثيرين، تمكن من استئجار بيت لنا. كان البيت يتألف من حجرة واسعة، وإن كانت شبه خاوية، لها باب يؤدي إلى الشارع مباشرة، ونافذة ضيقة، دون مزيد من الأثاث سوى سرير ومنضدة ومقعد، حيث وضعت أنا وابنة أختي حوائجنا. وعلى الفور بدأتُ بعرض خدماتي كخياطة وبالبحث عن فرن عمومي لأصنع الفطائر، لأن مدخراتي كانت تنفد بسرعة أكبر مما هو مقدر لها.

وما كدنا نستقر في البيت حتى جاء دانييل بيلالكاثار لزيارتنا. كانت الحجرة ممتلئة بحزم الأمتعة المبعثرة، فجلس على السرير، وظل يمسك قبعته بيده. لم يكن لدينا ما نقدمه إليه سوى الماء، فشرب كأسين متتاليين. كان يتعرق. أمضى بعض الوقت صامتاً، يتفحص الأرض الترابية المرصوصة باهتمام، بينما نحن ننتظر بقلق لا يقل عن قلقه.

ـ دونيا إنيس، لقد جئتُ لأطلب منكِ، بكل احترام، يد ابنة أختك ـ قال أخيراً.

أذهلتني المفاجأة. لم ألحظ قط ما يشير إلى وجود قصة حب، وفكرت للحظة في أن الحر قد تسبب في اختلال عقل بيلالكاثار، لكن ملامح البلاهة التي أبدتها كونستانثا اضطرتني إلى إعادة النظر. فهتفت مذعورة:

ـ عمر الطفلة خمس عشرة سنة فقط.

ـ البنات هنا يتزوجن صغيرات يا سيدتي.

ـ ليس لدى كونستانثا دوطة.

ـ هذا ليس مهماً. فأنا لم أؤيد هذه العادة قط. وحتى لو كان لدى

كونستانثا دوطة ملكة، فإنني لن أقبلها منها.

ـ ابنة أختي تريد أن تصير راهبة!

ـ كانت تريد يا سيدتي، ولكنها لم تعد كذلك ـ تلعثم بيلالكاثار، وأكدت هي كلامه بصوت واضح وحاسم.

أوضحت لهما بأنني لا أتمتع بسلطة تزويجها، وخاصة لمغامر مجهول، رجل ليس لديه مكان إقامة ثابت، يمضي حياته في تدوين بلاهات في دفتر، وعمره ضعف عمرها. كيف سيعيلها؟ وهل يريدها أن تذهب معه إلى حوض نهر أورينوكو ليرسم أكلة لحوم البشر؟ فقاطعتني كونستانثا لتقول، وقد احمرت خجلاً، إن الوقت قد فات على المعارضة، لأنهما في الحقيقة قد صارا متزوجين أمام الرب، وإن لم يكونا كذلك أمام قانون البشر. عندئذ علمتُ أنني بينما كنت أنهمك في صنع الفطائر ليلاً في السفينة، كانا يفعلان ما يحلو لهما في قمرة بيلالكاثار. رفعت يدي لأوجه إلى كونستانثا صفعتين تستحقهما، لكنه أمسك ذراعي. وفي اليوم التالي تزوجا في كنيسة كارتاخينا، بحضوري وحضور الربان مانويل مارتين كشاهدين. أقاما في النزل وبدآا بالإعداد للسفر إلى الأدغال، مثلما كنتُ أخشى أن يفعلا.



في الليلة الأولى التي أمضيتها وحيدة في الغرفة المستأجرة، وقعت نكبة ربما كان باستطاعتي تجنبها لو أنني كنت أكثر تبصراً. ومع أنه لم يكن بإمكاني منح نفسي ذلك الترف، بسبب غلاء الشموع، إلا أنني كنت أبقى إحداها مشتعلة لوقت طويل من الليل، خوفاً من الصراصير التي تخرج في الظلام. كنت مستلقية على السرير الضيق، يكاد لا يغطيني إلا قميص نوم خفيف، مختنقة بالحر وغير قادرة على النوم، وأنا أفكر بابنة أختي، عندما أفزعتني ضربة على الباب. كانت هناك عارضة يُحكم بها إغلاق

الباب من الداخل، لكنني نسيت أن أوصده بها. ركلة أخرى أطاحت بسقاطة الباب، وظهر سيباستيان روميرو عند العتبة. تمكنتُ من النهوض، لكن الرجل دفعني بقوة ملقياً بي ثانية على السرير، ثم ألقى بنفسه فوقي وهو يطلق الشتائم. بدأت الدفاع عن نفسي بالركلات والخمش بأظفاري، لكنه دَوّخني بضربة شرسة أفقدتني أنفاسي والرؤية لبضع لحظات. وعندما استعدتُ وعيي، كان قد سيطر عليّ واستلقى فوقي ساحقاً إياي بثقله، وملطخاً وجهي بلعابه، وهو يطلق البذاءات. أحسست بأنفاسه المقززة، وبأصابعه القوية تنغرس في لحمي، وركبتيه تحاولان المباعدة ما بين ساقيّ، وصلابة عضوه على بطني. كان ألم اللكمة والخوف يشوشان ذهني. صرختُ، لكنه أطبق فمي بإحدى يديه، مانعاً عني الهواء، بينما هو يعالج باليد الأخرى قميص نومي وبنطاله، وهي ليست بالمهمة السهلة، لأنني قوية وكنت أتملص متلوية مثل ابن عرس. ولكي يُسكتني، وجّه صفعة مدوية إلى وجهي، ثم استخدم كلتا يديه لتمزيق ثوبي؛ عندئذ أدركتُ أنني لن أستطيع التخلص منه بالقوة. فكرت للحظات في إمكانية الانصياع له، آملة أن يكون الامتهان سريعاً وقصير الأمد، لكن الغضب أعماني، كما أنني لم أكن واثقة من أنه سيتركني بسلام بعد ذلك؛ إذ يمكن له أن يقتلني كي لا أشي به. كان فمي مملوءاً بالدم، لكنني تدبرت الأمر لأطلب منه ألا يضربني، وأننا نستطيع الاستمتاع معاً، وأنه لا حاجة للتسرع، وأنني مستعدة لإرضائه في ما يرغب فيه. لست أتذكر تفاصيل ما جرى تلك الليلة، أظن أنني داعبت رأسه مدمدمة بسيل من البذاءات التي تعلمتها من خوان دي مالفا في الفراش، ويبدو أن ذلك هدّأ قليلاً من عنفه، لأنه أفلتني ونهض واقفاً ليخلع سرواله المجعد عند مستوى الركبتين. تلمستُ تحت الوسادة ووجدت المدية التي أحتفظ بها دوماً في متناول يدي. أمسكتُ بها بقوة بيمناي، مخفية إياها بمحاذاة جسدي. عندما ألقى روميرو بنفسه فوقي من جديد، سمحت له بالاستقرار، وأحطتُ خصره بساقيّ المرفوعين،

وطوقت عنقه بذراعي اليسرى. أطلق هو زمجرة رضا، معتقداً أنني قررت أخيراً أن أشاركه المتعة، واستعد لانتهاز فرصته. عندئذ استخدمت ساقيّ لتثبيته، مقاطعة قدمي فوق كليتيه. رفعتُ المدية، وشددت عليها بكلتا يدي، وحددت المكان الدقيق لإحداث أكبر أذى، وضغطتُ بكل قواي في عناق قاتل، مُدخلة المدية حتى مقبضها. ليس من السهل دفن سكين في ظهر رجل متين وهو في ذلك الوضع، لكن الرعب ساعدني. لقد كانت حياته أو حياتي. خشيت أن أكون قد أخطأت المكان، لأن سيباستيان روميرو لم يأت للحظة بأي ردّ فعل، كما لو أنه لم يشعر بالطعنة، لكنه ما لبث أن أطلق صرخة مخنوقة من أحشائه، وتدحرج ليهوي على الأرض بين الأمتعة المكومة. حاول أن ينهض واقفاً، لكنه سقط على ركبتيه، بملامح ذهول تحولت على الفور إلى رعب. دفع يديه إلى الخلف في محاولة يائسة لانتزاع المدية. ما تعلمته عن الجسد البشري وأنا أعالج الجرحى في مستشفى الراهبات أفادني جيداً، لأن الطعنة كانت قاتلة. كان الرجل لا يزال يبذل جهده بينما أنا جالسة على السرير، أراقبه برعب لا يقل عن رعبه، لكنني مستعدة لأن أنقض عليه إذا ما صرخ، لأطبق فمه بأي طريقة. لم يصرخ، كانت تفلت غرغرة مشؤومة من شفتيه وسط زبد وردي. وبعد وقت بدا لي أبدياً، اختلج كمن به مس، وتقيأ دماً وانهار بعد قليل من ذلك. انتظرت طويلاً إلى أن هدأت أعصابي واستطعتُ التفكير؛ وعندئذ تأكدتُ من أنه لن يتحرك ثانية. وعلى الضوء الخافت المنبعث من القنديل الوحيد، استطعت أن أرى الدم وقد امتصته الأرضية الترابية.

أمضيتُ ما تبقى من الليل إلى جانب جسد سيباستيان روميرو، متوسلة أول الأمر للعذراء أن تغفر لي هذه الجريمة الرهيبة، وبعد ذلك بدأت أخطط لكيفية الإفلات من العواقب. لم أكن أعرف قوانين هذه المدينة، لكنها إذا ما كانت مثل قوانين بلاسينثيا فسوف ينتهي بي الأمر إلى أعماق زنزانة إلى أن أتمكن من إثبات أنني تصرفت دفاعاً عن النفس، وهي مهمة شاقة،

لأن شكوك القضاة تصب دائماً على المرأة. لم أُمَنِّ النفس بالأوهام: فنحن من نتحمل وزر عيوب الرجال وخطاياهم. ما الذي ستتوقعه العدالة من امرأة شابة ووحيدة؟ سيقولون إنني دعوت البحار البريء ثم قتلته كي أسرقه. عند الفجر، غطيتُ الجثة ببطانية، ثم ارتديت ملابسي وذهبت إلى الميناء، حيث كانت سفينة الريان مانويل مارتين لا تزال راسية. استمع المعلم إلى قصتي حتى النهاية، دون أن يقاطعني، وهو يمضغ سيجاره ويهرش رأسه.

ـ يبدو أنه يتوجب عليّ أن أتولى مسؤولية هذه المشكلة يا دونيا إنيس ـ قرر بعد أن انتهيت من الكلام.

هرع إلى بيتي المتواضع مع بحار يتمتع بثقته، وحملا معاً جثة روميرو ملفوفة بقطعة من قماش الأشرعة. لم أدرِ قط ما فعلاه بها؛ يخيل إليّ أنهما ألقيا بالجثة إلى البحر مربوطة بحجر ثقيل، حيث تولت الأسماك التهام بقاياه. اقترح عليّ مانويل مارتين أن أغادر كارتاخينا بأسرع ما يمكن، لأن سراً مثل هذا لا يمكن إخفاؤه إلى الأبد، وهكذا وجدت نفسي مضطرة بعد بضعة أيام إلى وداع ابنة أختي وزوجها والرحيل مع مسافرين اثنين آخرين باتجاه مدينة بنما. كان عدد من الهنود يحملون أمتعتنا ويقودوننا عبر الجبال والغابات والأنهار.

برزخ بنما هو حزام ضيق من الأرض، يفصل بحرنا المحيط الأوروبي عن بحر الجنوب الذي يسمونه الهادئ. عرض البرزخ أقل من عشرين فرسخاً، لكن الجبال شديدة الوعورة، والغابات كثيفة جداً، والمياه وبيلة، والمستنقعات نتنة، والهواء موبوء بالحمى والروائح الخبيثة. هناك هنود معادون، وسحالٍ وأفاع برية ومائية، لكن المناظر رائعة والطيور باهرة الجمال. وقد رافقنا طوال الطريق لغط القرود، وهي حيوانات مثيرة للفضول وجريئة، كانت تقفز علينا لتسرق المؤن. وكانت الأدغال ذات خضرة عميقة، ظليلة، متوعدة. كان رفيقاي في الرحلة يحملان الأسلحة جاهزة في أيديهما، ولا يرفعان بصرهما عن الهنود الذين يمكن لهم أن يغدروا بنا

في أي لحظة سهو، مثلما حذرنا الأب غريغوريو؛ وقد نبهنا كذلك إلى خطورة التماسيح التي تسحب ضحاياها إلى أعماق الأنهار، والنمل الأحمر الذي يزحف بالآلاف، ويدخل من ثقوب الجسد، ويلتهم الإنسان من الداخل خلال دقائق، والضفادع التي تسبب العمى بسمٍّ رشقات لعابها. حاولت عدم التفكير في شيء من هذا كله، لأن الرعب سيشلني إذا ما فكرت فيه. فليس هناك، كما كان يقول دانييل بيلالكاثار، ما يستحق المعاناة المسبقة من نكبات قد لا يتحقق حدوثها. قمنا بالجزء الأول من الرحلة في زورق يدفعه بالتجذيف ثمانية وطنيين. وقد أسعدني أن ابنة أختي لم تكن معنا، لأن المجذّفين كانوا عراة، والحقيقة أن نظري، على الرغم من بهاء المناظر الطبيعية، كان يتجه نحو ذلك الجزء من أجسادهم الذي يتوجب عليّ عدم النظر إليه. أما المقطع الأخير من الرحلة، فقطعناه على البغال. ومن فوق القمة الأخيرة لمحنا البحر الذي بلون الفيروز، والأطراف الغائمة لمدينة بنما المختنقة ببخار ساخن.

الفصل الثاني

أميركا، 1537 -1540

خمس وثلاثون سنة كان عمر بيدرو دي بالديبيا عندما وصل مع خيرونيمو دي الديريتي إلى فنزويلا، أو *فينيسيا الصغيرة* كما سماها، بسخرية، المكتشفون الأوائل حين رأوا مستنقعاتها وقنواتها وأكواخها المستندة إلى أعمدة وسط الماء. كان قد خلّف في إسبانيا مارينا أورتيث دي غايتي الرقيقة واعداً إياها بأن يرجع ثرياً أو أن يبعث في طلبها بأسرع ما يمكن ـ عزاء هزيل للشابة المهجورة ـ. كان قد أنفق كل ما يملكه، واستدان فوق ذلك، كي يمول الرحلة. ومثل كل من يغامر في الذهاب إلى العالم الجديد، وضع أملاكه وشرفه وحياته في خدمة هذه المهمة، بالرغم من أن الأراضي التي تُفتح، وخُمس الثروات التي يُعثر عليها ـ إذا وُجدت ـ تعود إلى التاج الإسباني. وحسب ما كان يقوله بيلالكاثار، فإن خوض تلك المغامرة بتصريح من الملك، يسمى فتحاً، ولكنها من دون الإذن الملكي تتحول إلى عملية سطو مسلح.

شواطئ البحر الكاريبي، بمياهها ورمالها البراقة، وأشجار نخيلها الأنيقة، استقبلت الشبان بهدوء مخادع، لأنهم ما إن توغلوا في الخضرة الكثيفة حتى أحاطت بهم أدغال كابوسية. كان عليهم أن يشقوا طريقهم مستخدمين مناجل المتشيتي، يصيبهم الحر والرطوبة بالدوار، ويهاجمهم البعوض وضوارٍ يجهلونها. كانوا يتقدمون في أراض مستنقعية، يغوصون حتى الأفخاذ في مادة طرية ونتنة، مثقلين، متعثرين، تغطيهم دويبات مقرفة

تمتص دماءهم. لا يمكنهم خلع دروعهم خوفاً من سهام الهنود المسمومة، الذين يطاردونهم صامتين وغير مرئيين وسط الخضرة.

ـ لا يمكننا الوقوع أحياء في أيدي المتوحشين! ـ حذرهم الديريتي، وذكرهم بأن الفاتح فرانثيسكو بيثارّو، في حملته الأولى إلى جنوب القارة، دخل مع جماعة من رجاله إلى قرية هُجرت بينما كانت المواقد فيها لا تزال مشتعلة. فرفع الإسبان الجائعون أغطية القدور ورؤوا مكونات ذلك الحساء: رؤوس وأيدٍ وأحشاء بشرية.

ـ حدث ذلك في الغرب، بينما كان بيثارّو يبحث عن البيرو ـ أوضح بيدرو دي بالدبيا الذي كان يظن أنه قد اطلع جيداً على عملية اكتشاف أميركا والفتوح فيها.

ـ الهنود الكاريبيون الذين يقطنون هذه الأنحاء هم من أكلة لحوم البشر أيضاً ـ أصرَّ خيرونيمو.

كان من المستحيل التوجه في الخضرة المطلقة لذلك العالم البدائي السابق للتكوين، متاهة دائرية جهنمية، بلا زمان، وبلا تاريخ. إذا ما ابتعدوا قليلاً عن ضفة النهر، تبتلعهم الغابة إلى الأبد، مثلما حدث لرجل توغل بين السرخس منادياً أمه وقد أصابه الضيق والخوف بالجنون. كانوا يتقدمون بصمت، تثقل عليهم عزلة هوة عميقة، وغم فلكي. كانت المياه تغص بأسماك البيرانيا الضارية، ما إن تشم رائحة الدم حتى تندفع أسراباً، وتقضي على مسيحي في دقائق قليلة؛ وتظل العظام وحدها، بيضاء ونظيفة، دليلاً على أنه كان موجوداً ذات يوم. لم يكن هناك ما يؤكل في تلك الطبيعة الهذيانية. وسرعان ما نفدت مؤنهم وبدأت معاناة الجوع. كانوا يتمكنون في بعض الأحيان من اصطياد قرد، فيلتهمونه نيئاً، مشمئزين من هيئته الآدمية وعفونته، لأنه من الصعب جداً إشعال النار في رطوبة الأدغال الأبدية. مرضوا جميعهم عندما تذوقوا ثماراً غير معروفة، وظلوا أياماً غير قادرين على مواصلة التقدم، ينهكهم تقيؤ وتبرز متواصلين. انتفخت

بطونهم، وسقطت أسنانهم، وتقلبوا في الحمى. ومات أحدهم وهو ينزف دماً حتى من عينيه، وابتلعت الوحول آخر، وثالث سحقته أنكُندا، وهي حية ماء هائلة، لها ثخانة فخذ رجل وطول خمسة رماح. كان الهواء بخاراً ساخناً، عفناً، وبيلاً، كأنه أنفاس تنين. وكان الجنود يؤكدون: «إنها مملكة الشيطان»، ولابد أنها كذلك، لأن الغضب يتقد، ويدخلون في شجار كل لحظة. كان القادة يجدون مشقة كبيرة في الحفاظ على بعض الانضباط وإجبار الجند على مواصلة التقدم. وكان هناك حلم وحيد يدفعهم إلى المضي قُدماً: إلدورادو.

وكلما أوغلوا في تقدمهم الشاق، كان إيمان بيدرو دي بالديبيا بالمشروع يتناقص، واستياؤه يزداد. لم يكن هذا هو ما حلم به في بيته الممل في إستريمادورا. لقد جاء مستعداً لمواجهة الهمجيين في معارك بطولية، وفتح مناطق نائية من أجل مجد الرب والملك، لكنه لم يتصور قط أنه سيستخدم سيفه، السيف الظافر في معارك الفلاند وإيطاليا، للصراع ضد الطبيعة. وكان جشع زملائه وقسوتهم يثيران اشمئزازه، إذ لم يكن هناك ما هو شريف أو مثالي في أولئك الجنود الأفظاظ. فباستثناء خيرونيمو دي ألديريتي الذي قدم براهين في النُبل، كان بقية زملائه أوغاداً من أسوأ الأصناف، غدارين ومحبي شجار. وسرعان ما كُره قائد الحملة بالغ القسوة؛ فهو يسرق ويتاجر بالهنود كعبيد، ولا يدفع الخُمس المترتب عليه للتاج. إلى أين نحن ماضون بنزق ويأس، مادام لا يمكن لأحد في نهاية المطاف أن يأخذ الذهب معه إلى القبر؟ هكذا كان يفكر بالديبيا، لكنه يواصل المسير لأن التراجع مستحيل. استمرت تلك المغامرة الطائشة عدة شهور، إلى أن تمكن بيدرو دي بالديبيا وخيرونيمو دي ألديريتي أخيراً من الانفصال عن الجماعة المشؤومة والإبحار إلى مدينة سانتو دومينغو، في جزيرة إسبانيولا، حيث تمكنوا من استعادة قواهم من أضرار تلك الرحلة. انتهز بيدرو الفرصة ليبعث إلى مارينا بعض المال الذي ادخره، مثلما سيفعل دوماً، حتى مماته.

في تلك الأيام وصل إلى الجزيرة خبر أن فرانثيسكو بيثارّو يحتاج إلى تعزيزات في البيرو. فشريكه في الغزو، دييغو الماغرو، انطلق نحو أقصى جنوب القارة مفكراً في إخضاع أراضي تشيلي الهمجية. كان الشريكان متناقضي الطباع والمزاج: الأول مكفهر، عديم الثقة، وحسود، لكنه بالغ الشجاعة؛ والثاني طلق الوجه، وفي، وبالغ السخاء، لا يرغب في اقتناء الثروة إلا ليوزعها. ولم يكن ثمة مفر لرجلين على هذا القدر من الاختلاف، والطموح نفسه، إلا أن ينتهيا إلى العداوة، بالرغم من أنهما أقسما على الوفاء أمام المذبح وتقاسما قطعة خبز القربان نفسها. صارت إمبراطورية الإنكا ضيقة لا تتسع لهما معاً. فظل بيثارّو في البيرو، وقد تحول إلى المركيز حاكم، وحامل وسام فرسان سنتياغو؛ يساعده أخوته الرهيبون. أما الماغرو، فتوجه في العام 1535، على رأس جيش من خمسمئة قشتالي، وعشرة آلاف هندي من شعب ياناكوناس، وبلقب متقدم، إلى تشيلي، المنطقة التي لم يتم ارتيادها؛ والتي يعني اسمها في لغة هنود الأيمارا «حيث تنتهي الأرض». ومن أجل تمويل الرحلة، أنفق من مدخراته أكثر من الفدية التي دفعها الإنكا أتاوالبا.

وما كاد الماغرو ينطلق مع شجعانه إلى تشيلي، حتى وجد بيثارّو نفسه مضطراً إلى مواجهة تمرد عام. فبعد انقسام قوات «البيراكوتشا»، كما كانوا يسمون الإسبان، امتشق سكان البيرو الأصليون السلاح ضد الغزاة. ولعدم وجود مساعدة مستعجلة، تعرض فتح إمبراطورية الإنكا للخطر، وكذلك حياة الإسبان الذين اضطروا إلى القتال ضد قوات تفوقهم عدداً بكثير. وصل نداء الاستغاثة الذي أطلقه فرانثيسكو بيثارّو إلى جزيرة إسبانيولا، وهناك سمعه بالديبيا، فقرر دون تردد أن يسرع في الذهاب إلى البيرو.

مجرد ذكر اسم تلك الأراضي ـ البيرو ـ يُذَكّر بيدرو دي بالديبيا بالثروات الهائلة والحضارة الراقية التي كان يصفها صديقه الديريتي

بفصاحة. الحقيقة أنه كان يفكر بتقدير وهو يسمع الأمور التي تُروى، وإن لم تكن جميعها تستحق الإطراء. كان يعرف أن الإنكا شديدو القسوة، يتحكمون بالشعب بوحشية. وبعد خوضهم معركة، لا يتركون أحداً من المهزومين حياً ما لم يندمجوا اندماجاً كاملاً بالإمبراطورية، وحيال أدنى مظهر من الاستياء، ينقلون قرى بأكملها إلى أماكن تبعد آلاف الفراسخ. ويسومون أعداءهم أسوأ أشكال التنكيل، بمن في ذلك النساء والأطفال. والإنكا الذي يتزوج أخواته كي يضمن نقاء الدم الملكي، يجسد الألوهية، وروح الإمبراطورية، والماضي والحاضر والمستقبل. ويقال إنه كان لدى أتاوالبا آلاف العذارى في حريمه، وحشد لا يحصى من العبيد يتسلون بتعذيب السجناء، وكان من عادته ذبح وزرائه بيده. والشعب الذي بلا وجه ولا صوت، يعيش مذعناً؛ قدره أن يشتغل منذ الطفولة حتى الممات لمصلحة طبقة الأعيان ـ الندماء، الكهنة، العسكريين ـ الذين يعيشون في ترف بابلي، بينما الإنسان العادي وأسرته يسدون رمقهم بمشقة من زراعة قطعة أرض تخصص لهم، لكنهم لا يملكونها. ويروي الإسبان أن هنوداً كثيرين يمارسون اللواط الذي يُعاقب مرتكبه في إسبانيا بالموت، بالرغم من أن الإنكا حظروا ممارسته. والدليل الواضح على شهوانية هؤلاء الناس هي دمى الخزف الإيروتيكية التي يعرضها المغامرون في الحانات من أجل استثارة الزبائن الذين لا يرتابون في أنه من الممكن الاستمتاع بتلك الطرق المتنوعة. ويؤكدون أن الأمهات يمزقن بكارة بناتهن بأصابعهن قبل تسليمهن للرجال.

وجد بالديبيا أنه ليس هناك ما يتوجب نبذه في تطلع الناس إلى جني الثروات في البيرو؛ ولكن لم يكن هذا هو حافزه، بل كان دافعه واجب القتال إلى جانب أبناء جلدته وبلوغ المجد الذي كان يتهرب منه حتى ذلك الحين. فكان يتميز بذلك عن المشاركين الآخرين في حملة النجدة، ممن بهرهم بريق الذهب. وهذا ما أكده لي هو نفسه مرات كثيرة، وأنا أصدقه، لأن هذا السلوك ينسجم مع قرارات حياته الأخرى. ومدفوعاً بمثاليته، تخلى

بعد سنوات من ذلك عن الأمان والثروة اللذين حصل عليهما أخيراً، كي يحاول فتح تشيلي، وهي المهمة التي أخفق دييغو ألماغرو في إنجازها. المجد، ولا شيء سوى المجد، هو ما كان يوجّه قدره. ليس هناك من أحب بيدرو أكثر مني، ولا من عرفه أكثر مني، ولهذا يمكنني التحدث عن فضائله، مثلما سيتوجب عليّ في ما بعد الإشارة إلى عيوبه التي لم تكن صغيرة. صحيح أنه خانني وكان جباناً معي، ولكن حتى أشد الرجال استقامة وبسالة يخيبون أملنا نحن النساء عادة. ويمكنني أن أؤكد أن بيدرو دي بالديبيا كان أحد أكثر الرجال استقامة وبسالة ممن جاؤوا إلى العالم الجديد.



توجه بالديبيا إلى أراضي بنما، ومن هناك أبحر، في العام 1537، متوجهاً إلى البيرو مع أربعمئة جندي. استمرت الرحلة حوالي شهرين، وعندما وصل إلى هدفه كانت ثورة الهنود قد أُخمدت بتدخل، في الوقت المناسب، قام به دييغو ألماغرو الذي رجع من تشيلي بسرعة لينضم إلى قوات فرانثيسكو بيثارّو. كان ألماغرو قد اجتاز قمماً جليدية في تقدمه نحو الجنوب، وتجاوز ما لا حصر له من المشقات، ورجع مدمراً عبر أشد الصحارى حرارة على الكوكب. فقد وصل في حملته على تشيلي حتى نهر بيو ـ بيو، وهو النهر نفسه الذي بلغته جيوش الإنكا وتراجعت عنه قبل سبعين سنة؛ عندما حاولت، دون جدوى، فرض سيطرتها على أراضي هنود الجنوب، أبناء المابوتشي. فقد تصدى هذا الشعب المحارب لجيوش الإنكا، مثلما تصدى لألماغرو ورجاله في ما بعد.

مابو ـ تشي، «أهل الأرض»، هو الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم، بالرغم من أن الجميع يسمونهم الآن أراوكانيين، وهي تسمية أشد وقعاً، أطلقها عليهم الشاعر ألونسو دي إرثيّا إي زونيغا، ولا أدري من أين جاء بها،

ربما من اسم مكان في الجنوب يدعى أراوكو. أنا أريد مواصلة تسميتهم مابوتشي - وهي كلمة لا جمع لها بالإسبانية - إلى أن أموت، لأنهم هكذا يسمون أنفسهم. لستُ أرى عدلاً في تغيير اسمهم من أجل تسهيل القافية: أروكاني، قشتالي، أخوي، مسيحي، وهكذا على امتداد ثلاثمئة رباعية شعرية. كان ألونسو لا يزال طفلاً في مدريد عندما كنا نحن الإسبان الأوائل نقاتل على هذه الأرض؛ وقد جاء إلى تشيلي بعد قليل من فتحها، لكن أشعاره ستروي الملحمة لقرون وقرون. وعندما لا يبقى منا نحن الذين أجهدنا أنفسنا في تأسيس تشيلي ولو غبار عظامنا، سيتذكرنا الناس من خلال كتاب ذلك الشاعر الشاب، وإن كان غير وفيٍّ أحياناً للوقائع والأحداث، لأنه اعتاد التضحية بالحقيقة في سبيل رغبته في الحفاظ على قافية أشعاره. وهو فوق ذلك لا ينصفنا كما يجب، وأخشى أن يتوصل كثير من المعجبين به إلى فكرة خاطئة بعض الشيء عما كانت عليه الحرب الأراوكانية. فالشاعر يتهم الإسبان بالقسوة والجشع الكبير للثراء، بينما يشيد بهنود المابوتشي، وينسب إليهم الشجاعة، والنبل، والفروسية، وحب العدالة، وحتى الرقة مع نسائهم. أظن أنني أعرفهم خيراً من ألونسو، لأنني أدافع هنا منذ أربعين سنة عما أسسناه في تشيلي، بينما لم يُقم الشاعر هنا إلا بضعة شهور. إنني أقدر في المابوتشي شجاعتهم وحبهم التأليهي للأرض، لكنني أستطيع التأكيد بأنهم ليسوا مثلاً يحتذى في الرأفة والعذوبة. فالحب الرومانسي الذي ينسبه إليهم ألونسو، هو أمر نادر جداً بينهم. فكل رجل منهم لديه عدة نساء، يعاملهن كبهائم العمل والإرضاع وتربية الأبناء، وهذا ما نعرفه من الإسبانيات اللواتي كنّ يُختَطفن. فالإذلال الذي يتعرضن له في السبي، يدفع أولئك النساء البائسات في أغلب الأحيان، لشدة إحساسهن بالعار، إلى تفضيل عدم الرجوع إلى أسرهن. وأنا أعترف، فعلاً، بأن الإسبان لم يعاملون الهنديات العاملات في بيوتهم وخدمتهم بصورة أفضل. وقد كان هنود المابوتشي خيراً منا من نواحٍ أخرى، فهم على سبيل

المثال لا يعرفون الجشع. فالذهب، والأراضي، والألقاب، والتشريفات لا تهمهم؛ وليس لهم سقف سوى السماء، ولا فراش سوى طحالب الأرض، يمضون أحراراً في الغابة، شعورهم تتطاير مع الريح، ويندفعون بسرعة على صهوات الخيول التي سرقوها منا. وفضيلة أخرى أنسبها إليهم هي التزامهم بالكلمة التي يعطونها. فلم يكونوا هم من يخرق العهود التي نتوصل إليها، وإنما نحن. وفي أزمنة الحرب يعتمدون المفاجأة في هجماتهم، ولكن ليس الغدر. وفي أزمنة السلم يحترمون العهود. وقبل مجيئنا لم يكونوا يعرفون التعذيب، وكانوا يحترمون أسرى الحرب. وأسوأ عقوبة لديهم هي النفي، الإبعاد عن الأسرة وعن القبيلة الذي يخشونه أكثر من الموت. أما عقوبة الجرائم الكبيرة فهي الموت بطريقة سريعة. فعلى المحكوم أن يحفر قبره بنفسه، ويلقي فيه عيداناً وحصوات وهو يذكر أسماء الكائنات التي يرغب في أن ترافقه إلى العالم الآخر، ثم يتلقى بعد ذلك ضربة هراوة قاتلة على جمجمته.

تذهلني قوة أبيات ألونسو الشعرية تلك التي تختلق التاريخ، وتتحدى النسيان وتنتصر عليه. الكلمات غير المقفاة، مثل هذه التي أكتبها، ليس لها قوة الشعر، ولكن عليّ أن أقدم على أي حال روايتي لما حدث، كي أترك ذكرى للمشقات التي تكبدناها نحن النساء في تشيلي، والتي يتجاهلها المؤرخون والإخباريون عادة، مهما بلغت براعتهم. لابد لكِ أنتِ على الأقل يا إيزابيل أن تعرفي الحقيقة كلها، لأنك ابنة قلبي، وإن لم تكوني ابنة دمي. أعتقد أنك ستقيمين تماثيل لي في الميادين، وستكون هناك مدن وشوارع تحمل اسمي، مثلما ستكون أخرى تحمل اسم بيدرو دي بالديبيا وغيره من الفاتحين. لكن النسيان سيطوي جهود مئات النساء اللواتي أسسن القرى، بينما رجالهن يقاتلون. لقد شردتُ ومضيت بعيداً. سأعود إلى ما كنت أرويه، لأنه لم يعد لدي متسع من الوقت، وأشعر بأن قلبي منهوك.

تخلى دييغو ألماغرو عن فتح تشيلي. اضطرته إلى ذلك مقاومة هنود

المابوتشي التي لا تُهزم، وضغط جنوده ـ بعد أن خيَّب شح الذهب آمالهم ـ والأخبار السيئة عن تمرد الهنود في البيرو. فقفل راجعاً كي يساعد فرانثيسكو بيثارّو في إخماد التمرد، وتمكنا معاً من إلحاق الهزيمة النهائية بالقوات المعادية. فانصاعت إمبراطورية الإنكا التي عصف بها الجوع والعنف والفوضى، وطأطأت رأسها. ومع ذلك، وبدلاً من أن يشكر تدخل ألماغرو لمصلحته، انقلب فرانثيسكو بيثارّو ورجاله ضده، لينتزعوا منه مدينة كوسكو التي كانت من نصيبه في توزيع الإمبراطور كارلوس الخامس للأراضي. لم تكن كل تلك الأراضي الشاسعة وثرواتها الهائلة كافية لإشباع جشع الأخوة بيثارّو؛ كانوا يريدون المزيد، يريدون الاستحواذ على كل شيء.

انتهى الأمر بفرانثيسكو بيثارّو ودييغو ألماغرو إلى امتشاق السلاح والمواجهة، في موقع أبانكاي، في معركة قصيرة انتهت بهزيمة الأول. عامل ألماغرو، الكريم دائماً، أسراه برحمة غير معهودة، بمن في ذلك أخوة بيثارو، أعداؤه اللدودون. أُعجب كثيرون من الجنود المهزومين بسلوكه، وانتقلوا إلى صفوفه، بينما كان ضباطه المخلصون يرجونه أن يعدم الأخوة بيثارّو ويستغل تفوقه عليهم للسيطرة على البيرو. لم يصغ ألماغرو إلى النصائح، واختار المصالحة مع شريكه الجاحد الذي عاداه.



وصل بيدرو دي بالديبيا إلى مدينة الملوك في تلك الأيام، ووضع نفسه تحت أُمرة فرانثيسكو بيثارّو الذي استدعاه. ولشدة احترامه للشرعية، لم يجادل في سلطة الحاكم أو نواياه؛ فالحاكم هو من يمثل الملك كارلوس الخامس، وهذا يكفيه. ومع ذلك، فإن آخر ما كان يرغب فيه بالديبيا هو المشاركة في حرب أهليه. فقد ارتحل حتى هناك كي يقاتل ضد هنود متمردين، ولم يخطر بباله قط أنه سيضطر إلى القتال ضد إسبان آخرين.

حاول أن يكون وسيطاً بين بيثارّو والماغرو من أجل التوصل إلى حلّ سلمي، وظن في إحدى اللحظات أنه على وشك أن يحقق ذلك. لم يكن يعرف بيثارّو الذي يقول شيئاً، لكنه يخطط في الظل لشيء آخر. فبينما الحاكم يكسب الوقت بالخطابات الودية، كان يعدّ خطته للقضاء على الماغرو، ولا يفكر في أي شيء آخر سوى أن ينفرد بالحكم ويستحوذ على كوسكو. كان يحسد الماغرو على مزاياه، وتفاؤله الدائم، ويحسده قبل ذلك على الولاء الذي يستثيره في جنوده، لأنه يعرف أنه مكروه من جنده.

وبعد أكثر من سنة من المناوشات، وخرق المعاهدات والخيانات، تواجهت قوات الخصمين في لاس ساليناس، بالقرب من مدينة كوسكو. لم يقف فرانثيسكو بيثارو على رأس جيشه، وإنما وضع الجيش تحت قيادة بيدرو دي بالديبيا، وكانت مزاياه العسكرية معروفة للجميع. عيّنه قائداً ميدانياً، لأنه كان قد قاتل تحت أُمرة مركيز بيسكارا في إيطاليا، وله خبرة في القتال ضد الأوروبيين. ذلك أن مواجهة هنود سيئي التسلح وفوضويين تختلف عن مواجهة جنود إسبانيين منظمين ومنضبطين. وناب عنه في حضور المعركة أخوه إرناندو بيثارّو، المكروه لعجرفته وقسوته. وأرغبُ في أن يكون هذا واضحاً جداً، كي لا يُتهم بيدرو دي بالديبيا بالممارسات التعسفية التي اقتُرفت في تلك الأيام، ولدي أدلة حاسمة بذلك، إذ كان عليّ أن أعالج التعساء الذين ظلت جراحهم دون شفاء طلية شهور بعد المعركة. كان لدى أنصار بيثارو مدافع، ويزيد عدد جنده مئتي رجل على ما لدى الماغرو. وكانوا جيدي التسليح، يحملون بنادق جديدة ورصاصات قاتلة تشبه كرات حديدية ما إن تنفتح حتى تنشر عدة شفرات حادة. وكانت معنوياتهم عالية، وأجسادهم مستريحة جيداً، بينما خصومهم آتون من مصاعب كبيرة واجهوها في تشيلي، وفي مهمة إخماد تمرد هنود البيرو. كما أن دييغو الماغرو كان مريضاً جداً، ولم يشارك في المعركة أيضاً.

التقى الجيشان في وادي لاس ساليناس، في فجر وردي، بينما آلاف

هنود الكيتشوا يراقبون من الهضاب مشهد البيراكوتشا (الإسبان) الممتع وهم يقتلون بعضهم بعضاً مثل وحوش ضارية. لم يكونوا يفهمون طقوس أولئك المحاربين الملتحين وأسبابهم. فهم يصطفّون أولاً في صفوف منتظمة، مزدهين بدروعهم اللامعة وخيولهم الرشيقة، ثم يجثون على ركبة واحدة، بينما بيراكوتشا آخرون، يرتدون السواد، يقومون بطقوس سحرية مستخدمين صلباناً وأقداح قربان. ثم يأكلون قطعاً صغيرة من الخبز، ويرسمون إشارة الصليب، ويتلقون المباركة، ويتبادلون التحية عن بعد. وأخيراً، بعد انقضاء قرابة ساعتين وهم في هذا الرقص، يتأهبون للقتل المتبادل. ويفعلون ذلك بمنهجية واحتدام. يشتبكون لساعات ومزيد من الساعات ملتحمين جسداً لجسد وصارخين الصرخات نفسها: «يحيا الملك وإسبانيا!» «القديس سانتياغو وإلى الأمام!». ووسط الفوضى والغبار الذي يتصاعد من حوافر الخيول وأبواط الرجال، لا يعود بالإمكان تمييز فريق عن الآخر، لأن ثيابهم جميعاً تصير بلون الطين. وفي أثناء ذلك، يصفق الهنود، ويتبادلون الرهانات، ويشربون خمر التشيتشا، ويشعرون بالحر والتعب، لأن شجار المعركة يستمر طويلاً.

في آخر النهار، خرج مؤيدو بيثارو منتصرين بفضل المهارة العسكرية للقائد الميداني بيدرو دي بالديبيا، بطل ذلك اليوم. غير أن إرناندو بيثارّو هو من أصدر الأمر الأخير: «إلى الذبح!». فاندفع جنوده بحقد جديد، لم يستطيعوا هم أنفسهم تفسيره في ما بعد، مثلما لم يستطع مدونو الأخبار تقويمه، وانقضوا في حمام دم ضد مئات من مواطنيهم الذين كان كثيرون منهم أخوتهم في مغامرة اكتشاف البيرو وفتحها. أجهزوا على جرحى جيش ألماغرو، ودخلوا بالحديد والبارود إلى مدينة كوسكو، حيث اغتصبوا النساء، سواء أكنَّ إسبانيات أم هنديات وزنجيات، وسلبوا ونهبوا ودمروا حتى التخمة. انقضوا على المهزومين بوحشية كبيرة، مثلما كان يفعل جيش الإنكا، غير أن هذا مجرد كلام، لأن هؤلاء لم يحظوا بالاحترام قط،

ويكفي أن نتذكر أن من أساليبهم المعهودة في التعذيب، تعليق المحكومين من أقدامهم ولف أحشائهم على أعناقهم، أو سلخهم وجعل جلودهم طبولاً وهم لا يزالون أحياء. لكن الإسبان لم يصلوا إلى هذه الحدود في ذلك اليوم، لأنهم كانوا مستعجلين كما أخبرني بعض الناجين. وكان هناك عدد من جنود الماغرو، لم يقضوا نحبهم على يد مواطنيهم، فأجهز عليهم الهنود الذين نزلوا من الجبال بعد انتهاء المعركة مطلقين صرخات الفرح، لأنهم لم يكونوا الضحايا في هذه المرة. احتفلوا بالتنكيل بالجثث، وهرسوها بالحجارة والسكاكين. أما بالنسبة إلى بالديبيا الذي قاتل مذ كان في العشرين من عمره على جبهات كثيرة وأعداء عديدين، فكانت تلك واحدة من أشد اللحظات عاراً في مسيرته العسكرية. وكثيراً ما كان يستيقظ صارخاً وهو بين ذراعيّ، تعذبه كوابيس يظهر له فيها رفاقه المذبوحين، مثلما كانت تظهر له، بعد نهب روما، أمهات ينتحرن مع بناتهن كي يفلتن من الجند.



جرى اعتقال دييغو الماغرو الذي كان في الحادية والستين من عمره، وكان ضعيفاً جداً بسبب مرضه وحملته إلى تشيلي، وقد أُذل وأهين وأُخضع لمحاكمة استمرت شهرين، لم تُتح له خلالها الفرصة للدفاع عن نفسه. عندما علم أنه قد حُكم عليه بالموت، طلب أن يكون القائد الميداني المعادي، بيدرو دي بالديبيا، الشاهد على رغبته الأخيرة؛ لأنه لم يجد من هو أكثر منه جدارة بثقته. كان دييغو الماغرو لا يزال رجلاً حسن المظهر بالرغم من الضرر الذي ألحقه به السفلس والمعارك الكثيرة. كان يضع عصابة سوداء على عينه التي فقدها في مواجهة مع متوحشين قبل اكتشاف البيرو. وفي تلك المناسبة قام هو نفسه بانتزاع السهم مع العين المغروس فيها، وواصل القتال. وبترت فأس حجرية مشحوذة ثلاثة أصابع من يده اليمنى، فأمسك السيف عندئذ بيسراه، وواصل القتال على تلك الحال، وهو أعور

ومغطى بالدم، إلى أن هرع رفاقه لمساعدته. وبعد ذلك، كووا له الجرح بحديد محمى وزيت يغلي، مما شوه وجهه لكنه لم يقوض جاذبية ابتسامته الصريحة وملامحه اللطيفة.

- فليُعذب في الساحة، أمام الأهالي جميعاً! إنه يستحق عقاباً نموذجياً! - أمر إرناندو بيثارّو.

- لن أشارك في هذا يا صاحب السعادة. فالجنود لن يتقبلوه. لقد كان صراع الأخوة قاسياً جداً، ولن نضع ملحاً على الجرح. لأن ذلك قد يؤدي إلى تمرد القوات - نصحه بالديبيا.

فردّ عليه إرناندو بيثارّو:

- ولد ألماغرو ابن زنا وسيموت ابن زنا.

امتنع بيدرو دي بالديبيا عن تذكيره بأن الأخوة بيثارّو ليسوا أفضل مهداً من دييغو ألماغرو. ففرانثيسكو بيثارو أيضاً هو ابن غير شرعي، لم يتلقَ تعليماً، وتخلت عنه أمه. كلاهما كان فقيراً معدماً قبل أن تضعهما تقلبات القدر في البيرو، وتجعلهما أوسع ثراء من الملك سليمان.

- دون دييغو ألماغرو يزهو بلقبي متقدم وحاكم طليطلة الجديدة. فأي تفسير ستقدمه إلى إمبراطورنا؟ - ألح بالديبيا - أكرر لكم، وبكل احترام، يا صاحب السعادة، أنه من غير المناسب استفزاز الجنود، فمعنوياتهم هائجة جداً. ودييغو ألماغرو عسكري لا تشوبه شائبة.

فصرخ إرناندو بيثارو

- عاد من تشيلي مهزوماً على يد عصابة من المتوحشين العراة!

- لا يا صاحب السعادة. لقد رجع من تشيلي كي ينجد أخا سعادتكم السيد المركيز الحاكم.

أدرك إرناندو بيثارّو أن القائد الميداني محق. ولكن، لم يكن من طبعه التراجع عن أقواله، وأقل من ذلك العفو عن العدو. فأمر أن يجري ذبح ألماغرو في ميدان كوسكو.

فـي الأيام السـابقة لتنفـيذ حكـم الإعدام، كـان بالـديبيا يقضـي وقتاً طويلاً على انفراد مع الماغرو فـي الزنزانة الكئيبـة والقـذرة التـي كانـت آخـر مكـان إقامـة للمتقـدم. لقـد كـان يقـدره لمـآثره كجنـدي وشـهرة كـرمـه، بالرغم من معرفته لبعض أخطائه ونقاط ضعفه. وفـي سـجنه، روى لـه الماغرو ما عاشه فـي تشيلي خـلال الثمانيـة عشـر شـهراً التـي أمضـاها فـي التجـوال، غارسـاً فـي مخيلة بالـديبيا مشـروع الفتح الـذي لم يستطع إنجـازه. وصـف لـه الرحلـة المرعبـة عبر سلسـلة الجبـال الشـاهقة، حيـث كانـت ترصـدهم نسـور الكُندور التي تحلق فـي دوائر بطيئة فوق الرؤوس بانتظار منهارين جدد كـي تنظف اللحم عن عظامهم. لقد قتل البرد أكثر من ألفين من الهنود المعاونين ـ المـدعوين ياناكونـا ـ، ومـئتي زنجـي، وحـوالي خمسـين إسـبانياً، وأعـداداً كبيرة من الخيول والكـلاب. حتـى القمـل نفسـه اختفـى، وكـانت البراغيـث تسـقط عـن الثيـاب كأنهـا البـذور. لا شـيء ينمـو هنـاك باسـتثناء طحالـب الصخـر، ولا شيء سوى الصخـور، والـريح، والثلج، والعزلة.

ـ كـان الـذهول عظيمـاً يـا دون بيـدرو، حتـى إننـا كنـا نمضـغ لحـم الحيوانات المتجمدة نيئاً، ونشرب بـول الخيـول. فـي النهـار كنـا نجبر أنفسنـا على الاندفاع فـي المشي كـي لا تطمرنـا الثلوج ويشلنا الخوف. وفـي الليل ننـام ونحن نحتضن البهـائم. وعنـدما يطلـع الصـباح، نحصـي الهنود الميتين، ونـردد بسرعة على أرواحهم «أبانا الذي فـي السماء»، لأنه لا وقت لـدينا لمزيـد. وتظـل الأجسـاد ملقـاة حيـث سـقطت، مثـل علامـات حجريـة متجمـدة تـدل مسـافري المستقبل التائهين على الطريق.

وأضـاف قـائلاً إن دروع القشـتاليين كانـت تتجمـد ضـاغطة علـى أجسـادهم، وعنـدما يخلعـون أحـذيتهم أو قفـازاتهم تنفصـل أصـابعهم عـن أجسـادهم دون ألم. وأوضـح لـه أنـه مـا كـان يمكـن لمعتـوه أن يفكـر فـي الرجوع عبر الطريق نفسـه، ولهـذا فضّل مواجهة الصـحراء فـي رحلة العـودة؛ ولم يتخيل أنها ستكون رحلة رهيبة أيضاً. فكان بالـديبيا يفكـر: يـا للجهـود

والمعاناة التي تتطلبها واجبات الفتوح من المسيحي؟

ـ حرارة الصحراء في النهار أشبه بالمحرقة، والضوء شديد وكثيف يصيب الرجال والخيول على السواء بالخبل، ويدفعهم إلى رؤية رؤى أشجار وبرك مياه عذبة راكدة ـ روى المتقدم ـ وما إن تغيب الشمس حتى تنخفض الحرارة فجأة ويتشكل الكامانتشاكا، وهو ندى لا يقل برودة عن الثلوج التي عذبتنا في قمم سلسلة الجبال. كنا نحمل معنا مياهاً وفيرة معبأة في براميل وفي قرب من الجلد، لكنها سرعان ما شحت لدينا. لقد قتل العطش هنوداً كثيرين وأذلّ الإسبان.

وعلق بالديبيا:

ـ الحقيقة أنها تبدو كرحلة إلى الجحيم يا دون دييغو.

ـ إنها كذلك يا دون بيدرو، لكنني أؤكد لك أنني سأعيد المحاولة إذا ما سمحت لي الحياة بذلك.

ـ ولماذا، مادامت العقبات مرعبة إلى هذا الحد، والمكافأة بائسة؟

ـ لأنك ما إن تتغلب على سلسلة الجبال والصحراء اللتين تفصلان تشيلي عن بقية الأرض المعروفة، حتى تجد هضاباً ناعمة، وغابات شذية، وأودية خصبة، وأنهاراً غزيرة، ومناخاً لطيفاً لا مثيل له في إسبانيا أو أي مكان آخر. تشيلي فردوس يا دون بيدرو. هناك علينا أن نؤسس مدننا ونزدهر.

ـ وما هو رأيك بهنود تشيلي ـ سأله بالديبيا؟

ـ في البدء التقينا بمتوحشين ودودين، يسمونهم بروماوكا، وهم من عرق شبيه بالمابوتشي، ولكن من قبائل أخرى. غير أنهم انقلبوا ضدنا في ما بعد. إنهم مختلطون مع هنود من البيرو والإكوادور، وهم رعايا إمبراطورية الإنكا التي بسطت سيطرتها حتى نهر بيو -بيو فقط. وقد تفاهمنا مع بعض *الكوراكا* أو زعماء الإنكا المحليين، لكننا لم نتمكن من مواصلة طريقنا صوب الجنوب، فهناك أولئك المابوتشي المتمرسون في الحروب. كيف أخبركم يا دون بيدرو بأنني لم أجد قط في أي من حملاتي

ومعاركي المحفوفة بالمخاطر، أعداءً أشد بأساً من أولئك الهمج المسلحين بالعصي والأحجار.

ـ لا بد أنهم شديدو البأس فعلاً أيها المتقدم، طالما أنهم تمكنوا من وقف تقدمكم وتقدم جنودكم، بالرغم من سمعتكم الواسعة...

ـ المابوتشي لا يعرفون شيئاً آخر سوى الحرب والحرية. ليس لهم ملك ولا يفهمون في التراتبية، يطيعون زعماءهم خلال الحرب فقط. حرية، حرية، ولا شيء سوى الحرية. هذا هو الشيء الوحيد المهم في نظرهم، لهذا لم نستطع إخضاعهم، مثلما لم يستطع ذلك الإنكا من قبلنا. النساء يقمن بكل الأعمال، بينما لا يفعل الرجال شيئاً سوى الاستعداد للقتال.

نُفذ حكم الإعدام بدييغو الماغرو في صباح يوم في أوج خريف العام 1538. وقد بدّل بيثارّو الحكم في اللحظة الأخيرة، خوفاً من ردّ فعل الجند إذا ما أقدم على ذبحه أمام الملأ، مثلما كان قد أمر. فأعدموه في زنزانته. وقد طبق عليه الجلاد تعذيب المخنقة، فخُنق ببطء بواسطة حبل، ثم نُقل جثمانه إلى ساحة كوسكو، حيث قطعوا رأسه، لكنهم لم يتجرؤوا على عرض الرأس على كلابة جزار، مثلما كان مقرراً. ففي تلك الأثناء بدأ إرناندو بيثارّو ينتبه إلى جسامة ما أقدم عليه، ويتساءل عما سيكون عليه ردّ فعل الإمبراطور كارلوس الخامس. فقرر دفن دييغو الماغرو بوقار، وترأس هو نفسه، مرتدياً ثياب الحداد، الموكب الجنائزي. وبعد سنوات من ذلك، دفع الأخوة بيثارّو جميعهم ثمن جرائمهم. ولكن هذه قصة أخرى.



لقد اضطررت إلى الإطالة في رواية هذه الأحداث لأنها تفسر تصميم بيدرو دي بالديبيا على الابتعاد عن البيرو التي كانت تمزقها المكيدة والفساد، والتوجه لفتح تشيلي التي ما زالت تسودها البراءة، وهي المهمة التي تقاسمتها وإياه.

معركة لاس ساليناس وموت دييغو دي ألماغرو وقعا قبل بضعة شهور من رحلتي إلى كوسكو. وقد كنت آنذاك في بنما ـ حيث أخبرني عدد من الأشخاص بأنهم رأوا خوان دي مالغا ـ بانتظار أخبار عن زوجي. ففي ذلك الميناء كان يلتقي الذاهبون إلى إسبانيا والقادمون منها. وكان مسافرون كثيرون يمرون من هناك ـ جنود، موظفو التاج، إخباريون، كهنة، علماء، مغامرون، قطاع طرق ـ، وجميعهم يُطَهون في الحر التروبيكالي. كنت أبعث معهم رسائل إلى الجهات الأربع، لكن الوقت كان يمضي دون ردٍّ من زوجي. وفي أثناء ذلك، كنت أكسب عيشي من المهن التي أتقنها: الخياطة، الطبخ، تجبير العظام وعلاج الجروح. لم يكن بمقدوري عمل أي شيء للمصابين بالطاعون وبأنواع من الحمى تحوِّل الدم إلى ما يشبه الدبس، وبالداء الفرنسي، ولسعات حشرات سامة، من تلك الكثيرة هناك، والتي ليس لها علاج. ومثل جدتي وأمي، كنت أتمتع بصحة كالسنديان، تتيح لي العيش في المناطق التروبيكالية دون أن أصاب بالمرض. وفي ما بعد، عندما ذهبتُ إلى تشيلي، استطعت البقاء حية، ودون مشاكل صحية، سواء في الصحراء الحارة كالمحرقة، أو في فيضاناتٍ شتائية تقتل بالزكام أشد الرجال متانة، أو خلال جائحات التيفوئيد والجدري، حيث كان عليّ أن أعتني بضحايا تلك الأوبئة وأن أدفنهم.

وفي أحد الأيام، بينما أنا أتبادل الحديث مع بحارة سفينة شراعية راسية في المرفأ، علمت أن خوان قد أبحر إلى البيرو منذ وقت لا بأس به، مثلما فعل إسبان آخرون عندما سمعوا بالثروات التي اكتشفها هناك بيثارّو والماغرو. جمعت حاجياتي، ومددت يدي إلى مدخراتي، وتمكنتُ من الإبحار نحو الجنوب مع جماعة من الرهبان الدومينكان، لأنني لم أحصل على إذن بالسفر وحدي. يخيل إليَّ أن أولئك الكهنة كانوا من ديوان محاكم التفتيش، لكنني لم أسألهم عن ذلك قط، لأن مجرد ذكر اسم محاكم التفتيش كان يرعبني في ذلك الحين، ومازال يرعبني حتى الآن. فأنا لن

أنسى ما حييت إحراق هراطقة في بلاسينثيا، عندما كنتُ في الثامنة أو التاسعة من عمري. عدت إلى استعمال أثوابي وقمت بدور الزوجة المحزونة كي يساعدوني في الوصول إلى البيرو. أُعجب الرهبان بوفائي الزوجي إلى حدٍّ لن يتورعوا معه عن التجوال بي عبر العالم بحثاً عن زوج لم يدعوني إليه، ولا أعرف أين هو مستقره. لم يكن دافعي الوفاء، بل الرغبة في الخروج من حالة عدم اليقين التي خلفني فيها خوان. فمنذ سنوات طويلة لم أعد أحبه، وصرتُ أكاد لا أتذكر وجهه، وأخشى الا أتعرف عليه عندما أراه. ولم أكن أنوي البقاء في بنما كذلك، معرضة لشهوات الجند العابرين والمناخ الوبيل.

استمرت الرحلة ستة أسابيع تقريباً، في سفينة تتأرجح في المحيط وفق نزوات الرياح. في تلك الأثناء، كانت عشرات السفن الاسبانية تجوب الطريق البحري إلى البيرو ذهاباً وإياباً، غير أن وثائق الطريق البحري لم تكن مكتملة، فكان على الربابنة، في كل رحلة، أن يدونوا ملاحظاتهم، ابتداء من لون المياه والسحب، وحتى أدنى المستجدات على الشاطئ عندما يكون مرئياً، وهكذا يمكنهم ضبط الوثائق التي ستفيد مسافرين آخرين في ما بعد. قُدِّر لنا الإبحار في بحر هائج، ضباب، عواصف، مشاجرات بين البحارة، ومضايقات أخرى سأمتنع عن ذكرها هنا كي لا أطيل كثيراً. يكفي القول إن الرهبان كانوا يقيمون قداساً صباح كل يوم، ويجبروننا على ترتيل صلاة المسبحة كل مساء لتهدئة المحيط وميول الرجال إلى الخصام والمشاجرة. المسافرون جميعهم خطرون. وكان يرعبني المضي تحت رحمة المياه الفسيحة في مركب هش، يتحدى الرب والطبيعة، بعيداً عن النجدة البشرية. أُفضِّل أن أجد نفسي محاصرة بهنود متوحشين، مثلما جرى لي مرات كثيرة، على الركوب مرة أخرى في سفينة، ولهذا السبب لم أفكر قط في العودة إلى اسبانيا، ولا حتى في الأزمنة التي أجبرتنا فيها تهديدات السكان الأصليين على إخلاء المدن

والهرب كالجرذان. لقد كنت أعرف على الدوام أن عظامي ستُدفن في أراضي بلاد الهند.

في عرض البحر، عدت أعاني مجدداً من حصار الرجال، بالرغم من مراقبة الرهبان الدائمة. كنت أشعر بهم يرصدونني مثل سرب من الكلاب الضارية. أتراني أتضوع برائحة أنثى شبقة؟ كنتُ أغتسل بماء البحر في خلوة قمرتي، مرتعبة من هذه القدرة التي لا أرغب فيها، لأنها قد تنقلب ضدي. وكنت أحلم بذئاب لاهثة، ألسنتها تتدلى، وأسنانها تقطر دماً، متأهبة للانقضاض عليّ، جميعها دفعة واحدة. وكان لتلك الذئاب في بعض الأحيان وجه سيباستيان رميرو. كنتُ أقضي الليالي مسهدة، حبيسة في قمرتي، أخيط وأصلي دون أن أتجرأ على الخروج إلى الهواء الطلق في الليل، لتهدئة أعصابي، خوفاً من الحضور الدائم للذكور في الظلام. صحيح أنني كنت أخشى ذلك التهديد، لكنه كان يجتذبني ويفتنني أيضاً. لقد كانت الرغبة هوة رهيبة تتفتح تحت قدميّ وتدعوني لأن أقفز وأضيع في أعماقها. كنت أعرف احتفال الوله وعذابه لأنني عشته مع خوان دي مالغا في سنواتنا الأولى. هناك عيوب كثيرة في زوجي، لكنني لا أستطيع أن أنكر أنه كان عاشقاً ممتعاً لا يعرف الكلل. لهذا السبب كنت أسامحه مرة بعد أخرى. وعندما لم يبق لدي أي حب أو احترام تجاهه، ظللت أشتهيه. وكي أحمي نفسي من إغراءات الحب، كنت أقول لنفسي إنني لن أجد أبداً من هو قادر على منحي المتعة مثل خوان. كنت أعرف أنه عليّ حماية نفسي من الأمراض التي ينقل الرجال عدواها، وقد رأيت آثارها؛ وبالرغم من أنني سليمة ومعافاة تماماً، إلا أنني كنت أخافها مثل خوفي من الشيطان، إذ تكفي أدنى ملامسة للداء الفرنسي حتى تنتقل عدواه. ثم إنني قد أجد نفسي حبلى، لأن قطع الإسفنج المبللة بالخل ليس بالوسيلة الوقائية المؤكدة. لقد توسلت طويلاً إلى السيدة العذراء كي تمنحني ابناً، ويمكن لها أن تقدم لي هذه الخدمة في وضع غير مناسب. فالمعجزات تأتي عادة في غير وقتها.

لقد أفادتني هذه الأسباب الطيبة لسنوات في الحفاظ على عفة اضطرارية، تعلّم قلبي خلالها العيش خامداً، لكن جسدي لم يتوقف عن المطالبة. الهواء في هذا العالم الجديد حار، ومهيج للحسية، وكل شيء فيه أشد زخماً: الألوان، الروائح، الطعوم؛ وحتى الأزهار بشذاها الرهيب، والثمار الدافئة واللزجة، كل شيء يحث على الشبق. ففي كارتاخينا، وبعد ذلك في بنما، صارت الشكوك تخامرني بالمبادئ التي كانت دعامتي في إسبانيا. إن شبابي يمضي، وحياتي تُستنفد... ومن ذا الذي تهمه فضيلتي؟ من الذي سيحاكمني؟ وتوصلت إلى أنه لابد للرب من أن يكون أكثر تساهلاً في بلاد الهند مما هو عليه في إستريمادورا. فإذا كان يتسامح مع الإساءات التي تُرتكب باسمه ضد آلاف السكان الأصليين، فلابد له من أن يتسامح مع ضعف امرأة بائسة.



أحسست بسعادة غامرة عندما وصلنا أصحاء وسالمين إلى ميناء كايّاو واستطعت مغادرة السفينة، حيث كنت قد بدأت أفقد رشدي. ليس هناك ما هو أشد ضيقاً من الاحتباس في سفينة وسط امتدادات مياه المحيط السوداء الشاسعة التي بلا نهاية ولا حدود. تبدو كلمة «ميناء» طموحة جداً بالنسبة لكايّاو في تلك السنوات. يقولون الآن إنه أهم مرفأ على المحيط الهادي، ومنه تخرج كنوز لا تقدر بثمن متوجهة إلى اسبانيا، لكنه لم يكن في ذلك الحين سوى مرسى بائس. ومن كايّاو ذهبت مع الرهبان إلى مدينة الملوك التي صار اسمها اليوم ليما، وهو اسم أقل بهرجة. لكنني أفضل الاسم الأول، وسوف أواصل تسميتها به. هذه المدينة التي كان فرانثيسكو بيثارّو قد أسسها للتو، بدت لي غائمة على الدوام؛ وعندما يتسرب ضوء الشمس من بين الهواء الرطب، يمنحها مظهراً أبدياً، مثلما هي رسوم دانييل بيلالكاثار الغائمة. وهناك قمت بالتقصي اللازم، وبعد أيام قليلة وجدتُ جندياً كان يعرف خوان دي مالغا.

ـ لقد وصلتِ متأخرة يا سيدتي ـ قال لي ـ فزوجك قضى نحبه في معركة لاس ساليناس.

ـ لم يكن خوان جندياً ـ أوضحتُ له.

ـ لاوجود هنا لمهنة أخرى، فحتى الرهبان أنفسهم يمتشقون السيوف.

كان الرجل سيئ الهيئة، له لحية مشعثة تصل حتى منتصف صدره، وثياب ممزقة ومتسخة، وفم بلا أسنان، وتصرفات مخمور. أقسم لي إنه كان صديقاً لزوجي، لكنني لم أصدقه، لأنه أخبرني في أول الأمر أن خوان كان جندي مشاة، غارق في الديون بسبب ألعاب القمار، وضعيف بسبب إدمان النساء والنبيذ، ثم راح يهذر حول قنزعة من الريش وعباءة من البروكار، كي ينتهي إلى إخافتي، إذ انقضَّ عليّ يريد احتضاني، وعندما صددته، عرض عليّ أن يدفع نقوداً ذهبية مقابل خدماتي.

بما أنني كنت قد وصلت بعيداً ـ من استريمادورا حتى ممالك أتاوالبا القديمة ـ، قررت أنه يمكنني القيام بجهد أخير، وانضممت إلى قافلة تنقل مؤونة وقطيعاً من اللاما والألبكة إلى كوسكو. كانت تحرسنا جماعة من الجنود يقودها شخص يدعى الملازم نونيث، وهو عازب وسيم، متبجح ومعتاد كما يبدو على إشباع نزواته. وكانت القافلة تضم كاهنين، وكاتباً بالعدل، ومدقق حسابات، وطبيباً ألمانياً، فضلاً عن الجنود، وكان الجميع يركبون الخيول أو البغال، أو يسافرون في محفات يحملها الهنود. كنتُ الإسبانية الوحيدة، لكن بعض هنديات الكيتشوا مع أطفالهن كن يرافقن رتل الحمالين حاملات أطعمة لأزواجهن. وكانت الملابس الصوفية ذات الألوان الزاهية تضفي عليهن مظهراً سعيداً، لكن ملامحهن في الحقيقة متجهمة وحاقدة كما هي ملامح الناس المخضعين بالقوة. كن قصيرات القامة، لهن وجنات عالية، وعيون صغيرة متطاولة، وأسنان سوداء بفعل أوراق الكوكا التي يمضغنها لتُكسبهن القدرة على التحمل. الأطفال يبدون فاتنين، وبعض النساء جذابات، وإن كن لا يبتسمن أبداً. لحقن بنا لفراسخ

عديدة، إلى أن أمرهن نونيث بالعودة إلى بيوتهن؛ عندئذ انصرفن واحدة بعد أخرى وهن يمسكن بأيدي أطفالهن. الرجال الذين يحملون الأمتعة على ظهورهم كانوا أقوياء جداً، وبالرغم من أنهم حفاة ويحملون أحمالاً ثقيلة كالبهائم، إلا أنهم كانوا يتحملون نزوات المناخ وإنهاك الرحلة أكثر منا نحن الذين كنا راكبين. لقد كانوا قادرين على السفر لساعات وساعات دون أن يفقدوا إيقاع مسيرهم، صامتين وشاردي الذهن، كما لو أنهم يمشون في الأحلام. وكانوا يتكلمون قشتالية مبسطة، شاكية، مغناة، وبنبرة السؤال دائماً. ولم يكن هناك ما يستثيرهم سوى كلبي الملازم حامل الراية نونيث، وهما كلبان مدربان على القتل.

بدأ نونيث بمضايقتي منذ اليوم الأول، ولم يتركني بسلام طيلة الرحلة. حاولت أن أوقفه عند حده بحذر، مذكرة إياه بأنني امرأة متزوجة، لأن العداء معه لن يكون ملائماً لي؛ لكنه راح يتمادى في وقاحته مع تقدمنا في المسير. كان يفاخر بوضعه كسيد نبيل، لكنني وجدت صعوبة في تصديق ذلك بسبب سلوكه. كان قد جمع ثروة ما، ولديه ثلاثون محظية هندية موزعات في الطريق بين مدينة الملوك وكوسكو، ويصفهن بأنهن «جميعهن يوفرن المتعة». وهذا أمر يعتبر فاضحاً في قريته في إسبانيا، أما في العالم الجديد، فهو شيء طبيعي، حيث يأخذ الاسبانُ الهنديات والزنجيات على هواهم. ومعظمهم يهجرونهن بعد اغتصابهن، لكن آخرين يستبقونهن في خدمتهم، غير أنهم نادراً ما يهتمون بالأبناء الذين تنجبهم أولئك النسوة الخاضعات لهم. وهكذا راحوا يملؤون هذه الأراضي بخلاسيين حاقدين. عرض عليّ نونيث أن يتخلى عن خليلاته كلهن إذا ما قبلتُ اقتراحه، ولم يكن لديه شك في أنني سأفعل ذلك فور تأكدي من موت زوجي، وهو موت مؤكد حسب رأيه. هذا الملازم حامل الراية المزهو بنفسه، يشبه إلى حد بعيد خوان دي مالغا في عيوبه، وليس فيه فضيلة واحدة من فضائله تتيح لي أن أحبه. وأنا لستُ ممن يتعثرون بالحجر نفسه مرتين.

في تلك الفترة، كان عدد النساء الإسبانيات في البيرو لا يتجاوز عدد الأصابع، ولم أعرف واحدة منهن جاءت بمفردها، مثلما فعلت أنا. كنّ زوجات أو بنات جنود يسافرن بناء على إلحاح التاج الساعي إلى لمّ شمل العائلات وخلق مجتمع شرعي ومحترم في المستعمرات. وكانت أولئك النسوة يقضين حياتهن وراء أبواب بيوتهن، متوحدات وضجرات، وإن كن مرفهات، لأن لديهن عشرات الهنديات لإرضاء أدنى نزواتهن. وقد قيل لي إن السيدات الإسبانيات في البيرو لا يمسحن مؤخراتهن بأنفسهن، بل تتولى الخادمات عمل ذلك لهن. ولأن رجال القافلة لم يكونوا معتادين على رؤية إسبانية دون مرافقة، فقد سعوا جاهدين إلى معاملتي بتقدير كبير، كما لو أنني شخصية سامية من سلالة عريقة، وليس الخياطة الفقيرة التي كنتُها في الحقيقة. في تلك الرحلة الطويلة والبطيئة إلى كوسكو، وفروا لي ما أحتاج إليه، وقاسموني طعامهم، وأعاروني خيامهم ومطايا ركوبهم، وأهدوا إلي أحذية وبطانية من وبر الفيكونيا، وهو أفخر نسيج في العالم. وما كانوا يطلبون مني مقابل ذلك كله إلا أن أغني لهم بعض الأغنيات أو أن أحدثهم عن إسبانيا عندما نخيِّم في المساء ويُثقل عليهم الحنين. وبفضل مساعداتهم تلك استطعت تدبر أموري، لأن كل شيء هناك أغلى ثمناً بعشر مرات مما هو عليه في إسبانيا. وقد وجدت نفسي سريعاً وليس معي مرابطي[1] واحد. كانت وفرة الذهب في البيرو كبيرة جداً، إلى حدٍّ شاع معه ازدراء الفضة. غير أن ندرة بعض المواد الأساسية، مثل حذوات الخيول أو حبر الكتابة، رفع الأسعار بصورة غير معقولة. لقد قلعتُ لأحد المسافرين سناً منخورة – وهو عمل سهل وسريع ـ، فدفع لي مقابل ذلك زمردة تليق بمطران. وهي ترصع اليوم تاج تمثال سيدتنا عذراء الرحمة، وقد صارت تساوي الآن أكثر مما كانت تساويه آنذاك، لأنه لا وجود للأحجار الكريمة في تشيلي.

---

(1) مرابطي maravedi: وحدة نقد ضئيلة القيمة، تُنسب إلى المرابطين في الأندلس، وقد ظل استخدامها شائعاً بعد انتهاء الحكم العربي في إسبانيا.

بعد عدة أيام من المسير على دروب الإنكا، عبر سهول وجبال قاحلة، وباجتياز جروف، تطل على هاويات عميقة، على جسور معلقة بحبال نباتية، والخوض في جداول ومستنقعات مالحة، والصعود والنزول، وصلنا إلى نهاية الرحلة. ومن فوق صهوة جواده، أشار الملازم نونيث برمحه إلى مدينة كوسكو.



لم أرَ في حياتي قط شيئاً بعظمة مدينة كوسكو، سرّة إمبراطورية الإنكا، والمكان المقدس الذي يتكلم فيه البشر مع الآلهة. ربما كانت مدريد أو روما أو بعض مدن المسلمين المشهورة ببهائها، جديرة بأن تقارن بمدينة كوسكو، لكنني لا أعرف تلك المدن. فعلى الرغم من أضرار الحرب والدمار الذي تعرضت له المدينة، كانت درّة بيضاء متلألئة تحت سماء بلون الأرجوان. انقطعت أنفاسي، وطوال عدة أيام كنت أتجول شبه مختنقة؛ ليس بسبب ارتفاع المدينة وخفة الهواء، مثلما حذروني، بل لجمال معابدها، وحصونها، وأبنيتها. يقال إنه عند وصول الإسبان الأوائل، كانت هناك قصور مكسوة بصفائح من الذهب، لكن الجدران عارية الآن. إلى الشمال من المدينة ينتصب بناء ساكسايهوامان، الحصن المقدس، بصفوف أسواره الثلاثة العالية والمتعرجة، ومعبد الشمس، ومتاهة شوارعه، وأبراجه، وممراته، وأدراجه، وشرفاته، وأقبيته، وحجراته، حيث كان يعيش بترف حوالي خمسين أو ستين ألف شخص. اسمه يعني «الصقر الرابض»، وهو مثل صقر يحرس كوسكو. لقد شيِّد بكتل حجرية ضخمة، منحوتة ومركّبة إلى بعضها البعض دون ملاط، وبإتقان دقيق لا تتسع أماكن اتصال الأحجار لإدخال شفرة رقيقة. كيف قطعوا هذه الصخور الضخمة دون أدوات معدنية؟ كيف نقلوها دون عجلات ودون خيول من بُعد فراسخ كثيرة؟ كنت أتساءل أيضاً كيف تمكنت حفنة من الجنود الإسبان أن تفتح في ذلك الوقت القصير إمبراطورية قادرة على بناء هذه الأعاجيب. فمهما كانت شدة

الخلافات في صفوف الإنكا، ووجود آلاف الياناكونا (الهنود المتعاونين) المستعدين لخدمة الإسبان والقتال بدلاً منهم، فإن الملحمة التي تحققت ما زالت تبدو لي، حتى اليوم، غير قابلة للتفسير. «لقد كان الرب إلى جانبنا، فضلاً عن البارود والحديد»، يقول القشتاليون فرحين، لأن الوطنيين كانوا يخوضون حرب الدفاع عن أنفسهم بالأحجار. ويضيفون: «عندما رأونا نصل من البحر في عمارات ضخمة لها أجنحة، ظنوا أننا آلهة». أما أنا فأظن أنهم هم أنفسهم من أشاعوا هذه الفكرة المواتية لهم، وانتهى الأمر بالهنود، وبهم هم أنفسهم إلى تصديقها.

مشيتُ في شوارع كوسكو مذهولة، أتفحص الحشود. تلك الوجوه البرونزية لا تعرف الابتسام، ولا تنظر إلى عينيّ. كنت أحاول أن أتخيل حياتهم قبل وصولنا إليهم، عندما كانت تمر في هذه الشوارع نفسها أسر كاملة ترتدي ثياباً بديعة ملونة، وكهنة بواقيات للصدر من الذهب، والإنكا مثقلاً بالمجوهرات ومحمولاً على محفة من ذهب مزينة بريش طيور خرافية، يرافقه موسيقيوه، ومحاربوه المزدهون، وموكبه غير النهائي من الزوجات وعذراوات الشمس. هذه الثقافة المعقدة مازالت على حالها تقريباً، على الرغم من الغزاة، لكنها صارت أقل ظهوراً للعيان. فالإنكا يوضع على العرش، ويرعاه فرانثيسكو بيثارّو كسجين مرفه. لم أره قط، لأنني لم أدخل بلاطه المصادر. وفي الشوارع كان الشعب كثيراً وصامتاً. مقابل كل ملتحٍ هناك مئات الوطنيين المرد. الاسبان المتفطرسون والصاخبون يعيشون في بُعد آخر، كما لو أن الوطنيين غير مرئيين، مجرد ظلال في الأزقة الحجرية الضيقة. السكان الأصليون يفسحون الطريق للغرباء الذين ألحقوا بهم الهزيمة، لكنهم يحافظون على عاداتهم، ومعتقداتهم، ومراتبهم، على أمل التحرر من الملتحين مستعينين بالزمن والصبر. ما كانوا قادرين على تصور أنهم سيبقون مستعبدين إلى الأبد.

وفي أثناء ذلك كان العنف الأخوي الذي قسم الإسبان في أزمنة دييغو

الماغرو، قد هدأ. كانت الحياة في كوسكو تعود ببطء، بخطى حذرة، لأن هناك الكثير من الحقد المتراكم، ويمكن للمشاعر أن تنفجر بسهولة. والجنود مازالوا على الجمر بسبب الحرب الأهلية القاسية، والبلاد افتقرت وعمتها الفوضى، وأُخضع الهنود لأعمال السخرة. كان إمبراطورنا كارلوس الخامس قد أمر في مراسيمه الملكية بمعاملة الوطنيين باحترام، وتنصيرهم وتحضيرهم بالرحمة وأعمال الخير، لكن الواقع كان غير ذلك. فالملك الذي لم تطأ قدماه العالم الجديد قط، كان يُصدر قوانينه الحكيمة في قاعات القصور القديمة القاتمة، على بعد آلاف الفراسخ عن الشعوب التي يريد أن يحكمها، دون أن يأخذ في الاعتبار الجشع البشري الأبدي. فقلة هم الإسبان الذين كانوا يحترمون تلك المراسيم، وأقل منهم جميعاً المركيز الحاكم فرانثيسكو بيثارّو. فحتى أشد القشتاليين بؤساً كان له خدمه من الهنود، بينما كان لدى الأوصياء الأغنياء مئات منهم، ذلك أن الأرض والمناجم لا تساوي شيئاً بلا أيدٍ عاملة تشتغل فيها. وكان الهنود ينصاعون تحت سياط رؤساء العمال، وإن كان بعضهم يفضل تقديم موت رحيم لأسرته والانتحار بعد ذلك.

وبالتحدث مع الجنود، استطعتُ أن أجمع أجزاء قصة خوان، وتأكدت من موته. فقد وصل زوجي إلى البيرو، وانضم إلى جيش فرانثيسكو بيثارّو، بعد أن استنفد جهوده في البحث عن إلدورادو في غابات الشمال القائظة. لم تكن له طينة جندي، لكنه تدبر أمره في البقاء حياً خلال المواجهات مع الهنود. وقد تمكن من الحصول على بعض الذهب، ذلك أنه كان متوفراً بكثرة، لكنه ضيعه مرة بعد أخرى في المراهنات. وكان مديناً بالنقود لعدد من رفاقه، وبمبلغ كبير لإرناندو بيثارّو، أخي الحاكم. فحوّله ذلك الدين إلى تابع ذليل له، واقترف عدداً من الآثام بتكليف منه.

❖ ❖ ❖

حارب زوجي مع القوات المنتصرة في معركة لاس ساليناس، حيث أنيطت به مهمة غريبة، هي الأخيرة في حياته. فقد أمره إرناندو بيثارّو بأن يتبادل معه الملابس. وهكذا، بينما ارتدى خوان بدلة الطيلسان ذات اللون البرتقالي، والدروع الفاخرة، والخوذة الفضية التي تعلوها قنزعة من الريش، وعباءة الدمقس التي تميز القائد الأعلى؛ ارتدى القائد زي جندي عادي واختلط بالمشاة. ربما اختار إرناندو بيثارّو زوجي بسبب طول قامته. فقد كان لخوان الطول نفسه. وقد افترض أن أعداءه سيسعون لقتله خلال المعركة، مثلما حدث فعلاً. اجتذبت الملابس الغريبة الفاخرة ضباط ألماغرو الذين تقدموا بسيوفهم وقتلوا خوان دي مالغا التعيس، معتقدين أنه أخو الحاكم. لقد نجا إرناندو بيثارّو بحياته، لكن اسمه تلطخ إلى الأبد بسمعة النذالة المشينة. شُطبت مآثره العسكرية السابقة بجرة قلم، ولم يستطع استعادة سمعته الضائعة؛ فقد لطخ عار هذه الخدعة الإسبان جميعهم، الأصدقاء منهم والأعداء، ولم يغفروا له ذلك مطلقاً.

حيكت مؤامرة صمت متسرعة لحماية ذلك البيثارّو الذي يخشاه الجميع، لكن الدناءة المرتكبة في المعركة راحت تنتشر بصوت خافت في الحانات وحلقات النميمة. ولم يبق هناك من لم يعلم بها ويعلق عليها. وهكذا استطعت أن أتقصى التفاصيل، لكنني لم أعثر على رفات زوجي. ومنذ ذلك الحين تعذبني الشكوك بأن خوان لم يُدفن دفناً مسيحياً، وأن روحه ظلت هائمة تبحث عن الراحة. وقد تبعني خوان دي مالغا في الرحلة الطويلة إلى تشيلي، ورافقني في تأسيس مدينة سنتياغو، وأسند ذراعي كي أقوم بإعدام زعماء الهنود، وسخر مني عندما بكيتُ غضباً وحباً بسبب بالديبيا. وحتى هذا اليوم بالذات، بعد أكثر من أربعين سنة، مازال يظهر لي بين حين وآخر، بالرغم من أن عيني تخونانني الآن، وصرت أخلط بينه وبين أشباح أخرى من الماضي. بيتي في سنتياغو فسيح جداً، يشغل عقاراً فسيحاً في الشارع، بما في ذلك باحاته، واسطبلاته، وحديقة كبيرة. جدرانه الطينية

سميكة جداً، وسقوفه العالية تستند إلى عوارض من خشب السنديان. فيه مخابئ كثيرة يمكن أن تختفي فيها الأرواح الهائمة أو الشياطين أو الموت، وهذا الأخير ليس فزاعة مقنعة بمحجري عينين فارغين، مثلما يقول الكهنة لإخافتنا، وإنما هو امرأة ضخمة، بدينة، ذات صدر وافر وذراعين مرحبين، على هيئة ملاك أمومي. إنني أضيع في هذا البيت الكبير. منذ شهور يجافيني النوم، أفتقدُ يد رودريغو الدافئة فوق بطني. وفي الليل، عندما ينسحب الخدم، ولا يبقى إلا الحراس خارجاً والوصيفات المناوبات اللواتي يبقين ساهرات تحسباً لأن أحتاج لهن، أجوب البيت حاملة مصباحاً، أتفحص الغرف الواسعة ذات الجدران المبيّضة بالكلس والسقوف الزرقاء، أسوى اللوحات المائلة، والأزهار في الزهريات، أراقب الطيور في الأقفاص. والواقع أنني أتجول لاصطياد الموت. لقد كنت في بعض المرات على مقربة شديدة منه، بحيث استطعت أن أشم رائحته التي لها عبق ثياب مغسولة حديثاً، لكنه لعوب وماكر، لا أستطيع الإمساك به، يتفلت مني ويختفي في حشد الأرواح التي تقطن هذا البيت. وبين تلك الأرواح روح خوان المسكين التي لحقت بي إلى أقاصي الأرض، بطقطقة عظامه التي لن تُدفن وأسماله التي من قطيفة وبروكار يغطيه الدم.

لقد اختفى في كوسكو كل أثر لزوجي الأول. لا شك أن جسده المتشح بملابس إرناندو بيثارّو الفاخرة، كان أول جسد رفعه الجنود المنتصرون عن الأرض عند انتهاء المعركة، قبل أن ينزل الهنود من الجبال ليأكلوا من أجساد المهزومين المزقة. ولا شك في أن الجنود قد فوجئوا عندما وجدوا أن من تحت الخوذة والدروع ليس صاحبها الحقيقي، وإنما جندي مجهول، وأظن أنهم انصاعوا باستياء للأمر بالتستر على ما جرى، لأن آخر ما يغفره الإسباني هو الجبن، لكنهم فعلوا ذلك على أحسن وجه، بحيث محوا بالكامل كل أثر لمرور زوجي في هذه الدنيا.

وعندما شاع أن أرملة خوان دي مالغا تتجول وتسأل، رغب المركيز

الحاكم نفسه، فرانثيسكو بيثارّو، في التعرف إليَّ. كان قد شيد قصراً في مدينة الملوك، ومن هناك كان يسيطر على الإمبراطورية ببذخ، وغدر، وقبضة من حديد، لكنه كان يومذاك في زيارة لمدينة كوسكو. استقبلني في قاعة مفروشة بسجاد بيرويّ من صوف ثمين، وفيها أثاث مزين بنقوش غائرة. وكان غطاء المنضدة الرئيسية، ومساند المقاعد، والكؤوس، والشمعدانات، والمباصق، كلها مصنوعة من الفضة الخالصة. فالفضة متوفرة أكثر من الحديد في البيرو. كان عدد من الندماء المتجمعين في الأركان، مكفهرين وقاتمين كنسور الرخمة، يتهامسون ويحركون أوراقاً مظهرين أهميتهم. وكان بالديبيا يرتدي ثياباً من القطيفة السوداء، جبة محكمة على مقاسه بكمين مشقوقين، وطوق عنق أبيض، وتتدلى على صدره سلسلة ثخينة من الذهب، وإبزيمان للحذاء من الذهب أيضاً، وعباءة من فرو السمور على كتفيه. إنه رجل في حوالي الستين وبضع سنوات من عمره، متغطرس، له بشرة بها مسحة من الخضرة، ولحية يتخللها الشيب، وعينان غائرتان تنظران بارتياب، ونبرة غير مستحبة في صوته المصطنع. قدم لي تعزية مقتضبة بموت زوجي، دون أن يذكر اسمه. وبعد ذلك فوراً، بحركة غير متوقعة، مدّ لي كيس نقود يعينني على العيش «إلى أن تتمكني من الإبحار عائدة إلى إسبانيا»، كما قال. وفي هذه اللحظة اتخذتُ قراراً مفاجئاً لم أندم عليه قط.

ـ مع كل الاحترام يا صاحب السعادة، أنا لا أفكر في الرجوع إلى إسبانيا ـ قلتُ له.

ظهرت مسحة استياء سريعة ومخيفة على وجه المركيز الحاكم. اقترب من النافذة، وظل صامتاً لبعض الوقت، يتأمل المدينة التي تمتد تحت قدميه. فكرتُ في أنه قد نسيني، وبدأت بالتقهقر متراجعة باتجاه الباب، لكنه التفت فجأة، وتوجه إليّ من جديد:

ـ ما هو اسمك الذي أخبرتني به أيتها السيدة؟

- إنيس سواريث، في خدمتكم يا سيدي المركيز الحاكم.
- وكيف ستتدبرين نفقات عيشك؟
- بشرف يا صاحب السعادة.
- وبتكتم، كما آمل. فالتكتم مرغوب هنا، لاسيما من النساء. ستقدم لك البلدية مسكناً. عمت صباحاً، وأتمنى لك حظاً طيباً.

كان هذا هو كل شيء. وفهمت أنه من الخير لي إذا أردت البقاء في كوسكو، أن أتوقف عن توجيه الأسئلة. فخوان دي مالغا مات وشبع موتاً، وأنا صرت حرة. يمكنني القول إن حياتي بدأت في ذلك اليوم؛ فسنوات حياتي السابقة كانت تدريباً على ما سيأتي. أرجوكِ أن تصبري قليلاً يا إيزابيل، سترين عما قريب كيف أن هذه القصة المضطربة ستصل إلى اللحظة التي يتقاطع فيها مصيري مع مصير بيدرو دي بالديبيا، وستبدأ الملحمة التي أرغب في روايتها. قبل هذا كانت حياتي هي حياة خياطة تافهة في بلاسينثيا، مثل مئات ومئات العاملات اللواتي جئن قبلي وسيأتين بعدي. لقد عشت مع بيدرو دي بالديبيا حباً أسطورياً، وفتحت معه مملكة. ومع أنني أحببت أبيكِ إلى حد العبادة، وعشتُ معه ثلاثين سنة، إلا أن ما يستحق أن يُروى هي حياتي من أجل فتح تشيلي، المهمة التي أنجزتها مع بيدرو دي بالديبيا.

❖ ❖ ❖

استقر بي المقام في كوسكو، في البيت الذي قدمته لي البلدية بأمر من المركيز الحاكم بيثارّو. كان بيتاً متواضعاً، لكنه محترم، يتألف من ثلاث غرف وفناء، يقع في وسط المدينة ويعبق دائماً بشذى زهرة العسل التي تتسلق جدرانه. وقد خصصوا لي كذلك ثلاث هنديات للخدمة، اثنتين فتيتين وثالثة أكبر سناً اتخذت لنفسها اسماً مسيحياً هو كاتالينا، وسنتوصل إلى أن تكون صديقتي المفضلة. اتخذتُ الاستعدادات لممارسة

مهنتي كخياطة، وهي مهنة يشتد الطلب عليها بين الإسبان الذين يجهدون انفسهم لإطالة أمد استخدامهم الملابس الثقيلة التي جاؤوا بها معهم من إسبانيا. وكنت أعالج كذلك الجنود المرضى أو جرحى الحرب، ومعظمهم ممن قاتلوا في معركة لاس ساليناس. وكان الطبيب الألماني الذي سافر معي في القافلة من مدينة الملوك إلى كوسكو، يدعوني في أحيان كثيرة لأساعده في العناية بأشد الحالات سوءاً، فكنت أذهب مع كاتالينا، لأنها على دراية بالأدوية وفنون السحر. وكان هناك نوع من المنافسة بين كاتالينا والطبيب، تكون على الدوام في غير مصلحة المرضى عاثري الحظ. فهي لم تكن تهتم في تعلم أي شيء عن الأخلاط الأربعة التي تحدد حالة الجسد الصحية، وكان هو بدوره يزدري السحر والشعوذة، بالرغم من فعاليتها وجدواها في بعض الأحيان. أسوأ ما في عملي معهما كانت عمليات البتر التي تثير اشمئزازي، غير أنه يتوجب القيام بها، إذ لا تتوفر طريقة أخرى لإنقاذ الجريح عندما يبدأ اللحم بالتعفن. مع أن قلة منهم، على أي حال، كان يحالفهم الحظ بالبقاء على قيد الحياة بعد هذه العمليات.

لستُ أعرف شيئاً عن حياة كاتالينا قبل مجيء الإسبان إلى البيرو؛ فهي لا تتحدث عن الماضي، فضلاً عن كونها متشككة وغامضة. إنها قصيرة القامة، مربوعة، لبشرتها لون البندق، ولها جديلتان سميكتان مربوطتان على ظهرها بأشرطة ملونة، وعينان فحميتا السواد، وتعبق برائحة دخان. يمكن لكاتالينا هذه أن تكون في عده أماكن في الوقت نفسه، وأن تختفي خلال زفرة. تعلمت القشتالية، وتأقلمت مع عاداتنا، وكانت تبدو راضية بالعيش معي، وألحت بعد سنتين من ذلك على مرافقتي إلى تشيلي. «أنا يريد أذهب معك سنيوري» كانت تتوسل إليّ بلغتها المغناة. وكانت قد تقبلت التنصر والتعميد كي تتجنب المشاكل، لكنها لم تهجر معتقداتها؛ فمثلما كانت تصلي المسبحة وتشعل الشموع لسيدتنا عذراء الرحمة، كانت ترتل صلوات للشمس. هذه الرفيقة الحكيمة والوفية علمتني استخدام

النباتات الطبية، وأساليب العلاج السائدة في البيرو، والمختلفة عما هو شائع في إسبانيا. كانت المرأة الطبية تؤكد أن سبب العلل والأمراض هي أرواح شريرة وشياطين تدخل من فتحات الجسم وتختبئ في البطن. وكانت قد عملت مع أطباء من الإنكا اعتادوا إحداث الثقوب في جماجم المرضى لتهدئة الصداع والجنون، وهي أساليب في العلاج تفتن الألماني، غير أنه لم يكن هناك إسباني واحد مستعد لأن يخضع لها. وكانت كاتالينا تتقن فصد دم المرضى بصورة لا تقل جودة عن أفضل جرّاح، وخبيرة في إعطاء الملينات لتخفيف آلام المغص وثقل الجسد، لكنها تسخر من العقاقير التي يركبها الألماني. «هذا ليس إلا يقتل يا تاتاي» تقول له وهي تبتسم بأسنانها السوداء من الكوكا، وانتهى الأمر بالطبيب إلى الارتياب بجدوى الأدوية المشهورة التي بذل جهداً كبيراً لإحضارها من بلاده. كانت كاتالينا تعرف سموماً قوية، ومشروبات منشطة، وأعشاباً تمنح طاقة لا تعرف الكلل، وأخرى تجلب النعاس، أو توقف النزف، أو تخفف الألم. وقد كانت ساحرة، يمكنها التكلم إلى الموتى، ورؤية المستقبل؛ وتشرب في بعض الأحيان خليطاً من الأعشاب ينقلها إلى عالم آخر، حيث تتلقى نصائح الملائكة. لم تكن هي تسميهم بهذا الاسم، وإنما تصفهم بأنهم كائنات نورانية لهم أجنحة، وقادرون على الصعق بنيران نظراتهم؛ وهذه كائنات لا يمكن لها إلا أن تكون ملائكة. وقد اعتدنا على الامتناع عن ذكر هذه الأمور أمام أشخاص آخرين، لأنهم سيتهموننا بالسحر والتعامل مع الشيطان. وليس ممتعاً أن يجد المرء نفسه في إحدى زنازين محاكم التفتيش؛ فلأمور أقل مما نعرفه، انتهى الأمر بعاثري حظ كثيرين إلى المحرقة. لم تكن رُقى كاتالينا تعطي النتيجة المنشودة دوماً، كما هو طبيعي. ففي إحدى المرات حاولت أن تطرد من البيت روح خوان دي مالغا التي كانت تزعجنا كثيراً، لكن ما توصلت إليه هو موت عدة دجاجات في تلك الليلة، وظهر في اليوم التالي حيوان لاما برأسين. وقد فاقم ظهور الحيوان من الشقاق بين الهنود

والقشتاليين، لأن الأولين اعتقدوا أنه التجسيد الخالد للإنكا أتاوالبا، بينما صوّب إليه الآخرون رمحاً ليثبتوا أن ما فيه من الخلود ضئيل جداً. فنشب شجار خلّف عدداً من القتلى الهنود وجريحاً اسبانياً واحداً. عاشت كاتالينا معي سنوات طويلة، اعتنت بصحتي، ووقتني من أخطار، ووجهتني في اتخاذ قرارات مهمة. الوعد الوحيد الذي لم تتجزه هو مرافقتي في شيخوختي، لأنها ماتت قبلي.

علمتُ الهنديتين الشابتين اللتين خصتني بهما البلدية، رفو الثياب وغسلها وكيِّها، مثلما يفعلون في بلاسينثيا، وهي خدمات كانت تلقى رواجاً كبيراً في كوسكو آنذاك. وأمرت ببناء فرن من الطين في الفناء، وانهمكتُ مع كاتالينا في إعداد الفطائر. كان دقيق القمح باهظ الثمن، لكننا تعلمنا صنعها من دقيق الذرة. ولم تكن تتأخر لتبرد لدى خروجها من الفرن؛ فالرائحة تعلن عنها في الحي كله، ويهرع الزبائن جماعات لشرائها. وكنا نترك بعضها دوماً لنقدمه للمتسولين وبعض المزهوين المفتقرين ممن يعتاشون على الصدقات العامة. تلك الرائحة النفاذة من اللحم والبصل المقلي، والكمون والعجين المخبوز تغلغلت تحت جلدي بطريقة قوية، مازلت أحملها حتى الآن، وسوف أموت وأنا أعبق برائحة الفطائر.

استطعتُ تغطية نفقات بيتي، لكن أرملة مثلي، في مدينة الغلاء والفساد تلك، تجد نفسها في ضائقات قاسية للخروج من الفقر. كان يمكن لي أن أتزوج، ولم يكن هناك نقص بالرجال المتوحدين والمتلهفين، بعضهم على قدر من الوسامة؛ غير أن كاتالينا كانت تحذرني منهم على الدوام. فقد اعتادت أن تقرأ لي طالعي بخرزات وأصداف التنبؤ التي لديها، وتخبرني دوماً بالشيء نفسه: سأعيشُ حياة مديدة جداً، وسأتوصل إلى أن أكون ملكة، غير أن مستقبلي مرتبط برجلٍ رؤاها. وهو حسب قولها ليس واحداً ممن يطرقون بابي أو يلاحقونني في الشارع. وتعدني بالقول: «صبراً يا ماميتا، سوف يأتيك البيراكوتشا الذي لك».

وكان بين المتقدمين لي حامل الراية المتعجرف نونيث الذي لم يتخلَ عن رمي قفاز التحدي، مثلما كان هو نفسه يقول بعدم لياقة. لم يكن يفهم سبب صدي له، لاسيما وأن عذري السابق لم يعد نافعاً. فقد ثبت أنني أرملة، مثلما كان يؤكد لي منذ البداية. وخيل إليه أن رفضي هو نوع من الدلال. وهكذا، كلما ازداد نفوري عناداً، كان هو يزداد هياجاً. فكان عليّ أن أمنعه من المجيء بتلك الصورة المفاجئة إلى بيتي مع كلبيه، لأنهما يخيفان خادمتي. فالحيوانان المدربان على إخضاع الهنود والسيطرة عليهم، يبدآن بشدّ سلاسلهما والزمجرة عندما يشمان رائحة الخادمتين وينبحان كاشفين عن أنيابهما. ولم يكن هناك ما يمتع حامل الراية أكثر من تهييج كلبيه الضاريين ضد الهنود، لكنه كان يغفل توسلاتي ويداهم بيتي مع كلبيه، مثلما يفعل ذلك في أماكن أخرى. وفي أحد الأيام، طلع الصباح على الكلبين وأشداقهما مملوءة بزبد أخضر، وبعد ساعات قليلة ماتا متيبسين. توعد صاحبهما الحانق بقتل من سممهما، لكن الطبيب الألماني أقنعه بأنهما ماتا بالطاعون، وبأن عليه أن يحرق بقاياهما لتجنب العدوى. ففعل ذلك وهو خائف من أن يكون هو نفسه أول من سيصاب بعدوى المرض.

صارت زيارات حامل الراية تتزايد أكثر من السابق، ولأنه كان يضايقني في الشارع أيضاً، فقد حوّل حياتي إلى جحيم. «هذا الأبيض لا يفهم بالكلام إذن يا سينواي. وأنا أقول إنه من الأفضل أن يبدأ بالموت، مثل كلبيه»، هذا ما قالته لي كاتالينا. ففضلْتُ عدم التحقق مما تعنيه. وفي أحد الأيام، جاء نونيث كعادته، برائحته الذكورية وهداياه التي لا أرغب فيها، وملأ بيتي بحضوره الصاخب.

- لماذا تعذبينني أيتها الجميلة إينس؟ - سألني للمرة الألف وهو يمسكني من خصري.

- لا تضايقني أيها السيد. فأنا لم أسمح لك بمعاملتي بألفة - أجبته وأنا أنتزع نفسي من براثنه.

ـ حسن إذن يا عزيزتي إينس، متى سنتزوج؟

ـ هذا ما لن يحدث أبداً. هاهي ذي قمصانك وسراويلك، مرفوة ونظيفة. ابحث عن غسالة أخرى، لأنني لم أعد أريدك في بيتي. الوداع ـ ودفعته باتجاه الباب.

ـ اتقولين لي الوداع يا إينس؟ أنت لا تعرفينني يا امرأة! لا يمكن لأحد أن يهينني، وخاصة إذا كانت امرأة! ـ صرخ بي وقد صار في الشارع.

كانت ساعة الأصيل العذبة، عندما يجتمع الزبائن بانتظار خروج آخر الفطائر من الفرن، لكنني لم أجد الحماسة لتلبية طلباتهم؛ كنت أرتجف من الغضب والخجل. اكتفيت بتوزيع بعض الفطائر على الفقراء، كي لا يظلوا دون طعام، ثم أغلقت بابي الذي أبقيه في العادة مفتوحاً إلى أن تنتشر برودة الليل.

ـ ملعون هو يا ماميتاي، ولكن لا تقلقي. لا بد أن هذا النونيث سيجلب لك حسن الطالع – قالت لي كاتالينا مواسية.

ـ إنه لا يجلب لي إلا الكوارث يا كاتالينا. فرجل متبجح وحاقد هو خطر على الدوام.

❖ ❖ ❖

كانت كاتالينا على حق. فبفضل حامل الراية الذي ذهب إلى حانة ليشرب ويتبجح بما يفكر عمله بي، تعرفتُ في تلك الليلة بالذات على رجل قدري، ذاك الذي لم تكن كاتالينا تمل من الحديث عنه.

كانت الحانة عبارة عن قاعة واطئة السقف، لها عدة نوافذ تكاد لا تكفي لدخول الهواء اللازم للتنفس، يقوم على الخدمة فيها أندلسي طيب القلب، يقدم الشراب بالدين للجنود الذين لا مال لديهم. لهذا السبب، إضافة الى موسيقى الأوتار والطبول التي يعزفها زنجيان، كان المحل يغص بالزبائن. وعلى خلاف صخب الزبائن السعيد، كانت تبرز الهيئة الوقورة لرجل يشرب

وحيداً في أحد الأركان. كان يجلس إلى مقعد وراء منضدة صغيرة، وقد بسط عليها قطعة ورق مصفرة، يبقيها مفتوحة بقارورة نبيذه الموضوعة فوقها. إنه بيدرو دي بالديبيا، القائد الميداني لدى الحاكم فرانثيسكو بيثارّو، وبطل معركة لاس ساليناس، وقد تحوّل إلى أحد أثرى الأوصياء في البيرو. فاعترافاً بخدماته، كافأه بيثارو بأن منحه منجم فضة في بوركو، وأراضي شاسعة، خصيبة وعالية المردود في وادي لاكانيلا، ومئات الهنود للعمل فيها. وما الذي كان يفعله بالديبيا المشهور في تلك اللحظة؟ لم يكن يحسب سبائك الفضة المستخرجة من منجمه، ولا أعداد مواشي اللاما أو أكياس الذرة التي تنتجها مزارعه، بل كان يدرس خريطة رسمها دييغو ألماغرو على عجل، في سجنه، قبل أن يجري إعدامه. كانت تؤرقه الفكرة الثابتة بالانتصار هناك حيث أخفق المتقدم ألماغرو، في تلك الأراضي الغامضة في النصف الجنوبي من الأرض. تلك هي المنطقة الوحيدة التي مازالت بحاجة إلى الفتح والإعمار، الأرض الوحيدة البكر التي يمكن لعسكري مثله أن يبلغ المجد فيها. لم يكن راغباً في البقاء في ظل فرانثيسكو بيثارّو، وأن يشيخ براحة في البيرو. ولا ينوي كذلك العودة إلى إسبانيا، مهما أحرز من ثراء واحترام. ولم تكن تجتذبه فكرة اللقاء بمارينا التي تنتظره بوفاء منذ سنوات، ولا تكل من استدعائه في رسائلها المحملة على الدوام بالتبريك والتأنيب. فإسبانيا هي الماضي، وتشيلي هي المستقبل. الخريطة تبين الدروب التي جابها ألماغرو في حملته، وأشد المواقع صعوبة فيها: سلسلة الجبال، والصحراء، والمناطق التي يتركز فيها الأعداء. «من غير الممكن العبور إلى جنوب نهر بيو- بيو. هنود المابوتشي يحولون دون ذلك»، هذا ما كرره عليه ألماغرو مراراً وتكراراً. وظلت هذه الكلمات تلاحق بالديبيا، تتخسه. ويفكر «أنا سأعبر ذلك النهر»، بالرغم من أنه لم يكن يشك قط في شجاعة الماغرو.

كان مستغرقاً في هذه الأمور، عندما ميز، في الحانة الصاخبة،

صراخاً مخموراً؛ ودون أن يريد ذلك، وجد نفسه يصغي بانتباه. كان الصوت يتحدث عن أنه سيلقن أحد الأشخاص درساً يستحقه، وهذا الشخص هو امرأة متكبرة تدعى إنيس، تجرأت على تحدي حامل راية شريف في جيش الإمبراطور المسيحي كارلوس الخامس. بدا الاسم معروفاً لبالديبيا، وسرعان ما تبين له أنها الأرملة الشابة التي تغسل الملابس وترفوها في شارع معبد العذراوات. لم يستعن هو بخدماتها ـ فمن أجل هذا لديه خادماته الهنديات في بيته ـ، لكنه كان يراها أحياناً في الشارع أو في الكنيسة، وقد أمعن النظر إليها، لأنها إحدى الإسبانيات القليلات في كوسكو، وقد تساءل بينه وبين نفسه كم ستصمد امرأة وحيده مثلها هنا. وقد لحق بها في مناسبتين اثنتين عن بعد، وسار وراءها بضع كوادرات، لا لشيء إلا التمتع برؤية حركة ردفيها ـ فهي تمشي بخطوات غجرية واثقة ـ وانعكاس الشمس على شعرها النحاسي. بدا له أنها تشع ثقة بالنفس وقوة في الطبع، وهما شرطان يلح على توافرهما في ضباطه، لكنه لم يفكر قط في أنه يقدرهما في امرأة. فحتى ذلك الحين لم تكن تجتذبه إلا الصبايا شديدات العذوبة والهشاشة اللواتي يوقظن الرغبة في حمايتهن، ولهذا تزوج من مارينا. ليس في إنيس هذه أي شيء من الضعف أو السذاجة، بل هي أقرب إلى أن تكون مخيفة. إنها حيوية خالصة، أشبه بإعصار مكبوح. ومع ذلك، كان هذا هو أكثر ما لفت انتباهه فيها. هذا ما قاله لي في ما بعد على الأقل.

من خلال نتف العبارات التي كانت تصله مخنوقة بضجة الحانة، استطاع بالديبيا أن يستنتج خطة حامل الراية المخمور، والذي كان يصرخ طالباً متطوعين اثنين يصطحبانه لاختطاف المرأة في الليل وأخذها إلى بيته. أحيط طلبه بالضحك وبعبارات مزاح فاحشة، لكن أحداً لم يتقدم لمساعدته، لأن عمل ذلك لن يكون نذالة فحسب، بل تصرفاً خطيراً أيضاً. فاغتصاب الهنديات اللاتي لا قيمة لهن، والاستمتاع بهن في الحرب هو شيء، وشيء آخر مختلف تماماً هو الاعتداء على أرملة إسبانية استقبلها

الحاكم شخصياً. نصحه رفاقه في اللهو بأنه من الأفضل له أن ينتزع هذه الفكرة من رأسه؛ لكن نونيث أعلن أنه لن يفتقر إلى من يساعده في تنفيذ مراده.

ظل بيدرو دي بالديبيا يراقبه، وبعد نصف ساعة من ذلك، لحق به في الشارع. خرج الرجل متعثراً، دون أن ينتبه إلى أن هناك من يتبعه. توقف هنيهة أمام باب بيتي، مقدراً إذا ما كان بإمكانه تحقيق مهمته وحيداً، لكنه قرر عدم المجازفة؛ فعلى الرغم من غشاوة الخمر على عقله، كان يعرف أن سمعته وحياته العسكرية ستتعرض للخطر. رآه بالديبيا يبتعد، فكمن عند الناصية، متخفياً في الظلام. لم يضطر إلى الانتظار طويلاً، إذ سرعان ما رأى هنديين متكتمين راحا يطوفان حول البيت متفحصين الأبواب والنوافذ المطلة على الشارع. وعندما تبين لهما أنها موصدة من الداخل، قررا تسلق السور الحجري الذي لا يزيد ارتفاعه عن خمسة أقدام، ويحمي البيت من الجهة الخلفية. وخلال دقائق قليلة قفزا داخل الفناء، ولسوء حظهما فقد قلبا لدى سقوطهما خابية وكسراها. ولأني خفيفة النوم، فقد أيقظتني الضجة. أما بيدرو فتركهما يفعلان ذلك ليرى إلى أين يمكنهما الوصول، ثم قفز عن السور في أثرهما. وفي أثناء ذلك، كنتُ قد أشعلت مصباحاً، بل إنني تناولت كذلك سكيناً طويلة أستخدمها في تقطيع اللحم للفطائر. وكنت مستعدة لاستعمالها، لكنني رحت أصلي كي لا أضطر إلى ذلك، لأن سيباستيان روميرو كان يُثقل عليّ كثيراً، ولا أريد أن أُثقل على ضميري بجثة أخرى. خرجتُ إلى الفناء تتبعني كاتالينا، وقد وصلنا متأخرتين عن أفضل ما في المشهد، لأن الفارس كان قد حاصر المهاجمين واستعد لتقييدهما بالحبل نفسه الذي أحضراه معهما لتقييدي به. جرت الأحداث بسرعة كبيرة، دون جهد كبير من جانب بالديبيا الذي بدا باسماً أكثر منه غاضباً، كما لو أن الأمر مجرد لعبة أطفال.

لقد كان الوضع مضحكاً. فقد خرجتُ مشعثة الشعر وبقميص النوم؛

وكانت كاتالينا تطلق اللعنات بلغة الكيتشوا، والهنديان يرتجفان خوفاً؛ وكان هناك سيد نبيل يرتدي جبة من القطيفة وسروالاً من الحرير وجزمة عالية من جلد مدعوك، والسيف في يده، يكنس الأرض بريشة قبعته وهو ينحني لتحيتي. انفجرنا كلانا في الضحك.

ـ لن يعود هذان التعيسان لإزعاجك يا سيدتي ـ قال بشهامة.

ـ ليس هما من يقلقاني أيها السيد، وإنما من أرسلهما.

ـ لن يعود هو أيضاً إلى نذالاته، لأن حسابه عندئذ سيكون معي.

ـ وهل تعرفون من هو؟

ـ لدي فكرة جيدة عنه، وإذا ما كنتُ مخطئاً، فسوف يعترف هذان البائسان تحت التعذيب بحقيقة من أرسلهما.

وعند قوله هذا ارتمى الهنديان على الأرض ليقبّلا جزمة الفارس ويتوسلا إليه أن يُبقي على حياتيهما وهما يذكران اسم حامل الراية نونيث. ورأت كاتالينا أنه يتوجب قطع عنقيهما هناك بالذات، وقد اتفق بالديبيا معها في الرأي، لكنني وقفت بين سيفه وبين الهنديين البائسين.

ـ لا يا سيدي، أتوسل إليك. لا أريد موتى في فناء بيتي، لأنهم يوسخون الفناء ويجلبون سوء الطالع.

عاد بالديبيا إلى الضحك، وفتح البوابة وطردهما بركلات مدوية على مؤخرتيهما، بعد أن نبههما إلى وجوب مغادرتهما مدينة كوسكو هذه الليلة بالذات وإلا فإنهما سيدفعان الثمن.

ـ أخشى أن حامل الراية نونيث لن يكون متسامحاً معهما مثلك أيها الفارس. سيبحث عن هذين الرجلين في السماء والأرض، لأنهما يعرفان الكثير ولا يناسبه أن يتكلما ـ قلت.

فأجابني:

ـ صدقيني يا سيدتي أن لي من السلطة ما يمكنني من إرسال حامل الراية نونيث ليتعفن في غابات تشونتشوس، وأؤكد لك أنني سأفعل ذلك.

عندئذ فقط تعرفتُ عليه. إنه القائد الميداني، وبطل حروب كثيرة، وأحد أثرى الرجال وأوسعهم نفوذاً في البيرو. كنتُ قد رأيته في عدة مناسبات، ولكن من بعيد دائماً، مزدهياً بجواده العربي وسلطته الطبيعية.



في تلك الليلة تقرر مصير حياة بيدرو دي بالديبيا وحياتي. لقد كنا نمضي لسنوات في دوائر، يبحث أحدنا عن الآخر في العماء، إلى أن التقينا أخيراً في فناء بيت في شارع معبد العذراوات. دعوته شاكرة إلى دخول بيتي المتواضع لتكريمه، بينما ذهبت كاتالينا لاحضار كأس من النبيذ الذي لا يغيب عن بيتي لتقدمه إليه. وقبل أن تختفي في الهواء، كما هي عادتها، أومأت لي كاتالينا من وراء ظهر الضيف، وهكذا عرفتُ أنه الرجل الذي رأته في أصداف التنجيم. فوجئتُ، لأنني لم أتخيل قط أن الحظ سيخصني بشخص مهم مثل بالديبيا، وبادرتُ إلى تفحصه من قدميه حتى رأسه على ضوء المصباح الأصفر. أعجبني ما رأيته. عينان زرقاوان مثل سماء إستريمادورا، ملامح رجولية، وجه منفتح وإن بدا صارماً، قوياً، وهيئة محارب جيدة، له يدان متصلبتان في استخدام السيف، لكن أصابعهما طويلة وأنيقة. إن رجلاً مثله هو ترف كبير دون شك في بلاد الهند، حيث كثير من الرجال موسومون بندوب جراح مريعة، أو يفتقدون عيناً أو أنفاً أو أحد أطرافهم. وماذا رأى هو فيَّ؟ امرأة نحيلة، متوسطة القامة، بشعر مفلت ومشعث، وعينين بنيتين، وحاجبين سميكين، حافية القدمين، ترتدي قميص نوم من قماش رخيص. ظللنا نتبادل النظرات صامتين لوقت أبدي دون أن يتمكن أحدنا من رفع بصره عن الآخر. وبالرغم من أن الليلة كانت باردة، إلا أنني أحسست بحريق في جلدي، وبخيط من العرق يسيل على ظهري. أعرف أن إعصاراً مماثلاً كان يعصف به، لأن هواء الغرفة صار كثيفاً. برزت كاتالينا من العدم فجأة ومعها النبيذ؛ ولكنها حين أدركت ما الذي يحدث، اختفت ثانية لتتركنا وحيدين.

سيعترف لي بيدرو في ما بعد بأنه لم يبادر في تلك الليلة إلى الحب لأنه كان بحاجة إلى الوقت كي يهدأ ويفكر. «عندما رأيتكِ شعرتُ بالخوف لأول مرة في حياتي»، هذا ما سيقوله لي بعد وقت طويل جداً. لم يكن رجل خليلات وعشيقات، إذ لم تُعرف له عشيقة، ولم يُقم علاقات مع هنديات قط، لكنني أفترض أنه كان يعاشر أحياناً بعض النساء المأجورات. لقد كان وفياً على الدوام، على طريقته، لمارينا أورتيث دي غايتي التي يشعر بالتقصير نحوها. فقد أحبها وهي في الثالثة عشرة، ولم يُسعدها، وهجرها لينطلق في مغامرة بلاد الهند. كان يشعر بالمسؤولية تجاهها أمام الرب. أما أنا فكنتُ حرة، وحتى لو كانت لدى بيدرو نصف دزينة من الزوجات، فإنني سأحبه.. إنه قدر لا مفر منه. كان عمره حوالي أربعين سنه، وكنتُ في حوالي الثلاثين، لا يمكن لأي منا أن يضيع الوقت، ولهذا رحتُ أوجه الأمور في مسارها الذي لا بد منه.

كيف وصلنا إلى المعانقات بتلك السرعة؟ من الذي أمسك يد الآخر أولاً؟ من الذي بحث عن شفتي الآخر ليقبّله؟ لقد كنتُ أنا من بادرت دون شك. ما إن استطعت إخراج الصوت لكسر الصمت المشحون بالنوايا الذي كنا نتبادل النظرات فيه، حتى أخبرته دون مقدمات أنني كنت أنتظره منذ زمن طويل، لانني رأيته في أحلامي وفي خرزات وودع التنجيم، وأنني مستعدة لأن أحبه إلى الأبد، وعهود أخرى، دون أن أخفي شيئاً ودون حياء أو خفر. تراجع بيدرو متصلباً، شاحباً، إلى أن اصطدم ظهره بالجدار. أي امرأة محترمة تتكلم بهذه الطريقة إلى شخص غريب؟ ومع ذلك، لم يفكر في أنني قد فقدت عقلي أو أنني مومس طليقة في كوسكو، لأنه هو أيضاً كان يشعر في عظامه وفي فجوة الروح باليقين بأننا ولدنا ليحب أحدنا الآخر. أطلق زفرة، أقرب إلى النحيب، ودمدم باسمي بصوت منكسر. وبدا لي أنه قال: «وأنا أيضاً انتظرتك منذ الأزل». أظن أننا نُجمِّل مع مرور الحياة بعض الذكريات، ونحاول نسيان غيرها. لكن ما أنا واثقة منه هو أننا

تبادلنا الحب في تلك الليلة بالذات، ومنذ المعانقة الأولى استنفدتنا اللهفة نفسها.

بالديبيا الذي تكوّن في خضم الحروب، لم يكن يعرف شيئاً عن الحب، لكنه كان جاهزاً لتلقيه عندما جاءه؛ فقد سقطنا منهارين، هو فوقي، يقبلني، يعضني، بينما كان يتخلص، بالتمزيق، من جبته.. من سرواله.. من جزمته.. من جوربيه، متلهفاً، وفي عينيه بريق فتى غر. تركته يفعل ما يريد، كي يخمد هياجه؛ كم من الوقت مضى عليه دون امرأة؟ شددته إلى صدري، شاعرة بنبضات قلبه، بدفئه الحيواني، برائحته كرجل. لابد لبيدرو من أن يتعلم الكثير، ولكن لا حاجة للسرعة، فلدينا كل ما تبقى من حياتنا، وأنا معلمة جيدة؛ ففي هذا الأمر على الأقل يمكنني أن أشكر خوان دي مالغا. وما إن تعلم بيدرو بأن من يأمر وراء الأبواب المغلقة هي أنا، وأنه ليس هناك أي عار في ذلك، حتى أبدى استعداداً للانصياع بمزاج رائع. تأخر ذلك بعض الوقت، حوالي أربع أو خمس ليال، لأنه كان يعتقد أن الاستسلام يخص الأنثى وأن السيطرة للذكر؛ فهذا ما رآه لدى الحيوانات وما تعلمه في مهنته العسكرية. ولكن، لم تذهب سدى السنوات التي أمضاها خوان دي مالغا وهو يعلمني التعرف على جسدي وعلى جسد الرجال. وأنا أصر على عدم تطابق الرجال جميعهم، لكنهم يتشابهون كثيراً، وبقدر قليل من البديهة، يمكن لأي امرأة أن توفر لهم السعادة. ولكن العكس ليس صحيحاً؛ فقلة هم الرجال الذين يستطيعون إرضاء امرأة، وأقل منهم من هم مستعدون لعمل ذلك. لقد كان بيدرو ذكياً حين ترك سيفه في الجانب الآخر من الباب واستسلم لي. تفاصيل تلك الليلة الأولى ليست كبيرة الأهمية، يكفي القول إننا كلانا اكتشفنا الحب الحقيقي، لأننا لم نكن قد عرفنا حتى ذلك الحين انصهار الجسد والروح. لقد كانت علاقتي بخوان جسدية، وكانت علاقته بمارينا روحية؛ بينما بلغت علاقتنا معاً حدَّ الكمال.

ظل بالديبيا محبوساً في بيتي طيلة يومين. لم تُفتح خلالهما الأبواب والنوافذ، ولم يصنع أحد فطائر، وكانت الهنديات يمشين بصمت على رؤوس أصابعهن، وتتدبر كاتالينا أمر توفير حساء الذرة للمتسولين. وكانت هذه المرأة الوفية تأتينا بالنبيذ والطعام إلى السرير؛ وهيأت كذلك خابية ماء ساخن لنغتسل، وهي عادة بيروية علمتني إياها. فمثل كل إسباني أصيل، كان بيدرو يعتقد أن الاستحمام خطر، يؤدي إلى ضعف الرئتين وهزال الدم، لكنني أكدت له أن أهل البيرو يستحمون كل يوم وليس بينهم من هو ضعيف الرئتين أو مائع الدم. انقضى اليومان بسرعة تنهيدة ونحن نروي ماضينا ونمارس الحب في إعصار حارق، في استسلام لا يصل أبداً إلى أن يكون كافياً، رغبة مجنونة في الانصهار بالآخر، في الموت والموت، «آه يا بيدرو!». «آه يا إنيس!» وننهار معاً، ونظل متشابكي السيقان والأذرع، مستنفدين، مستحمين بالعرق نفسه، ومتحدثين همساً. وبعد ذلك تتجدد الرغبة بزخم أشد بين الملاءات المبللة؛ رائحة رجل ـ حديد، ونبيذ، وحصان ـ، رائحة امرأة ـ مطبخ، ودخان، وبحر ـ، عبق الاثنين معاً فريد لا ينسى، إنه عبير الغابة.. حساء كثيف. تعلمنا الصعود حتى السماء والتأوه معاً، مجروحين بضربة السوط نفسها التي توصلنا إلى شفير الموت وتُغرقنا بعد ذلك في سبات عميق. كنا نستيقظ مرة بعد أخرى مستعدين لاختراع الحب من جديد، إلى أن جاء فجر اليوم الثالث، بصراخ ديكته ورائحة الخبز. عندئذ طلب بيدرو المتحول ملابسه وسيفه.



آه! كم هي عنيدة الذاكرة! وذاكرتي لا تتركني بسلام، تملأ مخيلتي بصور، بكلمات، بألم وحب. أشعر بأنني أعود مرة بعد أخرى لأعيش ما عشته. الجهد في كتابة هذه القصة ليس في التذكر، وإنما في بطء نقله إلى الورق. لم يكن خطي جيداً قط، على الرغم من الجهود التي بذلها غونثالث دي مارموليخو، لكنه يكاد يكون غير مقروء الآن. إنني

متسرعة بعض الشيء، لأن الأسابيع تمضي طيراناً ومازال لدي الكثير لأرويه. إنني أتعب. الريشة تمزق الورق وتسقط ملطخة بالحبر. وباختصار، هذا العمل كبير عليّ. لماذا أصرُّ عليه؟ من عرفوني بعمق ماتوا كلهم، أنتِ وحدك يا إيزابيل من لديكِ فكرة عمن أكون، لكن هذه الفكرة مشوهة بالمحبة وبالدَّين الذي تظنين أنك تدينين به إلي. أنت لا تدينين لي بأي شيء، وهذا ما قلته لكِ مراراً؛ فأنا من تدين لكِ أنت، لأنكِ أتيت لإشباع حاجتي العميقة في أن أكون أماً. أنت صديقتي ونجيتي، والشخص الوحيد الذي يعرف أسراري، بما فيها تلك التي منعني الحياء من تقاسمها مع أبيك. إننا على علاقة جيدة، أنت وأنا، فأنت طيبة المزاج ونضحك معاً، ضحك النساء يولد من التواطؤ. أشكرك لأنك جئت مع أبنائك للإقامة هنا، بالرغم من أن بيتك لا يبعد أكثر من كوادرتين. تتذرعين بأنك تحتاجين إلى صحبة بينما زوجك بعيد عنك في الحرب، مثلما كان زوجي من قبل، لكنني لا أصدقك. فالحقيقة أنك تخشين أن أموت وحيدة في بيت الأرملة الفسيح هذا الذي سيكون لكِ عما قريب، مثلما ستكون لك كل ثرواتي الدنيوية. تسعدني فكرة رؤيتك وقد تحولت إلى امرأة واسعة الثراء؛ يمكنني المغادرة بطمأنينة إلى العالم الآخر، بعد أن أنجزت بالكامل العهد بحمايتك الذي قطعته لأبيك عندما جاء بك إلى بيتي. كنت لا أزال آنذاك عشيقة بيدرو دي بالديبيا، لكن ذلك لم يمنعني من تلقيكِ بذراعين مفتوحين. في ذلك الحين كانت مدينة سنتياغو قد هدأت من الصخب الذي سببه أول هجوم للهنود، كنا قد خرجنا من الفقر وبدأنا نمنح أنفسنا بعض الترف، بالرغم من أنها لم تكن قد صارت مدينة حقيقية بعد، وإنما مجرد بلدة. وبسبب مزاياه وشخصيته النقية، تحوّل رودريغو دي كيروغا إلى الضابط المفضل لدى بيدرو، وإلى أفضل أصدقائي. كنتُ أعرف أنه مغرم بي، فالمرأة تعرف هذه الأمور على الدوام، وإن لم تفلت منه أية إيماءة أو كلمة تشي بما في أعماقه. فرودريغو ما كان ليسمح لنفسه بذلك، ولو في أعمق أسرار قلبه،

لأنه شديد الوفاء لبالديبيا، قائده وصديقه. وأظن أنني كنت أحبه أيضاً ـ يمكن للمرأة أن تحب رجلين في الوقت نفسه ـ، لكنني أخفيت هذا الشعور كي لا أعرض شرف رودريغو وحياته للخطر. لم يحن الوقت بعد لأتحدث عن هذا كله، لأنه سيأتي في ما بعد.

هناك أمور لم تتح لي فرصة إخبارك بها، بسبب انشغالي الكبير بشؤون يومية، وسأحملها معي إلى القبر ما لم أكتبها الآن. وبالرغم من ميلي الشديد إلى الدقة، إلا أنني أغفلت الكثير. فقد كان عليّ أن أكتفي بانتقاء ما هو جوهري، لكنني واثقة من أنني لم أخن الحقيقة. هذه هي قصتي وقصة رجل، دون بيدرو دي بالديبيا الذي سجل مدونو الأخبار مآثره البطولية بصرامة، وستبقى صفحاتهم حتى نهاية الأزمنة؛ ومع ذلك، أنا أعرف عنه ما لا يمكن للتاريخ أن يتقصاه أبداً: ما الذي كان يخشاه وكيف أَحبّ.



العلاقة مع بيدرو دي بالديبيا قلبت كياني. لم أعد قادرة على العيش من دونه، وبقائي يوماً واحداً دون رؤيته يصيبني بالحمى، وقضاء ليلة دون أن أكون بين ذراعيه يكون عذاباً. في البدء، لم يكن حباً فحسب، بل أكثر من الحب، كان ولهاً أعمى، منفلتاً من كل القيود، ولحسن الحظ أنه كان يشاطرني المشاعر نفسها، ولو لم يكن كذلك لفقدتُ عقلي. وفي ما بعد، عندما رحنا نتجاوز عقبات القدر، أفسح الوله المكان للحب. كنت أقدره بقدر ما أشتهيه، استسلمتُ بالكامل لطاقته، أغوتني شجاعته ومثاليته. كان بالديبيا يمارس سلطته دون تصنع، وكان يفرض الطاعة بمجرد حضوره، له شخصية طاغية، لا تُقاوم، لكنه يتحول تحولاً تاماً في لقاءاتنا الحميمة. في فراشي كان لي، استسلم لي دون تحفظ، مثل فتى في حبه الأول. لقد كان معتاداً على قسوة الحرب، متسرعاً وقلقاً؛ وقد استطعنا مع

ذلك قضاء أيام كاملة من الكسل والعطالة، كرسناها في تعرف أحدنا على الآخر برواية تفاصيل قدرينا بتسرع حقيقي، كما لو أن حياتنا ستنتهي خلال أقل من أسبوع. أنا من كنت أحسب الأيام والساعات التي نقضيها معاً، إنها كنزي. وكان بيدرو يحسب معانقاتنا وقبلاتنا. يذهلني أن أياً منا لم تصبه بالذعر تلك العاطفة التي تبدو لي اليوم، وأنا أنظر إليها من بعيد، تعسفية وطاغية.

كان بيدرو يقضي الليالي في بيتي، باستثناء الأيام التي يتوجب عليه فيها الذهاب إلى مدينة الملوك أو زيارة أملاكه في بوركو ولاكانيلا، لأنه لا يأخذني معه عندئذ. كنت أُعجب برؤيته على صهوة حصانه ـ كان له مظهر عسكري ـ وبرؤيته يمارس موهبته القيادية بين مرؤوسيه ورفاقه في السلاح. كان يعرف أشياء كثيرة لم تخطر لي من قبل، وكان يعلق معي على ما يقرأه، ويشاطرني أفكاره. لقد كان رائعاً معي، يهدي إليّ أثواباً فاخرة، أقمشة، مجوهرات، ونقوداً ذهبية. وكان سخاؤه هذا يضايقني في البدء، لأني أرى فيه محاولة لشراء محبتي، لكنني اعتدت على ذلك في ما بعد. بدأت أدخر، مفكرة في امتلاك شيء مضمون إلى هذا الحد أو ذاك في المستقبل. «لا يمكن لأحد أن يعرف ما قد يحدث»، هذا ما كانت تقوله أمي دائماً، وهي التي علمتني تخبئة النقود. أضف إلى ذلك أنني اكتشفت أن بيدرو ليس مدبراً جيداً، ولا يهتم كثيراً بأملاكه؛ مثل أي نبيل إسباني، فهو يرى نفسه أسمى من العمل أو من النقود الحقيرة التي يمكن له أن ينفقها كدوق، لكنه لا يعرف كيف يكسبها. المنح التي تلقاها من بيثارّو على شكل أراض ومناجم كانت أشبه بضربة حظ، تلقاها بالبساطة نفسها التي لديه استعداد لأن يفقدها بها. في أحد الأيام تجرأتُ على القول له إنني أرتعب من طريقته في التبذير، لأني اضطررتُ منذ طفولتي على العمل لكسب قوتي، لكنه أسكتني بقبلة. وردّ قائلاً: «الذهب وُجد لإنفاقه، والحمد لله أنه متوفر لدي بكثرة». لم يطمئنني ذلك، بل على العكس.

كان بالدييبيا يعامل هنوده الذين يعملون لديه وفق نظام الوصاية باحترام أكبر من غيره من الإسبان، ولكن بصرامة على الدوام. كان قد أقر ورديات عمل، وكان يغذي هنوده تغذية جيدة، ويجبر مراقبي عماله على توخي الحذر في العقوبات، بينما كانوا في مناجم ومزارع أخرى يجبرون النساء والأطفال على العمل.

- أنا لستُ كذلك يا إنيس. إنني أحترم قوانين إسبانيا إلى حيث يكون ذلك ممكناً - ردّ متشامخاً عندما حدثته في الأمر.

- ومن الذي يحدد المدى الممكن؟

- الأخلاق المسيحية والعقل السليم. فمثلما لا يتوجب عدم إماتة الخيول من الإنهاك، يجب عدم إساءة استغلال الهنود. فمن دونهم لا نفع في المناجم والأراضي. أرغب في التعايش معهم بوئام، غير أنه لا يمكن إخضاعهم دون استخدام القوة.

- أشك في أن يكون في إخضاعهم فائدة لهم يا بيدرو.

- أتتشككين في منافع المسيحية والحضارة؟ - قال مفنداً رأيي.

- الأمهات الهنديات يتركن في بعض الأحيان أطفالهن حديثي الولادة يموتون جوعاً قبل أن يتعلقن بحبهم، لأنهن يعرفن أن الأبناء سيُنتزعون منهن لاستعبادهم. ألم يكونوا أفضل حالاً قبل مجيئنا؟

- لا يا إنيس. لقد كانوا يعانون تحت سلطة الإنكا أكثر من معاناتهم الآن. علينا أن ننظر إلى المستقبل. فقد صرنا هنا، وسنبقى. في يوم ما ستكون هناك سلالة جديدة، مزيج منا ومن الهنديات، وسيكون الجميع مسيحيين توحدهم لغتنا القشتالية والقانون. عندئذ سيعم السلام والازدهار.

هذا ما كان يؤمن به، لكنه مات دون أن يراه يتحقق، وسأموت أنا أيضاً قبل أن يتحقق هذا الحلم، لأننا في أواخر العام 1580 ومازال الهنود يكرهوننا.

سرعان ما اعتاد الناس في كوسكو على اعتبارنا زوجين، وإن كنت

أتخيل أن تعليقات خبيثة كان يجري تداولها من وراء ظهرينا. لو أنني كنت في إسبانيا لعاملوني كخليلة، أما في البيرو فلا أحد يسيئ احترامي، في وجهي على الأقل، لأن ذلك سيكون بمثابة إساءة احترام لبيدرو دي بالديبيا. الجميع كانوا يعرفون أن له زوجة في إستريمادورا، لكن ذلك لم يكن بدعة جديدة، فنصف الإسبان كانوا في وضع مشابه، زوجاتهم الشرعيات مجرد ذكرى غائمة؛ وهم يحتاجون في العالم الجديد إلى حب آني أو بديلات لزوجاتهم. أضف إلى ذلك أن الرجال في إسبانيا أيضاً لهم خليلات؛ وقد كانت الإمبراطورية مزروعة بأبناء الزنا، حتى إن كثيرين من الفاتحين هم من أبناء الزنا أولئك. في مناسبتين اثنتين حدثني بيدرو عن إحساسه بعذاب الضمير، ليس لأنه لم يعد يحب مارينا، وإنما لأنه غير قادر على الزواج مني. وقال لي إنه كان بإمكاني الزواج من أي واحد ممن كانوا يتوددون إليّ من قبل ولم يعودوا يتجرؤون الآن على النظر إليّ. لكن هذا الاحتمال لم يؤرقني قط. فقد كان واضحاً لدي منذ البداية أنه لن يكون بمقدورنا، أنا وبيدرو، أن نتزوج أبداً، اللهم إلا إذا ماتت مارينا، وهو ما لم يكن يتمناه أي منا؛ لهذا انتزعتُ هذا الأمل من قلبي وهيأت نفسي للاحتفال بالحب والتواطؤ اللذين نتقاسمهما، دون تفكير في المستقبل، أو في الإشاعات، أو العار، أو الخطيئة. لقد كنا عشيقين وصديقين. اعتدنا على الجدال صارخين، إذ لم يكن أي منا يتمتع بطبع وديع، لكن ذلك لم يؤد إلى انفصالنا. «منذ الآن فصاعداً سأتولى تغطية ظهركَ يا بيدرو، بحيث يمكنك التركيز على المعركة مواجهة»، هذا ما قلته له في ليلة غرامياتنا الثانية، وقد أخذ قولي هذا بحذافيره ولم ينسه قط. ومن جانبي، تعلمتُ تجاوز الصمت العنيد الذي كان ينتابني عادة عندما أغضب. ففي المرة الأولى التي قررت فيها معاقبته بالصمت، أمسك بيدرو وجهي بكلتا يديه، وصوّب إليّ عينيه الزرقاوين وأجبرني على الاعتراف بما يضايقني قائلاً بإصرار: «لستُ متنبئاً يا إنيس. يمكننا اختصار الطريق إذا ما أخبرتني بما

تريدينه مني». وبالطريقة نفسها كنت أواجهه عندما يسيطر عليه انعدام الصبر والعجرفة، أو عندما يبدو لي أحد قراراته غير مقبول. كنا متشابهين، فكلانا قوي، متسلط، طموح؛ هو يطمح في تأسيس مملكة وأنا أطمح في مرافقته. ما كان يشعر به، أشعر به أنا، وهكذا تقاسمنا الحلم نفسه.

في البدء كنتُ أكتفي بالإصغاء إليه عندما يأتي على ذكر تشيلي. لم أكن أعرف ما الذي يعنيه، لكنني أخفيت جهلي. واستعلمت من زبائني، الجنود الذين يأتونني بملابسهم لغسلها أو يجيئون لشراء الفطائر، وهكذا علمتُ بأمر إخفاق محاولة دييغو ألماغرو في فتح تشيلي. وكان الرجال الناجون من تلك المغامرة، ومن معركة لاس ساليناس، لا يمكلون مرابطياً واحداً، ويمضون بثياب ممزقة، وكثيراً ما يأتون خفية إلى باب الفناء بحثاً عن طعام مجاني، ولهذا يسمونهم «التشيليين المهلهلين». لم يكونوا يقفون في الدور مع المتسولين الهنود، بالرغم من أنهم لا يقلون عنهم فقراً، لأن هناك شيئاً من الاعتزاز في كون المرء واحداً من أولئك المهلهلين، فصارت الكلمة تشير إلى الرجل الشجاع، المقدام، الدؤوب، والمتكبر. وتشيلي، على حدّ وصف هؤلاء الرجال، هي ارض ملعونة، لكنني تصورت أن لدى بيدرو دي بالديبيا أسباباً وجيهة للذهاب إليها. ومن خلال استماعي له، رحت أتحمس لفكرته.

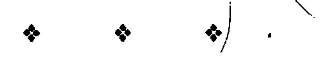
ـ سأحاول فتح تشيلي، حتى لو كلفني ذلك حياتي ـ قال لي.

ـ وأنا سأذهب معك.

ـ هذه مهمة لا تناسب النساء. لا يمكن لي تعريضك لأخطار هذه المغامرة يا إنيس، لكنني لا أرغب كذلك في الابتعاد عنك.

فأجبته:

ـ إياك أن تفكر في ذلك! سنذهب معاً أو لن يذهب أي منا.



❖ ❖ ❖

انتقلنا إلى مدينة الملوك، القائمة فوق مقبرة للإنكا، كي يتمكن بيدرو من الحصول على إذن فرانثيسكو بيثارّو للذهاب إلى تشيلي. لم يكن بمقدورنا النزول في البيت نفسه - وإن كنا نقضي الليالي كلها معاً -، كي لا نستثير ألسنة السوء والرهبان الذين يتدخلون في كل شيء، مع أنهم هم أنفسهم ليسوا مثالاً في الفضيلة. نادراً ما كنت أرى ظهور الشمس في مدينة الملوك، فالسماء ملبدة بالغيوم على الدوام؛ ولم يكن المطر يهطل كذلك، غير أن الندى المختلط بالهواء يلتصق بالشعر ويغطي كل شيء بطبقة صدأ مائلة إلى الخضرة. وفي الليل، حسب ما قالته كاتالينا التي ذهبت معنا، تخرج إلى الشوارع مومياءات الإنكا المدفونين تحت البيوت، لكنني لم أرها قط.

وبينما أنا أتقصى عما سنحتاج إليه في مشروع بالغ التعقيد، يتضمن اجتياز ألف فرسخ، وتأسيس مدن وفرض السلام على الهنود، كان بيدرو يضيع أياماً بطولها في قصر المركيز الحاكم، مشاركاً في لقاءات اجتماعية ومؤامرات سياسية تسبب له التكدر. وكانت مظاهر الاحترام والمودة التي يغدقها بيثارّو على بالديبيا تستثير حسداً قاسياً بين عسكريين وأوصياء آخرين. فقد كانت المدينة، منذ ذلك الحين، محاطة بنسيج المؤامرات التي تميزها اليوم. كان البلاط يعج بالمكائد، وكل شيء له ثمن، بما في ذلك الشرف. الطموحون والمتملقون يتلهفون لنيل الحظوة والمكاسب من المركيز الحاكم، وهو الشخص الوحيد الذي لديه سلطة منح إقطاعيات. لقد كانت هناك كنوز لا تقدر بثمن في البيرو، لكنها لا تكفي لكل أولئك اللجوجين الكثر. ولم يكن بيثارو يفهم، وهو يرى الآخرين يتهافتون على نيل المكاسب بملء أيديهم، كيف كان بالديبيا على استعداد لأن يرد إليه منجمه وإقطاعيته كي يكرر الخطأ الذي كلف دييغو ألماغرو غالياً. وقد سأله أكثر من مرة:

- لماذا أنت مصر على هذه المغامرة في تشيلي، تلك الأرض الجرداء يا دون بيدرو؟

وكان بالديبيا يرد عليه دوماً:

ـ كي أخلّف شهرة وذكراً لاسمي يا صاحب السيادة.

وقد كان هذا في الحقيقة هو مسوغه الوحيد. فالطريق إلى تشيلي يعادل اجتياز الجحيم، والهنود هناك جامحون، ولا وجود لوفرة من الذهب كما في البيرو، غير أن هذه العوائق كلها كانت فوائد في نظر بالديبيا. فتحدي الرحلة والقتال ضد أعداء شرسين يجتذبه، ومع أنه لم يعرب عن ذلك أمام بيثارو، إلا أن فقر موارد تشيلي كان يجتذبه، مثلما أوضح لي مراراً. كان واثقاً من أن الذهب يتسبب في الفساد والحسد. الذهب يقسم الإسبان في البيرو، ويزجج الخبث والجشع، ويغذي الدسائس، ويلين العادات ويضيع الأرواح. وقد كانت تشيلي في نظره هي المكان المثالي، بعيداً عن ندماء بلاط مدينة الملوك، حيث يمكنه أن يُؤَسّسُ فيها مجتمعاً عادلاً يقوم على العمل الشاق وحراثة الأرض، بلا ثروات تُكتسب بسهولة من المناجم والعبودية. وحتى الدين نفسه سيكون سهلاً ومبسطاً في تشيلي، لأنه سيتولى هو نفسه ـ وقد قرأ إراسمو ـ اجتذاب كهنة طيبين، وخدم حقيقيين للرب، وليس جمهرة من الرهبان الفاسدين والمكروهين. ومن سيتحدرون من نسل المؤسسين في تلك البلاد، سيكونون تشيليين قنوعين، شرفاء، مجدين، يحترمون القانون. لن يكون منهم أرستقراطيون، تلك الفئة التي يمقتها، لأن اللقب الوحيد الصالح ليس ذاك الذي يورّث، وإنما المكتسب بمزايا حياة جديرة وروح نبيلة. كنتُ أقضي ساعات في الاستماع إليه يتكلم على هذا النحو، بعينين مضمختين وقلب خاشع بالتأثر، متخيلة هذه الأمة اليوتوبية التي سنؤسسها معاً.

بعد أسابيع من التجول في قاعات وردهات القصر، بدأ بيدرو يفقد صبره، مقتنعاً بأنه لن يحصل على الإذن أبداً؛ أما أنا فكنت واثقة من أن بيثارّو سيمنحه إياه. لقد كان التأخير أمراً معهوداً في سلوك المركيز الذي لم يكن صديقاً للأمور السوية؛ يتصنع القلق من الأخطار التي سيواجهها

«صديقه» في تشيلي، لكن ما يناسبه في الحقيقة هو ذهاب بالديبيا بعيداً، حيث لا يمكنه التآمر ضده أو التغطية عليه بشهرته. النفقات، والمخاطر، والمحن ستكون مسؤولية بالديبيا، أما الأراضي التي يجري إخضاعها فستتبع لحكومة البيرو؛ وهو لن يخسر شيئاً في هذا المشروع العنيد، لأنه لا يفكر في توظيف مرابطي واحد فيه.

ـ تشيلي مازالت دون فتح ودون تنصير يا سيدي المركيز الحاكم، وهذا واجب علينا لا يمكننا تجنبه نحن رعايا جلالة الإمبراطور ـ قال بالديبيا.

ـ أشك في أنك ستجد رجالاً مستعدين لمرافقتك يا دون بيدرو.

ـ لم نفتقد قط الرجال الشجعان والمحاربين الجيدين بين الإسبان يا صاحب السعادة. فما أن ينتشر خبر هذه الحملة إلى تشيلي، حتى نجد فائضاً من حملة السلاح.

بعد أن اتضحت مسألة التمويل، هذا يعني أن النفقات يتحملها بالديبيا، منحه المركيز الحاكم الإذن متظاهراً بعدم رغبته في ذلك، وسارع إلى استرداد منجم الفضة الغني والإقطاعية اللذين كان قد منحهما من قبل لقائده الميداني الشجاع. لم يهتم هذا الأخير بالأمر. فقد ضمن حياة مريحة لمارينا في إسبانيا، ولم يكن يولي اهتماماً لثروته الشخصية. كان يملك تسعة آلاف بيزو ذهباً والوثائق اللازمة للمهمة.

ـ هناك تصريح ناقص ـ قلتُ له مذكّرة.

ـ أي تصريح؟

ـ الخاص بي، ومن دونه لن أستطيع مرافقتك.

عرض بيدرو على المركيز، بطريقة فيها شيء من المبالغة، خبرتي في علاج المرضى والجرحى، وكذلك معرفتي بالخياطة والطبخ، وهي أمور لا غنى عنها في رحلة كتلك، لكنه وجد نفسه عالقاً من جديد في مكائد القصور وموانع ومحظورات أخلاقية. وقد واصلتُ إلحاحي إلى حدّ توصل معه بيدرو إلى ترتيب لقاء لي مع بيثارّو لأتحدث إليه شخصياً. ولم أشأ أن يرافقني

بيدرو إلى اللقاء مع الحاكم، لأن هناك أموراً يمكن للمرأة القيام بها بصورة أفضل وهي وحدها.

ذهبتُ إلى القصر في الساعة المحددة، لكنني اضطررت إلى الانتظار ساعات في قاعة تغص بأناس آتين، مثلي، لطلب منافع. كان المكان مترعاً بالزينات، ومضاء بصفوف من الشموع في شمعدانات فضية. فقد كان ذلك النهار أكثر رمادية من سواه، والضوء الطبيعي الذي يتسرب من النوافذ شحيحاً جداً. حين علم الأعوان أنني آتية بتوصية من بيدرو دي بالديبيا، قدموا لي كرسياً، بينما كان على المراجعين الآخرين البقاء واقفين؛ وكان بعضهم قد أمضى شهوراً وهم يأتون يومياً، ويبدو عليهم الاستسلام الرمادي. جلستُ مطمئنة، دون أن أبدي ما يشير إلى أنني مستهدفة بنظرات بعض الحاضرين الجليدية، ممن يعرفون دون ريب علاقتي ببالديبيا، ولا بد أنهم كانوا يتساءلون في أعماقهم كيف تتجرأ خياطة تافهة، وامرأة تساكن رجلاً دون زواج، على طلب مقابلة المركيز الحاكم. عند الظهر تقريباً، جاء سكرتير وأعلن أن دوري في الدخول قد حان. تبعته إلى قاعة فسيحة ومهيبة، مزينة بترف مبالغ فيه - ستائر، دروع، بيارق، وذهب وفضة -، يصدم طبع القناعة الإسبانية، وخاصة طبع القادمين من استريمادورا. حراس مزينون بالريش يحرسون المركيز الحاكم، وأكثر من اثني عشر كاتباً، وسكرتيراً، وقانونياً، ونديماً متشدقاً، وكاهناً، ينكبون على سجلات ضخمة ووثائق لا يعرف الحاكم قراءتها؛ وعدد من الخدم الوطنيين يرتدون زياً موحداً، لكنهم حفاة، يقدمون نبيذاً وفواكه وحلوى مما تصنعه الراهبات. كان فرانثيسكو بيثارّو يجلس على أريكة من القطيفة والفضة موضوعة فوق منصة، وقد شرّفني بأنه يتذكرني بالقول إنه يتذكر لقاءنا السابق. كنت قد أخطتُ فستان أرملة لهذه المناسبة، وحضرتُ مرتدية السواد، مع طرحة وقلنسوة تغطي شعري. لا أظن أنه يمكن لمظهري أن يخدع الحاكم الماكر؛ وهو يعرف جيداً لماذا يرغب بالديبيا في اصطحابي

معه. لكنه سألني بصوته الثابت:

ـ بماذا يمكنني أن أخدمك أيتها السيدة؟

ـ أنا من ترغب في خدمتكم وخدمة إسبانيا يا صاحب السعادة ـ أجبته بتذلل لم أكن أشعر به، وبادرت إلى عرض خريطة دييغو ألماغرو عليه، والتي كان بالديبيا يحملها على الدوام ملتصقة بصدره. أشرت إلى طريق الصحراء التي يتوجب على الحملة اجتيازها، وأخبرته بأنني ورثت عن أمي موهبة اكتشاف مكامن الماء.

استولى الذهول على فرانثيسكو بيثارّو، وظل ينظر إليّ كما لو أنني أسخر منه. أظن أنه لم يسمع من قبل بوجود مثل تلك الموهبة، بالرغم من أنها شائعة ومعروفة إلى حدّ ما.

ـ أتقولين إنك قادرة على العثور على ماء في الصحراء، أيتها السيدة؟

ـ أجل يا سيدي.

ـ إننا نتكلم عن أشد الصحارى قُحولة في العالم!

ـ يقول بعض الجنود الذين شاركوا في الحملة السابقة، يا صاحب السعادة، إن بعض الأعشاب والنباتات تنمو هناك. وهذا يعني أن ثمة ماء، وقد يكون مختفياً على عمق معين. فإذا كان موجوداً فإنني قادرة على العثور عليه.

كانت قد توقفت في أثناء ذلك كل الأعمال في قاعة المقابلات، وكان الحضور جميعهم، بمن فيهم الخدم الهنود، يتابعون محادثتنا بأفواه فاغرة.

ـ اسمح لي أن اثبت لك ما أقوله يا سيدي المركيز الحاكم. يمكنني الذهاب مع شهود ترسلهم إلى أشد مكان قاحل تختاره، وسأثبت لكم أنني أستطيع العثور على ماء باستخدام غصن أخضر.

ـ لا حاجة لذلك أيتها السيدة. إنني أصدقك ـ قال بيثارّو بعد صمت طويل.

ثم بادر إلى إصدار الأوامر بمنحي التصريح المطلوب، وقدم إليَّ فوق ذلك خيمة فاخرة كعربون صداقة، «للتخفيف من مشقات الرحلة»، كما قال. وبدلاً من أن أتبع السكرتير الذي أراد اقتيادي إلى الباب، توقفت عند إحدى مناضد الكتبة بانتظار الحصول على وثيقتي، لأن إصدارها قد يتطلب شهوراً بغير ذلك. وبعد نصف ساعة، مهرها بيثارّو بخاتمه وقدّمها إليّ بابتسامة معوّجة. ولم يبق عليّ سوى الحصول على إذن الكنيسة.



رجعنا، أنا وبيدرو، إلى كوسكو لتنظيم الحملة، وهي ليست بالمهمة السهلة، إذ فضلاً عن النفقات، كان هناك قلة من الجنود الراغبين في الانضمام إلينا. وبدا أن ما قاله بالديبيا مراراً عن وجود وفرة من حملة السلاح الراغبين في الذهاب إلى تشلي، لم يكن إلا سخرية. فمن ذهبوا قبل سنوات مع دييغو ألماغرو، رجعوا ليرووا الأهوال عن ذلك المكان الذي أطلقوا عليه «مقبرة الإسبان»، وهو كما يؤكدون مكانٌ بائس، ليس فيه ما يكفي لإطعام ثلاثين وصياً إسبانيا. كان «التشيليون المهلهلون» قد رجعوا من هناك بلا أي شيء، ويعيشون على الصدقات؛ وهو دليل دامغ على أن تشيلي لا توفر لمن يذهب إليها سوى المشقات والمعاناة. فكان ذلك يُحبط همة أشجع الشجعان، غير أن بإمكان بالديبيا أن يكون بليغاً عندما يؤكد أننا ما إن نجتاز عقبات الطريق، حتى نصل إلى أرض خصيبة ووافرة الخيرات، حيث سنتمكن من الازدهار. فيسأله الرجال: «وماذا عن الذهب؟». سيكون هناك ذهب أيضاً، يؤكد لهم، وكل ما هنالك هو أنه علينا البحث عنه. تبين أن المتطوعين الوحيدين يفتقرون إلى المال، فكان عليه أن يقرضهم النقود كي يتزودوا بالأسلحة والخيول، مثلما فعل الماغرو قبله مع رجاله، حتى وهو يعلم مسبقاً بأنه لن يتمكن من استرداد أمواله أبداً. تناقصت التسعة آلاف بيزو، ولم تعد كافية لاقتناء الضروريات التي لا غنى عنها، عندئذ حصل بالديبيا على تمويل من تاجر بلا وساوس، مقابل أن يدفع له

خمسين بالمئة مما يحصل عليه من عملية الفتح.

ذهبتُ للاعتراف لدى مطران كوسكو الذي كنت قد ليَّنته قبل ذلك بإهدائه شراشف مطرزة لحجرة المقدسات في كنيسته، لأني كنت بحاجة إلى إذنه من أجل الخروج في الرحلة. وبما أنني كنت أملك وثيقة من بيثارّو، فقد ذهبتُ إليه وأنا واثقة إلى هذا الحد أو ذاك، غير أنه لا يمكن لأحد أن يعرف كيف يكون ردّ فعل الرهبان، فما بالك بالمطارنة. وخلال الاعتراف، لم أجد مفراً من عرض الحقيقة عارية حول غرامياتي. فقال لي المطران مُذكّراً:

- الخيانة الزوجية خطيئة مميته.

- أنا أرملة يا صاحب النيافة. وما أعترف به هو زنى، وهذه خطيئة رهيبة، لكنها ليست مثل الخيانة الزوجية التي هي أسوأ بكثير.

- كيف تريدينني يا ابنتي أن أغفر لك دون توبة ودون نية صادقة في عدم العودة إلى الخطيئة؟

- مثلما تفعل ذلك مع جميع إسبانيي البيرو يا صاحب النيافة، وإلا فإنهم سيهوون جميعهم على رؤوسهم إلى الجحيم.

منحني المغفرة والإذن بالسفر. وقد وعدته مقابل ذلك بأن أشيد في تشيلي كنيسة مكرسة لسيدتنا عذراء الرحمة، لكنه كان يفضل أن تكون لسيدتنا عذراء الشكر، مع أنها العذراء نفسها باسم آخر؛ لكني لم أجد ما يستحق الجدال في الأمر مع المطران.

في أثناء ذلك، كان بيدرو منهمكاً في تجنيد الجنود، والحصول على الياناكونا، أي الهنود المساعدين الضروريين، وشراء الأسلحة والذخائر، والخيام والخيول. وتوليتُ أنا مسؤولية أمور أخرى أقل أهمية، نادراً ما تخطر لبال الرجال العظام، مثل الأغذية، وأدوات الزراعة، وأدوات المطبخ، وحيوانات اللاما، والأبقار، والبغال، والخنازير، والدجاج، والبذور، والبطانيات، والأقمشة، والصوف وأشياء أخرى كثيرة. كانت النفقات

كبيرة جداً إلى حدٍّ اضطررت معه إلى إنفاق مدخراتي من النقود، وبيع مجوهراتي التي لم أكن أستخدمها على أي حال، إذ كنت أحتفظ بها لحاجة مُلحَّة، وقدرتُ أنه ليس هناك ما هو أشد إلحاحاً من فتح تشيلي. كما أنني اعترف، فضلاً عن ذلك، بأن الحلي لم ترق لي قط، فما بالك إذا كانت فاخرة جداً كالتي يهديها إليّ بيدرو. وفي المرات القليلة التي تزينت بها، خُيل إليّ انني أرى أمي مقطبة الجبين تذكّرني بأنه ليس من الملائم لفت الأنظار أو استثارة الحسد. سلمني الطبيب الألماني صندوقاً صغيراً فيه سكاكين، وملاقط وأدوات جراحية أخرى وعقاقير: زئبق، إسبيداج، زئبق حلو، مسحوق عشبة الجلبة، مترسب أبيض، وملح حامض الدردي، وأملاح زُحل، وكحل، ودم التنين، والحجر الجهنمي، وبولو أرمني، وتراب صابوني، وأثير. ألقت كاتالينا نظرة على تلك القوارير وهزت كتفيها بازدراء. لقد كانت تحمل أجربتها التي تحتوي على أعشاب مداواة يستخدمها السكان الأصليون، وقد أغنتها خلال الطريق بأعشاب الاستشفاء التشيلية. وأصرت فوق ذلك على حمل حوض الاستحمام الخشبي، لأنه لم يكن هناك ما يضايقها أكثر من نتانة البيراكوتشا، ولأنها موقنة أن الوساخة هي السبب في الأمراض جميعها تقريباً.

كنتُ منهمكة في هذه الأمور، عندما طرق بابي في أحد الأيام رجل ناضج، بسيط، له وجه طفل، قدّم نفسه باسم دون بينيتو. كان واحداً من رجال الماغرو، مجرب لسنوات طويلة في الحياة العسكرية، والوحيد الذي رجع مغرماً بتشيلي، لكنه لم يكن يجرؤ على إعلان ذلك أمام الملأ كي لا يظنون أنه معتوه. كان يرتدي ثياباً رثة مثل غيره من «التشيليين» الآخرين، لكنه يتمتع مع ذلك بوقار الجندي؛ ولم يكن آتياً ليقترض نقوداً أو ليضع شروطاً، وإنما لمرافقتنا وتقديم العون لنا. وقد كان يتفق مع بالديبيا في الرأي بأنه يمكن التأسيس في تشيلي لشعب عادل وسليم.

ـ تلك الأرض تمتد ألف فرسخ إلى الجنوب، والبحر يلامسها من الغرب،

بينما هناك في الشرق سلسلة جبال مهيبة لم أرَ لها مثيلاً في إسبانيا يا سيدتي - قال لي.

روى لنا دون بينيتو تفاصيل من رحلة دييغو ألماغرو الكارثية. قال إن المتقدم سمح لرجاله باقتراف فظاعات لا يليق بالمسيحي اقترافها. وأنهم اقتادوا معهم من كوسكو آلاف وآلاف الهنود المقيدين بسلاسل وبحبال تطوق أعناقهم، لمنعهم من الهرب. ومن كان يموت منهم يكتفون، بكل بساطة، بقطع رأسه كي لا يزعجوا أنفسهم بفك الحبل من أعناق الأسرى الآخرين، ووقف تقدم الرتل الذي يتجرجر عبر سلسلة الجبال. وعندما كانوا يفتقرون إلى هنود يخدمونهم، ينقضون كالشياطين على قرى مسالمة، فيقيدون الرجال، ويغتصبون النساء ويختطفونهن، ويقتلون الأطفال أو يهجرونهم لمصيرهم. وبعد أن يسرقوا الأغذية والحيوانات الداجنة، يحرقون البيوت والزرع. وكانوا يجبرون الهنود على حمل أثقال تزيد عن طاقة الإنسان، حتى أنهم يلقون على كواهلهم الأمهار حديثة الولادة، والأسرة وأراجيح النوم التي يرقدون عليها كي لا يُتعبوا خيولهم. وفي الصحراء، كان أكثر من إسباني يربط إلى ركوبته هندية وضعت وليداً للتو، كي يشرب حليب صدرها، لعدم وجود سائل آخر، بينما يبقى الطفل مرمياً على الرمل المتقد. وكان المراقبون الزنوج يجلدون بالسياط حتى الموت من ينهارون من التعب. وكان الهنود التعساء يعانون جوعاً شديداً إلى حد لا يتورعون معه عن أكل جثث رفاقهم الموتى. والإسباني القاسي الذي كان يقتل هنوداً أكثر، يعتبرونه جيداً، أما من لا يفعل ذلك، فيعتبرونه جباناً. أبدى بالديبيا أسفه لتلك الممارسات، مؤكداً أنه لو كان مكان ألماغرو لتجنبها، لكنه يدرك أن تلك هي فوضى الحرب، مثلما تبين له خلال نهب روما. آلام ومزيد من الآلام، دماء على الطريق، دماء الضحايا، دماء تحط من شأن الطغاة والظالمين.

كان دون بينيتو يعرف مشقات الرحلة لأنه عاشها، وحدثنا عن اجتياز

صحراء أتاكاما، وهي الطريق الذي اتخذوه عند عودتهم إلى البيرو. لكنه الطريق الذي اخترناه نحن للذهاب إلى تشيلي، على عكس رحلة الماغرو.

- لا يتوجب علينا أن نقتصر على التفكير في حاجات الجنود وحدهم يا سيدتي. فحالة الهنود يجب أن تكون موضع اهتمامنا أيضاً، فهم بحاجة إلى اغطية وأغذية وماء. ومن دونهم لن نستطيع الوصول بعيداً - قال لي مُذكّراً.

وقد كان ذلك ماثلاً في ذهني، لكن توفير مؤونة ألف هندي بما هو متوفر من أموال هي مهمة تحتاج إلى ساحر.



بين الجنود القليلين الذين سيأتون معنا إلى تشيلي، كان هناك خوان غوميث، الضابط الشاب الوسيم والشجاع، وابن أخت المرحوم دييغو الماغرو. جاء في أحد الأيام إلى بيتي حاملاً في يده قبعته المخملية، ومرتبكاً جداً، واعترف لي بعلاقته مع أميرة من الإنكا، معمدة باسم سيسيليا. وقال لي:

- إننا متحابان يا دونيا إنيس، لا يمكننا الانفصال أحدنا عن الآخر. وسيسيليا تريد الذهاب معي إلى تشيلي.

- فلتأتِ!

- لا أظن أن دون بيدرو دي بالديبيا سيسمح لها بمرافقتي، لأن سيسيليا حبلى - تلعثم الشاب.

إنها مشكلة جدية. فقد كان بيدرو واضحاً في قراره بأنه في رحلة بمثل هذه الخطورة لا يمكن أخذ نساء في مثل وضعها، لأن ذلك سيكون متعباً وشاقاً، لكنني حين رأيت ضيق خوان غوميث، وجدتني مضطرة إلى مدّ يد العون له. فسألته:

- في أي شهر من حملها هي؟

- في الشهر الثالث أو الرابع تقريباً.

- أنتما تدركان المجازفة التي تمثلها الرحلة بالنسبة إليها، صحيح؟

ـ سيسيليا قوية جداً، ولديها ما تحتاج إليه من وسائل الراحة: وأنا سأساعدها يا دونيا إنيس.

ـ لابد أن أميرة مدللة مع بطانتها ستكون مصدر إزعاج كبير.

ـ سيسيليا لا تزعج أحداً يا سيدتي. أؤكد لك أن وجودها في القافلة لن يكون ملحوظاً...

ـ لا بأس يا سيد خوان، لا حاجة بك لأن تكلم أحداً في هذا الأمر حالياً. وسأرى كيف ومتى يمكنني مفاتحة القائد العام بالديبيا في الموضوع. عليكما الاستعداد للرحيل خلال وقت قصير.

وبامتنان، أحضر لي خوان غوميث هدية هي جرو أسود، فروه خشن وقاس، مثل وبر خنزير، تحول إلى مرافق لي كظلي. أسميته بلتسار، لأن اليوم كان الثاني من كانون الثاني، يوم الملوك المجوس. وكان هذا الحيوان هو الأول من سلالة كلاب متشابهة، من نسله، رافقتني طوال أكثر من أربعين سنة. بعد يومين من ذلك جاءت أميرة الإنكا لزيارتي، وقد حضرت على محفة يحملها أربعة رجال، وتتبعها أربع خادمات محملات بالهدايا. لم أكن قد رأيت من قبل أحد من أسرة الإنكا؛ وتوصلت إلى أن أميرات إسبانيا سيمتقع لونهن حسداً أمام سيسيليا. لقد كانت شابة فتية جداً وجميلة، ذات تقاطيع ناعمة، شبه طفولية، وقامة قصيرة ونحيلة؛ ولكن تبين لي أنها قوية الشخصية، تتمتع بالسمو الطبيعي لمن ولد في مهد من الذهب، ومعتادة على أن تكون محط الرعاية والخدمة. وكانت تلبس على الطريقة الإنكية، ببساطة وأناقة. رأسها مكشوف، وشعرها مفلت كأنه طرحة سوداء، ناعم ولامع، يغطي ظهرها حتى الخصر. أخبرتني أن أسرتها مستعدة للمساهمة في توفير احتياجات الرحلة للإسبان، شريطة ألا يقتادونهم مقيدين بالسلاسل. فهذا ما كان قد فعله ألماغرو بذريعة أنه يصيب عصفورين بحجر واحد: تفادي هرب الهنود، ونقل الحديد. ومن مات من أولئك التعساء بسبب ثقل السلاسل كانوا أكثر ممن قتلتهم قسوة المناخ.

أوضحت لها أن بالديبيا لا يفكر في عمل ذلك، لكنها ذكّرتني بأن البيراكوتشا (الإسبان) يعاملون السكان الأصليين أسوأ من معاملتهم للبهائم. وسألتني: هل بإمكاني أن أفرض ذلك على بالديبيا وعلى سلوك الجنود الآخرين؟ لا، لا يمكنني ذلك، لكنني وعدتها بالبقاء متيقظة، وهنأتها في أثناء ذلك على مشاعرها الرحيمة، لأن نبلاء الإنكا نادراً ما يهتمون بمصير شعبهم. فنظرت إليّ مستغربة.

ـ الموت والعذاب أمران طبيعيان، أما السلاسل فلا. إنها مهينة ـ قالت موضحة بإسبانية جيدة تعلمتها من حبيبها.

كانت سيسيليا تلفت الانتباه بجمالها، وبملابسها المصنوعة من أفخر المنسوجات البيروية، ومظهرها الملكي الواضح؛ لكنها كانت تتدبر الأمر لتبدو غير ذات أهمية تقريباً خلال الخمسين فرسخاً الأولى من الرحلة، إلى أن وجدتُ اللحظة المناسبة كي أكلم بشأنها بيدرو الذي أبدى الغضب للوهلة الأولى، مثلما هو متوقع عندما يجري تجاهل أحد أوامره. فقلت له متنهدة:

ـ لو أنني كنت في مثل وضع سيسيليا لكان عليّ أن أبقى متخلفة...

ـ وهل أنت في مثل وضعها؟ ـ سألني آملاً، لأنه كان يرغب دوماً في أن يكون له ابن.

ـ لا، لسوء الحظ، أما سيسيليا فبلى، وهي ليست الوحيدة. فجنودك يُحَبِّلون الهنديات الياناكونا كل ليلة، وقد صار لدينا عشرة منهن منتفخات البطون.

تحملت سيسيليا رحلة اجتياز الصحراء، ممتطية صهوة بغلة حيناً، ومحمولة في أرجوحة نوم، على أكتاف خدمها، في أحيان أخرى. وكان ابنها هو أول مولود لنا في تشيلي. وقد ردّ لي خوان غوميث ذلك الجميل بولاء غير مشروط سيكون ذا نفع كبير لنا في الشهور والسنوات التالية.

عندما صار كل شيء جاهزاً للانطلاق في الرحلة مع حفنة الجنود

الذين وافقوا على مرافقتنا، برز عائق غير متوقع. وصل من إسبانيا أحد رجال البلاط، ومعاون سابق لبيثارّو، ومعه تصريح من الملك لفتح الأراضي الواقعة إلى الجنوب من البيرو، ابتداء من أتاكاما حتى مضيق ماجلان. كان المدعو سانتشو ديلا أوث شخصاً رقيق العادات وودود الكلام في الظاهر، غير أنه كاذب ودنيء في أعماق قلبه. ولكنه للحقيقة متأنق، يرتدي ثياباً من التفتا ويضمخ نفسه بالعطور. كان الرجال يضحكون منه في غيابه، لكنهم سرعان ما صاروا يحاكونه. وقد توصل إلى أن يكون أشد خطراً على الحملة من مشقات الصحراء القاسية وعداء الهنود، ومع أنه لا يستحق أن يُحفظ ذكره في هذه القصة، إلا أنني لا أستطيع إغفاله، لأنه سيعود للظهور في ما بعد. ولو أنه تمكن من تحقيق مراده، لما تمكنا أنا وبيدرو دي بالديبيا من إنجاز القدر المرسوم لنا. بمجيئه صار هناك رجلان للمهمة نفسها، وبدا لأسابيع أن السبل قد سُدّت تماماً أمام هذه المهمة. ولكن، بعد كثير من الجدل والتأجيل، قرر المركيز الحاكم فرانثيسكو بيثارّو أن يتولى الاثنان عملية فتح تشيلي كشريكين: يذهب بالديبيا براً، ويذهب ديلا أوث بحراً، ويلتقيان في أتاكاما. «أنتِ ستعنين كثيراً بسانتشو هذا يا ماميتا»، نبهتني كاتالينا حين علمت بما جرى. لم تكن قد رأته، لكنها استشفت ذلك في قواقع تنجيمها.

انطلقنا أخيراً في صباح يوم دافئ من شهر كانون الثاني 1540. كان بيثارو قد جاء من مدينة الملوك، مع عدد من ضباطه، ليودع بالديبيا، واحضر معه بعض الخيول كهدية، فكانت هذه هي مساهمته الوحيدة في الحملة. صدى نواقيس الكنائس التي دوّت منذ الفجر، هيّج الطيور في السماء والحيوانات على الأرض. ترأس المطران قداساً مغنى حضرناه جميعنا، ووجّه إلينا موعظة حول الإيمان وواجب حمل الصليب إلى أقاصي الأرض؛ ثم خرج بعد ذلك إلى الساحة ليمنح مباركته للألف هندي مساعد الذين ينتظرون إلى جانب حزم الأمتعة والحيوانات. وكانت كل جماعة من الهنود

تتلقى الأوامر من كوراكا، أو زعيم، ينصاع بدوره لأوامر المراقبين الزنوج، وهؤلاء ينصاعون للملتحين البيراكوتشا. لا أظن أن الهنود يقدرون مباركة المطران، لكنهم ربما شعروا بأن شمس ذلك اليوم الساطعة هي فأل خير. كان معظمهم من الشباب، إضافة إلى بعض الزوجات المتفانيات والمستعدات للحاق بأزواجهن حتى وهنّ يعلمن أنهن لن يعدن لرؤية أبنائهن المتبقين في كوسكو. وكانت هناك أيضاً خليلات الجنود اللاتي راح عددهن يتزايد خلال الرحلة بفتيات أسيرات من القرى المدمرة.

حدثني دون بينيتو عن الفرق بين الحملة الأولى والثانية. فألماغرو انطلق في حملته على رأس خمسمئة جندي بدروع صقيلة، ورايات وبيارق لامعة، يغنون بملء رئاتهم، وعدة رهبان يرفعون صلباناً كبيرة، فضلاً عن آلاف وآلاف الياناكونا المحملين بالأمتعة، وقطعان من الخيول والحيوانات الأخرى، والكل يتقدمون على إيقاع الأبواق والطبول. وبالمقارنة معهم، كنا مجرد شرذمة مثيرة للشفقة، تضم أحد عشر جندياً فقط، إضافة إلى بيدرو دي بالديبيا وأنا، وقد كنتُ مستعدة لحمل السيف إذا ما تطلب الأمر.

ـ ليس مهماً أننا قليلو العدد يا سيدتي، ما دمنا سنعوض عن ذلك بالشجاعة والحماسة. و سينضم إلينا في الطريق، بفضل الرب، شجعان آخرون ـ قال لي دون بينيتو مؤكداً.

كان بيدرو دي بالديبيا يمضي على جواده في المقدمة، يتبعه خوان غوميث المسمى مأموراً قضائياً، ودون بينيتو وجنود آخرون. كان يبدو رائعاً في دروعه، مع الخوذة ذات قنزعة الريش وأسلحته البديعة، ممتطياً صهوة سلطان، حصانه العربي الأصيل، وخلفهم أمضي أنا وكاتالينا، على الخيل أيضاً. كنت أحمل على سرج حصاني تمثال سيدتنا عذراء الرحمة، وكانت كاتالينا تحمل بين ذراعيها الجرو بلتسار، لأننا أردنا له أن يعتاد على رائحة الهنود. وكنا نفكر في تدريبه ليكون حارساً لا قاتلاً. وكانت سيسيليا تمضي برفقة بطانة من خادماتها الهنديات، متخفيات بين خليلات الجنود.

وبعد ذلك مباشرة تأتي أرتال طويلة من البهائم والحمالين، وكان كثيرون من هؤلاء يبكون وهم يودعون ذويهم، لأنهم مكرهون على الذهاب؛ بينما المراقبون الزنوج يحيطون بجانبي رتل الهنود الطويل. لقد كانوا مرهوبين أكثر من البيراكوتشا، لقسوتهم؛ إلا أن بالديبيا أعطى تعليماته بأنه هو وحده المخول بالسماح بالعقوبات الكبيرة وأعمال التعذيب، وعلى المراقبين أن يكتفوا بالسوط، وأن يستخدموه بحذر. لكن هذا الأمر نُسي تماماً خلال الطريق، وسرعان ما لم يعد يتذكره أحد سواي.

الفصل الثالث

رحلة إلى تشيلي، 1540 ـ 1941

انطلقت قافلتنا الباسلة في الطريق إلى تشيلي، متخذة طريق الصحراء، وهو السبيل الذي سلكه دييغو ألماغرو عند رجوعه، وفق الورقة المجعدة التي تحمل خريطة أعطاها الماغرو لبيدرو دي بالديبيا. وبينما جنودنا القليلون وألف هندي متعاون (ياناكونا) يتقدمون مثل دودة بطيئة؛ يصعدون وينزلون جبالاً، يجتازون ودياناً وأنهاراً باتجاه الجنوب، كان خبر وصولنا يسبقنا والقبائل التشيلية تنتظرنا بالأسلحة المباغتة. فالإنكا يستخدمون مراسلين سريعين، يدعونهم *تشاسكي* يتنقلون راكضين عبر ممرات خفية في الجبال في نظام تتابع يغطي الإمبراطورية من أقصى الشمال حتى جنوب نهر بيو- بيو في تشيلي. وبهذه الطريقة علم الهنود التشيليون بحملتنا فور خروجنا من كوسكو، وعندما وصلنا أرضهم، بعد بضعة شهور، كانوا مستعدين للحرب ضدنا. لقد كانوا يعرفون أن البيراكوتشا (الإسبان) يسيطرون على البيرو منذ زمن طويل، وأن الإنكا أتاوالبا قد أُعدم، وأن من صار يحكم مكانه، كدمية ألعوبة، هو أخوه الإنكا باوبّو. فقد سلّم هذا الأمير شعبه ليخدم الغرباء، بينما يمضي هو حياته في قفص قصره الذهبي، غارقاً في ملذات الفجوز والقسوة. وكانوا يعرفون أيضاً أن حركة تمرد واسعة يجري الإعداد لها في البيرو، بقيادة عضو آخر من الأسرة المالكة، هو إنكا مانكو الهارب الذي أقسم على طرد الغرباء. وكان قد بلغهم أن البيراكوتشا شرسون، يقظون، عنيدون، شرهون، وأغرب ما فيهم أنهم لا

يحترمون كلمتهم. كيف يستطيعون مواصلة العيش بمثل هذا العار؟ إنه سرّ غامض. كان الهنود التشيليون يسموننا ***هوينكا*** بلغتهم ***المابودونغو***، وهي تسمية تعني «الناس الكاذبين، لصوص الأرض». وقد كان عليّ تعلم هذه اللغة، لأنهم يتكلمونها في تشيلي كلها، من الشمال إلى الجنوب. ويعوض هنود المابوتشي عن جهلهم الكتابة بذاكرة قوية. فتاريخ الخلق، وقوانينهم، وتقاليدهم، وماضي أبطالهم مسجلة كلها في قصصهم بلغة ***المابودونغو***، يتناقلونها بالتمام والكمال من جيل إلى جيل، منذ بدء الأزمنة. وقد ترجمتُ بعضها للشاب ألونسو دي إرثيّا إي ثونيغا الذي أشرتُ إليه من قبل، كي يستلهمها وهو ينظم ***الأراوكانية***. ويبدو أن هذه القصيدة قد نشرت ويجري تداولها في بلاط مدريد، أما أنا فليس لدي سوى مسودة الأشعار التي تركها لي ألونسو بعد أن ساعدته في استنساخ مبيضة منها. وإذا لم تخني الذاكرة، فإنه يصف في ثمانياته تشيلي، والمابوتشي أو الأروكانيين على هذا النحو:

تشيلي، مقاطعة خصيبة ومتميزة
في منطقة الجنوب المشهورة،
أرض شعوب عريقة محترمة
قوية، نبيلة، متسلطة.
أهلها أناس صفوة منتقاة،
شديدو الإباء والمهابة والبسالة،
لم يحكمهم ملك قط
ولا عرفوا الخضوع لأجنبي.

إن ألونسو يبالغ دون شك، لكن المبالغة يسمح بها للشعراء، وإلا افتقدت الأشعار القوة الضرورية. فتشيلي ليست نبيلة ومتسلطة، وليس أهلها صفوة منتقاة، كما يقول، لكنني أتفق معه في أن هنود المابوتشي شديدو

الإباء والمهابة والبسالة، ولم يحكمهم أي ملك قط، ولم يخضعوا لأجنبي. فهم يزدرون الألم، ويستطيعون تحمل أشد أصناف التعذيب فظاعة دون أنّة واحدة؛ ليس لأنهم أقل منا تحسساً للألم، وإنما لأنهم شجعان. لا وجود لمحاربين أفضل منهم، يشرفهم فقدان حياتهم في المعركة. لم يتمكنوا من الانتصار علينا قط، ولكننا لم نستطع إخضاعهم أيضاً، حتى وإن ماتوا جميعهم في التجربة. أظن أن الحرب ضد الهنود ستتواصل لقرون، لأنها تزود الإسبان بالأقنان. العبيد هي الكلمة الدقيقة. وليس أسرى الحرب وحدهم هم الذين ينتهون إلى العبودية، بل الهنود الأحرار أيضاً الذين يصطادهم الإسبان بالأنشوطة، ويبيعونهم بمبلغ مئتي بيزو للمرأة الحبلى ومئة بيزو للرجل البالغ أو الطفل سليم البنية. التجارة غير الشرعية بهؤلاء الناس لا تقتصر على تشيلي، بل تصل حتى مدينة الملوك، ويشارك في هذه التجارة الأوصياء، ومراقبو العمل في المناجم، وحتى ربابنة السفن. هكذا نبيد أهالي هذه البلاد، مثلما كان يخشى بالديبيا، لأنهم يفضلون أن يموتوا أحراراً على أن يعيشوا عبيداً. وإذا ما فُرض على أي واحد منا نحن الإسبان أن يختار، فإنه لن يتردد في الاختيار أيضاً. لقد كان بالديبيا يستشيط غضباً من غباء من يتعسفون على هذا النحو، ويفرغون العالم الجديد من قاطنيه. كان يقول إن هذه الأرض لا تساوي شيئاً من دون السكان الأصليين. وقد مات دون أن يرى نهاية المجزرة المستمرة منذ أربعين سنة. يتواصل مجيء الإسبان، ويتوالد الخلاسيون، لكن رجال المابوتشي يختفون في حروب الإبادة، والعبودية، والأمراض التي جاء بها الإسبان ولا تستطيع أجساد الهنود مقاومتها. إنني أخشى المابوتشي بسبب المحن التي ألحقوها بنا؛ ويغيظني رفضهم لكلمة المسيح ومقاومتهم محاولاتنا في تحضيرهم؛ ولن أسامحهم على الطريقة الشرسة التي قتلوا بها بيدرو دي بالديبيا، وإن لم يفعلوا أكثر من الرّد عليه بالمثل، لأنه ارتكب الكثير من الفظاعات والقسوة ضدهم. فمن يَقتل بالحديد، بالحديد يُقتل، كما يقال في إسبانيا.

وأنا أحترمهم وأقدرهم كذلك، ولا يمكنني إنكار هذا. إننا نحن الإسبان والمابوتشي خصمان يليق كل منهما بالآخر: فجميعنا، في هذا الجانب وذاك، شجعان، وقساة، ومصممون على العيش في تشيلي. هم وصلوا إلى هنا قبلنا، وهذا يمنحهم حقاً أكبر، لكنهم لا يستطيعون طردنا أبداً، وأرى أننا لن نستطيع التعايش بسلام.

من أين جاء هؤلاء المابوتشي؟ يقال إنهم يشبهون بعض شعوب آسيا. فإذا كانت أصولهم من هناك، فإنني لا أستطيع أن أتصور كيف اجتازوا بحاراً هائجة وأراضي فسيحة كي يصلوا إلى هنا. إنهم متوحشون، لا يعرفون شيئاً عن الفن أو الكتابة، ولا يشيدون مدناً أو معابد، وليست لديهم أنساب ولا طبقات ولا كهنة، وإنما قادة للحرب فقط، يدعونهم «توكي». ينتقلون من مكان إلى آخر، أحراراً وعراة، مع زوجاتهم العديدات وأبنائهم الذين يقاتلون معهم في المعارك. لا يقدمون قرابين بشرية مثل غيرهم من هنود أميركا، ولا يعبدون آلهة. وهم يؤمنون بإله واحد فقط، ولكنه ليس إلهنا، وإنما إله آخر يسمونه *نغينتشين*.



بينما نحن نخيِّم في تاراباكا، حيث خطط بالديبيا أن ننتظر وصول تعزيزات ونستعيد قوانا بعد الإنهاك السابق، كان أتباع الإنكا التشيليون ينظمون صفوفهم ليجعلوا مسيرتنا أقسى وأصعب ما يمكن. نادراً ما كانوا يُروننا وجوههم، لكنهم كانوا يسرقوننا أو يهاجموننا من الخلف. وهكذا استبقوني مشغولة طيلة الوقت بمعالجة الجرحى، لاسيما من الياناكونا الذين يقاتلون دون خيول أو دروع، ويسمونهم لحم الصدام. وقد اعتاد مدونو الأخبار تجاهل ذكرهم، مع أنه ما كان يمكن لفتح العالم الجديد أن يتحقق دون تلك الجمهرة الصامتة من الهنود الأصدقاء الذين كانوا يتبعون الإسبان في مهماتهم وحروبهم.

خلال الطريق بين كوسكو وتاراباكا، انضم إلينا بضع وعشرون جندياً إسبانياً، وكان بيدرو واثقاً من أن أعداداً أخرى ستأتي عندما ينتشر الخبر بأن الحملة قد بدأت مسيرتها. لكننا كنا قد فقدنا خمسة رجال، وهو رقم كبير جداً عندما نعرف كم كان عددنا قليلاً. جُرح أحدهم جرحاً بليغاً بسهم مسموم، وعندما لم أستطع علاجه، أمر بيدرو بإعادته إلى كوسكو برفقة أخيه، وفقدنا جنديين وعدداً من الياناكونا. بعد أيام من ذلك، استيقظ القائد الميداني مضطرباً، لأنه حلم بزوجته التي تنتظره في إسبانيا، وأخيراً اعترف بأن ألماً ممضاً يخز صدره منذ أكثر من أسبوع. قدمت إليه قصعة من الدقيق المحمص ممزوجاً بالماء والعسل، تناوله باعتدال وتمهل كما لو أنه يأكل طعاماً لذيذاً. «أنتِ اليوم أجمل من أي وقت آخر يا دونيا إينس»، قال لي بملاطفته المعهودة، وتصلبت عيناه كالزجاج في الحال، وسقط ميتاً عند قدمي. وبعد أن وفرنا له دفناً مسيحياً، نصحتُ بيدرو بأن يعيّن دون بينيتو مكانه، لأن العجوز يعرف الطريق ولديه خبرة في تنظيم المعسكرات والحفاظ على النظام والانضباط.

لقد خسرنا بعض الجنود، لكن آخرين راحوا يتوافدون، شيئاً فشيئاً، مثل أشباح بأسمال، آخرون من رجال الماغرو، كانوا يجوبون الأرياف والجبال، مهزومين وبلا أصدقاء في مملكة بيثارّو. لقد أمضوا سنوات يعيشون على الصدقات، ولم يكن لديهم ما يخسرونه في خوض مغامرة فتح تشيلي.

أقمنا معسكرنا في تاراباكا لعدة أسابيع، من أجل منح الهنود والبهائم بعض الوقت كي يكسبوا شيئاً من الوزن قبل أن ننطلق في اجتياز الصحراء الذي سيكون، حسب قول دون بينيتو، أسوأ ما في الرحلة. أوضح لنا أن الجزء الأول من الصحراء قاحل، لكن الثاني، المدعو القفر، أسوأ بكثير. وفي أثناء ذلك كان بيدرو بالديبيا يجوب فراسخ على الحصان، يرصد الأفق منتظراً مجيء متطوعين جدد. وكان على سانتشو دي لا أوث

أيضاً أن ينضم إلينا، آتياً معه عبر البحر بالرجال والذخائر الموعودة، غير أن هذا الشريك الطفيلي لم يُعطِ أي إشارة تدل أنه على قيد الحياة.

وبينما كنتُ أحوك البطانيات وأُحضّر اللحوم المجففة والحبوب وأغذية أخرى تدوم طويلاً، كان دون بينيتو يجبر الزنوج على العمل منذ شروق الشمس حتى مغيبها في كور الحدادة للتمون بالعتاد ونعال الخيل والحراب. كما نظم منافسات بين الجنود لاكتشاف مواقع المؤن التي يدفنها الهنود قبل أن يهجروا مزارعهم. كان قد أقام المعسكر في أكثر الأماكن ملاءمة وأمناً، حيث تتوافر ظلال وماء وهضاب يوزع عليها حراسه. الخيمة الوحيدة المحترمة في المعسكر هي التي قدمها إليّ بيثارّو. فقد كانت واسعة، تتألف من حجرتين، مصنوعة من قماش كتيم، وتستند إلى هيكل خشبي متين، ولا تقل راحة عن الإقامة في بيت. أما بقية الجنود، فكانوا يتدبرون أمورهم كيفما استطاعوا، بقطعة قماش مرقعة تكاد لا تقيهم تبدلات المناخ. وحتى هذه لم تكن تتوافر لبعضهم، فكانوا يستلقون للنوم إلى جانب خيولهم. كان معسكر الهنود الياناكونا منفصلاً ومحروساً على الدوام، كي لا يهربوا. وفي الليل كانت تشتعل مئات المواقد الصغيرة، حيث يطهون طعامهم، ويحمل إلينا الهواء ألحاناً كئيبة من آلاتهم الموسيقية التي لها القدرة على بعث الحزن في البشر والبهائم على السواء.

كنا نقيم على مقربة من قريتين مهجورتين، حيث لم نكن نجد طعاماً على الرغم من بحثنا الطويل. وهناك اكتشفنا أن لدى الهنود عادة العيش بمرافقة أقربائهم الميتين، الأحياء في جانب من الكوخ والموتى في جانب آخر. وفي كل مسكن هناك حجرة فيها مومياءات محفوظة جيداً، قاتمة وتنبعث منها رائحة الطحالب. جثث محنطة لأجداد، ونساء، وأطفال، كل منهم مع أشيائه الشخصية، ولكن دون مجوهرات. أما في البيرو، بالمقابل، فقد عُثر على قبور مترعة بأشياء ثمينة، بما في ذلك تماثيل من الذهب الخالص. فكان الجنود يلعنون قائلين: «حتى الموتى في تشيلي بائسون، لا

وجود لذرة ذهب واحدة في أي مكان». ومن أجل التعويض عن أنفسهم، ربطوا المومياءات بالحبال وسحلوها وهم يندفعون على الخيول، إلى أن تمزقت اللفافات وتحولت المومياءات إلى عظام مبعثرة. واحتفلوا بمأثرتهم تلك بضحك صاخب، بينما كان الرعب يتفشى في معسكر هنود الياناكونا. وعندما غابت الشمس راحت تنتشر بينهم إشاعة أن العظام المدنسة بدأت تلتمُّ إلى بعضها البعض، وأن الهياكل العظمية ستنقض علينا، قبل حلول الفجر، مثل جيش خارج من القبور. وكرر الزنوج المرعوبون القصة، فوصلت إلى مسامع الإسبان، وهؤلاء الوندال الذين لا يعرفون الخوف ولو بالاسم، انفجروا عندئذ في البكاء مثل أطفال رُضّع. وفي منتصف الليل، كان اصطكاك الأسنان عظيماً بين جنودنا إلى حدّ اضطر معه بيدرو دي بالديبيا إلى إلقاء خطبة حماسية ليذكّرهم بأنهم جنود إسبانيا، الأشد بأساً والأفضل تدريباً في العالم، وليسوا مجرد كومة من الغسالات الجاهلات. أنا لم أعرف النوم طيلة ليال عديدة، أمضيتها في الصلاة، ومن يقول عكس ذلك، فلأنه لم يكن هناك.

كان الجنود يتساءلون باستياء شديد عن السبب الشيطاني في بقائنا مخيمين طيلة أسابيع في ذلك المكان الملعون، ولماذا لا نواصل الطريق إلى تشيلي، مثلما هو مخطط، أو نرجع إلى كوسكو، وهو ما سيكون أكثر حكمة. وعندما بدأ بالديبيا بفقدان الأمل بوصول تعزيزات ظهرت فجأة قوة من ثمانين رجلاً، بينهم بعض كبار الضباط الذين لم أكن أعرفهم، لكن بيدرو كان قد حدثني عنهم لأنهم واسعوا الشهرة، مثل فرانثيسكو بيّاغرا والونسو دي مونروي. كان الأول أشقر، أحمر الوجه، مربوعاً، بتكشيرة ازدراء على فمه، وأساليب فظة في السلوك. وقد بدا لي مزعجاً على الدوام، لأنه يسيء معاملة الهنود، فضلاً عن أنه جشع، وعدو للفقراء. لكنني تعلمتُ أن أحترمه لشجاعته ووفائه. أما مونروي المولود في سلمنكا، والمتحدر من أسرة نبيلة، فكان على النقيض تماماً؛ فهو مهذب، ووسيم

وكريم. وقد صرنا صديقين على الفور. ومعهما جاء خبرونيمو الديريتي، رفيق بالديبيا القديم في السلاح، ومن أغراه قبل سنوات بالمجيء إلى العالم الجديد. كان بيّاغرا قد أقنعهما بأنه من الأفضل الانضمام إلى بالديبيا قائلاً لهما: «العمل في خدمة جلالة الملك أفضل من البقاء في أرض ما زال الشيطان فيها طليقاً»، مشيراً بذلك إلى بثارّو، وكان يزدريه. وجاء معهم كذلك كاهن أندلسي، رجل في حوالي الخمسين من عمره، يدعى غونثالث دي مارموليخو، سيصبح مرشدي وناصحي، مثلما قلتُ من قبل. وقد قدم رجل الدين هذا أمثلة في الطيبة وسماحة النفس على امتداد حياته المديدة، لكنني أظن أنه كان عليه أن يكون جندياً وليس كاهناً، لأنه شديد الميل إلى المغامرات والثروة والنساء.

كان أولئك الرجال قد أمضوا شهوراً عديدة في غابات تشونتشو، شرقي البيرو. انطلقوا في حملة تضم ثلاثمئة إسباني، لكن اثنين من كل ثلاثة قضوا نحبهم. والمتبقون منهم تحوّلوا إلى أشباح تتضور جوعاً وتعصف بهم الأوبئة الاستوائية. ولم يبق شخص واحد من الألفي هندي الذين شاركوا في الحملة. وبين من ظلت عظامهم هناك، حامل الراية نونيث، عاثر الحظ الذي حكم عليه بالديبيا بالتعفن في أدغال تشونتشو، مثلما قال إنه سيفعل عندما حاول ذاك اختطافي في كوسكو. لم أجد من يقدم لي خبراً مؤكداً عن نهايته، فقد اختفى بكل بساطة في الأدغال، دون أن يخلّف أثراً. آمل أن يكون قد مات ميتة مسيحية، وليس في أفواه أكلة لحوم البشر. المشقات التي واجهها بيدرو دي بالديبيا وخيرونيمو الديريتي، قبل سنوات من ذلك، في الأدغال الفنزويلية، لم تكن سوى ألعاب أطفال بالمقارنة مع ما عاناه أولئك الرجال في غابات تشونتشو، تحت أمطار طوفانية ساخنة وسحب من البعوض. كانوا يغوصون في الوحل، وتفتك بهم الأمراض، يهيمون على وجوههم جائعين، يطاردهم متوحشون لا يتورعون عن التهام بعضهم بعضاً عندما لا يتمكنون من اصطياد أحد الإسبان.

قبل أن أواصل قصتي، لا بد لي من أن أقدم بصورة خاصة من كان يقود تلك القوة. إنه رجل طويل القامة، شديد الوسامة، عريض الجبهة، له أنف صقري وعينان بنيتان واسعتان مثل عيني حصان. حاجباه كثيفان ونظرته نائية، وناعسة قليلاً، تضفي بعض العذوبة على وجهه. وهذا ما استطعتُ إدراكه في اليوم الثاني، بعد أن انتزع عن نفسه طبقة الطحالب التي تغطيه، وقص شعر رأسه ووجهه الذي كان يمنحه مظهر ناج من الغرق. وبالرغم من أنه أصغر سناً من العسكريين الآخرين المشهورين، إلا أنهم اختاروه قائداً للقادة، لشجاعته وذكائه. كان اسمه رودريغو دي كيروغا. وهو من سيصير زوجي بعد تسع سنوات.



توليتُ مسؤولية إعادة القوة والصحة إلى الجنود الآتين من أدغال تشونتشو، تساعدني في ذلك كاتالينا وعدة هنديات يعملن في خدمتي، علمتهن مهنة العلاج. فأولئك الجنود البائسون، كما قال دون بينيتو، الذين خرجوا لتوهم من جحيم الأدغال الرطب والموحل، وسيتوغلون عما قريب في جحيم الصحراء الجاف والقاحل؛ ومجرد غسلهم، وتنظيف بثورهم، وانتزاع القمل منهم، وقص شعرهم وأظافرهم مهمة تطلبت أياماً. كان بعضهم ضعيفاً إلى حدّ اضطرت معه الهنديات إلى تغذيتهم بملاعق صغيرة من طعام أطفال مهروس. همست كاتالينا في أذني بالعلاج الذي يلجأ إليه هنود الإنكا في الحالات الحرجة، فقدمناه إلى أشد المحتاجين دون أن نخبرهم بمكوناته، كي لا نستثير اشمئزازهم. فقد كانت كاتالينا تخرج بتكتم في الليل لفصد دم حيوانات اللاما بإحداث جرح صغير في أعناقها. وكنا نخلط الدم بالحليب وقليل من البول ونقدمه للمرضى؛ وهكذا استعادوا عافيتهم وصاروا، بعد أسبوعين من العلاج، في وضع يسمح لهم بالانطلاق في الحملة.

استعد هنود الياناكونا للمشقة التي تنتظرهم؛ كان بينهم من لا يعرفون الأرض التي سيتوغلون فيها، لكنهم سمعوا عن الصحراء الرهيبة. فكان كل واحد منهم يحمل قربة للماء مصنوعة من جلد فخذ حيوان ـ لاما، أو غواناكو، أو البكة ـ، إذ ينتزعون الجلد كاملاً ويقلبونه مثل جراب، جاعلين الوبر إلى الداخل. وكان آخرون منهم يستخدمون مثانة ذئب بحر أو جلده، ويضيفون إلى الماء حبوب ذرة محمصة لتخفيف حدة الرائحة. نظم دون بينيتو عملية نقل الماء بكميات كبيرة، مستخدماً البراميل التي استطاع صنعها، وكذلك قرباً من الجلد، مثل الهنود. قدرنا أن الكمية لن تكون كافية لعددنا الكبير، غير أنه لم يكن بالإمكان نقل كمية أكبر على كواهل الرجال وحيوانات اللاما. والأسوأ أن الهنود التشيليين لم يكتفوا بإخفاء الأغذية، بل عمدوا كذلك إلى تسميم الآبار، مثلما علمنا من أحد مراسلي الإنكا مانكو بعد اعتقاله وتعذيبه. لقد اكتشف دون بينيتو وجوده بين هنودنا المساعدين، وطلب الإذن من بالديبيا لتعذيبه. أحرقه الزنوج على نار بطيئة. لم تكن معدتي تحتمل مشاهد التعذيب، فابتعدت قدر ما أستطيع، لكن صيحات ذلك التعيس الفظيعة، ترافقها صيحات رعب هنود الياناكونا، كانت تسمع على بعد فرسخ. ولكي يتخلص من العذاب، اعترف المراسل بأنه آت من البيرو، ويحمل تعليمات لسكان تشيلي بمنع تقدم البيراكوتشا. ولهذا يختبئ الهنود في الجبال مع الحيوانات التي يستطيعون أخذها معهم، بعد أن يدفنوا الأغذية ويحرقوا مزروعاتهم. وأضاف أنه ليس *التشاسكي* (العداء المراسل) الوحيد، بل هناك مئات المراسلين الآخرين الذين يسرعون نحو الجنوب، عبر دروب سرية، حاملين تعليمات الإنكا مانكو نفسها. وبعد اعترافه، واصلوا تعذيبه بالشي على موقد، ليكون عبرة للآخرين. وبختُ بالديبيا لأنه سمح بكل تلك القسوة، فأسكتني بغضب، وردّ قائلاً: «دون بينيتو يعرف ما يفعله. لقد حذرتك قبل الخروج بأن هذه المهمة ليست للناس المتغنجين. لكن الوقت فات الآن على التراجع».

كم هي طويلة وقاحلة طريق الصحراء! وكم هي بطيئة ومنهكة المسيرة! وكم هي حارة العزلة! كانت الأيام تمضي طويلة، متشابهة، في جفاف غير نهائي، مشهد قاحل من تراب أرض خشن وأحجار قاسية، لها رائحة الغبار المحروق ورماد الشوك، ملون بألوان أشعلتها يد الرب. وتلك الألوان، حسب قول دون بينيتو، هي معادن مخبأة، لكنها بسخرية شيطانية لا تضم شيئاً من الذهب أو الفضة. كنا، أنا وبيدرو، نتقدم مشياً على أقدامنا لساعات وساعات، مقتادين حصانينا من عنانيهما كي لا نتعبهما. وكنا نتبادل القليل من الكلام، لأن حلوقنا متقدة وشفاهنا متيبسة، لكننا كنا معاً وكل خطوة نخطوها توحدنا أكثر، وتقودنا قُدماً، إلى الحلم الذي حلمنا به معاً وسيكلف الكثير من التضحيات: تشيلي. كنتُ أحتمي بمظلة ذات حافة عريضة، وبخرقة قماشية على الوجه، فيها فتحتان للعينين، وخرق أخرى ملفوفة على يدي، لأني لا أملك قفازات. ولم يكن الجنود يطيقون ارتداء الدروع الساخنة، فيجرونها جراً. وكان رتل الهنود الطويل يتقدم ببطء، بصمت، وبحراسة سيئة يقوم بها الزنوج وهم مطأطئو الرؤوس، وفاقدو الهمة إلى حد لا يستطيعون معه رفع سياطهم. وكان الطريق للحمالين أسوأ ألف مرة مما هو لنا؛ فمع أنهم معتادون على العمل الشاق والأكل القليل، وصعود الجبال ونزولها، مدفوعين بالطاقة السرية التي تمنحهم إياها أوراق الكوكا، إلا أنهم لا يطيقون تحمل العطش. وكان يأسنا يتعاظم كلما مرت الأيام دون أن نجد بئر ماء سليمة. فالآبار الوحيدة التي وجدناها كان الهنود التشيليون المتكمنون قد لوثوها بجثث الحيوانات. وقد شرب بعض الياناكونا من تلك المياه النتنة، فماتوا وهم يتلوون، كما لو أن ناراً في أحشائهم.

عندما ظننا أننا بلغنا أقصى حدود طاقتنا، تبدل لون الجبال والأرض. توقف الهواء، صارت السماء بيضاء واختفت كل أشكال الحياة، ابتداء من النباتات الشوكية وحتى الطيور المتوحدة التي اعتدنا رؤيتها من قبل: لقد

دخلنا القفر المخيف. وما إن بزغت أول أنوار الفجر حتى انطلقنا في المسير، لأن الشمس لن تتيح لنا التقدم بعد قليل. كان بيدرو قد قرر أنه كلما كانت الرحلة أسرع، ستكون خسائرنا في الأرواح أقل، بالرغم من أن الجهد الذي تتطلبه كل خطوة كان عظيماً. كنا نستريح في ساعات اشتداد الحر، مستلقين على ذلك البحر من الرمال المحرقة، وفوقها شمس كأنها الرصاص المصهور، وسط محيط ميت تماماً. ونعود للمسير في حوالي الخامسة مساء، ونستمر إلى أن يخيم الليل ونصبح غير قادرين على التقدم في الظلام الدامس. لقد كان مشهداً مريعاً، امتدادات هائلة من القسوة. كنا نفتقد الحماسة لنصب الخيام وتنظيم المعسكر لساعات قليلة فقط. ولم يكن ثمة خطر بالتعرض لهجمات معادية، فليس هناك من يعيش أو يغامر بالتوغل في هذه العزلات. وفي الليل، تتبدل الحرارة بصورة قاسية، وننتقل من حر النهار الذي لا يطاق إلى برودة جليدية. يستلقي كل واحد منا حيث يستطيع، مرتجفاً من البرد، دون أن يولي أذناً صاغية لتعليمات دون بينيتو، وهو الوحيد الذي كان يلح على الانضباط. كنت أنا وبيدرو نحاول بث الدفء في جسدينا باحتضان أحدنا الآخر والنوم بين جوادينا. لقد كنا منهوكين جداً. ولم نتذكر ممارسة الحب طيلة الأسابيع التي دامها ذلك الجزء من الرحلة. وقد منحنا هذا الامتناع فرصةً للتعرف بعمق على نقاط ضعفنا وتنمية نوع من الحنان كان يقبع خامداً من قبل، يخنقه جموح العاطفة. أعظم ما في هذا الرجل هو أنه لم يتشكك قط في مهمته: استيطان تشيلي بقشتاليين وتنصير الهنود. لم يفكر يوماً في أننا قد نموت مشويين في الصحراء، مثلما كان يقول الآخرون؛ ولم تتزعزع إرادته قط.

على الرغم من صرامة التقنين الذي فرضه دون بيدرو، جاء يوم بدأ الماء فيه ينفد. وكنا في تلك الأثناء مرضى بداء العطش، حلوقنا مخدشة بالرمل، ألسنتنا متورمة، وشفاهنا متقرحة. يخيل إلينا فجأة أننا نسمع صوت شلال ونرى بحيرة محاطة بسرخس. فكان على الضباط أن يستخدموا القوة

لكبح الرجال كي لا يموتوا وهم يزحفون على الرمال وراء سراب. كان بعض الجنود يشربون بولهم وبول الخيول، وكان البول ضئيلاً جداً وشديد القتامة؛ وآخرون ينقضون بجنون على الهنود الياناكونا لينتزعوا منهم آخر قطرات الماء المتبقية في قربهم المصنوعة من جلود قوائم الماشية. ولو لم يفرض بالدييبا النظام بعقوبات نموذجية، لما تورع الرجال، على ما أظن، عن الإقدام على القتل ليمتصوا الدماء. في تلك الليلة جاء زوجي خوان دي مالغا لزيارتي، يضيئه القمر المنير. أشرت لبيدرو إليه، لكنه لم يره وظن أنني أهذي. بدا زوجي في حالة مزرية، أسماله متيبسة بالدم الجاف والغبار الكوكبي، وملامحه يائسة، كما لو أن عظامه أيضاً تعاني العطش.

في اليوم التالي، عندما اعتبرنا أنفسنا ضائعين لا نجاة لنا، مرّ حيوان زاحف غريب الشكل مسرعاً بين قدميّ. لم نكن قد رأينا، منذ أيام طويلة، أي شكل من الحياة باستثناء حياتنا، بل إننا لم نعد نرى الأشواك التي كانت كثيرة في أجزاء أخرى من الصحراء. ربما كان ذلك الحيوان نوعاً من السمندل، حرباء قادرة على العيش حتى في النار. استنتجتُ أنه مهما كان هذا الحيوان شيطانياً، فإنه بحاجة بين حين وآخر إلى جرعة من الماء. «لقد حان دورنا الآن أيتها العذراء الحبيبة»، قلتُ منبهة سيدتنا عذراء الرحمة. أخرجتُ قضيباً من شجرة كنت قد حملته في أمتعتي ورحت أصلي. كان الوقت منتصف النهار، وهو الوقت الذي تركن فيه جموع الناس والبهائم العطشى للراحة. استدعيت كاتالينا كي ترافقني، وانطلقنا معاً نمشي ببطء، محتميتين بمظلة، وأنا أردد صلاة «يا قديسة مريم»، وهي تردد ترتيلاتها بلغة الكيتشوا. مشينا لوقت لا بأس به، ربما ساعة من الزمن، في دوائر تتسع أكثر فأكثر، لتغطية مزيد من الأرض. ظن دون بينيتو أن الظمأ قد أفقدني عقلي، ولأنه كان مستنفد القوى، فقد طلب من ضابط أكثر منه شباباً وقوة، هو رودريغو دي كيروغا، أن يذهب لإعادتي.

- حباً بالرب يا سيدتي! - توسل إليّ الضابط بما بقي لديه من صوت -.

تعالي لتستريحي. سأوفر لك ظلاً بقطعة قماش...

- اذهب أيها الضابط وقل لدون بينيتو أن يرسل إليّ رجالاً ومعهم معاول ورفوشاً - قاطعته.

- معاول ورفوش؟ - كرر مذهولاً.

- قل له، من فضلك، أن يأتيني ببعض البراميل وعدد من الجنود المسلحين.

ذهب رودريغو دي كيروغا ليخبر دون بينيتو بأنني في حالة أسوأ بكثير مما كان يظنه، لكن بالديبيا سمعه؛ فامتلأ بالأمل، وطلب من القائد الميداني أن يرسل إليّ ما طلبته. بعد قليل من ذلك، بدأ ستة هنود بحفر حفرة. كان الهنود أقل قدرة منا على مقاومة العطش، وكانوا جافين من الداخل، يكادون لا يستطيعون رفع المعاول والرفوش؛ لكن الأرض كانت طرية وتمكنوا من حفر حفرة عمقها قامة ونصف القامة. كان الرمل في قاعها قاتماً. وفجأة، أطلق أحد الهنود صرخة مبحوحة ورأينا بدء ظهور الماء. مجرد رطوبة خفيفة في البدء، مثل عرق الأرض، لكن بركة صغيرة ما لبثت أن تشكلت بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق. وأرسل بيدرو الذي لم يبتعد عني، جنديين ليحميا الحفرة بحياتيهما، لأنه خشي، وبحق، من الهجوم اليائس لألف رجل من أجل الحصول على قطرات من الماء. أكدتُ له أن هناك ما يكفي الجميع، شريطة أن نشرب الماء بنظام. وقد حدث ذلك بالفعل. أمضى دون بينيتو بقية ذلك النهار في توزيع كوب من الماء لكل فرد، ثم أمضى رودريغو دي كيروغا الليل مع عدة جنود لتقديم الماء للبهائم وملء البراميل وزقاق الهنود. كان الماء يخرج باندفاع؛ وكان عكراً له طعم معدني، لكنه بدا لنا بارداً ولذيذاً مثل نوافير اشبيلية. عزا الناس ظهور الماء إلى معجزة وأطلقوا عليه اسم عين العذراء، تكريماً لسيدتنا عذراء الرحمة. أقمنا المعسكر وظللنا في ذلك المكان ثلاثة أيام، نروي عطشنا، وعندما انطلقنا في المسير ثانية، كان لا يزال هناك جدول خفيف ينساب على سطح الصحراء الحار.

ـ ليست هذه معجزة من العذراء، وإنما منك أنت يا إنيس ـ قال لي بيدرو بتأثر ـ. بفضلك أنتِ استطعنا اجتياز هذا الجحيم أصحاء سالمين.

ـ لا أستطيع العثور على الماء إلا حيث يوجد الماء يا بيدرو، أنا لا أستطيع جعله يتدفق في أي مكان. ولا أعرف إذا ما كانت هناك ينابيع أخرى أمامنا؛ وإذا وُجدت فلن تكون بهذه الوفرة.

أمر بالديبا بأن أتقدم القافلة بنصف مرحلة كي أتفحص الأرض بحثاً عن الماء، وأن تصطحبني مفرزة من الجند، مع أربعين هندياً مساعداً وعشرين حيوان لاما لحمل الجرار. أما البقية فيتشكلون في جماعات، تفصل بعضها عن البعض مسيرة عدة ساعات، كي لا يندفعوا بفوضى لشرب الماء عند العثور على آبار. واختار دون بينيتو الضابط رودريغو دي كيروغا ليكون قائداً للجماعة التي سترافقني، ذلك أن الضابط الشاب كان قد اكتسب ثقته المطلقة خلال ذلك الوقت القصير. إضافة إلى أنه أكثر الجميع حدّة بصر؛ فعيناه البنيتان الكبيرتان قادرتان على رؤية حتى ما هو غير موجود. فإذا ما كان هناك خطر في أفق الصحراء الهذياني، يكتشفه قبل الجميع، ولكننا لم نصادف خطراً. عثرتُ على عدة عيون ماء، لم يكن أياً منها بغزارة العين الأولى، لكنها كافية لبقائنا على قيد الحياة خلال اجتياز القفر. وفي أحد الأيام، تبدل لون الأرض من جديد، ومرّ طائران محلقان.

❖ ❖ ❖

عندما انتهينا من رحلة اجتياز الصحراء، أجريت الحساب ووجدت أننا قد استغرقنا في الرحلة قرابة خمسة شهور منذ خروجنا من كوسكو. قرر بالديبيا أن نقيم مخيماً وننتظر، فقد جاءته أخبار بأنه يمكن لصديق روحه، فرانثيسكو أغيرّي، أن يلتحق به في هذه المنطقة. وكان هناك هنود معادون يراقبوننا عن بعد، دون أن يقتربوا منا. استطعت أن أنصب مرة أخرى الخيمة

الأنيقة التي قدّمها إليّ بيثارّو. وفرشتُ الأرض ببُسُطٍ بيروية ووسائد، واخرجت أطباق الطعام الخزفية من الصناديق، كي لا نواصل تناول الطعام في قصعات خشبية، وأمرتُ ببناء فرن من الطين لطهو الطعام كما يجب، بعد أن أمضينا شهرين ونحن نأكل الحبوب واللحم المقدد. في حجرة الخيمة الكبيرة التي يستخدمها بالديبيا مقر قيادة وقاعة للاجتماعات والقضاء، وضعتُ كرسيه الكبير وعدداً من كراسي الجلد التي بلا مساند للزائرين الذين يأتون في أوقات غير متوقعة. وكانت كاتالينا تجوب المعسكر طوال النهار، كشبح متكتم، لتأتيني بالأخبار. لم يكن هناك شيء مما يحدث بين الاسبان والياناكونا إلا وأعلم به. وكثيراً ما كان القادة يأتون لتناول العشاء، وقد اعتادوا على مفاجأة بالديبيا المزعجة بدعوتي إلى الجلوس معهم إلى المائدة. من المحتمل ألا يكون أي منهم قد تناول الطعام مع امرأة في حياته، فذلك غير شائع في إسبانيا، لكن العادات أكثر تساهلاً هنا. كنا نستضيء بالشموع ومصابيح الزيت، ونتدفأ بمجمرين بيرويين كبيرين، لأن البرد شديد في الليل. وقد شرح لنا غونثالث دي مارموليخو، وهو محب للثرثرة فضلاً عن كونه كاهناً، سبب تبدل الفصول، ولماذا عندما يكون شتاء في إسبانيا، يكون الفصل صيفاً في تشيلي والعكس بالعكس، لكن أحداً لم يفهم ما يقوله، وظللنا على اعتقادنا بأن قوانين الطبيعة في العالم الجديد مختلفة. وفي الحجرة الأخرى من الخيمة، هناك السرير الذي ننام عليه أنا وبيدرو، ومنضدة كتابة، ومذبح صلاة لي، وصناديق أمتعتنا، وحوض الاستحمام الخشبي الذي لم يُستخدم منذ وقت طويل. كان خوف بيدرو من الاستحمام قد تقلص، وصار يوافق على النزول بين حين وآخر إلى الحوض الخشبي وأن أفركه بالصابون، لكنه كان يفضل عادة الاكتفاء بمسح جسده بقطعة قماش مبللة. كانت أياماً طيبة جداً، عدنا خلالها لنكون عاشقين مثلما كنا في كوسكو. وكان يحب أن يقرأ لي كتبه المفضلة بصوت عالٍ قبل أن نمارس الحب. ولم يكن يعلم، لأني أردت أن

أفاجئه بذلك، أن الكاهن غونثالث دي مارموليخو يعلمني القراءة والكتابة.

بعد بضعة أيام، خرج بيدرو مع بعض رجاله ليجوب المنطقة بحثاً عن فرانثيسكو أغيرّي وليرى إذا ما كان بالإمكان التفاوض مع الهنود. كان الوحيد الذي يرى أن التفاهم معهم ممكن. انتهزت فرصة غيابه لأستحم وأغسل شعري بالكيّاي، وهو لحاء شجر تشيلي يقتل القمل ويجعل الشعر حريرياً وبلا شيب حتى القبر. لكنه لم يؤدِ معي إلى هذه النتيجة، فقد تحوّل شعري إلى البياض بالرغم من استخدمي الدائم له. حسن، لكنني لستُ نصف صلعاء، مثل نساء كثيرات في مثل سني. كنت أشعر بآلام في ظهري من كثرة المشي وركوب الحصان، فأجرت لي إحدى خادماتي تدليكاً بمرهم حضّرته كاتالينا. استلقيت بعد ذلك مرتاحة، وبلتسار يربض عند قدميّ. كان عمر الكلب عشرة شهور، وكان لا يزال محباً للعب، لكنه صار ضخم الحجم، ويمكن استشفاف طبعه كحارس. ولم يعذبني الأرق في هذه المرة، فغفوت سريعاً.

بعد انتصاف الليل أيقظتني زمجرات بلتسار الصماء. جلستُ في السرير، ورحت أتلمس في الظلام بإحدى يدي بحثاً عن شال أتغطى به، بينما كنت أثبّت الكلب بيدي الأخرى. عندئذ سمعت ضجة مكتومة في الغرفة الأخرى وخامرني الشك بوجود أحد هناك. ظننت أول الأمر أن بيدرو قد رجع، لأن حراس الباب ما كانوا ليسمحوا لأحد غيره بالدخول، لكن سلوك الكلب جعلني آخذ جانب الحذر. لم يكن ثمة متسع من الوقت لإشعال مصباح.

- من هناك؟ - صرختُ مذعورة.

ساد صمت متوتر، وبعد ذلك فوراً نادى أحدهم في الظلام باسم بيدرو دي بالديبيا.

- إنه ليس هنا. من يريده؟ - سألتُ الآن بصوت غاضب.

- اعذريني يا سيدتي، أنا سانتشو ديلا أوث، خادم وفي للقائد العام.

لقد احتجتُ إلى وقت طويل من أجل الوصول إلى هنا، وأرغب في تحيته.

ـ سانتشو ديلا أوث؟ كيف تجرؤ أيها السيد على دخول خيمتي في منتصف الليل؟ ـ صرخت.

في أثناء ذلك كان بلتسار ينبح بغضب، فنبه الحراس. وخلال دقائق هرع دون بينيتو، وكيروغا، وخوان غوميث وآخرون، حاملين الأضواء وشاهرين سيوفهم لا ليجدوا في غرفتي ديلا أوث الوقح وحده، وإنما أربعة رجال آخرين يرافقونه. كان أول ردّ فعل لرجالنا هو اعتقالهم فوراً، لكنني أقنعتهم بأن في المسألة سوء تفاهم. ورجوتهم أن ينسحبوا، ثم أمرت كاتالينا بأن تعدّ شيئاً من الطعام للقادمين الجدد، بينما كنت أرتدي ثيابي بسرعة. سكبت لهم نبيذاً بيدي، وقدمت إليهم العشاء حسب ما يقتضيه واجب الضيافة، مبدية الاهتمام بما أرادوا إخباري به عن مشقات رحلتهم.

وبين تناولهم كأس وآخر، أطللت بسرعة إلى الخارج لأقول لدون بينيتو أن يرسل على الفور رسولاً للبحث عن بيدرو دي بالديبيا. كان الوضع بالغ الحساسية، لأن لدى ديلا أوث عدداً من الأنصار بين رجال حملتنا المستائين والضعفاء. فبعض الجنود يتهمون بالديبيا بأنه اغتصب مهمة فتح تشيلي من مبعوث التاج، لأن أوراق الاعتماد الملكية التي لدى سانتشو ديلا أوث أعلى سلطة من التصريح الممنوح من بيثارّو. ومع ذلك، لم يكن لدى ديلا أوث أي دعم اقتصادي، بعد أن بدد في إسبانيا الثروة التي حصل عليها من فدية أتاوالبا، ولم يستطع الحصول على أموال أو سفن أو جنود من أجل المهمة، وكلمته لا يعتد بها لأنه سُجن في البيرو بسبب الديون والاحتيال. خامرتني الشكوك بأنه ينوي التخلص من بالديبيا، والاستيلاء على الحملة ومواصلة فتح تشيلي وحده.

قررت التعامل مع خمسة الزائرين المفاجئين بأكبر قدر من الاحترام، كي يشعروا بالثقة ويتضاءل احتراسهم ريثما يرجع بيدرو. وسرعان ما أتخمتهم بالطعام، وأضفت إلى دمجانة النبيذ كمية من الخشخاش المنوّم

تكفي لطرح جاموس ارضاً، لأني لم أكن أريد حدوث صخب في المعسكر؛ فآخر ما يناسبنا هو شق الناس إلى فريقين، وهو ما يمكن أن يحدث إذا ما راودت ديلا أوث الشكوك حول شرعية بالديبيا. ولا بد أن القساة الخمسة كانوا يضحكون وراء ظهري، حين رأوا لطفي في معاملتهم، سعداء بتمكنهم من خداع هذه المرأة الحمقاء بطلاقة ألسنتهم. ولكنهم قبل انقضاء ساعة واحدة كانوا مخمورين ومخدرين، بحيث لم يُبدوا أدنى مقاومة عندما جاء دون بينيتو والحراس لأخذهم. وعند تفتيشهم تبين أن كل واحد منهم يحمل مدية ذات مقبض فضي مزخرف، وكلها متماثلة تماماً، عندئذ لم يعد هناك مجال للشك في أن في الأمر مؤامرة مسرحية مدبرة لاغتيال بالديبيا. ولا يمكن للمدى المتشابهة إلا أن تكون من بنات أفكار النذل ديلا أوث، كي يوزع مسؤولية الجريمة على خمسة أطراف. أراد ضباطنا إعدامهم هناك بالذات، لكنني نبهتهم إلى أن مثل ذلك القرار الخطير لا يمكن لأحد غير بيدرو دي بالديبيا أن يتخذه. وقد تطلب الأمر الكثير من المكر والحزم لمنع دون بينيتو من تعليق ديلا أوث على أول شجرة في متناول يده.



بعد ثلاثة أيام من ذلك، رجع بيدرو وقد أُحيط علماً بالمؤامرة. ومع ذلك، لم يؤثر الخبر على معنوياته، إذ كان قد وجد صديقه فرانثيسكو دي أغيرّي بعد أن انتظره منذ أسابيع، وقد جاء بصحبته كذلك خمسة عشر رجلاً على الخيول، وعشرة حملة بنادق مشاة، وعدد كبير من هنود الخدمة، ومؤن تكفي لعدة أيام. وبمجيئهم ازداد عدد قوتنا إلى مئة وبضعة وثلاثين جندياً، حسب ما أتذكر. وكانت هذه معجزة أكبر من معجزة العثور على عين ماء العذراء.

قبل أن يناقش مع القادة الآخرين مسألة سانتشو ديلا أوث، اختلى بيدرو

بي ليسمع روايتي لما جرى. كثيراً ما كان يقال إنني قد سحرت بيدرو بسحر خبيث ومشروباتٍ أفرودية، وإنني أخبله في الفراش بانحرافات وضلالات تركية، أمتصُ بها طاقته، وأعطل إرادته، وإنني أسيّره ببساطة كما يحلو لي. لم يكن هناك ما هو أبعد من ذلك عن الحقيقة. فقد كان بيدرو عنيداً مكابراً، يعرف جيداً ما يريده؛ ولا يمكن لأحد أن يدفعه إلى تبديل اتجاهه بفنون السحر أو البغاء، وإنما بالحجج العقلانية وحدها. لم يكن رجلاً ممن يطلبون النصيحة بصورة سافرة، ناهيك أن تأتيه النصيحة من امرأة، لكنه في اللقاءات الحميمة معي يظل صامتاً، يذرع الغرفة، إلى أن أوفق في تقديم رأي. فكنت أحاول تقديمه إليه بشيء من الإبهام، كي يعتقد في النهاية أنه هو من اتخذ القرار. وقد أفادني هذا الأسلوب على الدوام. فالرجل يفعل ما يستطيعه، والمرأة تفعل ما لا يستطيعه الرجل. لقد رأيت أنه ليس من الصواب إعدام سانتشو ديلا أوث ـ وهي العقوبة التي يستحقها دون ريب ـ لأنه محمي بأوراق اعتماد ملكية، ولديه أقارب كثيرون لهم اتصالات وارتباطات ببلاط مدريد، ويمكن لإعدامه أن يسبب فتنة وعصياناً ضد بالديبيا. واجبي يفرض عليّ تجنب أن ينتهي الأمر بعشيقي إلى منصة التعذيب أو المشنقة.

ـ ما الذي يستحقه خائن مثل هذا؟ ـ غمغم بيدرو وهو يذرع الغرفة مثل ديك صراع.

ـ أنت من كنت تقول على الدوام إنه من الأفضل إبقاء الخصوم قريبين، بحيث يمكن مراقبتهم...

وبدلاً من محاكمة المتهمين فوراً، قرر بيدرو دي بالديبيا منح نفسه مزيداً من الوقت ليتقصى كيف هي الحالة المعنوية بين جنوده، وجمع الأدلة على المؤامرة، وكشف اللثام عن المتواطئين بين جماعتنا. وفجأة، أعطى الأمر لدون بينيتو برفع المخيم ومواصلة المسير نحو الجنوب، مقتاداً أسراه سجناء وميتين من الخوف جميعهم، باستثناء سانتشو ديلا أوث الذي يظن نفسه فوق العدالة. وبالرغم من الحديد، كان يواصل مسعاه في كسب

أنصار لقضيته والتأنق. طالب بخادمته الهندية في السجن لتشي له ياقته المتموجة، وتكوي سراويله، وتجعد له شعره، وترشه بالعطر وتشذب أظفاره. تلقى الرجال أمر المسير باستياء، لأنهم كانوا مرتاحين في ذلك المكان، حيث البرودة والماء والشجر. فذكّرهم دون بينيتو بصرخة غاضبة بأن أوامر القائد لا تُناقش. وكان بالديبيا، رغم المشقة، قد اقتادهم حتى هناك بأقل قدر من العقبات؛ وشكل اجتياز الصحراء نجاحاً كبيراً، إذ لم نفقد خلاله سوى ثلاثة جنود، وستة أحصنة، وكلب واحد وثلاثة من حيوانات اللاما. أما الياناكونا الذين خسرناهم فلم يُحصهم أحد، لكنهم يُقدرون، حسب قول كاتالينا، بحوالي ثلاثين أو أربعين شخصاً.

مذ تعرفتُ على فرانثيسكو أغيرّي شعرت فوراً بالثقة نحوه، على الرغم من مظهره المخيف. ومع مرور الوقت تعلمتُ الخوف من تماديه في القسوة. لقد كان رجلاً مفرط الضخامة، محباً للصخب، طويل القامة ومتين البنية، قهقهته المجلجلة جاهزة على الدوام. كان يشرب ويأكل قدر ما يشربه ويأكله ثلاثة رجال، وكان قادراً، وفق ما أخبرني به بيدرو، على تحبيل عشر هنديات في ليلة واحدة، وعشر أخريات في الليلة التالية. لقد انقضت سنوات طويلة، وهو الآن عجوز دون وساوس ضمير ولا أحقاد، لا يزال صافي الذهن وسليم الجسم بالرغم من أنه أمضى سنوات في زنازين محاكم التفتيش وسجون الملك النتنة. وهو يعيش في وضع جيد بفضل منحة من الأرض قدمها إليه زوجي المتوفى. سيكون من الصعب العثور على شخصين أكثر اختلافاً في الطباع من زوجي رودريغو طيب القلب والنبيل، وفرانثيسكو أغيرّي الجامح في اندفاعه. لكنهما كانا متحابين كجنديين جيدين في الحرب وصديقين في السلام. ولم يكن رودريغو ليسمح بأن ينتهي الأمر برفيقه في الأوقات الصعبة إلى أن يصير متسولاً بسبب جحود التاج والكنيسة، ولهذا وفر له الحماية حتى مماته. وأغيرّي الذي لا يوجد جزء من جسده إلا وفيه ندبة جرح في المعارك، يقضي آخر أيام حياته في

متابعة نمو الذرة في مزرعته الصغيرة إلى جانب زوجته التي جاءت من إسبانيا بدافع الحب، وأبنائه وأحفاده. إنه غير مهزوم وهو في الثمانين، لا يزال يتخيل المغامرات ويغني أغنيات الشباب اللاذعة. وفضلاً عن أبنائه الشرعيين، انجب أكثر من مئة ابن غير شرعي معروفين، ولابد أن هناك مئات آخرين لم يحصهم أحد. كان يفكر في أن أفضل طريقة لخدمة جلالة الملك في بلاد الهند هي في إعمارها بنسل من الخلاسيين؛ ووصل به الأمر إلى حد القول إن حل مشكلة السكان الأصليين هي في قتل جميع الذكور الذين تزيد أعمارهم على اثنتي عشرة سنة، واختطاف الأطفال واغتصاب النساء بصبر ومنهجية. وكان بيدرو يظن أن صديقه يمزح، لكنني كنت أعرف أنه يتكلم بجد. وبالرغم من انغماسه غير المحدود في مضاجعة النساء، إلا أن حب حياته الوحيد ظلت ابنة عمه التي تزوج منها بفضل تصريح خاص من البابا، مثلما قلتُ من قبل على ما أظن. اصبري عليّ يا إيزابيل؛ ففي السبعين من عمري، أميل إلى تكرار ما أقوله.



سرنا عدة أيام وبلغنا وادي كوبيابو، حيث تبدأ الأراضي التي وضعت تحت حكم بيدرو دي بالديبيا. انطلقت صرخة ابتهاج من قلوب الإسبان: لقد وصلنا. جمع بيدرو دي بالديبيا الناس، وأحاط نفسه بضباطه، واستدعاني إلى جانبه، وغرس بمهابة كبيرة بيرق إسبانيا، وتولى مسؤوليات منصبه. أطلق على تلك البلاد اسم إستريمادورا الجديدة، لأنه هو نفسه، وبيثارّو، ومعظم نبلاء الحملة، وأنا كذلك، نتحدر من تلك المقاطعة الإسبانية. وعلى الفور أقام الكاهن غونثالث دي مارموليخو مذبحاً وضع عليه تمثال المسيح المصلوب، وديكاً ذهبياً ـ هو الذهب الوحيد الذي رأيناه منذ شهور ـ وتمثالاً صغيراً لسيدتنا عذراء الرحمة التي صارت شفيعتنا بعد العون الذي وفرته لنا في الصحراء. قدم الكاهن قداس شكر مؤثراً، وشاركنا جميعنا، بأرواح منتفخة، في تناول خبز القربان.

كان الوادي مأهولاً بشعوب مختلطة وخاضعة لنظام الإنكا؛ لكنهم كانوا بعيدين جداً عن البيرو، بحيث لم يكن تأثير الإنكا ضاغطاً عليهم. خرج زعماؤهم لاستقبالنا بهدايا متواضعة من الطعام، وخُطب ترحيب يقوم الألسنة بترجمتها، لكنهم لم يكونوا مطمئنين لوجودنا. كانت بيوتهم المشيدة من الطين والقش أكثر متانة وأفضل توزيعاً من أكواخ السكان الذين رأيناهم من قبل. وكانت لدى هؤلاء الناس أيضاً عادة العيش مع أسلافهم الميتين، لكن الجنود امتنعوا في هذه المرة عن تدنيس المومياءات. اكتشفنا بعض القرى التي هُجرت لتوها، وهي لهنود عدائيين يقودهم *الكاسيكي* ميتشيمالونكو.

أمر دون بينيتو بإقامة المعسكر في موقع محمي جيداً، لأنه يخشى من تحول الوطنيين إلى محاربتنا عندما يدركون أننا لا ننوي العودة إلى البيرو، مثلما جرى لحملة الماغرو قبل ست سنوات. وعلى الرغم من حاجتنا إلى الأغذية، إلا أن بالديبيا حظر السطو على المزارع المأهولة ومضايقة السكان، ليرى إذا ما كان بإمكاننا اكتسابهم بهذه الطريقة كحلفاء. وكان دون بينيتو قد ألقى القبض على مراسلين آخرين، وعند استجوابهم كرروا ما كنا نعرفه: لقد أمر الإنكا السكان بالهرب مع أسرهم إلى الجبال، وإخفاء مؤنهم أو إتلافها. وهو ما استجاب له معظم السكان الأصليين. وقد استنتج دون بينيتو أن التشيليين ـ هكذا كان يسمي سكان تشيلي جميعهم، دون تمييز بين القبائل ـ قد دفنوا الأطعمة بكل تأكيد في الرمال، حيث يسهل الحفر. فأمر الجنود كلهم، باستثناء المكلفين بالحراسة، بأن يجوبوا المنطقة وهم يغرسون السيوف والرماح في الأرض إلى أن يجدوا المؤن المطمورة، وهكذا حصل على ذرة، وبطاطا، وفاصولياء، وحتى على بعض القرع المملوء بخمر مختمر، فصادرتُ هذا الشراب لأنه ينفع في مساعدة الجرحى على تحمل قسوة كيِّ جراحهم.

ما إن انتهينا من إقامة المعسكر، حتى أمر دون بينيتو بنصب مشنقة،

وأعلن بيدرو دي بالديبيا أنه ستجري في اليوم التالي محاكمة سانتشو ديلا أوث والسجناء الآخرين. اجتمع القادة الذين كان إخلاصهم مجرباً حول المنضدة في خيمتنا، كل واحد في مقعده الجلدي، وجلس القائد على أريكة. وأمام الذهول العام، أمر بالديبيا باستدعائي، وأومأ لي كي أجلس على كرسي بجانبه. شعرت بشيء من الارتباك حيال نظرات القادة غير المصدقين، لأنهم لم يروا من قبل امرأة تشارك في مجلس حربي. فقال بالديبيا: «إنها من أنقذتنا من العطش في الصحراء، ومن مؤامرة الخائنين، وهي تستحق أكثر من أي شخص آخر المشاركة في هذا الاجتماع». فلم يتجرأ أحد منهم على معارضته. بدا خوان غوميث عصبياً جداً، لأن زوجته سيسيليا كانت تضع وليدها في تلك اللحظات بالذات؛ لكنه وضع الخناجر الخمسة المتشابهة على المنضدة، وعرض التحريات التي كان قد توصل إليها حول المؤامرة وذكر أسماء الجنود المشكوك بولائهم، لاسيما المدعو رويث الذي سهّل دخول المتآمرين إلى المعسكر، بتشتيت انتباه حراس خيمتنا. تداول القادة مطولاً بشأن المجازفة التي ينطوي عليها إعدام ديلا أوث، وأخيراً تغلبت فكرة رودريغو دي كيروغا، وكانت تتفق مع فكرتي. أما أنا فلم أتفوه بأي كلمة، كي لا يتهمونني بأنني مسترجلة تتحكم ببالديبيا. وقد حرصت على أن يُقدم لهم النبيذ في أكواب، وأبديت اهتماماً وهززت رأسي موافقة بوداعة عندما تكلم كيروغا. كان بالديبيا قد اتخذ قراره، لكنه انتظر أن يطرحه شخص آخر كي لا يبدو جباناً وخائفاً من أوراق الاعتماد الملكية التي بحوزة سانتشو ديلا أوث.

ومثلما كان معلناً، أقيمت المحاكمة في اليوم التالي في خيمة السجناء. كان بالديبيا هو القاضي الوحيد فيها، يساعده رودريغو دي كيروغا وعمل عسكري آخر مدوناً للمحضر. لم أحضر الجلسة هذه المرة، لكنني لم أتكلف أي جهد لمعرفة التفاصيل الكاملة لما جرى. فرضوا حراسة مسلحة حول الخيمة، لكبح الفضوليين. ووضعوا منضدة جلس

وراءها القادة الثلاثة، يحيط بهم من الجانبين عبيد زنوج خبراء في أعمال التعذيب والإعدام. فتح الكاتب سجلاته وهيأ ريشته ودواة حبره، بينما كان رودريغو دي كيروغا يَصُفُّ الخناجر على المنضدة. وقد أخذوا كذلك مجمراً بيروياً من خيمتي، مملوءاً بالجمر المتوقد، ليس لتدفئة الجو بقدر ما هو لإخافة المعتقلين الذين يعلمون أن التعذيب يشكل جزءاً من أي محاكمة من هذا النوع؛ ومع أن التعذيب بالنار كان يستخدم ضد الهنود وليس ضد النبلاء، إلا أن أحداً لم يكن متأكداً مما يمكن لبالديبيا أن يفعله. كان المتهمون يقفون أمام المنضدة مثقلين بالسلاسل، واستمعوا خلال أكثر من ساعة إلى الاتهامات الموجهة إليهم. ولم يخامرهم أدنى شك في أن «المغتصب»، مثلما يسمون بالديبيا، كان على علم بأدق تفاصيل المؤامرة، بما في ذلك القائمة الكاملة لأنصار سانتشو ديلا أوث في الحملة. ولم يكن لديهم ما يمكن التعلل به. ساد صمت طويل بعد انتهاء خطبة بالديبيا المسهبة، بينما كان الكاتب ينهي تدوين ما قيل في سجله.

ـ هل لديكم ما تريدون قوله؟ ـ سألهم رودريغو دي كيروغا أخيراً.

عندئذ فقد سانتشو ديلا أوث تماسكه، وانهار على ركبتيه معلناً أنه يعترف بكل تلك التهم الموجهة إليه، باستثناء النية في اغتيال الجنرال الذي يحترمه المعتقلون الخمسة ويقدرونه ويقدمون حياتهم في خدمته. أما مسألة الخناجر فليست سوى حماقة، ويكفي رؤيتها للتأكد من أنها ليست أسلحة جدية. وحذا الآخرون حذوه، متوسلين الصفح ومقسمين على الولاء الأبدي. أمرهم بالديبيا بالسكوت. وساد صمت طويل آخر لا يطاق بعد كلماتهم، وأخيراً نهض القائد واقفاً وأصدر الحكم الذي بدا لي غير عادل، لكنني امتنعت عن التعليق عليه معه في ما بعد، لأنني توقعت أن لديه أسبابه لعمل ما عمله.

حُكم على ثلاثة من المتآمرين بالنفي. سيكون عليهم الانطلاق في رحلة العودة إلى البيرو، عبر الصحراء، مع حفنة من الهنود المساعدين وحيوان لاما واحد. وأُطلق سراح آخر دون أي تفسير. أما سانتشو ديلا أوث، فحرر

عقداً ـ هو أول وثيقة مكتوبة في تاريخ تشيلي ـ يحلّ فيه الشراكة مع بالديبيا، وظل مقيداً وسجيناً في حالة من عدم اليقين على مصيره، دون أن يصدر حكم ضده في تلك اللحظة. لكن أغرب ما حدث هو أن بالديبيا أمر في تلك الليلة بالذات بإعدام رويث، الجندي الذي تواطأ مع المتآمرين، ولكنه لم يكن ضمن الخمسة الذين دخلوا خيمتنا ومعهم الخناجر المشهورة. وقد أشرف دون بينيتو بنفسه على الزنوج الذين شنقوه، ثم قطعوا جسده بعد ذلك. وعُلق الرأس، وأجزاء الجسد الأربعة التي قُطعت بالفؤوس، بكلابات جزار في عدة مواضع من المعسكر، كي تُذكر المترددين بالثمن الذي يدفعه كل من يخون بالديبيا. وفي اليوم الثالث، كانت الرائحة لا تطاق، والذباب يملأ أرجاء المكان، فاضطروا إلى إحراق الرفات.



كان مخاض أميرة الإنكا سيسيليا طويلاً وشاقاً، إذ كان وضع الوليد معكوساً في بطنها. والطفل الذي ينجو في مثل هذه الولادات، تقول عنه القابلات إنه سيكون محظوظاً. سحبت كاتالينا الوليد بالشد، وقد خرج مغطى بكدمات بنفسجية، لكنه كان سليماً ويطلق الصراخ. وبدا خروج الوليد الخلاسي التشيلي الأول بقدميه أولاً، فألاً طيباً.

كانت كاتالينا تنتظر خوان غوميث عند باب خيمتنا، بينما القادة يتداولون بشأن مصير المتآمرين. هذا الرجل الذي عانى من المحن أكثر مما عاناه غيره من الشجعان، كان يتنازل في الصحراء عن حصته من الماء لزوجته، ويمضي ماشياً كي يقدم لها حصانه بعد أن أُصيبت بغلتها بحادث، ويحميها بصدره عندما يهاجمنا الهنود، ولكنه انفجر بالبكاء عندما وضعت كاتالينا ابنه بين ذراعيه.

- سيكون اسمه بيدرو، تكريماً لحاكمنا ـ أعلن غوميث وهو يجهش بالبكاء.

احتفى الجميع بقراره، باستثناء بيدرو دي بالدييبا الذي ذكّرنا بجفاء:

- لستُ حاكماً، إنني نائب للحاكم وحسب، فأنا أمثل المركيز بيثارّو وجلالة ملك إسبانيا.

- لقد صرنا في الأراضي التي كُلفتَ بفتحها أيها القائد العام، وهذا وادٍ مبهج جداً. فلماذا لا نؤسس مدينة هنا؟ - اقترح عليه غوميث.

- هذه فكرة جيدة. وسيكون بيدرو غوميث الصغير هو أول طفل يجري تعميده في المدينة - أيده خيرونيمو دي الديريتي الذي لم يشف بعد من حمى الأدغال، وكان متضايقاً من فكرة مواصلة المسير.

لكنني كنت أعرف أن بيدرو يرغب في مواصلة التقدم باتجاه الجنوب، أبعد ما يمكن في الجنوب، كي يبتعد عن البيرو. ففكرته تتمثل في تأسيس المدينة الأولى في مكان لا تصله الأذرع الطويلة للمركيز الحاكم، ومحاكم التفتيش، ومتبرزي الحبر وأكلة البراز كما يسمي موظفي التاج المنافقين الذين لا همّ لهم إلا الإزعاج والمضايقة في العالم الجديد.

- لا أيها السادة. سنواصل المسير حتى وادي المابوتشو. لأنه المكان الملائم لمستوطنتنا كما يقول دون بينيتو الذي كان هناك مع المتقدم دييغو ألماغرو.

فقال الديريتي بإلحاح:

- وكم فرسخاً يبعد من هنا؟

- كثيراً، ولكنها أقل مما قطعناه حتى الآن - أوضح دون بينيتو.

عالجنا سيسيليا أولاً بأوراق الهويّا إلى أن طردت كل فضلات الحمل التي ظلت عالقة، ثم أوقفنا النزيف بشراب أعددناه من جذور أذن الثعلب، وهي وصفة تشيلية تعلمتها كاتالينا للتو، وكانت سريعة المفعول. فبينما جنودنا يواجهون الهنود في مناوشات مختلفة، كانت كاتالينا تخرج بطمأنينة من المعسكر لتلتقي بالهنديات التشيليات وتتبادل وإياهن وصفات العلاج. لا أدري كيف كانت تتدبر أمر المرور بين الحراس دون أن يروها،

وكيف كانت تتآخى مع الأعداء دون أن يهشموا جمجمتها بضربة هراوة.

السيئ في الأمر أن كثرة الأعشاب العلاجية التي قُدمت إلى سيسيليا أدت إلى انقطاع حليبها، وهكذا تربى بيدرو غوميث الصغير على حليب اللاما. ولو أن ولادته تأخرت بضعة شهور، لتوفر له عدد من المرضعات، لأن هنديات كثيرات كن قد حبلن. لقد منحه حليب اللاما عذوبة ستكون عائقاً جدياً في مستقبله، إذ قُدر له أن يعيش ويحارب في تشيلي، وهي ليست بالمكان المناسب لرجال رقيقي القلوب.



لابد لي الآن من الإشارة إلى واقعة لم تكن لها آثار، اللهم إلا بالنسبة إلى الشاب المسكين الملقب إسكوبار، لكنها تنفع في إظهار شخصية بيدرو دي بالديبيا وطبعه. لقد كان عشيقي رجلاً كريماً، وصاحب أفكار رائعة، ومبدأ كاثوليكي راسخ، وشجاعة تفوق أي اختبار ـ وهذه مسوغات جيدة لتقديره ـ، غير أن لديه عيوبه أيضاً، وبعضها خطر جداً. أسوأها بكل تأكيد تطلعه غير المحدود إلى الشهرة، وهو ما كلفه في نهاية المطاف حياته وحياة آخرين كثيرين؛ غير أن أقسى عيوبه التي يصعب تحملها في نظري هي غيرته. كان يعرف أنني غير قادرة على خيانته، لأن ذلك ليس من طبعي، ولأني أحبه كثيراً، فلماذا تراه ارتاب بي آنذاك؟ أو ربما أنه ارتاب بنفسه.

كان الجنود يعاشرون من يشاؤون من الهنديات، بعضهن بالقوة وأخريات برضاهن؛ ولكنهم كانوا يتشوقون دون شك إلى كلمات حب تُهمس لهم بالإسبانية. والرجال يشتهون ما هو ليس لهم. وقد كنتُ الإسبانية الوحيدة في الحملة، عشيقة القائد، ظاهرة للعيان، حاضرة، لا أُمس، لكنني مشتهاة على الأقل. إنني أتساءل أحياناً عما إذا كنتُ مسؤولة عن تصرفات سيباستيان روميرو، أو حامل الراية نونيث، أو هذا الفتى المدعو

إسكوبار. لكنني لا أجد في نفسي عيوباً سوى كوني امرأة، وهذه تبدو جريمة كافية. فنحن المتهمات بشبق الرجال. ولكن، أليست الخطيئة من مسؤولية من يرتكبها؟ فلماذا عليّ أن أدفع ثمن خطايا الآخرين؟

بدأتُ الرحلة مرتدية ملابس كتلك التي اعتدت ارتداءها في بلاسينثيا ـ تنورة تحتانية، مشداً، قميصاً، تنورة، طرحة، خُفّاً ـ، لكنني سرعان ما اضطررت إلى التلاؤم مع الظروف. فمن غير الممكن السفر ألف فرسخ وأنا أمتطي الحصان مجانبة، على الطريقة النسائية، دون أن يؤدي ذلك إلى قصم ظهري. كان لابد لي من أن امتطي دابتي وأنا منفرجة الساقين. وقد حصلت على سروال داخلي رجالي وجزمة، وخلعت المشد المجدول من أوبار لحية الحوت الخشنة التي لا يمكن لأحد تحملها، وسرعان ما تخلصت من طرحتي، وجدلت شعري كما الهنديات، لأنه كان يُثقل على رقبتي، ولكنني لم أمضِ قط دون سترة، مثلما لم أسمح لنفسي بالتباسط مع الجنود. وفي المواجهات مع الهنود المحاربين، كنت أعتمر خوذة، وأرتدي درعاً خفيفاً من الجلد، وواقيات للساقين أمر بيدرو بصنعهما لي، ولولا ذلك لقتلتني سهام الهنود منذ المرحلة الأولى من الطريق. فإذا كان مظهري ذاك قد أشعل شهوة إسكوبار وآخرين من رجال الحملة، فإنني لا أفهم كيف تعمل عقول الذكور. لقد سمعت فرانثيسكو دي أغيرّي يردد أن الذكور لا يفكرون إلا في الأكل والمضاجعة والقتل، وهي إحدى عباراته المفضلة، وإن لم تكن هذه هي الحقيقة الكاملة في حالة البشر، لأن هؤلاء يفكرون في السلطة أيضاً. إنني أرفض اعتبار أغيرّي محقاً، على الرغم من مظاهر الضعف الكثيرة التي ثبت لي وجودها لدى الرجال. ولكنهم ليسوا متشابهين جميعهم.

جنودنا يتحدثون بكثرة عن النساء، وخاصة عندما نضطر للتخييم عدة أيام، ولا يكون لديهم ما يفعلونه سوى نوبات حراستهم والانتظار. يتبادلون الانطباعات حول الهنديات، ويباهون بمآثرهم ـ عمليات الاغتصاب ـ ويعلقون

بحسد على مآثر أغيرّي الأسطورية. ولسوء الحظ أن اسمي كان يتردد بكثرة في تلك الأحاديث، يقولون إنني أنثى لا ترتوي، وإنني أمتطي حصاني كالرجال كي أتهيج على صهوته، وإنني أرتدي تحت التنورة سروالاً داخلياً رجالياً. وهذا الأمر الأخير كان صحيحاً، لأنني لا أستطيع ركوب الحصان فرشخة بفخذين عاريين.

أصغر الجنود في الحملة كان فتى يدعى إسكوبار، عمره ثمانية عشر عاماً فقط، وصل إلى البيرو كصبي بحار في سفينة عندما كان لا يزال طفلاً، وكان يستهجن ثرثرات الرجال تلك. لم يكن عنف الحرب قد لوّثه بعد، وكانت قد تكونت لديه فكرة رومانسية عني. وكان في السن التي يقع فيها المرء في حب الحب. وقد صاغني في مخيلته على أنني ملاك طاهر جرجرته إلى الانحراف شهوات بالديبيا الذي يجبرني على خدمته في الفراش كامرأة فاسدة. عرفتُ بهذه الأمور من الخادمات الهنديات، مثلما كنت أعرف دوماً كل ما يدور حولي. ليس هناك أسرار تخفى عليهن، لأن الرجال لا يلتزمون الحذر في ما يقولونه أمام النساء، مثل عدم حذرهم أمام خيولهم أو كلابهم. فهم يعتقدون أننا لا نفهم ما نسمعه. راقبتُ بتكتم سلوك الفتى وتأكدتُ من أنه يطوف حولي. فقد كان إسكوبار يختلق المبررات للاقتراب مني، متذرعاً بأنه يريد تعليم بعض الخدع لبلتسار الذي نادراً ما يبتعد عني، أو الطلب مني تبديل ضماد جرح في ذراعه، أو أن أعلمه صنع العصيدة، لأن خادمتيه الهنديتين لا تنفعان في شيء.

كان بيدرو دي بالديبيا ينظر إلى إسكوبار على أنه أكثر قليلاً من طفل، ولا أظن أنه كان يهتم بأمره قبل أن يبدأ الجنود بالسخرية منه مازحين. فعندما انتبه الآخرون إلى أن اهتمامه بي أقرب إلى الرومانسية منه إلى الجنس، لم يعودوا يتركونه بسلام، وصاروا يستفزونه إلى حد دفعه إلى البكاء بمذلة. وكان لابد لتلك السخريات من أن تصل، عاجلاً أو آجلاً، إلى مسامع بالديبيا الذي بدأ يوجه إليّ أسئلة لجوجة، وتحول إلى مراقبتي أو

تدبير المكائد لي. فكان يرسل إسكوبار ليساعدني في أعمال تخص الخادمات، وبدلاً من أن يرفض الفتى الأمر، مثلما سيفعل أي جندي آخر، كان يسرع لتلبية طلبه. وكثيراً ما كنت أجد إسكوبار في خيمتي لأن بيدرو أرسله لإحضار شيء ما، وهو يعلم أنني وحيدة في الخيمة. أعتقد أنه كان علي أن أواجه بيدرو منذ البداية، لكنني لم أتجرأ، فالغيرة تحوله إلى كائن فظيع، ويمكن له أن يتصور أن لدي أسباباً خفية لحماية إسكوبار.

هذه اللعبة الشيطانية التي بدأت بعد قليل من مغادرتنا تاراباكا، نُسيت خلال اجتياز الصحراء المرعب، حيث لم يكن لدى أحد حماسة للحماقات. لكنها تجددت بزخم أشد في وادي كوبيابو الوديع، فالجرح البسيط في ذراع إسكوبار التهب، بالرغم من أننا كنا قد كويناه، فكان لابد لي من تبديل ضماده بكثرة. ووصل بي الأمر إلى التفكير في أن الأمر قد يستوجب إجراء عملية بتر، غير أن كاتالينا نبهتني إلى أن رائحة اللحم حول الجرح ليست نتنة، وأن الفتى غير محموم. وألمحت لي: «إنه يحك الجرح وحسب يا سينيوراي، ألا ترين ذلك؟». رفضتُ تصديق أن يكون إسكوبار هو من ينكأ جرحه متخذاً منه ذريعة كي أعالجه، لكنني أدركت أن الوقت قد حان للتحدث إليه.

في ساعات الغروب، عندما بدأت الموسيقى في المعسكر: قيثارات الجنود وناياتهم، ومزامير الهنود الكئيبة، وطبول مراقبي العمال الأفريقية. ويصدع إلى جانب أحد المواقد صوت فرانثيسكو دي أغيرّي الجهير وهو يغني أغنية لاذعة. ويطفو في الجو العبق اللذيذ لصنف الطعام اليومي الوحيد، لحم مشوي، ذرة، وعجة على الجمر. كانت كاتالينا قد اختفت، مثلما هي عادتها كل ليلة، وكنتُ وحدي في خيمتي مع إسكوبار الذي انتهيتُ للتو من تنظيف جرحه، ومعي كلبي بلتسار الذي صار يميل إلى الفتى.

ـ إذا لم يتحسن هذا الجرح سريعاً، فإنني أخشى أن نضطر إلى بتر ذراعك ـ قلتُ له مباشرة.

فتلعثم وقد شحب لونه من الخوف:

ـ الجندي الأبتر لا نفع فيه لأي شيء يا دونيا إنيس.

ـ بل إن الجندي الميت أكثر منه نفعاً.

قدمتُ إليه كأساً من خمر الصبار لمساعدته على تجاوز الخوف، وكي أكسب أنا نفسي الوقت، لأني لم أكن أدري كيف سأطرح الموضوع. وأخيراً، اخترت أسلوب الصراحة.

ـ لقد لاحظتُ أنكَ تسعى إلى التقرب مني يا إسكوبار، ولأنه يمكن لهذا أن يؤدي إلى نتائج غير مواتية لكلينا، فسوف تتولى كاتالينا من الآن فصاعداً معالجتك.

عندئذ، وكما لو أنه كان ينتظر أن يفتح أحدٌ باب قلبه، اندفع إسكوبار في بوح من الاعترافات المختلطة بإعلان حبه وبالوعود والعهود الغرامية. حاولت أن أذكّره مع من هو آخذ بتجاوز حدوده، لكنه لم يتح لي التكلم. احتضنني بقوة، وشاء سوء الحظ أنني حين تراجعتُ إلى الوراء، تعثرت ببلتسار ووقعت أرضاً على ظهري ووقع إسكوبار فوقي. لو كان من هاجمني بهذه الطريقة هو أي شخص آخر، لكان الكلب قد مزقه، لكنه كان يعرف الفتى جيداً، وظن أنها لعبة، فراح يتقافز حولنا وهو ينبح مبتهجاً بدل أن ينقض عليه. إنني قوية، ولم تكن تخامرني الشكوك في قدرتي على الدفاع عن نفسي، لهذا لم أصرخ. لم تكن تفصلنا سوى ستارة قماشية عن الناس الذين في الخارج، وما كنت راغبة في إثارة الفضائح. كان يبقيني ملتصقة إلى صدره بيده الجريحة، بينما يثبت بيده الأخرى عنقي وقبلاته المبللة باللعاب والدموع تتوالى على عنقي ووجهي. توصلت إلى ذكر سيدتنا عذراء النجاة، متأهبة لتوجيه ضربة من ركبتي إلى ما بين فخذيه، لكن الوقت كان قد فات؛ ففي هذه اللحظة بالذات ظهر بيدرو والسيف في يده. لقد كان يراقبنا طوال الوقت من الحجرة الأخرى في الخيمة.

ـ لاااا! ـ صرختُ مرعوبة عندما رأيته مستعداً لطعن الجندي عاثر الحظ بسيفه.

وباندفاع وحشي تمكنتُ من الارتماء كي أحمي إسكوبار الذي صار تحتي. حاولت أن أحميه من السيف المسلول، وفي الوقت نفسه من الكلب الذي تولى دوره عندئذ كحارس وراح يحاول عضه.



لم تكن هناك محاكمة ولا تفسيرات. فقد عمد بيدرو دي بالديبيا بكل بساطة إلى استدعاء دون بينيتو، وأمره بشنق الجندي إسكوبار في صباح اليوم التالي، بعد القداس، وأمام اجتماع المعسكر. اقتاد دون بينيتو الفتى المرتجف من ذراعه، ووضعه تحت الحراسة في إحدى الخيام، ولكن بلا قيود. كان إسكوبار أشبه بخرقة، ليس خوفاً من الموت، بل ألماً على قلبه المحطم. ذهب بيدرو دي بالديبيا إلى خيمة فرانثيسكو دي أغيرّي، حيث ظل يلعب الورق مع القادة الآخرين، ولم يرجع حتى الفجر. لم يسمح لي بالتحدث إليه، وأظن أنني لو توصلت إلى ذلك، في تلك المرة، لما وجدتُ الطريقة المناسبة لجعله يبدل رأيه. فقد أصابته الغيرة بمس شيطاني.

وفي أثناء ذلك، كان الكاهن غونثالث دي مارموليخو يحاول مواساتي بالقول إنني لست المذنبة في ما جرى، وإن المذنب هو إسكوبار نفسه، لأنه اشتهى امرأة غيره، أو بلاهة من هذا القبيل. فقلت له:

ـ لا أظن أنك ستبقى مكتوف الذراعين يا أبتاه. عليك أن تقنع بيدرو بأنه يقترف ظلماً عظيماً بفعلته هذه.

ـ لابد للقائد العام من أن يحافظ على النظام بين رجاله يا بنتي، ولا يمكن له التسامح مع مثل هذا النوع من الإساءات.

ـ بيدرو يسمح لرجاله بأن يغتصبوا ويضربوا نساء رجالٍ آخرين، ولكن يا لهول ما يحدث إذا ما لمسوا من تخصه!

ـ لم يعد بإمكانه التراجع. فالأمر العسكري هو أمر لا رجعة عنه.

ـ بل بمكنه التراجع بالطبع! خطيئة هذا الشاب لا تستحق المشنقة،

وأنت تعرف ذلك جيداً مثلما أعرفه أنا. اذهب للتحدث إليه!

- سأذهب يا دونيا إنيس، لكنني أقول لك مقدماً إنه لن يبدل رأيه.

- يمكنك تهديده بالحرمان الكنسي...

- هذا تهديد لا يمكن إطلاقه بخفة! - هتف الكاهن وقد هاله طلبي.

فأجبته:

- أما بيدرو، بالمقابل، فيمكنه أن يلقي وزر موت رجل على ضميره بخفة، أليس كذلك؟

- إنك تفتقرين إلى الخنوع يا دونيا إنيس. فهذا الأمر ليس بيدك، بل هو بيد الرب.

ذهب غونثاليث دي مارموليخو للتحدث إلى بالديبيا. وقد فعل ذلك أمام القادة الآخرين الذين كانوا يلعبون الورق معه، معتقداً أنهم سيساعدون في إقناعه بالعفو عن إسكوبار. لكنه أخطأ تماماً. فبالديبيا لا يقبل أن يُلوى ذراعه أمام شهود، إضافة إلى أن رفاقه في اللعب منحوه الحق في ما فعله؛ لأنهم هم أنفسهم سيفعلون الشيء نفسه لو كانوا مكانه.

عندئذ ذهبتُ إلى خيمة خوان غوميث وسيسيليا، بحجة أنني أريد رؤية الوليد. كانت الأميرة الهندية أجمل مما بدت عليه في أي وقت آخر، تستريح مستلقية على فراش وثير، وتحيط بها خادماتها. خادمة هندية تدلك قدميها، وأخرى تسرح شعرها الضارب إلى الحمرة، وأخرى تعصر حليب لاما من خرقة في فم الطفل. وكان خوان غوميث يراقب المشهد مفتوناً كما لو أنه أمام المذود الذي كان مهداً للطفل يسوع. أحسستُ بوخزة حسد، وبأنني مستعدة لأن أعطي نصف عمري مقابل أن أكون مكان سيسيليا. وبعد أن هنأت الأم الشابة وقبّلت الطفل، أمسكت الأب من ذراعه واقتدته خارجاً. رويت له ما حدث، وطلبت منه المساعدة.

- أنت المأمور القضائي يا دون خوان، افعل شيئاً، أرجوك - قلت له متوسلة.

فأجابني بعينين جاحظتين

ـ لا يمكنني معارضة أوامر دون بيدرو دي بالديبيا.

ـ يُخجلني أن أذكرك يا دون خوان بذلك، ولكنك مدين لي بجميل...

فسألني:

ـ سيدتي، هل تطلبين مني هذا لأن لك مصلحة خاصة مع الجندي إسكوبار؟

ـ كيف يخطر لك ذلك؟ إنه ما يمكن أن أطلبه منك من أجل أي رجل في هذا المعسكر. لا يمكنني السماح بأن يقترف بيدرو هذه الخطيئة. ولا تقل لي إنها مسألة انضباط عسكري. فكلانا يعلم أنها مسألة غيرة محضة وحسب.

ـ ماذا تقترحين؟

ـ هذا أمر بين يدي الرب، مثلما يقول الكاهن. فما رأيك لو ساعدنا اليد الإلهية قليلاً؟

في اليوم التالي، بعد القداس، دعا دون بينيتو الناس للاجتماع في ساحة المعسكر المركزية، حيث لا تزال تنتصب المشنقة التي استُخدمت لشنق عاثر الحظ رويث، وحبلها جاهز. كانت تلك هي أول مرة أحضرُ فيها مثل هذا المشهد، لأنني كنت أتجنب حتى ذلك اليوم حضور عمليات التعذيب أو الإعدام؛ فيكفيني ما أراه من عنف المعارك وعذابات الجرحى والمرضى الذين أعالجهم. وقد حملت معي سيدتنا عذراء الرحمة بين ذراعي، بحيث يمكن للجميع رؤيتها. اصطف القادة في المقدمة مشكلين مربعاً، ووقف وراءهم الجنود، يليهم المراقبون الزنوج وحشد من هنود الياناكونا، وهنديات الخدمة والخليلات. كان الكاهن قد أمضى الليل ساهراً يصلي، بعد أن أخفق في مسعاه مع بالديبيا. فكان لون سحنته مائلاً إلى الخضرة، وتحيط بعينيه هالة بنفسجية قاتمة، مثلما يحدث له عندما يجلد نفسه بالسوط، بالرغم من أن تعذيبه لنفسه يبدو مضحكاً، حسب ما تقوله الهنديات اللاتي يعرفن ما الذي يعنيه السوط بجد.

أعلن منادٍ ودوي طبول عن عملية الإعدام. وقال خوان غوميث، بوصفه المأمور القضائي، إن الجندي إسكوبار قد اقترف فعلة انضباطية خطيرة، إذ دخل إلى خيمة الجنرال بنوايا خبيثة، واعتدى على شرفه. لم يحتج إلى مزيد من التوضيحات، ولم يخامر الشك أحداً في أن الفتى سيدفع حياته ثمناً لحبه المتهور. قام الزنجيان المكلفان بتنفيذ الحكم باقتياد المتهم مخفوراً إلى الساحة. وقد جاء إسكوبار دون قيود، منتصب القامة كرمح، هادئاً، ونظره إلى الأمام، كما لو أنه يمشي في الحلم. كان قد طلب السماح له بالاغتسال، وحلاقة ذقنه، وارتداء ثياب نظيفة. جثا على ركبتيه، وقدم له الكاهن المسحة الأخيرة، وباركه، وقدم له الصليب المقدس ليقبّله. اقتاده الزنجيان إلى منصة الإعدام، وقيدا يديه وراء ظهره، وربطا كاحليه إلى بعضهما، ثم وضعا الأنشوطة حول عنقه. لم يسمح إسكوبار بأن يوضع كيس على رأسه، وأظن أنه أراد أن يموت وهو ينظر إليّ، متحدياً بيدرو دي بالديبيا. أبقيتُ نظري مصوباً إليه، محاولة منحه العزاء.

ومع قرع الطبول الثاني، أزاح الزنجيان المسند من تحت قدمي المتهم، فظل معلقاً في الهواء. كان صمت الموت يخيم على الجميع في المعسكر، ولم يكن يسمع إلا دوي الطبول. وخلال وقت بدا لي أبدياً، تدلى جسد إسكوبار من المشنقة متأرجحاً، بينما أنا أصلي وأصلي، بيأس، ضاغطة تمثال العذراء إلى صدري. وعندئذ حدثت المعجزة: انقطع الحبل فجأة، وسقط الفتى متهاوياً على الأرض، وظل ممدداً هناك كالميت. أفلتت صرخة ذهول طويلة من أفواه كثيرة. تقدم بيدرو دي بالديبيا ثلاث خطوات إلى الأمام، وكان شاحباً كالشمع، غير مصدق ما حدث. وقبل أن يتمكن من إصدار أمر جديد إلى الجلادين، سارع الكاهن إلى التقدم رافعاً الصليب المقدس عالياً، وحائراً مثل الآخرين جميعهم.

- إنه حكم الرب! إنه حكم الرب! - صرخ.

سمعتُ الهمهمات كموجة في أول الأمر، ثم تلا ذلك مباشرة لغط

الهنود الهائج، موجة اصطدمت بجمود الجنود الإسبان إلى أن راح أحدهم يرسم إشارة الصليب وجثا على الأرض. وحاكاه آخر على الفور، ثم آخر، إلى أن جثونا جميعنا، باستثناء بيدرو دي بالديبيا. إنه حكم الرب...

أبعد المأمور القضائي خوان غوميث الجلادين جانباً، وانتزع بنفسه الحبل من حول عنق إسكوبار، وقطع قيد معصميه وكاحليه، وساعده على النهوض. وكنت أنا وحدي من انتبهت إلى أنه أعطى حبل الشنق لأحد الهنود، فحمله هذا بعيداً قبل أن يخطر لأحد تفحصه عن قرب. لم يعد خوان غوميث مديناً لي بأي معروف.

لم يُطلق سراح إسكوبار. واستبدل الحكم ضده بالنفي. عليه أن يرجع إلى البيرو، مكللاً بالعار، سيراً على الأقدام، وبمرافقة هندي ياناكونا واحد فقط. فإذا ما تمكن النجاة من هنود الوادي المعادين، فسوف يموت في الصحراء، وسيبقى جسده المتيبس كالمومياءات دون دفن. هذا يعني أن الشنق أرحم من هذا المصير. بعد ساعة من ذلك غادر المعسكر بالوقار الهادئ نفسه الذي مشى به نحو منصة الإعدام. والجنود الذين كانوا يسخرون منه قبلاً إلى حدّ الإزعاج، اصطفوا في صفي احترام، ومرّ هو بينهما، ببطء، مودعاً بعينيه، ودون أن ينطق كلمة واحدة. كثيرون اغرورقت أعينهم بالدموع، ندماً وخجلاً. قدم له أحدهم سيفه، وقدم له آخر بلطة قصيرة الذراع، وجاء ثالث وهو يدفع حيوان لاما محملاً بحزم أمتعة وقرب ماء. كنتُ أراقب المشهد من بعيد، مصارعة في داخلي العداء الخانق الذي أحسست به نحو بالديبيا. وعندما صار الفتى عند مخرج المعسكر، لحقت به، ترجلتُ وقدمت إليه كنزي الوحيد: الحصان.

❖ ❖ ❖

ظللنا سبعة أسابيع في الوادي، حيث انضم إلينا عشرون إسباني آخر، بينهم كهنة وشخص يدعى تشينتشيًا، مثير للفتن ودنيء، راح يتآمر منذ

البدء مع سانتشو ديلا أوث لاغتيال بالديبيا. كانت السلاسل قد فُكت من قدمي ديلا أوث، وصار يتجول في المعسكر طليقاً، لكن خوان غوميث كان يراقبه جيداً. وكان المئة والخمسون رجلاً الذين يشكلون الحملة الآن جميعهم، باستثناء تسعة منهم، من طبقة نبلاء الهيدالغو، أي من طبقة النبلاء الريفيين أو المفتقرين، لكنهم نبلاء رغم كل شيء. وهذا برأي بالديبيا لا يعني شيئاً، لأن هناك فائضاً من النبلاء في إسبانيا، أما أنا فأظن أن أولئك المؤسسين قد أضافوا عزة نفسهم إلى مملكة تشيلي. فقد انضمت إلى دماء أولئك الإسبان المتكبرين، دماء العرق المابوتشي الجامح، ومن هذا الخليط خرج شعب ذو غطرسة جنونية.

بعد طرد الفتى إسكوبار، احتاج المعسكر عدة أيام لاستعادة حياته الطبيعية. فقد كان الجميع غاضبين، وكان بالإمكان الإحساس بالغضب في هواء المكان. فالجنود يرون أنني مذنبة: فأنا من أغويت الفتى البريء، وأخرجته عن طوره وأوصلته إلى الموت. أنا، المحظيّة الفاجرة. أما بيدرو دي بالديبيا فلم يفعل إلا ما يمليه عليه واجب الدفاع عن شرفه. ظللتُ أشعر لوقت طويل بحقد أولئك الرجال كحروق في جلدي، مثلما أحسست من قبل بشبقهم. نصحتني كاتالينا بالبقاء في خيمتي إلى أن تهدأ الخواطر، غير أنه كان هناك عمل كثير من أجل الإعداد للرحلة، ولم أجد خياراً آخر سوى مواجهة التقولات.

كان بيدرو منهمكاً بدمج الجنود الجدد ضمن قواته، وبالإشاعات التي تدور عن خيانة، لكنه وجد متسعاً من الوقت ليفرغ غضبه فيَّ. وإذا كان قد أدرك أنه تجاوز الحد في انتقامه من إسكوبار، إلا أنه لم يعترف بذلك قط. وأجج الإحساسُ بالذنب والغيرة شهوته، فصار يرغب في مضاجعتي في كل وقت، حتى في منتصف النهار. كان يقطع واجباته أو اجتماعاته مع القادة الآخرين، ليسحبني عنوة إلى الخيمة، على مرأى المعسكر بأسره، بحيث لم يعد هناك من لم يلحظ ما يجري. ولم يكن

بالديبيا يهتم بذلك، بل كان يتعمد تلك الأفعال كي يفرض سلطته، ويذلني، ويتحدى ناشري الإشاعات. لم نمارس الحب بمثل ذلك العنف من قبل. كان يخلّفني مضعضعة، ويريد مني أن أستمتع بذلك. يريدني أن أتأوه من الألم، بعد أن لم أعد أتأوه من اللذة. كانت هذه هي عقوبته لي: المعاناة كعاهرة، مثلما كانت عقوبة إسكوبار الموت في الصحراء. تحملتُ الإساءة إلى حيث أستطيع، مفكرة في أنه سيأتي وقت تهدأ فيه غطرسة بيدرو، لكن صبري نفد بعد بضعة أسابيع، وبدلاً من أن انصاع له عندما أراد أن يفعل معي كما الكلاب، وجهتُ صفعة قوية إلى وجهه. لست أدري كيف شلتنا المفاجأة معاً لهنيهة، وبعد ذلك فوراً، انكسر السحر المشؤوم الذي كنا عالقين فيه. احتضنني بيدرو نادماً، ورحتُ أنا بدوري أرتجف، بسعادة لا تقل عن سعادته.

ـ ما الذي فعلتُه! إلى أي درك وصلنا يا حبي؟ سامحيني يا إنيس، انسي كل هذا، أرجوكِ... ـ قال متلعثماً.

ظللنا متعانقين، وروحانا معلقتان بخيط، نجتر تفسيرات، نتبادل المغفرة، وأخيراً نمنا مستنفدين، دون استراحة. ومنذ تلك اللحظة بدأنا باستعادة الحب المفقود. عاد بيدرو إلى مغازلتي بعاطفة الأزمنة الأولى وعذوبتها. كنا نقوم بنزهات قصيرة، يرافقنا الحراس على الدوام، لأنه يمكن للهنود المعادين أن ينقضوا علينا في أي لحظة. وكنا نتناول الطعام وحدنا في الخيمة، ويقرأ لي في الليل، ويقضي ساعات في مداعبتي ليمنحني المتعة التي كان ينكرها عليّ قبل قليل. كانت لهفته إلى ابن لا تقل عن لهفتي، لكنني لم أحبل، على الرغم من صلوات المسبحة للعذراء، والأشربة التي تُحَضّرها كاتالينا. إنني عاقر، لم أستطع إنجاب أبناء من أي رجل ممن أحببتهم، خوان، بيدرو، رودريغو، ولا ممن استمتعت معهم بلقاءات قصيرة وسرية؛ ولكنني أظن أن بيدرو كان مثلي أيضاً، لأنه لم ينجب أبناء من مارينا ولا من نساء أخريات. «أريد أن أخلّف شهرة وذكرى

لي»، كان هذا هو دافعه إلى فتح تشيلي. وربما استبدل بذلك الذرية التي لم ينجبها. لقد خلّف اسمه في التاريخ، بعد أن لم يستطع توريثه لذريته.



كانت لدى بيدرو الحيطة المسبقة، وما يكفي من الصبر، ليعلمني استخدام السيف. وأهدى إليّ فوق ذلك حصاناً آخر، بدل الذي أعطيته لإسكوبار، وافرز أفضل فارس لديه من أجل ترويضه وتدريبه. فالحصان الحربي يجب أن ينصاع غريزياً للجندي الذي يكون مشغولاً باسلحته. «لا أحد يدري ما الذي يمكن أن يحدث يا إنيس. وبما أنكِ وجدت الشجاعة لمرافقتي، فلابد لك من أن تكوني مستعدة للدفاع عن نفسكِ مثل أي واحد من رجالي»، قال لي منبهاً. وقد كان إجراء حصيفاً. ومع أننا كنا نأمل باستعادة قوانا من التعب في كوبيابو، إلا أننا سرعان ما اصطدمنا بخيبة الأمل، إذ كان الهنود يعمدون إلى مهاجمتنا كلما شعروا بتراخينا في الحراسة.

- فلنرسل مبعوثين يوضحون لهم إننا جئنا مسالمين - أعلن بالديبيا لكبار ضباطه.

- ليست بالفكرة الجيدة - قال دون بينيتو -، لأنهم مازالوا يتذكرون دون شك ما جرى منذ ست سنوات.

- عم تتكلم يا معلم؟

- عندما جئتُ مع دييغو ألماغرو، لم يبدِ الهنود التشيليون نحونا مشاعر المودة وحسب، بل قدموا إلينا الذهب الذي كانوا يدفعونه إتاوة للإنكا، وكانوا قد علموا أن هذا الأخير قد هُزم. لكن المتقدم غير الراضي بما قدموه، والمرتاب بهم، دعاهم بوعود لطيفة إلى اجتماع، وما كاد يكسب ثقتهم حتى أمرنا بمهاجمتهم. قضى كثيرون منهم في تلك المعمعة، لكننا أسرنا ثلاثين من زعمائهم، وقيدناهم إلى أعمدة وأحرقناهم أحياء - أوضح القائد الميداني.

- ولماذا فعلتم ذلك؟ أليس السلام أفضل؟ - سأله بالديبيا ساخطاً.

- لو لم يفعل الماغرو ذلك أولاً، لفعله الهنود بالإسبان في ما بعد - تدخل فرانثيسكو دي أغيرّي.

ما كان يطمع به الهنود التشيليون هو خيولنا، وأشد ما يخافونه هي كلابنا، ولهذا وضع دون بينيتو الخيول في زرائب تحرسها الكلاب. كانت شراذم المحاربين التشيليين تحت أمرة ثلاثة زعماء قبليين، ويترأس هؤلاء بدورهم الزعيم المتنفذ ميتشيمالونكو. كان عجوزاً ماكراً، يعلم أن قواه لن تمكنه من اقتحام معسكر *الوينكا* بالقوة، فاختار إرهاقنا. كان محاربوه المتكتمون يسرقون اللاما والخيول، ويُتلفون المؤن، ويختطفون الهنديات اللواتي معنا، ويهاجمون مفارز الجنود التي تخرج بحثاً عن الأطعمة أو الماء. هكذا قتلوا أحد الجنود وعدداً من هنودنا الأعوان الذين اضطرتهم الحاجة إلى تعلم فنون القتال كي لا يموتوا بسهولة.

أطل الربيع على الوادي والجبال التي غطتها الزهور، وصار الهواء دافئاً وبدأت الهنديات والأفراس وإناث اللاما بالتوالد. ليس هناك ما هو أجمل من وليد اللاما. وقد تحسنت الحالة المعنوية في المعسكر مع الولادات الجديدة التي حملت معها نفحة سعادة للإسبان المتمرسين واليناكونا. والأنهار التي كانت عكرة في الشتاء، تحولت إلى بلورية صافية، وازدادت غزارتها مع ذوبان الثلوج على الجبال. وكانت هناك وفرة من العلف للحيوانات، ووفرة من الصيد والخضار والثمار للبشر. وحملت أجواء التفاؤل التي جاء بها الربيع بعض التراخي في الحراسة. عندئذ، وحين لم نكن نتوقع حدوث ذلك، انشق مئتا ياناكونا وهربوا، ثم تلاهم بعد ذلك أربعمئة آخرون. لقد اختفوا فجأة وبكل بساطة. وبالرغم من أوامر دون بينيتو بجلد المراقبين الزنوج لإهمالهم، والهنود باعتبارهم متواطئين، إلا أن أحداً لم يعرف كيف هربوا أو إلى أين ذهبوا. ولكن هناك أمر مؤكد: لا يمكنهم الذهاب بعيداً دون مساعدة الهنود التشيليين الذين يحيطون بنا، لأن هؤلاء سيقتلونهم ما لم

يكونوا قد اتفقوا معهم مسبقاً. ضاعف دون بينيتو الحراسة، وأستبقى هنود الياناكونا مقيدين في النهار والليل. وصار المراقبون الزنوج يجوبون المعسكر دون راحة مع سياطهم وكلابهم.

انتظر بالديبيا إلى أن بدأت قوائم العجول وصغار اللاما الوليدة تشتد، وفور ذلك أصدر الأمر بمواصلة المسير نحو الجنوب، باتجاه المكان الفردوسي الذي يُكثر دون بينيتو من الحديث عنه: وادي المابوتشو. كنا نعرف أن مابوتشو ومابوتشي يعنيان الشيء نفسه تقريباً؛ وأنه سيكون علينا خوض مواجهات مع المتوحشين الذين أجبروا قوات الماغرو المؤلفة من خمسمئة جندي وأكثر من ثمانية آلاف هندي مساعد على التراجع. أما نحن فلم يكن لدينا سوى مئة وخمسين جندياً وأقل من أربعمئة ياناكونا كاره مرافقتنا.

تأكد لنا أن لتشيلي شكل السيف الطويل والرفيع. وأنها مؤلفة من سلسلة وديان ممتدة بين جبال وبراكين، تخترقها أنهار غزيرة. ساحلها وعر وشديد الانحدار، أمواجه مخيفة ومياهه باردة؛ غاباتها كثيفة وشذية؛ وجبالها لا متناهية. وكثيراً ما كنا نسمع زفرة أرضية ونشعر أن الأرض تتحرك تحت أقدامنا، لكننا اعتدنا مع مرور الوقت على الهزات الأرضية. «هكذا تخيلتُ تشيلي يا إنيس»، اعترف لي بيدرو بصوت يكسره التأثر أمام بهاء منظر الطبيعة البكر.

لم يكن كل شيء تأملاً واستمتاعاً بالطبيعة، بل كانت هناك مشقات ومصاعب أيضاً، لأن هنود ميتشيمالونكو واصلوا مطاردتنا دون توقف، والإغارة علينا بصورة مباغتة. كنا نستريح بصعوبة بعد قطع مسافات قصيرة، لأنهم سينقضون علينا إذا ما سهونا. ولأن اللاما حيوان حساس، تنكسر قوائمه إذا ما حُمِّل أثقالاً كبيرة، فقد كان علينا أن نجبر الهنود الياناكونا على حمل الأمتعة التي كان يحملها الهاربون منهم. ومع أننا تخلصنا من كل ما هو غير ضروري ـ ومنه عدة صناديق من ملابسي الأنيقة التي لن تنفعني في تشيلي ـ، إلا أن الهنود كانوا يمضون مثقلين بالأحمال،

فضلاً عن أنهم مقيدون لمنعهم من الهرب، مما جعل تقدمنا شاقاً وبطيئاً. فقد الجنود ثقتهم بهنديات الخدمة اللواتي صرن يظهرن قدراً من الخضوع والولاء أقل مما يتوقعه الجنود منهن. ومع أنهم واصلوا معاشرتهن، إلا أنهم ما عادوا يتجرؤون على النوم بحضورهن، وصار بعضهم يرتابون بأنهن يسممنهم ببطء. ومع ذلك، لم يكن السم هو ما يذيب أرواحهم وينخر عظامهم، بل الإجهاد والتعب. فكان بعض الجنود يستشيطون غضباً منهن ويفرغون شحنة غمهم عليهن؛ عندئذ هددهم بالديبيا بانتزاع هنديات الخدمة منهم، ونفذ تهديده هذا مرتين أو ثلاث مرات. تمرد الجنود لأنهم لا يريدون لأحد، بمن في ذلك القائد، أن يتدخل في أمر شديد الخصوصية مثل علاقتهم بخليلاتهم؛ غير أن بيدرو فرض إرادته مثلما يفعل دوماً. وقال إنه لابد من الوعظ بالقدوة الحسنة. فمن غير المسموح للإسبان أن يتصرفوا بأسوأ مما يفعله الهمجيون. ومع الوقت، انصاع الجنود باستياء وبصورة غير كاملة. فقد أخبرتني كاتالينا أنهم مازالوا يضربون النساء، ولكن ليس على وجوههن، وإنما في أماكن لا تخلّف أثراً ظاهراً.

وكلما كانت جرأة الهنود التشيليين ضدنا تزداد، كنا نتساءل عما سيكون قد جرى لعاثر الحظ إسكوبار. ونتوقع أنه قد لقي ميتة بطيئة وفظيعة، ولكن لم يكن هناك من يتجرأ على ذكر الفتى، كي لا يستدعي سوء الطالع. لقد نسينا اسمه ووجهه، فربما يتحول بذلك إلى شفافية الهواء، ويتمكن من المرور بين أعدائه دون أن يروه.



كنا نتقدم بخطوات سلحفاة، لأن الياناكونا لا يستطيعون السير بسرعة تحت ثقل أحمالهم، كما أن لدينا الكثير من الأمهار والحيوانات حديثة الولادة. كان رودريغو دي كيروغا يمضي في المقدمة على الدوام، نظراً لحدّة بصره التي تتيح له الرؤية بعيداً؛ وشجاعته التي لا تلين أبداً.

وكان بيّاغرا يحمي المؤخرة، بعد أن اختاره بالديبيا معاوناً له، ومعه أغيرّي المتلهف دوماً للاشتباك مع الهنود. لقد كان يحب المشاجرات كثيراً بقدر حبه للنساء.

وفي أحد الأيام، جاء مراسل بعث به كيروغا من المقدمة، وراح يصرخ منبهاً:

ـ لقد جاء الهنود.

أبقاني بالديبيا مع النساء والأطفال والبهائم في مكان محمي إلى حدّ ما بالصخور والأشجار، ثم نظم رجاله للمعركة، ليس على طريقة السرايا في إسبانيا، بثلاثة مشاة لكل فارس، فالجنود كلهم تقريباً من الفرسان هنا. وعندما أقول إن جنودنا كانوا يمتطون الخيول، يمكن أن يخيل للبعض أنه كانت لدينا فرقة مهيبة من مئة وخمسين فارساً قادرين على إلحاق الهزيمة بعشرة آلاف مهاجم، لكن الحقيقة أن خيولهم كانت هزيلة، عظامها بارزة من مشقات الرحلة؛ وكانت ملابس الفرسان ممزقة، ودروعهم غير محكمة، وخوذهم مبعوجة، وأسلحتهم صدئة. لقد كانوا شجعاناً، لكنهم فوضويون ومتعجرفون؛ كل واحد منهم يتلهف لكسب أمجاده الخاصة. «لماذا يجد القشتالي صعوبة في أن يكون واحداً من المجموع؟ جميعهم يريدون أن يكونوا جنرالات!»، هذا ما كان يردده بالديبيا متحسراً. كما أن عدد هنودنا المساعدين تقلص كثيراً، ومن بقي منهم كانوا منهوكين وحاقدين بسبب ما يلقونه من سوء المعاملة، بحيث لا يمكن لهم أن يقدموا مساعدة تذكر، فكانوا يقاتلون لمجرد أن الخيار الآخر الوحيد أمامهم هو الموت.

كان بيدرو دي بالديبيا في الطليعة، فهو الأول دائماً، بالرغم من توسل ضباطه إليه أن يحترس، لأننا سنضيع من دونه. وبإطلاق صرخة: «باسم القديس سنتياغو، عليكم بهم!»، وهي الصرخة التي ظل القشتاليون يذكرون بها اسم ذلك الحواري طوال قرون من صراعهم مع مسلمي

الأندلس، وقف بيدرو في المقدمة، بينما كان رماة البنادق يجثون على الأرض، وأسلحتهم جاهزة ومصوبة إلى الأمام. كان بالديبيا يعرف أن الهنود التشيليين يندفعون للقتال بصدور عارية، بلا دروع وبلا أي حماية أخرى، غير عابئين بالموت. لا يخافون البنادق، لأنها مجرد دوي وحسب، ولا يكبح اندفاعهم إلا الكلاب التي تأكلهم أحياء في أتون المعركة. كانوا يندفعون في كتلة واحدة نحو الإسبان الفولاذيين الذين يوقعون فيهم الخسائر، بينما أسلحتهم الحجرية ترتد عن حديد الدروع. فالهويكا لا يُهزمون وهم على صهوات خيولهم، أما إذا استطاع الهنود إنزالهم عنها، فإنهم يقتلونهم.

لم نكن قد أكملنا تنظيم صفوفنا عندما سمعنا صراخاً لا يُحتمل، يعلن عن هجوم الهنود. صرخات تبعث القشعريرة في البدن، تثير فيهم حماسة جنونية وتصيب أعداءهم بالشلل، لكنها تُحدث مفعولاً معاكساً لدينا: تملؤنا بالغضب. تمكنت فصيلة رودريغو دي كيروغا من الالتحاق بالفصيلة التي يقودها بالديبيا قبل لحظات من اندفاع الموجة المعادية آتية من الجبال. كانوا آلافاً مؤلفة. يركضون شبه عراة، بأقواس وسهام، فؤوس وهراوى. ويصرخون متهللين بقسوة مسبقة. أجهزت طلقات البنادق على الصفوف الأولى، لكنها لم تستطع وقفهم أو التخفيف من اندفاعهم. وبعد دقائق صار بإمكاننا رؤية وجوههم المطلية بخطوط ملونة، وبدأ القتال بالالتحام المباشر. كانت رماح رجالنا تخترق الأجساد التي لها لون الطين، والسيوف تقطع الرؤوس والأطراف، وحوافر الخيل تمزق المطروحين أرضاً. وعندما يستطيع الهنود التقدم، فإنهم يحاولون توجيه ضربة هراوة إلى حصان، وما إن تتراخى قوائمه حتى تمتد عشرون يداً إلى فارسه وتطرحه أرضاً. كانت الخوذ والدروع تحمي الجنود للحظات، وقد تكون هذه اللحظات كافية أحياناً كي يتدخل أحد رفاقه لإنقاذه. ولم تكن السهام مجدية ضد أردية الزرد والدورع، لكنها فعالة جداً في المواضع غير المحمية من جسد الجندي. وفي أتون المعركة وجلبتها، كان جرحانا يواصلون

القتال دون إحساس بالألم، ودون اهتمام بجراحهم النازفة، وعندما يسقطون منهوكين أخيراً، ينقذهم البعض ويسحبونهم إليّ.

كنتُ قد أقمت مستشفى صغيراً، تحيط بي فيه هندياتي، ويحميه عدد من الياناكونا الأوفياء والمهتمين بالدفاع عن نساء عرقهم وأطفاله، وعدد من العبيد الزنوج الذي يخشون الوقوع في أيدي السكان الأصليين المعادين، لأن هؤلاء قد يسلخون جلودهم ليتأكدوا إذا ما كان لون البشرة طلاء أم أنه حقيقي، مثلما حدث في أماكن أخرى. كنا نرتجل ضمادات من خرق القماش المتوفرة، ونستخدم ضاغطة الشرايين لوقف النزف، والكي السريع بقطعة فحم مشتعلة، وما إن يتمكن الرجال من الوقوف على أقدامهم حتى نقدم إليهم الماء، وجرعة من النبيذ، ونعيد إليهم أسلحتهم ونرسلهم لمواصلة القتال. «أيتها العذراء، احفظي لنا بيدرو»، كنت أردد كلما أتاحت لي مهمة علاج الجرحى الرهيبة التقاط أنفاسي. كان الهواء يحمل إلينا رائحة البارود والخيول، مختلطة برائحة الدم واللحم المحروق. وكان المحتضرون يرغبون في الاعتراف، لكن الكاهن والرهبان الآخرين مشغولون بالمشاركة في القتال، فكنت أرسم لهم إشارة الصليب على جباههم وأمنحهم الغفران، كي يغادروا بسلام. وكان الكاهن قد أوضح لي أنه في حال عدم وجود أسقف، بإمكان أي مسيحي أن يقوم بالتعميد أو تقديم المسحة الأخيرة عند الضرورة، لكنه لم يكن متأكداً مما إذا كان بإمكان المرأة المسيحية عمل ذلك. وإلى صيحات الموت والألم، وزعاق الهنود، وصهيل الخيول، وانفجارات البارود، كان يُضاف بكاء رعب النساء، وكثيرات منهن يحملن أطفالاً مربوطين إلى ظهورهن. وسيسيليا المعتادة على قيام خادماتها بخدمتها كأميرة، نزلت هذه المرة إلى عالم البشر الفانين وعملت جنباً إلى جنب مع كاتالينا ومعي. وقد تبين أن هذه المرأة الضئيلة واللطيفة، هي أقوى مما تبدو عليه. كان جلبابها المصنوع من صوف فاخر مبللاً بدم الجرحى.

في إحدى اللحظات تمكن عدد من الأعداء من الوصول إلى مقربة من المكان الذي نعالج فيه الجرحى. فقد سمعتُ، فجأة، صراخاً أقوى وأقرب، فرفعتُ عينيّ عن السهم الذي كنت أحاول انتزاعه من فخذ دون بينيتو، بينما نساء أخريات يحاولن تثبيت الرجل، فوجدت نفسي وجهاً لوجه مع عدد من المتوحشين المندفعين وهم يرفعون الهراوى والفؤوس، حراستنا الضعيفة من الياناكونا والعبيد الزنوج أُجبرت على التقهقر. مددت يدي دون تفكير، وتناولت بكلتا يديّ السيف الذي علمني بيدرو على استخدامه، وتأهبت للدفاع عن حيزنا المحدود. كان يتقدم المهاجمين رجل متقدم في السن، مزين بخطوط ملونة وريش. على أحد خديه ندبة جرح قديم يمتد من الصدغ حتى الفم. تمكنتُ من رصد هذه التفاصيل خلال أقل من برهة، لأن الأحداث جرت بسرعة كبيرة. أتذكر أننا تواجهنا، هو برمح قصير وأنا بالسيف الذي أحمله بكلتا يدي، في موقف متطابق، مطلقين بغضب تلك الصرخات الحربية الرهيبة، وكل منا ينظر إلى الآخر بالقسوة نفسها. عندئذ أومأ العجوز بيده، فتوقف رفاقه فوراً. لا يمكنني أن أقسم على ذلك، لكنني رأيت ابتسامة خفيفة على وجهه الذي بلون التراب، ثم استدار وابتعد برشاقة فتى، في اللحظة نفسها التي هرع فيها دودريغو دي كيروغا على حصانه لينقض على مهاجمينا. كان ذلك العجوز هو ميتشيمالونكو.

- لماذا لم يهاجمني؟ - سألتُ كيروغا بعد وقت طويل من ذلك.

- لأنه لا يستطيع تحمل عار القتال ضد امرأة - أوضح لي.

- وهل هذا ما تفعله أنت أيها القائد؟

- طبعاً - أجاب دون تردد.

استمر القتال حوالي ساعتين، وكانتا ساعتين شديدتي التوتر، انقضتا بمثل لمح البصر، لأنه لم يكن لدينا متسع من الوقت للتفكير. وفجأة، وعندما كان الوطنيون قد سيطروا على الميدان تقريباً، راحوا يتفرقون، واختفوا في الجبال نفسها التي ظهروا منها؛ تركوا جرحاهم وقتلاهم

مرميين على الأرض، لكنهم أخذوا الخيول التي استطاعوا انتزاعها منا. لقد أنقذتنا سيدتنا عذراء الرحمة مرة أخرى. ظل الميدان مغطى بالأجساد، وكان علينا أن نقيد الكلاب المتخمة بالدم، كي لا تلتهم كذلك جرحانا. وكان الزنوج يتجولون بين الجرحى، ليجهزوا على التشيليين، ثم حملوا إليّ بعد ذلك جرحانا. أعددت نفسي لما سيأتي، فخلال ساعات كان الوادي يرتج بصرخات الرجال الذين يتوجب علينا علاجهم. ولم نكن، أنا وكاتالينا، نتوقف عن انتزاع السهام وكيّ الجراح، وهي ليست بالمهمة المبهجة. يقال إن المرء يعتاد على كل شيء، لكنه كلام غير صحيح، فأنا لن أستطيع أن أعتاد أبداً على تلك الصرخات المرعبة. فحتى الآن، في شيخوختي، وبعد أن أسستُ أول مستشفى في تشيلي، وأمضيت حياتي كلها في العمل كممرضة، مازلت أسمع نواح الحرب. لو أن بالإمكان خياطة الجراح بالإبرة والخيط، مثلما يُخاط القماش الممزق، فإن تحمل العلاج سيكون أسهل، ولكن ليس لدينا ما يوقف النزيف ويمنع التعفن سوى النار.

كان بيدرو دي بالديبيا مصاباً بعدة جروح وكدمات خفيفة، لكنه رفض أن نداويه. فقد جمع ضباطه على الفور لجرد خسائرنا.

- كم هو عدد القتلى والجرحى؟ - سأل.

- لقد أصيب دون بينيتو بسهم سيئ جداً. ولدينا جندي قتيل، وثلاثة عشر جريحاً في حالة حرجة. وأقدر أنهم سرقوا أكثر من عشرين حصاناً وقتلوا عدداً من الهنود الياناكونا المتعاونين - أعلن فرانثيسكو دي أغيرّي، ولم يكن جيداً في الحساب.

فقلتُ مصححة ما قاله:

- هناك أربعة زنوج وثلاثة وستون هندي ياناكونا جرحى، جراح عدد منهم حرجة. وأظن أن اثنين من الرجال لن يتجاوزا هذه الليلة أحياء. سيكون علينا نقل الجرحى على الخيول، لأنه لا يمكننا تركهم خلفنا. وأشد الحالات خطورة يجب أن تحمل على نقالات.

ـ سنقيم مخيماً لعدة أيام. وأنت أيها القائد كيروغا ستحل مؤقتاً محل دون بينيتو كقائد ميداني ـ قال بالديبيا آمراً ـ وأنت أيها الضابط بيّاغرا، احسب عدد المتوحشين الذين سقطوا قتلى في ميدان المعركة. ستكونان مسؤولين عن الأمن، وأعتقد أن العدو سيعيد الكرة في وقت قريب. وأنت أيها الكاهن، تولَ أمر أعمال الدفن والصلوات. ولسوف نواصل المسير فور أن تخبرنا دونيا إنيس بإمكانية ذلك.

على الرغم من احتياطات بيّاغرا، فقد كان المعسكر سهل المنال، إذ كنا في وادٍ غير حصين. وكان الهنود التشيليون يحتلون الجبال، لكنهم لم يُظهروا ما يشير إلى وجودهم خلال أيام إقامتنا الأولى في المكان. وقد أخبرنا دون بينيتو بأنهم يسكرون بعد كل معركة إلى أن يفقدوا الوعي، ولا يعودون للهجوم إلا حين يستعيدون وعيهم، بعد عدة أيام. إنه خبر طيب. وآمل ألا ينقصهم الخمر أبداً.

الفصل الرابع

سنتياغو دي إستريمادورا الجديدة 1541 ـ 1543

من فوق المحفة المرتجلة التي حملناه عليها، تعرف دون بينيتو من بعيد على هضبة هويلين، حيث غرس هو نفسه صليباً أثناء رحلته السابقة مع دييغو الماغرو.

ـ هناك! تلك هي جنة عدن التي ظللت أحنُّ إليها طوال سنوات! ـ كان العجوز يصرخ وهو يتأجج بالحمى بسبب السهم الذي تلقاه، ولم تنفع في شفائه منه أعشاب كاتالينا وشعوذتها، ولا صلوات الكاهن.

كنا ننزل باتجاه وادٍ بالغ البهاء، ممتلئ بأشجار السنديان وأشجار أخرى غير معروفة في إسبانيا، أشجار كيلكي، وبيومو، وايتيني، وكويغوي، وقرفة. وكنا في أوج الصيف، غير أن جبال الأفق الشاهقة كانت مكللة بالثلوج. جبال ومزيد من الجبال الذهبية الناعمة، تحيط بالوادي. نظرة واحدة كانت كافية كي يدرك بيدرو أن دون بينيتو على حق: سماء شديدة الزرقة، هواء مضيء، غابة وارفة، في أرض خصبة مستحمة بغدران وأنهار غزيرة، إنه وادي المابوتشو؛ هذا هو المكان الذي اختاره الرب لنقيم فيه قريتنا الأولى. فهو فضلاً عن جماله وطيبة أرضه ومناخه، يتطابق مع القواعد الحكيمة التي أملاها الإمبراطور كارلوس الخامس من أجل تأسيس المدن في بلاد الهند: «لا تختاروا مواقع الاستيطان في أماكن شديدة الارتفاع، لأن الرياح مزعجة والخدمات والتنقلات صعبة،

ولا فـي أماكن شديدة الانخفاض، لأنها تسبب المرض عادة؛ استقروا فـي أماكن متوسطة الارتفاع، مكشوفة لهواء الشمال والظهيرة؛ وإذا اضطررتم إلى الإقامة فـي الجبال أو السفوح، فلتكن فـي جهة الشرق والغرب. وفـي حالة البناء على ضفة نهر، فليكن وضع البناء بطريقة تطلع الشمس فيها على القرية قبل أن تطلع على ماء النهر». ويبدو أن أهالي المكان كانوا على اتفاق تام مع كارلوس الخامس، إذ كانت هناك عدة قبائل، ورأينا عدداً من قرى، والكثير من المزارع، وقنوات الري، والسواقي والدروب. لم نكن أول من اكتشف فضائل الوادي.

تقدم القائدان بيّاغرا وأغيرّي ومعهما مفرزة لاستطلاع ردود فعل السكان الأصليين، بينما ظللنا نحن ننتظر وسط حراسة جيدة. وقد رجعوا بخبر سار بأن الهنود، وإن بدوا مرتابين، إلا أنهم لم يُظهروا أية بوادر عدائية. وقد تبين لهم كذلك أن إمبراطورية الإنكا قد وصلت حتى هناك، وأن ممثلها الكوراكا بيتاكورا الذي يحكم المنطقة، مستعد للتعاون معنا، مثلما أكد لهم، لأنه يعرف أن الملتحين هم الذين يحكمون الآن فـي البيرو. «لا تثقوا بهم، إنهم غدارون ودعاة حرب»، قال دون بينيتو ملحاً. لكن القرار كان قد اتُخذ بالاستقرار فـي الوادي، حتى لو اضطرنا الأمر إلى إخضاع الوطنيين بالقوة. وواقع أنهم قد أقاموا هناك بيوتهم وزرعهم منذ أجيال، شكّل حافزاً للفاتحين المتحمسين. فذلك يعني أن الأرض والمناخ طيبان. وقدّر بيّاغرا بالعين أنه بحساب المزارع التي باستطاعتنا رؤيتها أو التكهن بوجودها، لا بد أن يكون هناك حوالي عشرة آلاف مقيم، معظمهم من النساء والأطفال. وقال إنه ليس فـي ذلك ما يدعو إلى القلق، اللهم إلا إذا حضرت قوات ميتشيمالونكو من جديد. ما الذي شعر به السكان يا ترى عندما رأوا مجيئنا، وعندما أدركوا بعد ذلك أننا ننوي البقاء؟

بعد ثلاثة عشر شهراً على خروجنا من كوسكو، فـي شهر شباط 1541، غرس بالديبيا راية قشتالة عند أقدام جبل هويلين الذي عمده باسم

سانتا لوثيا، لأن ذلك اليوم صادف عيد هذه القديسة الشهيدة، وتولى سلطاته باسم جلالة ملك إسبانيا. وهناك قرر تأسيس مدينة سانتياغو دي إستريمادورا الجديدة. وبعد الاستماع إلى قداس وتناول القربان، بادر إلى الطقس اللاتيني القديم في تحديد أبعاد المدينة. وبما أنه لم يكن لدينا فدان حراثة ومحراث، فقد أنجزنا ذلك بالخيول. سرنا ببطء في موكب، حاملين في المقدمة تمثال السيدة العذراء. وكان بالديبيا متأثراً إلى حدّ بدأت معه الدموع تسيل على خديه، لكنه لم يكن الباكي الوحيد، إذ أن نصف أولئك الجنود الشجعان قد بكوا.

بعد أسبوعين من ذلك، قام معلم البناء المرافق لنا، وهو أعور من آل غامبوا، بوضع مخطط تقليدي للمدينة. حدد أولاً موقع الميدان الكبير وفيه موضع شجرة العدالة أو منصة الإعدام. وانطلاقاً من هناك، مستعيناً بخيط ومسطرة، خطّ الشوارع المستقيمة المتوازية والمتعامدة، مقسماً الأرض إلى أجزاء مربعة طول كل منها مئة وثمان وثلاثون رمحاً، تشكل ثمانين كتلة، كل كتلة مقسمة إلى أربعة عقارات. وكانت أول أعمدة العلامات التي غُرست هي التي تحدد موقع الكنيسة، في صدر الميدان الكبير. «ستتحول هذه الكنيسة ذات يوم إلى كاتدرائية»، وعد بذلك الراهب غونثالث دي مارموليخو بصوت يرتعش انفعالاً. احتفظ بيدرو لنا بالعقار الذي إلى شمال الميدان، ووزع العقارات الأخرى وفقاً لمكانة كل واحد من ضباطه وجنوده ودرجة ولائه. وبمساعدة الياناكونا الذين معنا وبعض هنود الوادي الذين جاؤوا بإرادتهم، بدأنا بناء البيوت، من الخشب والطين وسقوف من القش ـ إلى أن تمكنا من صنع قرميد للسقوف ـ، وقد جعلنا الجدران سميكة، والأبواب والنوافذ ضيقة، كي نتمكن من الدفاع عن أنفسنا إذا ما تعرضنا لهجوم، والحفاظ على درجة حرارة لطيفة في الداخل. وقد تبين لنا أن الصيف حار وجاف وصحي. وقيل لنا إن الشتاء سيكون بارداً وماطراً. خطط غامبوا الأعور ومساعدوه الشوارع، بينما كان آخرون يوجهون فرق العمال

فـي أعمال البنـاء. وكـانت أكـوار الحـدادة تتـأجج دون توقـف لصنـع المسـامير والمفصلات والأقفال والدُسر والزوايا. ولم تـكن ضجة المطارق والمناشير تهدأ إلا فـي الليل وفـي موعد القداس. وكانت رائحة الخشب المقطـوع حـديثاً تعبـق فـي الجو. أعاد أغيرّي وبيّاغرا وألـديريتي وكيروغـا تنظيم قواتنـا العسـكرية المهلهلـة، والـتي سـاء وضـعها كـثيراً خـلال الرحلـة الطويلـة. وحـاول بالـديبيا والقائد مونروي اللذان يفاخران ببعض المهارات الدبلوماسية، أن يتفـاوضـا مـع الوطنيين المحليين. أما أنا، فكان عليّ أن أعالـج المرضـى والجـرحـى وأن أقـوم بأحب عمل لديّ: التأسيس. لم أكـن قد فعلت ذلـك مـن قبـل، ولـكننـا مـا إن وضعنا العلامة الأولى فـي الساحة، حتى اكتشفت موهبتي هـذه، ولم أخنهـا أو أخـذلها؛ فمنـذ ذلـك الحـين قمـت بتأسـيس مستشـفيات وكنـائس وأديـرة وصوامع ومنـازل، وقـرى بأكملها، وإذا مـا سمحـت لـي الحيـاة فسـوف أبـني ميتماً، وهـو مـا نحتـاج إليـه بإلحـاح فـي سنتياغو، لأنـه مـن العـار رؤيـة أعـداد الأطفـال البائسـين فـي الشـوارع، مثلمـا كانـت الحـال فـي إستريمادورا. هـذه الأراضي خصبة جداً، ولابد أن تـكفـي محاصيلها الجميع. توليت بعنـاد مهمـة التأسيس التي هـي مـن نصيب النسـاء فـي العـالم الجديـد. فالرجـال يـكتفـون بإنشاء قرى مرتجلة ليتركونا فـيها مـع الأطفـال، كـي يواصلوا شـن الحـرب دون هـوادة ضـد السـكان الأصـليين فـي المكـان. لابـد أن أربعـة عقـود مـن الموتى، والتضحيات، والإصرار، والعمل قـد انقضـت قبـل أن تمتلـك سنتياغو القوة التي تتمتع بها اليوم. لم أنس الأزمنـة الـتي كانت فـيها مجـرد دسـكرة نـدافع عنهـا بالأسـنان والمخالـب. وزعـتُ النسـاء والخمسـين ياناكونـا الـذين قـدمهم إلـيّ روديغـو دي كيروغـا علـى العمـل فـي إنتـاج طـاولات، وكـراس، وأسرّة، وفرش، وأفران، واقمشة، وأوانٍ من الفخار المشوي، وأدوات مطبـخ، وزرائب، وأقفاص دجاج، وملابس، وشراشف، وبطانيات، وكل ما لابد منـه لحياة متحضرة. وبهدف توفير الجهد والمؤن، وضعتُ فـي البدء نظامـاً لا يبقـى وفقـه أحـد دون طعـام. كـان الطعـام يُطهـى مـرة فـي اليـوم، وتُقـدم القصـعات

على مناضد كبيرة في الساحة العامة التي أطلق عليها بيدرو اسم ساحة السلاح، مع أنه لم يكن لدينا ولو مدفع واحد للدفاع عنها. كانت النسوة يصنعن الفطائر، ويطهون الفاصولياء، والبطاطا، والذرة مع لحم الطيور والأرانب التي يتمكن الهنود من اصطيادها. وكنا نحصل في بعض الأحيان على أسماك وأصداف بحرية يجلبها من الساحل هنود الوادي، لكنها كانت كريهة الرائحة. وكان كل واحد يساهم في المائدة المشتركة بما يستطيعه، مثلما فعلتُ قبل سنوات في سفينة الربان مانويل مارتين. وقد كانت لهذا النظام التعاوني أيضاً فضيلة جمع شمل الناس وإسكات المستائين، لبعض الوقت على الأقل. وكنا نكرس اهتماماً كبيراً للحيوانات الداجنة؛ فلم نكن نذبح طيراً واحداً إلا في المناسبات الخاصة، لأنني صممت على ملء الزرائب خلال سنة واحدة. فالخنازير، والدجاج، والإوز، واللاما، لم تكن أقل أهمية من الخيول، وأهم بكثير في الحقيقة من الكلاب. لقد عانت الحيوانات خلال الرحلة بقدر ما عاناه البشر، فكانت كل بيضة، وكل حيوان وليد مسوغاً للاحتفال. هيأتُ بذوراً لزراعتها في الربيع، في الحقول التي حددها معلم البناء غامبوا: قمح، خضروات، ثمار، وحتى بذور زهور، لأنه لا يمكن العيش دون زهور؛ فهي الترف الوحيد في حياتنا القاسية تلك. حاولتُ أن أحاكي أساليب هنود الوادي في الزراعة، وطريقتهم في الري، بدل الأساليب التي رأيتها في بساتين بلاسينثيا؛ لأنهم يعرفون الأرض خيراً منا دون ريب.

لم أذكر الذرة، أو قمح الهنود، التي لولاها ما وجدنا ما يكفي لإقامة أودنا. فهذه الحبوب تُزرع دون تنظيف الأرض أو حراثتها. يكفي قطع أغصان الأشجار المجاورة بحيث يصل دفء الشمس بحرية؛ ويجري إحداث ثقوب صغيرة في الأرض بواسطة حجر مدبب إذا لم تتوفر معزقة، وتُلقى البذور في الثقوب لتنمو بعد ذلك من تلقاء ذاتها. ويمكن لعرانيس الذرة الناضجة أن تبقى على النبتة طوال أسابيع دون أن تتعفن، تخرج من ساق النبتة دون أن

تشـقه، ولا تحتـاج الـذرة إلى الـدرس أو التذريـة. زراعتهـا بالغـة السـهولة ومحصولها وفير، ولهذا كانت الذرة غذاء الهنود ـ وكذلك الإسبان ـ في كل أرجاء العالم الجديد.

رجـع بالـدييبا ومـونروي مبـتهجين بخـبر أن مسـاعيهم الدبلوماسـية قـد تكللت بالنجـاح: سـوف يـأتي بـيتاكورا لزيارتنـا. حـذرهمـا دون بينيتـو مـن أن هذا *الكوراكا* (الـزعيم) نفسـه قـد غـدر بالمـاغرو، ومـن المناسـب أن نكـون مستعدين لأي خدعة خبيثة. لكن تحذيره لم يثبط عزيمة الرجـال. لأننـا كنـا قد ضجرنا من كثـرة الحـروب والقتـال. لمّع الرجـال خـوذهم ودروعهـم، وزينـا السـاحة بالـرايات، ووزعنا الخيول فـي دائرة، لأنهـا تُحـدث انبهـاراً كـبيراً بـين الهنود، وأعددنا موسيقى بالآلات المتوفرة. وكإجراء احتيـاطي، أمـر بالـدييبا بحشـو البنـادق، ووزع كيروغـا مـع جماعـة مـن الرمـاة المختبئين والمستعدين للتـدخل فـوراً فــي حـال حـدوث أي طـارئ. حضـر بيتـاكورا متـأخراً ثـلاث سـاعات عـن الموعـد، حسـب مـا تقتضيه مراسـم الإنكـا، مثلمـا أوضحت لنـا سيسيليا. كان يتزين بريش متعدد الألـوان، ويحمـل فأسـاً صـغيرة مـن الفضـة فـي يـده، وهـي رمـز القيـادة، تحـيط بـه أسـرته وعـدد مـن شخصـيات بلاطـه، على طريقة نبلاء البيرو. وقـد جـاؤوا جميعهم دون أسلحة. ألقـى خطبـة طويلة جداً ومعقـدة جـداً بالكيتشـوا، وردّ عليـه بالـدييبا بنصـف سـاعة مـن التملـق بالإسبانية، بينما كان الألسنة فـي ضيق شديد وهم يترجمون اللغتين. أحضـر الكوراكـا بعـض تبـر الـذهب كهديـة، وقـال إنهـا مـن الـبيرو، وقـدم أشـياء أخـرى صـغيرة مـن الفضـة وعبـاءة مـن صـوف الألبكـة، كـمـا قـدم عـدداً مـن الرجال لمساعدتنا فـي بناء المدينة. وبالمقابل، قدم له قائدنا العام بعض الهـدايا الرخيصـة المجلوبـة مـن إسـبانيا، وقبعـات تلقـى تقـديراً كـبيراً لـدى هنـود الكيتشوا. وقدمتُ بدوري طعاماً وفيراً مع كثير من خمـر الصـبار و*المـوادي*، وهذا الأخير شراب قوي يُحضر بتخمير الذرة.

ـ هـل هنـاك ذهـب فـي المنطقـة؟ ـ سـأله ألونسـو دي مـونروي، متكلمـاً

باسم بقية الرجال الذين لم يكن يهمهم أي شيء آخر.

ـ الذهب غير موجود، غير أن هناك منجم فضة في الجبال ـ ردّ عليه بيتاكورا.

أثار الخبر حماسة الجنود، لكنه ضايق بالديبيا. وفي تلك الليلة، بينما كان الآخرون يضعون المشاريع حول الذهب الذي لم يمتلكوه بعد، كان بيدرو يبدي حزنه وأسفه. كنا في فنائنا، نقيم في الخيمة التي أهداها إليّ بيثارّو ـ لأننا لم نكن قد بنينا أسوار البيت وسقفه ـ غاطسين في حوض الاستحمام الخشبي المملوء بالماء البارد لتخفيف حر النهار القائظ.

ـ كم هو مؤسف أمر الفضة هذا يا إينِس! كنت أفضل أن تكون تشيلي في الحالة البائسة التي يصفونها بها. لقد جئت راغباً في التأسيس لشعب محب للعمل والمبادئ الصالحة. ولا أريد لهم الفساد بالثروة السهلة.

ـ لابد من التأكد أولاً إذا ما كان لذلك المنجم من وجود يا بيدرو.

ـ آمل ألا يكون له وجود، ولكن سيكون من المستحيل على أي حال منع الرجال من الذهاب للبحث عنه.

وكان هذا ما حدث. ففي اليوم التالي كان قد تم تنظيم عدة جماعات من الجنود لاستطلاع المنطقة بحثاً عن المنجم اللعين. وكان هذا بالضبط هو ما يناسب أعداءنا: أن نتفرق في جماعات صغيرة.



اختار لقائد العام أول مجلس بلدي، وعين أشد رفاقه إخلاصاً في مناصب العمد، واستعد لتوزيع ستين إقطاعية، مع هنود يعملون فيها، على أشجع رجال الحملة. بدا لي من التسرع توزيع أراضٍ وهنود لم نملكهم بعد، وخاصة أننا لم نعرف مساحة تشيلي وثروتها الحقيقية بعد، ولكن هذا هو ما يجري دائماً: يُغرس بيرق، ويتم منح الملكيات على الحبر والورق، وبعد ذلك تأتي مشكلة تحويل الكتابة إلى أملاك؛ ومن أجل ذلك لابد من انتزاع

الأرض من السكان الأصليين، وإجبارهم فوق ذلك على العمل فيها لمصلحة الأسياد الجدد. ومع ذلك، فقد أحسست بأنني لقيت تكريماً كبيراً، لأن بيدرو اعتبرني الأولى بين ضباطه ومنحني أكبر إقطاعية من الأرض، مع هنودها الذين وُضعوا تحت وصايتي، متذرعاً بأنني واجهتُ أخطاراً كثيرة مثل أشجع الجنود، وأنقذتُ الحملة في مناسبات عديدة؛ فإذا كانت الأعمال قاسية على الرجل، فإنها أشد قسوة بكثير على المرأة الضعيفة. ليس لدي شيء من الضعف بالطبع، لكن أحداً لم يعترض على قراره بصوت عالٍ. غير أن سانتشو ديلا أوث استغل ذلك ليؤجج نار الحقد بين المتمردين. فكرت في أنه إذا ما تحولت هذه المزارع الخيالية إلى واقع في أحد الأيام، فإنني أنا الخياطة الإستريمادورية سأكون واحدة من أغنى الملاكين في تشيلي. كم ستبتهج أمي بهذا الخبر!

برزت المدينة في الشهور التالية فوق الأرض كمعجزة. وفي أواخر الصيف كانت هناك بيوت كثيرة لائقة المظهر، وكنا قد غرسنا صفوفاً من الأشجار ليكون لدينا ظل وعصافير في الشوارع، وكان الناس يجنون أول محاصيل الخضار من بساتينهم، وبدت الحيوانات سليمة ومعافاة، وكنا قد خزَّنا مؤناً للشتاء. أثار هذا الازدهار حفيظة هنود الوادي الذين أدركوا تماماً أننا لسنا عابرين هناك. وتوقعوا، وهم على حق، أن مزيداً من *الهوينكا* سيأتون وينتزعون الأرض منهم ويحولونهم إلى عبيد. وبينما نحن نستعد للبقاء والاستقرار، راحوا يستعدون لطردنا. لقد كانوا غير مرئيين لنا، لكننا بدأنا نسمع نداء *البيلوي* الكئيب، وهو ناي يصنعونه من عظام سيقان أعدائهم. كان المحاربون منهم يسعون لتجنبنا؛ ولم يكن يطوف حول سنتياغو سوى الشيوخ والنساء والأطفال، ولكننا ظللنا متيقظين على الدوام. فالهدف الوحيد لزيارة فيتاكورا، حسب قول دون بينيتو، هو تقصي مدى قدرتنا العسكرية، ومن المؤكد أن ذلك الكوراكا (الزعيم) لم ينبهر كثيراً، بالرغم من الانتشار المسرحي الذي أظهرناه بمناسبة زيارته. ولابد أنه

ذهب وهو يكاد يموت من الضحك لضآلة قواتنا بالمقارنة مع آلاف الوطنيين التشيليين الذين يترصدون في الغابات المجاورة. لقد كان ينتمي إلى قبائل الكيتشوا في البيرو، ويمثل الإنكا هنا، ولم يكن يفكر في التدخل في الخصام بين *الهوينكا وقبائل البروماوكا* في تشيلي. وقدر أنه إذا ما اندلعت الحرب بينهما فإنه سيكون الرابح. فالماء العكر مكسب للصياد، كما يقولون في بلاسينثيا.

كنت أنا وكاتالينا نخرج للمتاجرة في المناطق المحيطة، مستفيدتين من بعض الإيماءات والكلمات بلغة الكيتشوا. وهكذا حصلنا على دواجن وغواناكو ـ وهذه حيوانات شبيهة باللاما، تعطي صوفاً فاخراً ـ مقابل أشياء رخيصة أُخرجها من قاع صناديقي، أو مقابل خدماتنا العلاجية. كانت لنا يد مباركة في تجبير كسور العظام، وكيّ الجروح، وعمليات التوليد؛ وقد أفادنا ذلك كثيراً. وتعرفت في مزارع السكان الأصليين على اثنتين من *الماتشي* أو المداويات، تبادلتا مع كاتالينا أعشاباً وعبارات سحرية مختلفة عن تلك المعروفة في البيرو.

بقية «الأطباء» في الوادي كانوا مشعوذين يُخرجون بكثير من الصخب دويبات من بطون المرضى؛ ويقدمون قرابين صغيرة، ويخيفون الناس بطقوسهم الإيمائية، وهو أسلوب قد يعطي في بعض الأحيان نتيجة باهرة، مثلما تأكد لي أنا نفسي. فكاتالينا التي كانت قد عملت في كوسكو مع أحد أولئك *الكاماسكا*، «أجرت عملية» لدون بينيتو عندما لم تنفع معه كل الوسائل. لقد حملنا الرجل العجوز إلى الغابة بتكتم كبير، تساعدنا هنديتان صموتان من حاشية سيسيليا، حيث قادت كاتالينا الطقس العلاجي. أفقدته الوعي بشراب من الأعشاب، وخنقته بالدخان ثم راحت تدلك جرح فخذه الذي لم يلتئم جيداً. وسيروي دون بينيتو طوال ما تبقى من حياته، لكل من يرغب في سماعه، كيف رأى بأم عينه إخراج السحالي والأفاعي من جرحه بعد أن كانت تسمم ساقه، وكيف شفي بعد ذلك

تماماً. صحيح أنه ظل أعرج؛ لكنه لم يمت، مثلما كنا نخشى، بتعفن جرحه. ولم أجد ضرورة في إخباره بأن كاتالينا كانت تخبئ تلك الزواحف الميتة في كمها. وقالت سيسيليا: «إذا كان السحر يشفيه، فلاحقوه به».

أما هذه الأميرة التي شكّلت جسراً بين ثقافة الكيتشوا وثقافتنا، فنظمت شبكة معلومات واسعة مستفيدة من جارياتها. بل إنها ذهبت لمقابلة الكوراكا فيتاكورا الذي جثا على ركبتيه وضرب جبهته بالأرض حين علم أنها الأخت الصغرى للإنكا أتاوالبا. وقد توصلت سيسيليا إلى معرفة أن الأمور في البيرو مضطربة جداً، حتى إن هناك إشاعات عن أن بيثارّو قد مات. سارعتُ إلى إخبار بيدرو بذلك، وبالسرية القصوى.

ـ كيف تعرفين أن ذلك صحيح يا إنيس؟

ـ هذا ما يقوله *التشاسكيون* (مراسلو الإنكا). لا يمكنني التأكيد بأنه صحيح، ولكن اتخاذ الاحتياطات ملائم، ألا ترى ذلك؟

ـ لحسن الحظ أننا بعيدون عن البيرو.

ـ أجل، ولكن ما الذي سيحدث للقبك إذا ما مات بيثارّو؟ فأنت نائب الحاكم بأمر منه.

ـ إذا كان بيثارّو قد مات، فأنا واثق من أن سانتشو ديلا أوث وآخرين سيعودون إلى الجدل حول شرعيتي.

فقلتُ ملمحة:

ـ لكن الأمر سيختلف لو أنك أنت الحاكم، أليس صحيحاً؟

ـ لكنني لستُ كذلك يا إنيس.

ظلت الفكرة معلقة في الهواء، وكان بيدور يعلم أنني لن أترك الأمر يمر دون مبالاة. استغللتُ صداقتي برودريغو دي كيروغا وخوان غوميث كي أشيع فكرة أنه لابد من تنصيب بالديبيا حاكماً. وبعد أيام قليلة، لم يعد هناك في سنتياغو اي حديث آخر، مثلما كنت قد قدّرت. وفي هذه الأثناء، انهمرت أول أمطار الشتاء، وارتفع منسوب نهر مابوتشو، وفاضت مياهه

وتحولت المدينة إلى مخاضة وحول، لكن ذلك لم يَحُل دون اجتماع المجلس البلدي، بأبهة كبيرة، في أحد الأكواخ. كان الوحل يصل إلى كواحل القادة الذين اجتمعوا لينصّبوا بالديبيا حاكماً. وعندما جاؤوا إلى بيتنا ليعلنوا قرارهم، بدا هو متفاجئاً بالأمر إلى حدّ أثار فزعي. ربما تجاوزت الحدّ في حدس أفكاره.

ـ إنني متأثر لهذه الثقة التي تتفضلون بمنحي إياها، لكن هذا القرار يبدو متسرعاً. فنحن لم نتأكد بعد من موت بيثارّو الذي أدين له بالكثير. ولا يمكنني بأي حال أن أتجاوز سلطاته. أنا متأسف يا أصدقائي الطيبين، لكنني لا أستطيع قبول هذا الشرف الكبير الذي تعرضونه عليّ.

ما كاد القادة ينصرفون، حتى أوضح لي بيدرو أن ما فعله هو مناورة ماكرة لحماية نفسه، لأنهم قد يتهمونه في المستقبل بخيانة المركيز، غير أنه واثق من أن أصدقاءه سيعاودون المحاولة. وبالفعل، رجع أعضاء المجلس بطلب خطي وموقّع من جميع أهالي سنتياغو. وتعللوا بأننا بعيدون جداً عن البيرو، وأبعد من ذلك بكثير عن إسبانيا، وأننا بلا اتصالات، ومعزولون في أقصى العالم، ولهذا كله يتوسلون إلى بالديبيا أن يوافق على أن يكون حاكمنا. ويريدون منه تولي المنصب، سواء أكان بيثارّو ميتاً أم غير ميت. وقد اضطروا إلى الإلحاح ثلاث مرات، إلى أن همستُ لبيدرو بأن يتوقف عن إجبارهم على مزيد من التوسل، لأنه يمكن لأصدقائه أن يتضايقوا وينتهي بهم الأمر إلى تعيين شخص آخر؛ لاسيما وأن هناك عدداً من القادة المحترمين الذين يسعدهم أن يتولوا منصب الحاكم، مثلما بلغني من أقاويل نقلتها إليّ الهنديات. عندئذ تنازل بالقبول. فبما أن الجميع يطالبون بذلك، لا يمكنه المعارضة، ولأن صوت الشعب هو صوت الرب، فإنه ينصاع بتذلل للإرادة العامة كي يخدم جلالته على أحسن وجه، إلى آخره. عُرضت الوثيقة المناسبة التي تضعه بمنجى من أي اتهام في المستقبل، وهكذا جرى تنصيب أول حاكم لتشيلي بقرار شعبي وليس بمرسوم ملكي. ووقع اختيار بالديبيا

على مونروي ليكون نائبه، وتحولت أنا لأكون الحاكمة، هكذا بكل معنى الكلمة، لأنه المنصب الذي منحني إياه الناس طوال أربعين سنة. وقد كان هذا اللقب، من الناحية العملية، يعني مسؤوليات شاقة أكثر مما يعنيه من تكريم. لقد تحولت إلى أم لشعبنا الصغير، فكان عليّ أن أسهر على راحة كل واحد من السكان، ابتداء من بيدرو دي بالديبيا وحتى آخر دجاجة في الحظيرة. ولم تكن هناك راحة لي، إذ صرت أتابع كل التفاصيل اليومية: الطعام، الملابس، البذار، البهائم. ولحسن الحظ أنني لم أكن أحتاج إلى أكثر من ثلاث أو أربع ساعات من النوم، بحيث كان يتوفر لي وقت أكثر من الآخرين لإنجاز أعمالي. وضعت نصب عيني التعرف على كل جندي وكل ياناكونا (هندي متعاون) باسمه، وأخبرتهم أن بابي مفتوح على الدوام لاستقبالهم وسماع همومهم. وسهرتُ على ألا تكون هناك عقوبات جائرة أو مبالغ بها، وخاصة للهنود. وكان بيدرو يثق بآرائي ويستمع إليّ عموماً قبل أن يصدر أحكامه. وأظن أن معظم الجنود قد غفروا لي في أثناء ذلك حادثة إسكوبار المأساوية، وصاروا يكنون لي الاحترام، فقد عالجت جراح الكثيرين منهم وشفيتهم من الحمى، وأطعمتهم على المائدة المشتركة وساعدتهم في تهيئة مساكنهم.

تبين أن خبر موت بيثارّو لم يكن صحيحاً، لكنه كان نبوءة. فقد كان الهدوء يسود البيرو في ذلك الوقت، غير أنه بعد شهر من ذلك، قامت جماعة من «التشيليين المهلهلين»، أي من جنود حملة ألماغرو القدماء، باقتحام قصر المركيز الحاكم، وقتلوه طعناً بالسكاكين. خرج خادمان للدفاع عنه، بينما لاذ ندماؤه وحراسه بالفرار من الشرفات. لم يأسف أهالي مدينة الملوك لما جرى، فقد فاض بهم الكأس من شطط الأخوة بيثارّو، وخلال أقل من ساعتين جرى استبدال المركيز الحاكم بابن دييغو ألماغرو، وهو شاب قليل الخبرة، لم يكن في اليوم السابق يملك ثمن طعام يأكله، وتحول بين عشية وضحاها إلى سيد إمبراطورية خرافية. وعندما تأكد الخبر في

تشيلي، بعد شهور من ذلك، كان بالديبيا قد تمكن من منصبه كحاكم. وقد همس لي مذعوراً حين علم بالخبر:

ـ الحقيقة إنك ساحرة يا إنيس.



خلال الشتاء صارت عدوانية الهنود ساكني الوادي جلية. فأصدر بيدرو الأمر بألا يغادر أحد المدينة دون سبب وجيه ودون حماية. وانتهت زياراتي للمرأتين المداويتين والأسواق، لكنني أظن أن كاتالينا حافظت على اتصالاتها مع القرى الهندية، لأن اختفاءاتها الليلة السرية تواصلت. واكتشفت سيسيليا بدورها أن ميتشيماونكو يستعد للهجوم علينا، وأنه عرض على محاربيه، ليحثهم، الاستيلاء على خيولنا وسبي نساء سنتياغو. كانت قواته تتضخم، وصار لديه ستة توكيات (زعماء قبائل) مع رجالهم يعسكرون في أحد حصونه بانتظار اللحظة المناسبة لبدء الحرب.

سمع بالديبيا من فم سيسيليا مباشرة كل التفاصيل، وتداول الأمر مع ضباطه، وقرر أن يأخذ زمام المبادرة. استبقى القسم الأكبر من جنوده لحماية سنتياغو، وانطلق مع ألديريتي، وكيروغا وفصيلة من أفضل جنوده لمواجهة ميتشيمالونكو في عقر داره. كان الحصن عبارة عن بناء من الطين والحجر والخشب، يحيط به سياج من الجذوع الخشبية، يعطي انطباعاً بأنه قد أقيم على عجل، كحماية مؤقتة. وكان يقوم، فوق ذلك، في موقع سهل المنال، ويصعب الدفاع عنه، فلم يجد الجنود الإسبان مشقة كبيرة في الاقتراب منه ليلاً وإشعال النار فيه. وظلوا في الخارج ينتظرون خروج المحاربين وقد خنقهم الدخان، فقتلوا عدداً مهولاً منهم. كانت هزيمة السكان الأصليين سريعة جداً، وألقى رجالنا القبض على عدد من الزعماء الهنود، ومنهم ميتشيمالونكو. رأيناهم يصلون راجلين ـ مقيدين إلى أحصنة الضباط الذين يجرجرونهم ـ غاضبين وتغطيهم الرضوض والكدمات،

ولكنهم متكبرون. يركضون إلى جانب الخيول دون أن يبدو عليهم الخوف أو التعب. وقد كانوا رجالاً قصار القامة، لكنهم وسيمو التقاطيع، دقيقو الأقدام والأيدي، متينو الظهور والأطراف، مرفوعو الصدور. شعورهم سوداء مجدولة بشرائط ملونة، ووجوههم مطلية بالأصفر والأزرق. علمت أن عمر التوكي ميتشيمالونكو يزيد على سبعين سنة، غير أنه من الصعب تصديق ذلك، إذ لم تكن أسنانه ناقصة، وتبدو عليه حماسة الشباب. فهنود المابوتشي الذين لا يموتون في حادث أو في الحرب، يمكنهم أن يعيشوا بحالة رائعة إلى ما بعد المئة سنة. إنهم أقوياء جداً، شجعان ومندفعون، يتحملون البرد القاتل، والجوع والحر القائظ. أمر الحاكم بحبس الزعماء في الكوخ المخصص للسجن؛ واقترح ضباطه البدء بتعذيبهم لتقصي إذا ما كانت هناك مناجم ذهب في المنطقة، ولمعرفة إذا ما كان الكوراكا فيتاكورا قد كذب عليهم.

ـ سيسيليا تقول إنه لا جدوى من تعذيب هنود المابوتشي، لأنه من المستحيل إجبارهم على الكلام. لقد حاول الإنكا ذلك معهم مراراً من قبل، لكنهم لم يتمكنوا من كسر شوكة نساء المابوتشي وأطفالهم بالتعذيب ـ هذا ما أوضحتُه لبيدرو في تلك الليلة، بينما أنا أنزع عنه دروعه وملابسه الملطخة بدماء جافة.

ـ لن ينفعنا هؤلاء الزعماء إذاً إلا كرهائن.

ـ لقد قيل لي إن ميتشيمالونكو شديد الكبرياء.

فرد عليّ بيدرو:

ـ لن يفيده ذلك الآن وهو مقيد بالسلاسل.

فأشرت عليه:

ـ إذا لم يتكلم بالقوة، فقد يتكلم باللين. أنت تعرف كيف هم بعض الرجال...

في اليوم التالي قرر بيدرو استجواب التوكي ميتشيمالونكو بطريقة

غير مألوفة، لم يدرك أي من ضباطه أية شياطين يرمي إليها بذلك. بدأ بأن أمر بفك قيوده ونقله إلى مسكن منفصل، بعيداً عن الأسرى الآخرين، حيث قامت أجمل ثلاث هنديات من العاملات في خدمتي على غسل بدنه وإلباسه ثياباً نظيفة وفاخرة، وقدمن له طعاماً وفيراً وقدر ما شاء شربه من خمر الموداي. أمر بالديبيا بأن يقوم على حراسته حارس شرف، واستقبله في مكتب المجلس المزين بالرايات، وهو محاط بضابطه ذوي الدروع اللامعة وقنازع الريش ذات الألوان البديعة. وحضرتُ أنا اللقاء بفستان من مخمل بنفسجي، هو الوحيد المتبقي لدي، لأن الفساتين الأخرى رُميت على طريق الشمال. وجه ميتشيمالونكو إليّ نظرة تقدير، ولا أدري إذا ما كان قد تعرف على المسترجلة التي واجهته بالسيف. وكان قد وُضع كرسيان متماثلان، أحدهما لبالديبيا والآخر للتوكي. كما جيء بمترجم، لكننا كنا نعرف أن لغة *المابودونغو* عصية على الترجمة، لأنها لغة شاعرية تُختلق في سياق الحديث؛ الكلمات فيها تتبدل، تتدفق، تجتمع، تتفكك، إنها حركة خالصة، ولهذا لا يمكن كتابتها أيضاً. وإذا ما حاول أحدهم ترجمتها كلمة فكلمة، فلن يُفهم شيء منها. ويمكن للغة، في أقصى الحدود، أن تنقل فكرة عامة عما يقال. أبدى بالديبيا، بكل احترام ووقار، تقديره لشجاعة ميتشيمالونكو ومحاربيه. ورد التوكي بعبارات تكريم مماثلة. وهكذا، من ملاطفة إلى أخرى، راح بالديبيا يقتاه عبر درب التفاوض، بينما ضباطه يراقبون المشهد حائرين. كان العجوز فخوراً لأنه يتحدث حديث الند للند مع هذا العدو المقتدر، وأحد الملتحين الذين هزموا إمبراطورية الإنكا. وسرعان ما راح يتباهى بمنصبه، بسلالته، بتقاليده، بأعداد قواته ونسائه اللاتي يزدن على العشرين، إلا أن هناك في مسكنه متسعاً لمزيد منهن، بمن في ذلك *سينيورا* إسبانية. أخبره بالديبيا بأن أتاوالبا ملأ حجرة بالذهب حتى سقفها كفدية؛ وأضاف أنه كلما ارتفعت مكانة الأسير تكون الفدية أكبر. استغرق ميتشيمالونكو في التفكير هنيهة، دون

أن يقاطعه أحد، وأظن أنه كان يتساءل عن سبب إعجاب *الهونيكا* بذلك المعدن الذي لم يجلب له ولشعبه إلا المشاكل؛ لأنهم كانوا يقدمونه لسنوات طويلة إتاوة إلى الإنكا. وها قد أصبح له الآن استخدام نافع: تقديمه فدية لخلاصه. وإذا كان أتاوالبا قد قدم حجرة مليئة بالذهب، فلا يمكن له أن يكون أقل من ذلك. عندئذ نهض واقفاً، وانتصب مثل برج، وضرب صدره بقبضتيه معلناً بصوت قوي عن استعداده لأن يقدم *للهوينكا* ، مقابل حريته، منجم الذهب الوحيد في المنطقة، مفاسل ذهب تدعى مارغا ـ مارغا، وعرض فوق ذلك تقديم ألف وخمسمئة رجل للعمل في المنجم.

الذهب! عمت البهجة المدينة. فهاهي ذي مغامرة فتح تشيلي تكتسب، أخيراً، معنى في نظر الرجال. انطلق بيدرو دي بالديبيا مع فصيلة من الرجال جيدي التسليح، مقتاداً ميتشيمالونكو إلى جانبه على حصان بديع أهداه إليه. كان المطر يهطل مدراراً، وكانوا يمضون مبللين ومرتجفين، ولكن بحماسة كبيرة؛ بينما كانت تُسمع في سنتياغو صرخات غضب التوكيات الآخرين الذين خانهم ميتشيمالونكو وهم لا يزالون مقيدين إلى أعمدة. وكانت *التروتوكات* ـ نايات مصنوعة في قصب طويل ـ ترد من الغابة على اللعنات التي يطلقها زعماء القبائل بلغة *المابودونغو*.

اقتاد ميتشيمالونكو المتباهي جماعة *الهوينكا* (الإسبان) عبر الجبال إلى مصب نهر على مقربة من الشاطئ، على بعد ثلاثين فرسخاً عن سنتياغو، ومن هناك إلى غدير توجد فيه مفاسل الذهب التي استغلها شعبه لسنوات طويلة دون أي هدف آخر سوى إرضاء جشع الإنكا. ووفقاً للمفاوضات المسبقة، وضعَ ألفاً وخمسمئة نفس من أبناء شعبه تحت تصرف بالديبيا، وتبين أن أكثر من نصفهم نساء. لم يكن في ذلك ما يدعو للاحتجاج، لأن النساء هنّ من يقمن بالعمل بين سكان تشيلي الأصليين، أما الرجال فيكتفون بالخطابات والمهمات التي تتطلب قوة العضلات، مثل الحرب، والسباحة، ولعب الطابة. وكان الرجال الذين اختارهم

ميتشيمالونكو بليدين جداً، لأنهم لا يجدون ما هو حربي في قضاء النهار في الماء وهم يحملون سلة يغسلون فيها الرمل، لكن بالديبيا رأى أن سياط المراقبين الزنوج ستجعلهم أكثر حماسة في العمل. إنني منذ سنوات طويلة في تشيلي، وأعرف أنه لا جدوى من استعباد هنود المابوتشي، لأنهم عندئذ سيموتون أو يهربون. فهم ليسوا عبيداً ولا يفهمون فكرة العمل، وأقل من ذلك فهمهم لمسوغات غسل الذهب في النهر وإعطائه *للوينكا*. إنهم يعيشون على صيد السمك، أو الصيد البري، وجمع بعض الثمار، مثل الصنوبر، والزرع والحيوانات الداجنة. ولا يملكون إلا ما يستطيعون حمله معهم. فما الذي سيجعلهم يخضعون لسياط مراقبي العمل؟ أهو الخوف؟ إنهم لا يعرفونه. فهم يقدرون الشجاعة في المقام الأول، وبعد ذلك التبادل: أنت تعطيني، وأنا أعطيك، بعدل. لا سجون لديهم، ولا مأموري قضاء ولا أية قوانين سوى القوانين الطبيعية؛ وحتى العقوبة عندهم طبيعية، فمن يقترف شراً يعرّض نفسه لأن ينال مثل ما اقترفه. هكذا هي الحال في الطبيعة، ولا يمكن لها أن تكون مختلفة بين البشر. وهم يخوضون الحرب ضدنا منذ أربعين سنة، وقد تعلموا التعذيب، والسرقة، والكذب، وتدبير المكائد؛ لكنهم أخبروني بأنهم يعيشون فيما بينهم بوئام. النساء يحافظن على شبكة علاقات توحد بين القبائل، بما فيها تلك التي تفصل بينها مئات الفراسخ. وغالباً ما يتبادلون الزيارات في ما بينهم قبل شن الحرب، وبما أن المسافات بعيدة، فإن زياراتهم تستمر لأسابيع، وتفيد في تمتين الأواصر وتعزيز لغة *المابودونغو*، وحكاية القصص، والرقص، والشرب، والاتفاق على زيجات جديدة. وتجتمع القبائل كلها مرة في السنة في عيد *نغيّاتون*، للتضرع لسيد البشر نغينتشين، ولتوفير الأرض، ربة الوفرة، الخصبة والوفية، وأم شعب المابوتشي. ويرون أنه من المعيب إزعاج الرب كل يوم أحد، مثلما نفعل نحن؛ وأن مرة واحدة في السنة أكثر من كافية. ولزعمائهم الذين يسمونهم «توكي» سلطة نسبية، لأنهم غير ملزمين بطاعتهم، ولأن مسؤولياتهم أكثر

من امتيازاتهم. ويصف ألونسو دي إرثيّا أي زونيغا الطريقة التي يجري بها اختيار التوكي:

ليست المكانة الشخصية، ولا الميراث،
لا الأطيان ولا الثراء بالولادة؛
وإنما قوة الذراع والتميز،
هي ما تجعل الرجل مفضلاً،
هذا ما يُبرز، يؤهل، يصقل،
ويرفع من قيمة الفرد.

عند وصولنا إلى تشيلي لم نكن نعرف شيئاً عن شعب المابوتشي، وكنا نظن أنه سيكون من السهل إخضاعه، مثلما فعلنا بشعوب أكثر تحضراً منهم بكثير، كالأزتيك والإنكا. وقد احتجنا لسنوات طويلة كي ندرك كم كنا مخطئين. لم نكن نلمح نهاية لهذه الحرب، لأننا إذا ما أعدمنا توكي، ظهر آخر فوراً، وإذا ما أبدنا قبيلة، خرجت لنا من الغابة قبيلة أخرى لتحل محلها. كنا نريد تأسيس المدن والازدهار، والعيش برفاه واسترخاء، بينما لا يتطلعون هم إلا إلى الحرية.

غاب بيدرو عدة أسابيع، لأنه فضلاً عن تنظيم العمل في المنجم، قرر البدء ببناء سفينة شراعية لتنظيم الاتصال مع البيرو. إذ ليس بإمكاننا ـ مثلما كان يقول فرانثيسكو دي أغيرّي بصراحته المعهودة ـ البقاء معزولين في طيز العالم، وبلا أي صحبة أخرى سوى المتوحشين العراة. وجد خليجاً مناسباً جداً، يدعى خليج كونكون، له شاطئ فسيح تغطيه رمال نقية، وتحيط به غابة أخشاب سليمة ومقاومة للماء. فحدد ذلك المكان مقراً لإقامة الرجل الوحيد من رجاله الذي لديه معلومات مشوشة عن الأمور البحرية، تساعده حفنة من الجنود، وعدد من مراقبي العمال الزنوج والهنود المتعاونين، وآخرون قدمهم ميتشيمالونكو.

ـ هل لديكم مخطط سفينة أيها السيد الحاكم؟ ـ سأل الخبير المزعوم.

ـ لا تقل لي إنك بحاجة إلى مخطط من أجل شيء بهذه البساطة! ـ قال له بالديبيا متحدياً.

ـ أنا لم أبنِ سفينة من قبل يا صاحب الفخامة.

ـ صلِ كي لا تغرق يا صاحبي، لأنك سترافق الرحلة الأولى ـ قال له الحاكم وهو يودعه، وكان سعيداً جداً بمشروعه.

لقد بعثت فيه فكرةُ الذهب الحماسةَ لأول مرة، إذ صار بمقدوره تخيل وجوه الناس في البيرو عندما يعلمون أن تشيلي ليست بائسة إلى الحد الذي يدّعونه. سوف يرسل عيِّنة من الذهب في سفينته الخاصة، فيجتذب بذلك المزيد من المستوطنين، وتكون سنتياغو هي الأولى بين مدن كثيرة ومزدهرة ومأهولة بالسكان. وقد وفى بوعده، فأطلق سراح ميتشيمالونكو وودّعه بأكبر مظاهر الاحترام. فانطلق الهندي ممتطياً حصانه الجديد، ومدارياً ضحكته.



في إحدى جولاته التبشيرية التي لم تسفر حتى ذلك الحين عن أدنى حصيلة، لأن وطنيي الوادي أبدوا عدم مبالاة مذهلة بفوائد اعتناق المسيحية، رجع الكاهن غونثالث دي مارموليخو ومعه صبي. لقد رآه يتسكع على ضفة نهر المابوتشي، نحيلاً، تغطيه القذارة وبقع دم متيبس. وبدلاً من أن يهرب الصبي راكضاً، مثلما يفعل الهنود كلما ظهر لهم بمسوحه الكهنوتي الملطخ بالدهن، وصليبه المرفوع عالياً، بدأ الطفل يتبعه ككلب، دون أن ينطق بكلمة، بعينين متوقدتين، متيقظاً لكل حركة من حركات الكاهن. «انصرف يا ولد، هيا اذهب!»، كان الكاهن يطرده، مهدداً بضربه على رأسه بالصليب. ولكن دون جدوى، إذ ظل يتبعه حتى سنتياغو. ولأنه لم يجد حلاً آخر، جاء به إلى بيتي.

ـ ماذا تريدني أن أفعل به يا أبتاه؟ ليس لدي وقت لتربية صغار ـ قلت له، لأن آخر ما يناسبني هو التعلق بمحبة طفل من الأعداء.

ـ بيتك هو الأفضل في المدينة يا إنيس. وهنا سيكون هذا الصغير المسكين على ما يرام.

ـ ولكن...!

فقاطعني:

ـ ما الذي تقوله وصايا شريعة الرب؟ يجب إطعام الجائع وإكساء العاري.

ـ لا أتذكر وجود هذه الوصية، ولكن إذا كنت أنت من تقولها...

ـ كلفيه بالعمل في رعاية الخنازير والدجاج، إنه وديع جداً.

فكرتُ في أن الكاهن قادر على تربيته خيراً مني، لاسيما وأن لديه بيتاً وخليلة، ويمكن له أن يجعل منه خادماً للكنيسة؛ لكنني لم أستطع الرفض وأنا مدينة للكاهن بالكثير من الخدمات، فهو يعلمني القراءة على الأقل. وقد صار بإمكاني أن أقرأ، دون مساعدة، الكتب الثلاثة التي لدى بيدرو: *أماديس*، وهي قصة غراميات ومغامرات. وكتابان آخران لم أتجرأ على قراءتهما بعد، *نشيد السيد*، وهو كتاب معارك وحسب، و*كتاب العسكرية المسيحية*، لإراسمو، وهو مرجع للجنود لا يهمني في شيء. وكان لدى الكاهن كتب أخرى، وهي بكل تأكيد من تلك الكتب التي تحظرها أيضاً محاكم التفتيش، وآمل أن أتمكن من قراءتها في أحد الأيام. وهكذا ظل الطفل عندنا. غسلته كاتالينا ونظفته، ورأينا أن ما يغطيه ليس دماً جافاً، وإنما وحل وطين. كان سليماً، باستثناء بعض الخدوش والرضوض. وكان في حوالي الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر، هزيلاً، بارز الأضلاع، لكنه قوي البنية، يكلل رأسه شعر أسود كثيف، متيبس بالوسخ. جاء شبه عارٍ. وقد انقض علينا بالعض عندما حاولنا أن ننتزع تميمة معلقة على صدره بخيط من الجلد. وسرعان ما نسيت وجوده، بسبب انشغالي الكبير بأعمال تأسيس القرية، لكن كاتالينا ذكّرتني به بعد يومين. قالت إنه لم يتحرك من

الحظيرة حيث تركناه، وإنه لم يأكل شيئاً كذلك.

ـ ما الذي سنفعله به يا ماميتا؟

ـ من الأفضل أن يذهب إلى أهله.

ذهبت لرؤيته ووجدته جالساً في الفناء، جامداً دون حراك، كأنه منحوت من الخشب؛ وعيناه السوداوان تنظران بثبات إلى الجبال. كان قد ألقى بعيداً عنه الدثار الذي قدمناه إليه، يبدو أن برد الشتاء ومطره يروقانه. أوضحت له بالإشارات أن بإمكانه الذهاب، لكنه لم يتحرك.

ـ إنه لا يريد الذهاب. يريد البقاء وحسب ـ تنهدت كاتالينا.

ـ فليبق إذاً.

ـ ومن سيتولى حراسة المتوحش يا سيدتي؟ فهؤلاء المابوتشي آخذون بالتحول إلى لصوص وخبثاء.

ـ إنه طفل يا كاتالينا. ولسوف يذهب، فليس لديه ما يفعله هنا.

قدمتُ للطفل قطعة من عجة الذرة، فلم يقم بأي ردّ فعل، ولكنني حين أدنيتُ منه قرعة مملوءة بالماء، تناولها بكلتا يديه وشرب ما فيها برشفات صائتة. ألبسناه عباءة بونتشو وسروال رجل مربوطاً عند خصره ريثما نحصل له على ما يناسب مقاسه، وقصصنا شعره وانتزعنا القمل منه. وفي اليوم التالي أكل بشهية نهمة، وخرج فور ذلك من الزريبة وبدأ يتسكع في أنحاء البيت، وبعد ذلك في المدينة، مثل روح تائهة. كان يهتم بالحيوانات أكثر من اهتمامه بالناس، وكانت الحيوانات تتجاوب معه على أحسن وجه؛ فالخيول تأكل من يده، وحتى أشد الكلاب شراسة، المدربة على مهاجمة الهنود، تهز له ذيولها. كان الناس في أول الأمر يطردونه أينما ذهب، فليس هناك في المدينة من يرغب في وجود هندي صغير غريب الأطوار تحت سقف بيته، بمن في ذلك الكاهن الطيب نفسه الذي يعظني كثيراً حول الواجب المسيحي. ولكنهم ما لبثوا أن اعتادوا على حضوره، وصار الطفل غير مرئي يدخل البيوت ويخرج منها بصمت وحذر على الدوام. وكانت هنديات الخدمة يقدمن إليه الحلوى،

حتى إن كاتالينا نفسها أنتهت إلى تقبّل وجوده، وإن يكن باستياء وتوبيخ.

في أثناء ذلك، رجع بيدرو متعباً وموجوعاً من مشقة الترحال طويلاً على صهوة الحصان، لكنه راضٍ تماماً؛ إذ جلب معه أول عينات الذهب: حبيبات تبر جيدة الحجم استُخرجت من النهر. وقبل أن يجتمع مع ضباطه، طوق خصري واقتادني إلى الفراش. «أنت روحي حقاً يا إنيس»، قال متهداً وهو يقبّلني. كان يعبق برائحة الخيل والعرق، ولم أره قط وسيماً، وقوياً، ولي، مثلما رأيته يومذاك. اعترف بأنه قد اشتاق إلي، وأنه صار يتعذب كلما ابتعد عني، ولو لأيام قليلة، وأنه يرى أحلاماً خبيثة عندما يكون أحدنا بعيداً عن الآخر، وتداهمه الهواجس والخوف من عدم العودة لرؤيتي. عريته كما لو كان طفلاً، غسلت جسده بقطعة قماش مبللة، قبّلت ندوب جراحه، ابتداء من أثر نعل الفرس على إليته، ومئات جراح الحروب التي تتقاطع على ذراعيه وساقيه، وحتى النجمة الصغيرة على صدغه من أثر وقوعه متعثراً وهو صبي. مارسنا الحب بعذوبة بطيئة وجديدة، مثل جدين عجوزين. كان بيدرو منهوكاً بعد هذه الأسابيع من الجهود المضنية، فتركني أفعل بنفسي ما أشاء، بوداعة عذراء غير مجربة. فامتطيته، وأحببته ببطء شديد كي يستمتع قليلاً قليلاً، وكنت أنظر بإعجاب إلى وجهه النبيل على ضوء شمعة، جبهته العريضة، أنفه البارز، شفتيه اللتين كشفتي امرأة. كان يغمض عينيه ويبتسم ابتسامة رضا، ويبدو في استسلامه شاباً لا يمكن النيل منه، مختلفاً عن الرجل المتمرس في الحروب والطموح الذي انطلق قبل أسابيع على رأس جنوده. وفي إحدى اللحظات خُيّل إليّ، في ظلمة الليل، أنني ألمح في أحد الأركان شبح الصبي المابوتشي، إلا أنه يمكن لذلك أن يكون مجرد لعبة ظلال.

وفي اليوم التالي، عندما رجع من اجتماعه مع المجلس البلدي، سألني بيدرو عمن يكون الصبي المتوحش. فأوضحت له أن الكاهن قد أحضره، وأننا نعتقد أنه يتيم. استدعاه بيدرو، وتفحصه من رأسه حتى قدميه. أُعجب به. وربما ذكّره بما كان عليه هو نفسه في مثل تلك السن، قوياً ومتكبراً.

ولاحظ أن الطفل لا يتكلم القشتالية، فأرسل في طلب لسان.

ـ قل له إنه يستطيع البقاء معنا شريطة تحوله إلى النصرانية. وسيكون اسمه فيليب. إنه اسم يروقني، ولو أن لي ابناً لكنت سميته بهذا الاسم. هل هو موافق؟ ـ قال بالدييبا.

هز الصبي رأسه موافقاً. وأضاف بيدرو أنه إذا ما ضُبط وهو يسرق، فسوف يأمر بجلده أولاً، ثم يطرده بعد ذلك فوراً من المدينة؛ ويمكن له أن يعتبر نفسه محظوظاً، لأنه يمكن لأي مقيم آخر في المدينة أن يبتر يده اليمنى بفأس. مفهوم؟ هز الصبي رأسه ثانية، بصمت، وبملامح تبدو ساخرة أكثر منها خائفة. طلبتُ من اللسان أن يعرض عليه اتفاقاً: إذا ما علمني لغته، سأتولى أنا تعليمه القشتالية. لم يبدِ فيليب أدنى اهتمام بالعرض. عندئذ أدخل بيدرو تحسيناً على العرض: إذا ما علمني لغة *المابودونغو* سينال إذناً برعاية الخيول. فتهلل وجه الصبي فوراً، وأبدى منذ تلك اللحظة المحبة تجاه بيدرو، وصار يدعوه تايتا. أما أنا فكان يدعوني بتحفظ *شينيورا*، ويعني بذلك سنيورا على ما أعتقد. اتفقنا على ذلك، وتكشف فيليب عن معلم جيد، وكنت أنا تلميذة محظوظة؛ وهكذا تحولتُ بفضله إلى أول *هوينكا* (إسبانية) قادرة على التفاهم مباشرة مع أبناء المابوتشي، لكن ذلك تطلب سنين. لقد قلتُ «التفاهم مع المابوتشي»، لكن هذا مجرد وهم، لأننا لم نتفاهم قط، فهناك الكثير من الأحقاد المتراكمة.

❖ ❖ ❖

كنا لا نزال في منتصف الشتاء عندما جاء جنديان مندفعان بأقصى سرعة على جواديهما، وكانا ممن تركهم بيدرو في مارغا ـ مارغا. وقد وصلا منهوكين، مصابين بجراح خطرة، يقطران ماء ودماً، ومطيتاهما توشكان على التفزر، ليخبرانا بأن هنود ميتشيمالونكو قد تمردوا في منجم الذهب، وقتلوا الكثير من الياناكونا والزنوج، وجميع الجنود الإسبان

تقريباً، وأنهما هما الوحيدان اللذان تمكنا من الهرب حين. أما الذهب المستخرج، فلم تبق منه ذرة واحدة. وقد قتلوا الناس الذين على شاطئ كونكون أيضاً؛ والأجساد الممزقة مازالت مبعثرة على الرمال. أما السفينة التي كانوا يبنونها، فتحولت إلى كومة من الخشب المحروق. وباختصار، فقدنا ثلاثة عشر جندياً وعدداً غير محدد من الهنود اليانا كونا.

ـ اللعنة على ميتشيمالونكو، هندي البراز! عندما أقبض عليه سأخوزقه حياً! ـ زمجر بيدرو دي بالديبيا.

لم يكن قد امتص صدمة الخبر بعد، عندما وصل بيّاغرا وأغيرّي ليؤكدا ما كان جواسيس سيسيليا قد حذروا منه قبل أسابيع: آلاف السكان الأصليين يتوافدون إلى الوادي. يأتون في جماعات صغيرة، رجال مسلحون يطلون أجسادهم بألوان الحرب. يختبئون في الغابات، في الجبال، تحت الأرض وحتى في الغيوم نفسها. وكعادته، قرر بيدرو أن الهجوم هو أفضل وسائل الدفاع؛ اختار أربعين جندياً مجربي الشجاعة، وانطلق معهم على الخيول عند الفجر لينتقم لما اقتُرف في مالاغا ـ مارغا وكونكون.

ظللنا في سنتياغو بإحساس من الهجران المطلق. وكلمات فرانثيسكو دي أغيرّي تحدد وضعنا بدقة: إننا في طيز العالم، محاطون بمتوحشين عراة. ليس هناك ذهب ولا سفينة، الكارثة شاملة. جمعنا الكاهن غونثالث دي ماروليخو في قداس، وألقى علينا خطبة حماسية مؤثرة عن الإيمان والشجاعة، لكنه لم يستطع رفع معنويات الأهالي المذعورين. وانتهز سانتشو ديلا أوث الاضطراب ليُحمّل بالديبيا مسؤولية معاناتنا، وتمكن بذلك من زيادة عدد أتباعه إلى خمسة، منهم التعيس تشينتشيّا، أحد العشرين الذين انضموا إلى الحملة في كوبيابو. لم يعجبني هذا الرجل قط، لأنه متصنع وجبان، لكنني لم أكن أتصور أنه أبله عديم التفكير فوق ذلك. لم تكن الفكرة أصلية ـ اغتيال بالديبيا ـ، مع أنه لم تكن لدى المتآمرين في هذه المرة المُدى الخمس المتشابهة، لأنها كانت محفوظة في أحد صناديقي. لقد

كان تشينتشيّا واثقاً من عبقرية الخطة، حتى إنه شرب بضعة أكواب خمر أكثر مما يتحمل، وارتدى ثياب مهرج، مع أجراس وصنوج صغيرة، وخرج إلى الساحة ليقوم بشقلبات وحركات ساخرة يحاكي بها الحاكم. فقام خوان غوميث باعتقاله على الفور طبعاً، وما إن أراه أدوات التعذيب ومزارد الضغط وأوضح له على أي جزء من جسده سيشدها، حتى بال تشينتشيّا من الخوف ووشى برفاقه.

رجع بيدرو دي بالديبيا بسرعة أكبر من تلك التي انطلق بها، لأن شجعانه الأربعين لم يكونوا قادرين بأي حال على مواجهة العدد غير المتوقع من المحاربين الذين توافدوا إلى الوادي. وقد تمكن من انقاذ الياناكونا المساكين الناجين من مذبحة مارغا ـ مارغا وكونكون، وكانوا يختبئون في الغابة، منهوكين من الجوع والبرد والخوف. وواجه جماعات من الأعداء وتمكن من تشتيت شملهم؛ وبفضل الحظ الذي لم يفارقه حتى ذلك الحين، أسر ثلاثة من زعماء قبائل الأعداء وجاء بهم إلى سنتياغو. وبوجودهم صار لدينا سبع زعماء رهائن.

لكي يصير الشعب شعباً لابد له من ولادات وميتات، ولكن شعوب إسبانيا تحتاج فضلاً عن ذلك، كما يبدو، إلى الإعدامات. وقد شهدنا أول عمليات الإعدام هذه في سنتياغو خلال ذلك الأسبوع نفسه، بعد محاكمة قصيرة ـ رافقها التعذيب في هذه المرة ـ وحُكم فيها على المتآمرين بالموت فوراً. جرى شنق تشينتشيّا واثنين آخرين، وعُرضت أجسادهم للريح ولنسور تشيلي الضخمة عدة أيام، على قمة جبل سانتا لوثيّا. وجرى قطع رأس متآمر رابع في السجن، لأنه أراد الاستفادة من لقب النبالة الذي يحمله كي لا يموت على المشنقة كأي شخص وضيع النسب. وأمام ذهول الجميع، عفا بالديبيا مجدداً عن سانتشو ديلا أوث، المحرض الرئيسي على التمرد. وقد عارضتُ هذه المرة قراره وأنا معه على انفراد، لأن وثائق الاعتماد الملكية لم يعد لها وجود، بعد أن وقّع ديلا أوث وثيقة يتنازل فيها عن عملية الفتح،

وصار بيدرو دي بالديبيا هو فاتح تشيلي الشرعي. وقد سبب لنا ذلك المتبجح ما يكفي من الإزعاج. لم أعرف قط السبب الذي دفع بالديبيا إلى إنقاذ راسه مرة أخرى. لقد رفض بيدرو أن يقدم لي أي تفسير، وكنت قد تعلمت آنذاك أنه من الأفضل عدم الإلحاح أمام رجل مثله. فسنة النوائب تلك عكرت طبعه وصار يفقد السيطرة على نفسه بسهولة. فما كان مني إلا أن أطبقت فمي.



وسط أروع طبيعة في العالم، في أعماق غابات جنوبي تشيلي الباردة، وسط صمت الجذور، واللحاء، والأغصان العطرة، وأمام الحضور المهيب للبراكين وقمم سلسلة الجبال، إلى جانب بحيرات لها لون الزمرد، وزبد أنهار ثلج ذائب، اجتمعت قبائل المابوتشي في احتفال روحي، في مجمع للشيوخ، ورؤوس السلالات والقبائل، والزعماء، واللونكو، والسحرة، والمحاربين، والنساء والأطفال.

راحت القبائل تتوافد تباعاً، وشيئاً فشيئاً، إلى فسحة في الغابة، مدرج فسيح في أعلى رابية أحاطها الرجال بأغصان أشجار الأراوكاريا والقرفة المقدسة. كانت بعض الأسر قد جاءت، تحت المطر، في رحلة استغرقت أسابيع، للمشاركة في اللقاء. وكان من وصلوا أولاً قد أقاموا «روكات»، أو أكواخاً تحاكي الطبيعة المحيطة، بحيث لا تُرى عن بعد أذرع قليلة. أما من جاؤوا في ما بعد، فقد ارتجلوا أغصاناً مجدولة وسقوفاً من ورق الشجر، وفرشوا بسطهم الصوفية على الأرض. وفي الليل، كانوا يطبخون الطعام ليتقاسموه مع الآخرين، ويشربون التشيتشا و*الموداي*، ولكنهم يشربون تلك الخمور باعتدال، كي لا يرهقوا أنفسهم. ويقومون بتبادل الزيارات للإطلاع على الأخبار من خلال حكايات طويلة تلقى بإيقاع غنائي ومهابة، تردد قصص قبائلهم المحفوظة في الذاكرة من جيل لجيل. الكلام ومزيد من

الكلام، هذا هو المهم. أمام كل بيت هناك موقد يظل مشتعلاً والدخان يتلاشى في الضباب الذي ينبثق من الأرض مع الفجر. المواقد الصغيرة تشتعل في العتمة، مضيئة منظر الفجر الحليبي. رجع الشبان من النهر، حيث استحموا في مياه جليدية، وطلوا وجوههم وأجسادهم باللونين الطقوسيين: الأصفر والأزرق. وارتدى زعماء القبائل عباءاتهم المصنوعة من صوف مطرز، عباءات سماوية، سوداء، بيضاء، وعلقوا على صدورهم *التوكيكورا*، أي الفؤوس الحجرية، رمز سلطتهم، وكللوا رؤوسهم بتيجان من ريش مالك الحزين والنعام والكُندور، بينما العرافات يحرقن الأعشاب العطرة ويهيئن *الرووي*، السلّم الروحي للتحدث إلى *نفينيتشين*، روح الأرض.

ـ نقدم إليك جرعة من *الموداي*، كما هي العادة، كي نغذي روح الأرض التي تمضي في إثرنا. *نفينيتشين* خلق الموداي، خلق الأرض، خلق القرفة، خلق الجدي، وخلق نسر الكُندور.

جدلت النساء شعورهن بخيوط صوف ملونة، زرقاء سماوية للعازبات، وحمراء للمتزوجات، وتزين بأفخر ثيابهن وحليهن الفضية، بينما جلس الأطفال ـ وهم بملابس العيد أيضا ـ صامتين وجديين في نصف دائرة. واصطف الرجال كأنهم جسد واحد من الخشب، شامخين، بعضلات خالصة، شعورهم السوداء مثبتة بشرائط قماشية، وأسلحتهم في أيديهم.

ومع أول أشعة الفجر بدأت طقوس الاحتفال. ركض المحاربون في أرجاء المدرج وهم يطلقون الصرخات ويهزون الأسلحة، بينما الآلات الموسيقية تصدح لطرد قوى الشر وإبعادها. وذبحت العرافات عدداً من رؤوس الفواناكو، بعد أن طلبن الإذن منها لتقديم حياتها قرباناً إلى السيد الإله. سكبن قليلاً من الدم على الأرض، وانتزعن قلوب القرابين ودخنّها بأوراق التبغ، ثم قطعنها أجزاء صغيرة ووزعنها على الزعماء، وهكذا شاركوا جميعهم الأرض.

ـ أيها السيد نفينيتشين، هذه هي دماء الحيوانات الصافية، دماؤك،

الـدماء الـتي تمنحنـا إياهـا لنظـل أحيـاء وقـادرين علـى الحركـة، أيهـا الأب الرب، ولهذا نتوسل إليك أن تباركنا بهذا الدم.

وبدأت النساء غناء كئيباً وعميقاً، بينما خرج الرجال إلى وسط الحلبة ليرقصوا، ببطء وتثاقل، ضاربين الأرض بأقدامهم العارية على إيقاع النايات والطبول.

ـ وإليكِ أنتِ، يا أم الناس، نقدم التحية. الأرض والبشر لا ينفصلان. فكل ما يصيب الأرض يصيب الناس أيضاً. نتوسل إليك أيتها الأم أن تمنحينا الصنوبر الذي يقيم أودنا، ونتوسل إليك أن ترسلي لنا الكثير من المطر، كي لا يتعفن الصوف والبذور، ونرجوك ألا تهزي الأرض ولا تجعلي البراكين تبصق، كيلا تشرد المواشي ويرتعب الأطفال.

خرجت النساء كذلك إلى الحلبة ورقصن مع الرجال بهز أذرعهن، ورؤوسهن، وأثوابهن، مثل طيور كبيرة. وفجأة أحس الجمع بالمفعول المنوّم للطبول والنايات، ولضربات الأقدام الإيقاعية على الأرض الرطبة، لطاقة الرقص المتسلطة، وبدؤوا، واحداً بعد الآخر، يطلقون الصراخ بولولة من الأحشاء ما لبثت أن تحولت إلى صيحة طويلة ـ «أوووووووووم. أوووووووووم» ـ تردد صداها في الجبال، لتحرك الروح. ليس هناك من هو قادر على الإفلات من سحر هذه الـ «أوووووووووم».

ـ نطلب منك يا سيدنا الإله، في أرضنا هذه، أن تساعدنا، إن كان يرضيك، في كل حين وفي هذه الحال التي نحن عليها، نطلب منك مباشرة أن تسمعنا. إننا نطلب منك أيها السيد الإله ألا تتخلى عنا وتتركنا وحدنا، وألا تتركنا نتلمس في الظلام، وأن تمنح القوة لأذرعنا كي ندافع عن أرض أجدادنا.

توقفت الموسيقى وتوقف الرقص. نفذت أشعة الشمس الصباحية من بين الغيوم، فصبغت الضباب بلون الذهب. تقدم أقدم الزعماء وعلى كتفيه جلد نمر بوما، ليكون أول المتكلمين. لقد استغرقت رحلته قمراً كاملاً ليكون

هناك، ممثلاً لقبيلته. لا داعي للعجلة والتسرع. بدأ من أقدم الوقائع، من قصة الخلق، وكيف أن الأفعى كاي ـ كاي هيجت البحر والأمواج لتهدد بابتلاع شعب المابوتشي، لكن الثعبان ترينغ ـ ترينغ أنقذهم آنذاك، بحملهم إلى قمم أعلى الجبال التي راحت تعلو وتكبر. وكان المطر يهطل بغزارة، ومن لم يتمكنوا من صعود الجبال قضوا في الطوفان. وبعد ذلك انزاح الماء، وسكن الرجال والنساء الوديان والغابات، دون أن ينسوا أن الأشجار والنباتات والحيوانات هي أخوتهم وعليهم رعايتها، وكلما قطعوا أغصاناً لصنع سقف، يشكرونها. وعندما يذبحون حيواناً ليأكلوا، يعتذرون منه؛ لا يقتلون أبداً لمجرد القتل. وعاش المابوتشي أحراراً في الأرض المقدسة. وعندما جاءهم الإنكا من البيرو، اتحدوا للدفاع عن أنفسهم وانتصروا عليهم، لم يسمحوا لهم باجتياز نهر بيو ـ بيو، وهو أم كل الأنهار، لكن مياهه اصطبغت بالدم، وأطل القمر أحمر في السماء. ومرّ زمن، ثم جاء *الوينكا* عبر الدروب نفسها التي جاء منها الإنكا. وكانوا كثيرين ونتنين، تُشم رائحتهم عن بُعد يومين، وهم لصوص كبار، لا وطن لهم ولا أرض، يستولون على ما ليس لهم، وعلى النساء أيضاً، ويريدون من المابوتشي أن يكونوا عبيداً لهم. وكان على المحاربين أن يطردوهم، لكن كثيرين منهم ماتوا، لأن سهامهم وفؤوسهم لم تكن تخترق ملابس *الوينكا* المعدنية، بينما يستطيع هؤلاء القتل من بعيد بأسلحة الدوي أو باستخدام كلابهم. وقد طردوهم مع ذلك. فقد انصرف *الوينكا* من تلقاء أنفسهم، لأنهم كانوا جبناء. ومرّت عدة أصياف وعدة شتاءات، وجاء *وينكا* آخرون، وهؤلاء يريدون البقاء ـ قال الزعيم القديم ـ إنهم يقطعون الأشجار، ويبنون بيوتاً، ويزرعون ذرتهم، ويحبّلون نساءنا، ولهذا يولد أطفال ليسوا *وينكا* وليسوا من معشرنا.

ـ وحسب ما يخبرنا به عيوننا، فإنهم يريدون الاستيلاء على الأرض كلها، من البراكين وحتى البحر، ومن الصحراء إلى حيث ينتهي العالم، ويريدون تأسيس قرى كثيرة. وهم قساة، زعيمهم بالديبيا شديد المكر. وأنا أقول إن

المابوتشي لم يعرفوا من قبل أعداء بمثل قوة الملتحين الآتين من بعيد. إنهم الآن قبيلة صغيرة، لكن آخرين منهم سيأتون، لأن لديهم بيوتاً مجنحة تمشي فوق سطح البحر. وأنا أطلب الآن من الجمع أن يقولوا ما الذي علينا عمله.

تقدم زعيم آخر، وهز سلاحه وهو يقفز، وأطلق صرخة غضب طويلة. ثم أعلن بعد ذلك أنه مستعد لمهاجمة *الهوينكا* وقتلهم، والتهام قلوبهم ليتمثل قوتهم، وحرق بيوتهم، وانتزاع نسائهم، وليس هناك من حلّ آخر سوى الموت لهم جميعاً. وعندما انتهى من الكلام، تقدم زعيم ثالث ليحتل منتصف الحلبة ويوضح أنه لا بد لشعب المابوتشي بأسره من الاتحاد ضد هذا العدو، واختيار زعيم زعماء، *نيدولتوكي*، لخوض الحرب.

ـ أيها السيد الإله نغينيتشين، نطلب منك باستقامة أن تساعدنا في الانتصار على *الهوينكا*، بإرهاقهم، إزعاجهم دون السماح لهم بالنوم أو الأكل، وإدخال الخوف في قلوبهم، والتجسس عليهم، ونصب الكمائن لهم، وانتزاع أسلحتهم، وسحق جماجمهم بهراواتنا، هذا ما نطلبه منك أيها السيد الرب.

عاد الزعيم الأول إلى الكلام ليقول إن عليهم عدم التعجل، ولابد من الصراع بصبر، لأن *الهوينكا* مثل العشبة الخبيثة، كلما قُطعت تعود للنمو بمزيد من القوة؛ وهذه الحرب ستكون حربهم، وحرب أبنائهم وأبناء أبنائهم من بعدهم. سيراق الكثير من دم المابوتشي ودم الهوينكا، حتى النهاية. رفع المحاربون رماحهم وانطلقت من صدورهم جوقة مديدة من صرخات الاستحسان. «الحرب! الحرب!» وفي هذه اللحظة توقف رذاذ المطر، وانشقت الغيوم، وظهر نسر كُندور عظيم محلقاً في الجزء الصافي من السماء.



مع بدايات شهر أيلول أدركنا أن شتاءنا الأول في تشيلي قد انتهى. تحسن المناخ، وامتلأت بالبراعم الأشجارُ الفتية التي جلبناها من الغابة لإعادة

غرسها على امتداد الشوارع. لقد كانت تلك الشهور قاسية، ليس بسبب هجمات الهنود ومؤامرات سانتشو ديلا أوث وحسب، وإنما كذلك بسبب الإحساس بالعزلة الذي كنا نرزح تحت وطأته. كنا نتساءل عما تراه يحدث في بقية العالم، وإذا ما كان الإسبان قد فتحوا أراضي أخرى، وتوصلوا إلى اختراعات جديدة، وما الذي حلّ بإمبراطورنا المقدس الذي صار شبه مجنون، حسب آخر أخبار وصلت إلى البيرو، قبل حوالي سنتين. فالجنون يجري في عروق أسرته، ويكفي تذكر أمه عاثرة الحظ، مجنونة توردیسیّاس. منذ أيار حتى أواخر آب كانت النهارات قصيرة، فالظلام يخيم منذ الساعة الخامسة، ويبدو الليل أبدياً. كنا نستغل الوقت حتى آخر خطوط الضوء الطبيعي لإنجاز الأعمال، ثم نضطر بعد ذلك إلى الانزواء في إحدى حجرات البيت ـ السادة، والهنود، والكلاب، وحتى طيور الحظيرة ـ مع شمعة أو شمعتين، ومجمر للتدفئة. فيبحث كل واحد عما يشغل نفسه به لتمضية ساعات المساء. بدأ الكاهن بتشكيل كورال من الهنود الياناكونا، لتعزيز إيمانهم من خلال الغناء. وكان أغيرّي يسلينا بأحاديثه عن قدراته غير المعقولة كزير نساء، وبأغنياته الجريئة واللاذعة كجندي. أما رودريغو دي كيروغا الذي بدا في أول الأمر صامتاً وأقرب إلى الخجل، انفلت حماسه وتكشف عن راوٍ ملهم. كان لدينا عدد محدود من الكتب، وكنا نحفظها عن ظهر قلب، لكن كيروغا كان يأخذ شخصيات إحدى القصص، فيدخلها في قصة أخرى، فتكون الحصيلة تنوعاً غير متناه من الحكايات. وكانت كل كتب المستوطنة، باستثناء اثنين منها، ضمن القائمة السوداء لمحاكم التفتيش، وبما أن رواية كيروغا لتلك القصص كانت أجرأ بكثير مما هي في الكتاب الأصلي، فقد كانت قصصه متعاً آثمة، وبالتالي مطلوبة بكثرة. وكنا نلعب الورق أيضاً، وهي رذيلة تشمل الإسبان جميعهم، وخاصة حاكمنا الذي كان الحظ يحالفه كذلك. لكننا لم نكن نراهن على نقود، تجنباً للنزاعات، ولعدم تقديم مثال سيئ للخدم، ولإخفاء مدى

الفقر الذي نحن فيه. وكان هناك من يعزف على الفيهويلا، أو من يلقون الأشعار، أو يتبادلون الأحاديث بحماسة. الرجال يتذكرون معاركهم ومغامراتهم، وسط احتفاء المجتمعين بها. وكانوا يطلبون من بيدرو، مرة بعد أخرى، أن يحدثهم عن مآثر المركيز بيسكارا؛ ولم يكن الجنود والخدم يملون من الإطراء على حيلة المركيز عندما غطى قواته بملاءات بيضاء كي لا يظهروا على الثلج.

كان القادة يجتمعون ـ في بيتنا أيضاً ـ ليناقشوا قوانين المستوطنة، وهي مسألة أساسية للحاكم. فبيدرو يرغب في قيام المجتمع التشيلي على الشرعية، وروح الخدمة لدى المسؤولين؛ ويصر على أنه يجب ألا يتلقى أحد أجراً مقابل تقلده منصباً عاماً، وخاصة هو نفسه، لأن خدمة الجماعة واجب وشرف. وكان رودريغو دي كيروغا يتفق معه تماماً في هذه الفكرة، لكنهما الوحيدان المتشربان بهذه المثل العليا. بوجود الأراضي والهنود الذين سيوزعون على جنود الفتح المتميزين، سيكون هناك في المستقبل ما هو أكثر من كافٍ للعيش برغد، هذا ما كان يقوله بالديبيا، حتى وإن بدا ذلك مجرد أحلام حالياً، ومن يملك ثروات أكثر، سيكون عليه عندئذ واجبات أكبر تجاه شعبه.

كان الضجر ينال من الجنود، إذ ليس لديهم الكثير مما يشغلون به أنفسهم باستثناء التدرب على السلاح، والتلهي مع خليلاتهم. أما العمل في بناء المدينة، والزراعة، ورعاية الحيوانات، فتتولاه النساء وهنود الياناكونا. ولم أكن أنا نفسي أجد الوقت الكافي لإنجاز مهامي كلها: أعمال البيت والمستوطنة، ورعاية المرضى، والزراعة، والحظائر، وتعلم القراءة مع الراهب غونثالث دي مارموليخو، ولغة *المابودونغو* مع فيليب.

حمل إلينا هواء الربيع الندي موجة من التفاؤل؛ وخلفنا وراءنا المخاوف التي أثارتها فينا قبل بعض الوقت عصابات ميتشيمالونكو. كنا نشعر بأننا أقوى، بالرغم من تقلص عددنا إلى مئة وعشرين جندياً بعد مجزرة مارغا ـ مارغا

وكونكون وإعدام الخونة الأربعة. لقد خرجت سنتياغو سليمة تقريباً من وحول شهور الشتاء وعواصفها، عندما كنا نضطر إلى نزح الماء من البيوت بالدلاء؛ فقد صمدت البيوت للطوفان، وظل الناس معافين. حتى هنودنا أنفسهم، وكانوا يموتون من رشح عادي، استطاعوا تجاوز قسوة المناخ العاصف دون مشاكل كبيرة. حرثنا الحقول وزرعنا الشتول التي رعيتها وحميتها من الصقيع. وكانت الحيوانات قد تزاوجت، وهيأنا الحظائر لاستقبال صغار الخنازير واللاما والأمهار التي ستولد. وقررنا أن نشق القنوات الضرورية فور جفاف الوحول، بل إننا خططنا لإقامة جسر على نهر مابوتشو لوصل المدينة مع المزارع التي ستقام يوماً في ذلك المحيط؛ ولكن لابد لنا قبل ذلك كله من إنهاء بناء الكنيسة. كان بيت فرانثيسكو أغيرّي قد ارتفع وصار من طابقين، ومازال يزداد علواً؛ فكنا نسخر منه، لأن لديه هنديات وزهواً أكبر مما لدى جميع الرجال الآخرين مجتمعين، ويبدو أنه يريد لمسكنه أن يكون أكثر ارتفاعاً من الكنيسة. وكان الجنود يقولون ساخرين: «الباسكي يظن نفسه أعلى من الرب». النساء العاملات في بيتي أمضين الشتاء وهن يخطن ويعلمن الأخريات الأعمال المنزلية. وقد ارتفعت معنويات القشتاليين، شديدي الزهو بأنفسهم، حين رأوا قمصانهم الجديدة، وسراويلهم المرقعة، وسترهم المرتوقة. حتى إن سانتشو ديلا أوث توقف، ولو لمرة واحدة، عند التآمر من زنزانته. أعلن الحاكم أننا سنجدد عما قريب العمل في بناء السفينة، وسنرجع إلى مغاسل الذهب، وسنبحث عن منجم الفضة الذي تحدث عنه الكوراكا فيتاكورا.

لم يدم تفاؤل الربيع طويلاً. فمع الأيام الأولى من شهر أيلول، جاءنا الصبي الهندي فيليب بخبر تواصل توافد المحاربين المعادين إلى الوادي، وأنهم يجمعون جيشاً. أرسلت سيسليا خادماتها لتقصي الأمر، فأكدن ما بدا أن فيليب يعرفه بالبصيرة، وقد أضاف أن هناك خمسمئة منهم يعسكرون على بُعد خمسة عشر أو عشرين فرسخاً من سنتياغو. جمع بالديبيا أشد ضباطه

وفاء، وقرر أن يقوم مرة أخرى بحملة عقابية ضد العدو، قبل أن يتمكن هؤلاء من تنظيم أنفسهم.

ـ لا تذهب يا بيدرو. ثمة هواجس خبيثة تراودني ـ قلتُ له متوسلة.

ـ أنت لديك دوماً هواجس خبيثة في مثل هذه الحالات يا إنيس ـ ردّ عليّ بتلك النبرة الأبوية المُجاملة التي أكرهها، وأضاف ـ: إننا معتادون على القتال ضد قوة تفوقنا عدداً مئة مرة، ومواجهة خمسمئة متوحش أمر بسيط يدعو إلى الضحك.

ـ قد يكون هناك المزيد منهم مختبئين في أماكن أخرى.

ـ سنتمكن بفضل الله من القضاء عليهم، لا تقلقي.

بدا لي من التهور قسمة قواتنا، وهي الضئيلة أصلاً. ولكن، من أكون أنا لأعترض على استراتيجية عسكري مثله؟ ففي كل مرة أحاول ثنيه عن قرار عسكري، لأن الحس السليم يدعوني إلى ذلك، يستاء وينتهي به الأمر إلى الغضب. لم أوافقه الرأي في هذه المرة، مثلما لم أتفق معه في ما بعد، عندما أصابته حمى تأسيس المدن التي لا يمكننا إعمارها بالسكان ولا الدفاع عنها. وقد أودت به مكابرته تلك إلى الموت. «النساء لا يستطعن التفكير في الأمور العظيمة، ولا يتصورن المستقبل، إنهن يفتقرن إلى حس التاريخ، لا يهمهن سوى الشأن المنزلي والمباشر»، هذا ما قاله في إحدى المرات، لكنه حاول التراجع عن كلامه عندما رتلت عليه قائمة الأعمال التي ساهمتُ فيها مع النساء الأخريات في مهمة الفتح والتأسيس.

ترك بيدرو المدينة تحت حماية خمسين جندياً ومئة ياناكونا بقيادة أفضل ضباطه: مونروي، وبيّاغرا، وأغيرّي، وكيروغا. عند الفجر، خرجت من سنتياغو القوة التي يزيد عددها قليلاً على الخمسين جندياً، ومعها بقية هنودنا، وسط الرايات ودوي الأبواق وطلقات البنادق وأشد أنواع الصخب، لإعطاء الانطباع بأن عددها أكبر مما هو عليه. ومن فوق سطح بيت أغيرّي، وقد تحول إلى برج حراسة، رأيناهم يبتعدون. كان يوماً صافياً، وبدت

الجبال المكللة بالثلج التي تحيط بالوادي مهيبة وقريبة جداً. كان رودريغو دي كيروغا يقف إلى جانبي محاولاً مواراة قلقه الذي لم يكن يقل عن قلقي.

ـ ما كان عليهم الذهاب يا دون رودريغو. فسنتياغو ستبقى بلا دفاع.

ـ الحاكم يعرف ما يقوم به يا دونيا إنيس ـ أجابني دون اقتناع ـ. من الأفضل الخروج لمواجهة العدو، فهكذا يعرف أننا لا نخافه.

كان هذا الضابط الشاب، برأيي، هو أفضل رجال مستوطنتنا الصغيرة، بعد بيدرو طبعاً. فهو أشجع الجميع، مجرب في الحرب، ساكت على الآلام، وفيّ ونزيه؛ ويتمتع فوق ذلك بفضيلة بعث الثقة في الجميع. كان يبني بيته في عقار قريب من بيتنا، لكنه مشغول بالقتال في مناوشات متواصلة ضد الهنود التشيليين، ولا وقت لديه لإكمال مسكنه المؤلف من دعائم، وجدارين، وقطع من أقمشة الخيام، وسقف من القش. لقد كان بيتاً غير صالح للإقامة فيه إلى حدّ أنه كان يقضي وقتاً طويلاً في بيتنا، ذلك أن بيت الحاكم، وهو أرحب بيوت المدينة وأكثرها راحة، تحول إلى مقر الاجتماعات. وأعتقد أن ما كان يسهم في نجاحنا الاجتماعي هو اهتمامي الدائم بتوفير الطعام والشراب لكل من يرتادون البيت. وكان رودريغو هو الجندي الوحيد الذي ليس لديه حريم من المحظيات، ولا يتصيد الهنديات الأخريات لتحبيلهن. وكانت رفيقته الوحيدة إولاليا، إحدى خادمات سيسيليا، شابة جميلة من هنود الكيتشوا، ولدت في قصر الإنكا أتاوالبا، لها مثل هيبة ووقار سيدتها أميرة الإنكا. أحبت إولاليا رودريغو منذ لحظة انضمامه إلى الحملة. رأته حين وصل متسخاً، مريضاً، كثيف الشعر، رث الثياب، مثل غيره من الأشباح الذين خرجوا أحياء من أدغال تشونتشو، لكنها استطاعت تقديره والإعجاب به بمجرد النظر إليه، حتى قبل قص شعره وتنظيفه. لم تعد تشعر بالراحة. وتمكنت إولاليا بمكر غير متناه من إغواء رودريغو، وجاءت على الفور لتحدثني وتخبرني بشجونها. توسّطت لها لدى سيسيليا كي تسمح لها بالعمل في خدمة رودريغو، بحجة أن لديها ما يكفي من الخادمات، بينما الرجل المسكين وحيد ومعروق

العظم، يمكن له أن يموت إذا لم يهتم أحد بشؤونه ويقوم على خدمته. لقد كانت سيسيليا ذكية لا يمكن لتلك الذرائع أن تنطلي عليها، لكنها تأثرت بفكرة الحب، وسمحت لخادمتها بالذهاب، وهكذا صارت إولاليا تعيش مع رودريغو. كانت العلاقة بينهما بالغة الحساسية؛ فهو يعاملها بلباقة أبوية واحترام غير معهودين بين الجنود وخليلاتهم، وتلبي هي أدنى رغباته بسرعة وتكتم. كانت تبدو مذعنة، لكنني كنت أعرف، من خلال كاتالينا، أنها مشبوبة العاطفة وغيورة. وبينما كنت أتأمل وإياه، من فوق تلك العلية، أكثر من نصف قواتنا وهي تبتعد عن المدينة، تساءلت كيف هو رودريغو دي كيروغا في الفراش، وهل تمنحه إولاليا السعادة يا ترى. كنت أعرف جسده لأنني توليت علاجه عندما جاءنا مريضاً من أدغال تشونتشو، وعندما جُرح في المواجهات مع الهنود. لقد كان نحيلاً، لكنه قوي جداً. لم أره عارياً تماماً، ولكن كاتالينا تقول: «لابد لك من رؤية عضوه يا سيدتي». فنساء الخدمة اللواتي لا يفلت منهن شيء، يؤكدن أنه مجهز جيداً؛ بينما أغيرّي بالمقابل، وبالرغم من كل ما له من مغامرات مع الخليلات الكثيرات، إلا أنه... حسن، لا أهمية لذلك. أتذكر أن قلبي طفر وأنا أفكر في ما سمعته عن رودريغو، وتورد وجهي بشدة انتبه هو نفسه إليها، فسألني:

ـ هل أصابك شيء يا دونيا إنيس؟

ودّعته بسرعة وباضطراب، ونزلت لأبدأ أعمالي اليومية، بينما انصرف هو إلى شؤونه.



بعد يومين من ذلك، في ليلة الحادي عشر من أيلول 1541، وهو تاريخ لم أنسه قط، هاجمت قوات ميتشيمالونكو وحلفائه سنتياغو. ومثلما يحدث لي عندما يغيب بيدرو، لم أستطع النوم. بل لم أكن أحاول النوم، وغالباً ما أقضي الليل ساهرة، أقوم بأعمال الخياطة حتى وقت متأخر، بعد أن أرسل

بقية الخدم إلى النوم. وقد كان فيليب مثلي في الأرق. فكثيراً ما كنت أجد الصبي الهندي خلال جولاتي الليلية في حجرات المنزل؛ يقبع في أماكن غير متوقعة، جامداً وصامتاً، بعينين مفتوحتين في الظلام. لم تكن هناك جدوى من إعطائه فراشاً من القش أو مكاناً محدداً للنوم، فهو يستلقي في أي مكان، بلا دثار يغطيه. وفي تلك الساعة الملتبسة التي تسبق الفجر بقليل، أحسست بدوي القلق الذي ظل مثل عقدة في معدتي منذ ذهاب بيدرو. كنتُ قد أمضيت شطراً لا بأس به من الليل في الصلاة، ليس لإفراط في التدين وإنما بسبب الخوف. فالتحدث إلى العذراء وأنا امسك بيدها يمنحني الطمأنينة على الدوام، لكنها لم تستطع في هذه الليلة الطويلة أن تهدئ هواجس الشؤم التي تعذبني. ألقيت شالاً على كتفي، وقمت بجولتي المعهودة بصحبة بلتسار المعتاد على مرافقتي كظلي، ملتصقاً بكاحلي. كان السكون يخيم على البيت. لم ألتق بفيليب، لكن ذلك لم يقلقني، فهو معتاد على النوم مع الخيول. أطللت على الساحة ولمحت ضوء شعلة على سطح بيت أغيرّي، حيث وضعوا جندياً للحراسة. فكرت في أن الرجل المسكين لابد أن يكون مستنفداً من التعب بعد ساعات من الحراسة وحيداً، فسخّنت طاسة حساء وحملتها إليه.

ـ شكراً يا دونيا إنيس. ألا ترتاحين؟

ـ إنني قليلة النوم. هل من جديد؟

ـ لا. لقد كانت ليلة هادئة. وكما ترين، القمر ينير قليلاً.

ـ وما هي تلك البقع القاتمة هناك، قرب النهر؟

ـ إنها ظلال. لقد رأيتها منذ بعض الوقت.

ظللت أراقب للحظات وتوصلت إلى رؤية غريبة، كما لو أن موجة قاتمة تخرج من النهر لتلتقي مع أخرى آتية من الوادي.

ـ هذه الظلال المفترضة ليست طبيعية أيها الشاب. أظن أنه علينا إخبار القائد كيروغا، فهو حاد البصر...

ـ لا يمكنني ترك موقع حراستي يا سيدتي.

ـ أنا سأذهب إليه.

نزلت قافزة يتبعني الكلب، وركضت إلى بيت رودريغو دي كيروغا، في الجانب الآخر من الساحة. أيقظت هندي الحراسة الذي كان ينام معترضاً العتبة التي ستكون باباً في أحد الأيام، وأمرته أن يستدعي القائد فوراً. بعد دقيقتين من ذلك ظهر رودريغو بنصف ملابسه، لكنه كان ينتعل جزمته وسيفه في يده. رافقني بسرعة عبر الساحة وصعد معي إلى سطح بيت أغيرّي.

ـ لا مجال للشك يا دونيا إنيس، هذه الظلال هي جماعات من الناس تتقدم نحونا. أقسم أنهم هنود يغطون أجسادهم بمعاطف سوداء.

ـ ما الذي تقوله؟ ـ هتفتُ غير مصدقة، وأنا أفكر في مركيز باسكارا وملاءاته البيضاء.

أعطى رودريغو دي كيروغا إشارة الإنذار، وخلال أقل من عشرين دقيقة كان الخمسون جندياً، وهم متأهبون دوماً في تلك الأيام، قد اجتمعوا في الساحة، بدروعهم وخوذهم، وأسلحتهم الجاهزة. نظم مونروي الفرسان ـ كان لدينا اثنان وثلاثون حصاناً فقط ـ وقسمهم إلى فصيلتين صغيرتين، إحداهما تحت قيادته والأخرى بقيادة أغيرّي، وقرر كلاهما مواجهة العدو في الخارج، قبل أن يتوغل في المدينة. أما بيّاغرا وكيروغا، ومعهما رماة البنادق والهنود، فتولوا الدفاع في الداخل، بينما كان على الكاهن، والنساء وأنا معهن، توفير الإمدادات للمدافعين وعلاج الجرحى. وبإيعاز مني، اقتاد خوان غوميث سيسيليا، وأفضل مرضعتين هنديتين، وأطفال المستوطنة الرضع إلى قبو منزلنا، وكنا قد حفرناه تحت الأرض لنجعل منه مستودعاً للمؤن والنبيذ. سلّم امرأته تمثال سيدتنا عذراء الرحمة، وودّعها بقبلة طويلة على الفم، وبارك ابنه، ثم أغلق القبو بألواح خشبية، وموّه المدخل برفوش من التراب. لم يجد طريقة لحمايتهم أفضل من دفنهم أحياء.

طلع صباح الحادي عشر من أيلول. كانت السماء صافية، وأضاءت شمس الربيع الخجولة محيط المدينة في اللحظة التي تعالى فيها الزعيق

الفظيع، وصرخات ألف وطني اندفعوا نحونا في موجة هائلة. أدركنا أننا وقعنا في مصيدة، فالمتوحشون أكثر مكراً بكثير مما ظنناهم. حشد الخمسمئة محارب معادٍ الذين زُعم أنهم يؤلفون جيشاً يهدد سنتياغو، لم يكن إلا خدعة لاجتذاب بيدرو وقسماً كبيراً من قواتنا، بينما آلاف وآلاف الذين يختبئون في الغابات، استغلوا ظلمة الليل ليقتربوا متسترين بمعاطف سوداء.

سانتشو ديلا أوث الذي كان يتعفن منذ شهور في زنزانة، بدأ يصرخ مطالباً بإطلاق سراحه وإعطائه سيفاً. قدر مونروي أننا بحاجة ماسة إلى كل من هو قادر على القتال، بمن في ذلك الخونة، فأمر بفك القيود من قدميه. ولابد لي من الإشارة إلى أنه قاتل في ذلك اليوم بالقوة نفسها التي قاتل بها القادة الأبطال الآخرون.

ـ كم تقدر عدد الهنود المهاجمين يا فرانثيسكو؟ ـ سأل مونروي رفيقه اغيرّي.

ـ ليس هناك ما يخيفنا يا الونسو! أنهم ثمانية آلاف أو عشرة آلاف...

خرجت جماعتا الفرسان في عدو سريع لمواجهة أول المهاجمين، كأنها قنطورات غاضبة، تقطع رؤوساً وأطرافاً بضربات السيوف، تمزق صدوراً بحوافر الجياد. ومع ذلك، فقد اضطر الفرسان إلى التراجع خلال أقل من ساعة واحدة. وفي أثناء ذلك كان آلاف الهنود الآخرين يتراكضون في شوارع سنتياغو مطلقين الصراخ والولولات. كان بعض الياناكونا وعدد من النساء الذين دربهم رودريغو دي كيروغا قبل شهور، ينهمكون في حشو البنادق كي يتمكن الجنود من إطلاقها، لكن العملية كانت طويلة ومتعبة؛ وكان العدو قد صار بيننا. وتبين أن أمهات الأطفال الذين مع سيسيليا في المغارة أكثر شجاعة من الجنود المجربين، لأنهن يقاتلن دفاعاً عن حياة أطفالهن. انهال مطر من السهام المشتعلة على أسطح البيوت، وبالرغم من أن القش كان رطباً بفعل أمطار آب، إلا انه بدأ يشتعل. أدركتُ أنه لابد لنا من ترك البنادق للرجال، بينما نذهب نحن النساء لمحاولة إطفاء

الحريق. شكلنا صفوفاً لنقل دلاء الماء، لكننا سرعان ما رأينا أنه عمل غير مجدٍ، فالسهام واصلت التساقط، ولا يمكننا استهلاك الماء المتوافر لدينا في إطفاء الحريق، لأن الرجال سيحتاجون إليه بحرقة عما قريب. غادرنا البيوت المتطرفة، ورحنا نتجمع في ساحة السلاح.

في أثناء ذلك بدأ أول الجرحى بالوصول، بعضهم جنود وعدد من الياناكونا. وكنت أنا وكاتالينا وجماعة النساء قد تمكنا من تنظيم أنفسنا ومعنا وسائل العلاج المعهودة: خرق قماشية، قطع فحم، ماء، زيت يغلي، نبيذ للتعقيم و*موداي* لمساعدة الجرحى على تحمل الألم. وعكفت نساء أخريات على إعداد قدور من الحساء، وقرع مملوء بالماء، وخبز ذرة، لأن المعركة ستطول كثيراً. غطى دخان القش المحترق المدينة، وصرنا نكاد لا نستطيع التنفس، ونشعر بحرقة في عيوننا. كان الرجال يأتوننا نازفين، فنعالج جراحهم الظاهرة - لم يكن لدينا متسع من الوقت لخلع دروعهم -، ونقدم لهم طاسة ماء أو حساء، وما إن يتمكنوا من النهوض والوقوف على أقدامهم حتى يعودوا إلى القتال من جديد. لست أدري كم من المرات واجه الفرسانُ المهاجمين؛ ولكن، جاء وقت قرر فيه مونروي أنه لم يعد بالإمكان الدفاع عن المدينة كلها، وهي تحترق من جهاتها الأربع، بينما الهنود يحتلون سنتياغو بأسرها. تشاور بإيجاز مع أغيرّي واتفقا على التراجع مع فرسانهم، وتركيز قوانا كلها في الساحة، حيث كان العجوز دون بينيتو قد استقر على كرسي بلا مسند. كان جرحه قد التأم بفضل شعوذات كاتالينا، لكنه كان ضعيفاً لا يستطيع الوقوف على قدميه لوقت طويل. كانت لديه بندقيتان، وامرأة من الياناكونا تساعده في حشوهما، وقد أنزل خلال ذلك النهار الطويل إصابات عديدة بالأعداء من كرسي شلله. لقد أطلق النار بكثرة لدرجة أن راحتي يديه احترقتا من سخونة البندقيتين المتقدتين.

❖ ❖ ❖

بينما أنا منهمكة في علاج الجرحى داخل البيت، تمكنت جماعة من المهاجمين من تسلق سور الفناء الطيني. أطلقت كاتالينا صوت الإنذار بصرخة مدوية، فذهبتُ لأرى ما يجري، لكنني لم أصل بعيداً، إذ كان الأعداء قد صاروا قريبين جداً، بحيث يمكن لي أن أعدّ الأسنان في تلك الوجوه الضارية والمطلية بالأصباغ. عندئذ هرع رودريغو دي كيروغا والكاهن غونثالث دي مارموليخو الذي ارتدى واقية معدنية للصدر وحمل سيفاً، مسرعين لصدهم، لأن الواجب يقتضي الدفاع عن بيتي، حيث يرقد الجرحى، وحيث تختبئ سيسيليا ومعها الأطفال في القبو. تصدى بعض الهنود لمواجهة كيروغا ومارموليخو، بينما عمد آخرون إلى إحراق البذار وقتل حيواناتي الداجنة. فكان هذا التصرف هو ما أخرجني عن طوري. لقد عنيت بكل واحد من تلك الحيوانات كما لو أنها الأبناء الذين حُرمتُ من إنجابهم. وبزمجرة انطلقت من أعمق أعماقي، خرجت لمواجهة الوطنيين، بالرغم من أنني لم أكن أرتدي الدرع التي أهداها إليّ بيدرو، لأني لن أستطيع العناية بالجرحى وأنا عاجزة عن الحركة داخل تلك الحدائد. أظن أن شعري كان مشعثاً، وأنني كنت أطلق الزبد واللعنات، مثل أربيا[1]: ولابد أن مظهري كان مرعباً، لأن المتوحشين توقفوا للحظة، ثم تراجعوا بضع خطوات وقد سيطر عليهم الذهول. لستُ أدري لماذا لم يهشموا جمجمتي بضربة هراوة هناك بالذات. لقد قيل لي إن ميتشيمالونكو قد أمرهم بعدم المس بي، لأنه يريدني له. لكنها مجرد حكايات يخترعها الناس في ما بعد، لتفسير ما لا تفسير له. وفي هذه اللحظة اقترب رودريغو دي كيروغا وهو يلوح بسيفه كمروحة فوق رأسه ويصرخ بي أن أنجو بنفسي، بينما كان كلبي بلتسار يزمجر وينبح ويزم فمه كاشفاً عن أنيابه بضراوة لم تكن من طبعه في الأحوال العادية. اندفع المهاجمون هاربين يلحق بهم الكلب، وظللت

---

(1) اربيا arpia: كائن خرافي له وجه امراة وجسد طائر جارح.

أنا وسط فنائي وبين جثث حيواناتي، يغمرني الأسى. أمسك بي رودريغو من ذراعي ليجبرني على المضي معه، لكننا رأينا ديكاً محروق الريش يحاول النهوض. ودون تفكير في الأمر، رفعتُ ذيل ثوبي ووضعته فيه، كما في كيس. وأبعد قليلاً كانت هناك دجاجتان دائختان من الدخان، فلم أجد صعوبة في الإمساك بهما ووضعهما مع الديك. جاءت كاتالينا للبحث عني، وحين أدركت ما أفعله راحت تساعدني. وبتعاوننا معاً استطعنا إنقاذ تلك الطيور، وزوج خنازير ومقدار حفنتين من القمح فقط، ووضعنا كل ذلك في مكان محمي جيداً. وكان رودريغو والكاهن قد رجعا في أثناء ذلك إلى الساحة للقتال مع الآخرين.

كنا أنا وكاتالينا وبعض الهنديات الأخريات نعتني بالجرحى الذين يأتون بهم بأعداد مخيفة إلى المستشفى المرتجل في بيتي. جاءت إولاليا وهي تسند جندي مشاة يغطيه الدم من رأسه حتى قدميه. ففكرت: رباه، هذا لا نجاة له. ولكننا عندما نزعنا الخوذة عن رأسه، رأينا أنه مصاب بجرح عميق في جبهته، لكن العظم غير مكسور، وإنما غائر قليلاً وحسب. قامت كاتالينا ونساء أخريات بكي الجرح، وغسلن وجه المصاب وقدمن إليه ماء ليشرب، لكنهن لم يتمكنّ من استبقائه ليستريح ولو لحظة واحدة. فقد خرج إلى الساحة وهو يتعثر مشوشاً وشبه أعمى، إذ كان جفناه قد تورما بصورة رهيبة. وفي أثناء ذلك، كنت أحاول انتزاع سهم من عنق جندي آخر، اسمه لوبيث، كان يعاملني دوماً بازدراء يكاد لا يخفيه، لاسيما بعد مأساة إسكوبار. كان عاثر الحظ شاحباً، وقد انغرس السهم عميقاً بحيث لا يمكنني انتزاعه دون توسيع الجرح. وكنت أقدّر إذا ما كان بمقدوري الإقدام على تلك المجازفة عندما اختلج الرجل المسكين بحشرجات قوية. أدركتُ أنني لا أستطيع عمل أي شيء له، واستدعيت الكاهن الذي هرع مسرعاً ليقدم له المسحة الأخيرة. كان هناك كثير من الجرحى مطروحين على الأرض وليسوا في ظروف تتيح لهم العودة إلى الساحة؛ لابد أنهم عشرون

شخصاً على الأقل، معظمهم من الياناكونا. نفدت الضمادات، فمزقت كاتالينا الملاءات التي طرزناها بدقة خلال ليالي الكسل الشتائية، وكان علينا بعد ذلك أن نمزق التنانير إلى شرائط، وأخيراً فستاني الأنيق الوحيد. وفي تلك الأثناء دخل سانتشو ديلا أوث وهو يحمل جندياً آخر مغمى عليه، تركه عند قدميّ. توصلنا، أنا والخائن، إلى تبادل نظرة سريعة أظن أننا غفرنا بها عن إساءات الماضي. كانت صرخات الرجال الذين تُكوى جراحهم بالحديد المحمى والجمر، تختلط بصهيل الخيول، إذ كان السائس يعالج كيفما يستطيع الحيوانات الجريحة. وعلى الأرض الترابية المرصوصة، كان دم المسيحيين يختلط بدم البهائم.

أطل أغيرّي من الباب دون أن يترجل عن حصانه، يغطيه الدم من رأسه حتى مهمازيه، ليخبرنا بأنه أمر بإخلاء البيوت كلها، باستثناء تلك المحيطة بالساحة، حيث علينا أن ندافع عن أنفسنا حتى الرمق الأخير.

- ترجل أيها القائد لأعالج جراحك! - تمكنت من القول له صارخة.

- لستُ مصاباً بخدش واحد يا دونيا إنيس! احملوا ماء إلى الرجال في الساحة! - صرخ بزمجرة قوية، وانطلق منحنياً على حصانه الذي كان ينزف كذلك من إحدى خاصرتيه.

أمرت عدداً من النساء بحمل ماء وخبز ذرة إلى الجنود الذين يقاتلون دون راحة منذ الفجر، بينما رحت أنا وكاتالينا ننزع الدروع عن جثة لوبيث، وبالوضع الذي كانت عليه، ملطخة بالدم، ارتديت درع الزرد والخوذة. تناولت سيف لوبيث، لأنني لم أستطع العثور على سيفي، وخرجتُ إلى الساحة. كانت الشمس قد مالت عن سمتها منذ بعض الوقت، ولابد أن الساعة كانت حوالي الثالثة أو الرابعة بعد الظهر؛ وقدّرت أننا نقاتل منذ أكثر من عشر ساعات. ألقيت نظرة على ما حولي وأدركتُ أن سنتياغو تحترق دون خلاص، وأن عمل شهور طويلة آخذٌ بالضياع، إنها نهاية حلمنا في استيطان الوادي. وفي تلك الأثناء، كان مونروي وبيّاغرا قد انسحبا مع

من تبقى حياً من الجنود ليقاتلوا على صهوات الجياد داخل الساحة التي يدافع عنها رجالنا كتفاً إلى كتف، وتتعرض للهجوم من الجهات الأربع. لم يبق منتصباً سوى جزء من الكنيسة وبيت أغيرّي، حيث كنا نحتجز زعماء الهنود السبعة الأسرى. كان دون بينيتو، وقد اسوَّد لونه من البارود والهباب، يطلق النار من كرسيه بمنهجية. يسدد بدقة قبل أن يضغط على الزناد، كما لو أنه يتصيد طيور سمان. والياناكونا الذي كان يحشو له السلاح يقبع دون حراك عند قدميه وقد حلّت محله إولاليا. وأدركتُ أن الشابة كانت في الساحة طيلة الوقت كي لا يغيب عن نظرها حبيبها رودريغو.



وأعلى من دوي البارود، وصهيل الخيول، ونباح الكلاب، وجلبة المعركة، سمعتُ بوضوح أصوات الزعماء السبعة يحثون معشرهم بصرخات محتدة. لستُ أدري ما الذي أصابني عندئذ. كثيراً ما فكرتُ في ذلك الحادي عشر من أيلول في محاولة لفهم الأحداث، لكنني أظن أنه لا يمكن لأحد أن يصف بدقة ما جرى، فكل واحد من المشاركين لديه روايته المختلفة، حسب ما مرّ به من وقائع. كان الدخان كثيفاً، والاضطراب رهيباً، والصخب يصم الآذان. وكنا مشوشين، نقاتل للحفاظ على حياتنا، مجنونين بالدم والعنف. لا يمكنني أن أتذكر بالتفصيل ما فعلته في ذلك النهار، ولابد لي من الوثوق بما رواه آخرون. أتذكر، وهذا ما أنا متأكدة منه، أنني لم أشعر بالخوف في أي لحظة، لأن الغضب كان يملؤني بالكامل.

صوبتُ نظري نحو السجن الذي تتعالى منه صرخات الأسرى، وعلى الرغم من دخان الحرائق ميزت بكل وضوح زوجي، خوان دي مالفا، والذي كنتُ أفكر فيه منذ وجودي في كوسكو، مستنداً إلى الباب، ينظر إليّ بعينيه الكئيبتين كروح هائمة معذبة. أومأ لي بيده، كما لو أنه يدعوني.

شققتُ طريقي بين الجنود والخيول، مقدرة حجم الكارثة بجزء من ذهني ومنصاعة بالجزء الآخر لأمر زوجي المتوفى. لم يكن السجن سوى غرفة مرتجلة في الطابق الأول من بيت آغيرّي، والباب مؤلف من عدة ألواح خشبية مع عارضة تغلقه من الخارج، يحرسه جنديان شابان لديهما تعليمات بالدفاع حتى الموت عن الأسرى، لأنهم يمثلون الورقة الوحيدة في يدنا للتفاوض مع العدو. لم أتوقف لأطلب منهم الإذن، بل عمدت بكل بساطه إلى إزاحتهما جانباً بدفعة واحدة، ورفعت عارضة الباب الثقيلة بيد واحدة، يساعدني في ذلك خوان دي مالغا. لحق بي الحارسان إلى الداخل، دون نية في معارضتي، ودون أن يتصوروا ما هي نواياي. كان النور والدخان يدخلان من خلال الشقوق، وكان الهواء خانقاً، وغبار مائل إلى الحمرة يتصاعد من الأرض، مما جعل المشهد غائماً. لكنني استطعت رؤية الأسرى السبعة مقيدين إلى أعمدة ثخينة، كانوا ويجاهدون متململين كالشياطين بقدر ما تسمح لهم السلاسل الحديدية، ويصرخون بملء رئاتهم مستدعين رجالهم. عندما رأوني أدخل مع شبح خوان دي مالغا المسربل بالدم، صمتوا.

ـ اقتلوهم كلهم! ـ أمرت الحارسين بنبرة يستحيل التعرف فيها على صوتي.

سيطر الوجوم على الأسرى والحارسين على السواء.

ـ كيف نقتلهم يا سيدتي؟ إنهم رهائن لدى الحاكم!

ـ قلتُ اقتلوهم!

ـ وكيف تريدين منا أن نفعل ذلك؟ ـ سأل أحد الجنديين مذعوراً.

ـ هكذا!

ورفعتُ عندئذ السيف الثقيل بكلتا يدي، وهويتُ به بقوة الحقد على أقرب الزعماء مني، فقطعت عنقه بضربة واحدة. قوة الضربة أوقعتني جاثية على الأرض، حيث اندفعت دفقة من الدم إلى وجهي، بينما كان الرأس يتدحرج عند قدمي. أما ما تلا ذلك فلستُ أتذكره جيداً. أحد الحراس أكد

فـي ما بعد أنني قطعت بالطريقة نفسها رؤوس ستة الأسـرى الآخـرين، لكـن الحارس الآخر قال إن الأمر لم يكن كذلك، وأنه هـو ورفيقه من أكملا المهمـة. لـيس مهمـاً. وليسـامحني الـرب. أمسـكت أحـد الـرؤوس مـن شـعره، وخرجتُ به إلى الساحة بخطوات مارد، ارتقيت أكياس رمل المتراس وطوحت بغنيمتي الرهيبة في الهواء بقوة غير عادية. تعالت صـرخةٌ غاضبة من أعماق الأرض، واخترقت جسـدي كلـه لتنفلت مدويـة كالرعـد مـن صـدري. طـار الرأس متقلباً فـي الفضـاء، وهـوى علـى الأرض وسط جمع الهنود. لم أتوقـف لأرى مفعول ذلك، بل رجعت إلى السجن، وتناولت رأسين آخرين وألقيت بهما فـي الجهـة المقابلة من السـاحة. ويبـدو لـي أن الحارسـين أحضـرا لـي الـرؤوس الأربعة المتبقية، لكنني لستُ متأكدة من هذا الأمر أيضاً، فربما أكون أنـا نفسـي مـن ذهبت وأحضـرتها. مـا أتـذكـره فقط هـو أن ذراعـي لم يخني فـي رمي الرؤوس بقوة فـي الفضـاء. وقبل أن أنتهـي مـن إلقـاء الـرأس الأخـير، خـيم صمت غريب على الساحة. توقف الزمن، انقشع الدخان، ورأينـا الهنـود الـذين أصـابهم الـبكم، وسـيطر علـيهم الخـوف، وقـد بـدؤوا بـالتقهقر. خطـوة، خطوتين، ثـلاث خطـوات، ثـم تـدافعوا خـارجين من السـاحة ركضـاً، وأخلـوا الشوارع التي كانوا قد سيطروا عليها.

مرّ زمن لانهائي، أو ربمـا لحظـة واحـدة. انقـض علـيّ الغـم دفعـة واحـدة، وتحولـت عظـامي إلى زبـد، عندئـذ اسـتيقظتُ مـن الكـابوس وتمكنـت مـن إدراك الفظاعة التي اقترفتها. رأيت نفسـي مثلمـا يرانـي النـاس المحيطـون بـي: شـيطاناً منفـوش الشـعر، تغطيـه الـدماء، وفاقـد الصـوت مـن كثـرة الصـراخ. تراخـت ركبتـاي، أحسسـت بـذراع يطـوق خصـري، وبرودريغـو يـرفعني عـن الأرض، ويشـدني إلى صلابة درعه ويقتادني عبر السـاحة، وسـط أعمق ذهـول صامت.

❖ ❖ ❖

نجت سنتياغو دي إستريمادورا الجديدة، وإن لم تعد سوى أخشاب محروقة وحطام. لم يبق من الكنيسة إلا بعض الأعمدة؛ ومن بيتي، أربعة جدران يغطيها السواد؛ وكان بيت أغيرّي لا يزال منتصباً وسليماً تقريباً، وما سوى ذلك رماد وحسب. كنا قد فقدنا أربعة جنود، وكان الآخرون جميعهم جرحى، جراح بعضهم حرجة. ومات معظم الياناكونا في المعركة، وقضى خمسة منهم نحبهم في الأيام التالية نتيجة الالتهابات والنزف. وخرج الأطفال والنساء سالمين لأن المهاجمين لم يكتشفوا مكان الكهف الذي اختبأت فيه سيسيليا. لم أحصِ خسائرنا من الخيول والكلاب، أما الحيوانات الداجنة فلم يبق منها سوى الديك والدجاجتين وزوج الخنازير التي أنقذتها مع كاتالينا. ومن البذور لم يبق شيء يذكر... أربع حفنات من القمح وحسب.

ظن رودريغو دي كيروغا، مثلما ظن الآخرون، أنني قد أصبتُ بجنون لا شفاء منه خلال المعركة. حملني بين ذراعيه حتى أطلال بيتي، حيث كانت العيادة المرتجلة لا تزال تعمل، ووضعني بحذر على الأرض. كانت تبدو عليه ملامح الحزن والإنهاك الشديد عندما ودّعني بقبلة خفيفة على جبهتي ورجع إلى الساحة. نزعت عني كاتالينا وامرأة أخرى الخوذة الحديدية ودرع الزرد والثوب المبلل بالدم بحثاً عن الجراح التي لم أُصب بأي منها. نظفتاني كيفما استطاعتا بالماء وليفة من وبر عُرف الخيل، إذ لم تبق هناك خرق قماشية، وأجبرتاني على شرب نصف فنجان من الخمر. تقيأتُ سائلاً مائلاً إلى الحمرة، كما لو أنني كنت قد ابتلعت كذلك دماً من الآخرين.

ضجيج ساعات المعركة الطويلة استُبدل بصمت شبحي. كان الرجال عاجزين عن الحركة، فتهاووا في أماكنهم وظلوا حيث هم، مضمخين بالدم، يغطيهم الهباب والغبار والرماد، إلى أن خرجت النساء لتقديم الماء لهم، وخلع الدروع عنهم، ومساعدتهم على النهوض. جاب الكاهن الساحة ليرسم علامة الصليب على جباه الموتى ويُطبق عيونهم، ثم حمل الجرحى، واحداً فواحداً، على كاهله وأوصلهم إلى العيادة. أما حصان فرانثيسكو

أغيرّي الأصيل، والمصاب بجرح بالغ، فظل منتصباً على قوائمه المرتعشة، بقوة الإرادة وحدها، إلى أن تمكنت عدة نساء من إنزال الفارس عنه؛ وعندئذ طأطأ رأسه ومات قبل أن يسقط أرضاً. كان أغيرّي مصاباً بعدة جروح سطحية، وكان متشنجاً وجسمه متيبس بطريقة لم يكن بالإمكان معها نزع الدروع عنه، ولا حتى أسلحته، فكان لابد من تركه في أحد الأركان لأكثر من نصف ساعة، إلى أن تمكن من استعادة القدرة على الحركة. وقد اضطر الحداد بعد ذلك إلى قص الحربة بمنشار من طرفيها لانتزاعها من يده المشدودة عليها، وتعاونت مع جماعة من النساء على خلع دروعه. كانت مهمة شاقة، بسبب ضخامته ولأنه كان لا يزال متيبساً كتمثال من البرونز. أما مونروي وبيّاغرا اللذان كانا أفضل حالاً من القادة الآخرين، ومتأججين بحماسة المنازلة، فخطرت لهما الفكرة الغريبة في جمع بعض الجنود لمطاردة الهنود الهاربين بفوضى، لكنهما لم يجدا حصاناً قادراً على التقدم خطوة واحدة ولا جندياً واحداً غير مصاب بجرح على الأقل.

كان خوان غوميث قد حارب كأسد وهو يفكر طوال اليوم بسيسيليا وابنه المدفونين في قبو بيتي، وما إن انتهت المعركة حتى هرع لفتح المغارة. راح يرفع التراب بيديه يائساً، لأنه لم يعثر على أي رفش، إذ حمل المهاجمون كل ما هو متوفر من الرفوش. انتزع الألواح الخشبية بقوة، وفتح القبر وأطل على هوة سوداء وساكنة.

- سيسيليا، سيسيليا! - صرخ مرتعباً.

عندئذ ردّ عليه صوت امرأته الواضح من القاع:

- ها أنتذا قد جئت أخيراً يا خوان، لقد بدأنا نشعر بالضجر.

كانت النساء الثلاث والأطفال قد ظلوا على قيد الحياة طيلة أكثر من اثنتي عشرة ساعة تحت الأرض، في ظلام دامس، مع قليل من الهواء، وبلا ماء، ودون معرفة ما الذي يحدث في الخارج. كانت سيسيليا قد حددت

للمرضعتين مهمة تقديم حليبهما للأطفال بالتناوب خلال النهار كله، بينما حملت هي فأساً، وتأهبت للدفاع عنهم. لم تمتلئ المغارة بالدخان بفضل سيدتنا عذراء الرحمة، أو ربما لأنها أُغلقت بإحكام برفوش التراب التي حاول خوان غوميث أن يموه بها المدخل.

قرر مونروي وبيّاغرا أن يوفدا، في تلك الليلة بالذات، رسولاً لإخبار بيدرو دي بالديبيا بالكارثة. لكن سيسيليا التي خرجت من القبو وقورة وجميلة كعادتها، رأت أنه لا يمكن لأي مراسل أن يخرج من مثل تلك المهمة حياً؛ فالوادي يعج بالهنود المعادين. لكن القادة غير المعتادين على سماع أصوات نسائية، تجاهلوا كلامها. فتدخل خوان غوميث قائلاً:

ـ أرجو من سعادتكم أن تستمعوا إلى زوجتي. فشبكة معلوماتها كانت مفيدة لنا على الدوام.

ـ وما الذي تقترحينه يا دونيا سيسيليا؟ ـ سألها رودريغو دي كيروغا الذي كنا قد عالجنا بالكيّ جرحين أصيب بهما. وكان منهوكاً من التعب وفقدان الدم.

ـ لا يمكن لرجل أن يجتاز خطوط الأعداء...

فقاطعها بيّاغرا ساخراً:

ـ أتقترحين علينا أن نرسل حمامة زاجلة إذاً؟

ـ بل نساء. ليس امرأة واحدة، بل عدة نساء. أعرف الكثير من نساء الكيتشوا في الوادي، وهن سينقلن الخبر شفاهاً من واحدة إلى أخرى حتى يصل إلى الحاكم، وبأسرع من مئة حمامة طائرة ـ أكدت أميرة الإنكا.

ولأنه لم يكن هناك متسع من الوقت للمجادلات الطويلة، فقد تقرر إرسال الرسالة بالوسيلتين: الطريقة التي اقترحتها سيسيليا، وإرسال هندي ياناكونا رشيق مثل أرنب، سيحاول اجتياز الوادي ليلاً والوصول إلى بالديبيا. ويؤسفني أن أقول إن ذلك الخادم الوفيّ قد وقع في قبضة الأعداء عند الفجر وقُتل بضربة هراوة. ومن الأفضل عدم التفكير في مصيره لو أنه وقع

بين يدي ميتشمالونكو؛ فلابد أن الزعيم غاضب من الفشل الذي لحق بقواته، ولا يجد طريقة يفسر بها للمابوتشي الجامحين في الجنوب كيف أمكن لحفنة من الملتحين أن يهزموا ثمانية آلاف محارب. ولا يمكنه أن يأتي لهم على ذكر ساحرة تلقي رؤوس الزعماء في الفضاء كما لو أنها بطيخ. سيعتبرونه جباناً، وهو أسوأ ما يمكن أن يقال لمحارب، ولن يدخل اسمه في الملحمة التقليدية المنظومة التي تتداولها القبائل شفاهاً، إلا بسخرية خبيثة منه. أما طريقة سيسيليا فنجحت في إيصال الرسالة إلى الحاكم خلال ست وعشرين ساعة. فقد طار الخبر من دسكرة إلى أخرى على طول الوادي وعرضه، واجتاز الغابات والجبال، ووصل إلى بالديبيا الذي كان يمضي من مكان إلى آخر باحثاً دون جدوى عن ميتشيمالونكو، دون أن يدرك بعد أنه قد خُدع.

بعد أن جاب رودريغو دي كيروغا أطلال سنتياغو، وقدّم إلى مونروي بياناً بالخسائر، جاء لرؤيتي. وبدلاً من الغاضبة المخبولة التي تركها في العيادة قبل قليل، وجدني نظيفة إلى هذا الحد أو ذاك، وعاقلة متماسكة كما هي عادتي، أتابع علاج جرحى كثيرين.

ـ دونيا إنيس... حمداً للرب... ـ تلعثم وهو يوشك على البكاء من الإجهاد.

فأجبته:

ـ اخلع دروعك يا دون رودريغو كي نعالج جراحك.

ـ ظننتُ أنك... رباه! أنتِ أنقذت المدينة يا دونيا إنيس. أنت من جعلت المتوحشين يهربون...

ـ لا تقل هذا، ففيه ظلم لهؤلاء الرجال الذين قاتلوا بشجاعة، وللنساء اللاتي ساعدنهم.

ـ الرؤوس... يقال إن الرؤوس جميعها سقطت ناظرة إلى الهنود، فاعتقدوا أنها نذير شؤم، ولهذا تراجعوا هاربين.

ـ لا أدري عمّ تتكلم يا دون رودريغو. إنك مخطئ جداً. هيا يا كاتالينا، ساعديه على خلع دروعه يا امرأة.



استطعت خلال تلك الساعات أن أزن أفعالي. لقد عملت دون كلل طيلة الليلة الأولى وصباح اليوم التالي في علاج الجرحى ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من البيوت المحروقة، غير أن شطراً من ذهني كان يقيم حواراً متواصلاً مع السيدة العذراء، طالباً منها أن تتدخل من أجل غفران الجريمة المقترفة، والشطر الآخر منه مع بيدرو. كنت أفضل عدم تخيل ردّ فعله عندما سيرى سنتياغو مدمرة، ويعرف أنه لم يعد يملك رهائنه السبعة، وأننا تحت رحمة المتوحشين دون أن يكون لدينا شيء للتفاوض معهم عليه. كيف سأفسر له ما فعلته، إذا كنت أنا نفسي غير قادرة على فهمه؟ أقول له إنني أصبت بالجنون ولست أذكر جيداً ما حدث، سيكون عذراً سخيفاً؛ كما أنني كنت أشعر بالخجل من المشهد الفظ الذي بدوت به أمام ضباطه وجنوده. وأخيراً، في حوالي الساعة الثانية من بعد ظهر الثاني عشر من أيلول، غلبني الإنهاك واستطعتُ النوم بضع ساعات مستلقية على الأرض إلى جانب بلتسار الذي كان قد رجع يجرجر نفسه عند الفجر، والدم يلطخ شدقية، وإحدى قوائمه مكسورة. مرّت عليّ الأيام الثلاثة التالية كأنها لحظة عابرة، كنتُ أعمل مع الآخرين لإزالة الأنقاض، وإطفاء الحرائق، وتعزيز الساحة، وهي المكان الوحيد الذي يمكننا الدفاع فيه عن أنفسنا في مواجهة هجوم آخر، وكنا نتوقع حدوث هذا الهجوم فوراً. كما رحنا، أنا وكاتالينا، ننبش الأثلام المحروقة والرماد في الأرض المزروعة بحثاً عن أي شيء يؤكل لإضافته إلى الحساء. وبعد أن استنفدنا حصان أغيرّي الميت، لم يبق لدينا إلا القليل من الأطعمة؛ لقد عدنا إلى أزمنة القدر المشتركة، والفرق الوحيد أن هذه القدر صارت تقتصر على الماء والأعشاب وبعض الدرنات التي نستخرجها من الأرض.

في اليوم الرابع وصل بيدرو دي بالديبيا مع مفرزة من أربعة عشر فارساً، بينما لحق بهم المشاة بأقصى ما يستطيعون من سرعة. دخل الحاكم ممتطياً صهوة حصانه سلطان إلى الأنقاض التي كنا نسميها مدينة، وقدر بنظرة واحدة حجم الكارثة. مرّ في الشوارع، حيث مازالت تتصاعد أعمدة خفيفة من الدخان مشيرة إلى مواقع البيوت القديمة، ودخل إلى الساحة ووجد القلة المتبقية من الأهالي ذوي الأسمال، الجائعين، الخائفين، والجرحى المطروحين على الأرض بضمادات متسخة، وضباطه المهلهلين مثل أشد الياناكونا بؤساً، منهمكين في نجدة الناس. نفخ أحد الحراس في البوق؛ وبجهد هائل، نهض من هم قادرون على النهوض واصطفوا لتحية القائد العام. بقيتُ أنا في الخلف، شبه مختفية وراء بعض أقمشة الخيام. ومن هناك رأيتُ بيدرو، فطفرت روحي بارتعاشة حب وحزن وإنهاك. ترجل عن جواده في منتصف الساحة، وقبل أن يعانق أصدقاءه، جال بنظره على الخراب، بوجه شاحب، بحثاً عني. تقدمتُ خطوة إلى الأمام، كي أريه أنني مازلت على قيد الحياة. تلاقت نظراتنا، وعندئذ تبدلت ملامحه ولون وجهه. وبذلك الصوت الذي ينم عن العقلانية والسلطة، ولا يمكن لأحد مقاومته، توجه إلى الجنود ليثني على شجاعة كل واحد منهم، وخاصة من سقطوا قتلى وهم يقاتلون، وليقدم الشكر للقديس سنتياغو الذي أنقذ بقية الناس. لا أهمية للمدينة، لأن هناك أيدي وقلوباً قوية لإعادة إعمارها من الرماد. علينا أن نبدأ من جديد، قال، لكن هذا ليس سبباً للقنوط واليأس، وإنما هو مبعث حماسة للإسبان الشجعان الذين لا يعترفون بالهزيمة أبداً، ولليناكونا الأوفياء. وهتف وهو يرفع سيفه عالياً: «القديس سنتياغو، ولتتكاتف إسبانيا»، وردّ عليه رجاله جميعهم بصوت منضبط: «القديس سنتياغو، ولتتكاتف إسبانيا»، غير أن نبرة من اليأس ظهرت في أصواتهم.

في الليل، وبينما نحن مستلقيان على الأرض، لا دثار لدينا سوى بطانية متسخة، وقطعة من قماش الخيام فوق رأسينا، انفجرتُ في البكاء من

الإجهاد بين ذراعي بيدرو. كان هو قد سمع عدة روايات عن المعركة وعن دوري فيها، وخلافاً لما كنت أخشاه، أعرب عن اعتزازه بي، مثلما يعتز بي، كما قال، كل جندي في سنتياغو؛ فلولا ما أقدمت عليه، للقي الجميع مصيرهم المحتوم. لم يخامرني الشك في أن الرواية التي قدموها إليه كانت مبالغاً فيها، وهكذا شاعت أسطورة أنني أنا من أنقذت المدينة. «هل صحيح أنك قطعت بنفسك رؤوس الزعماء السبعة؟»، هذا ما كان قد سألني عنه بيدرو فور التقائنا على انفراد. فأجبته بنزاهة: «لستُ أدري». لم يكن بيدرو قد رآني أبكي من قبل قط، فأنا امرأة عصية الدمع، لكنه لم يحاول مواساتي في هذه المرة الأولى، اكتفى بمداعبتي بعذوبة ساهية يستخدمها معي في بعض الأحيان. كان بروفيل وجهه كأنه منحوت من حجر، وفمه صلب، ونظرته مصوبة إلى السماء.

ـ إنني خائفة جداً يا بيدرو ـ قلت منتحبة.

ـ من الموت؟

ـ من كل شيء ما عدا الموت، لأن سنوات طويلة مازالت أمامي لبلوغ الشيخوخة.

ضحك بجفاء من النكتة التي اعتدنا تبادلها بأنني سأدفن عدة أزواج، وسأبقى على الدوام أرملة مشتهاة.

ـ الرجال يريدون العودة إلى البيرو، وإن لم يجرؤ أي منهم على قول ذلك حتى الآن، كي لا يبدو جباناً. فهم يشعرون بأنهم مهزومون.

ـ وأنت، ماذا تريد يا بيدرو؟

ـ تأسيس تشيلي معك ـ أجاب دون أن يفكر في الأمر مرتين.

ـ هذا ما سنفعله إذاً.

ـ هذا ما سنفعله يا إنيس روحي...

ذاكرتي حول الماضي البعيد بالغة التوقد، ويمكنني أن أروي خطوة فخطوة تفاصيل ما جرى خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأولى من استيطاننا

تشيلي، غير أنه لم يعد لدي متسع من الوقت، لأن المنية، هذه الأم الطيبة، تناديني وتريد مني أن أتبعها، كي أستريح أخيراً بين ذراعي رودريغو. أشباح الماضي تحيط بي. خوان دي مالغا، بيدرو دي بالديبيا، كاتالينا، سيباستيان روميرو، أمي وجدتي المدفونتان في بلاسينثيا، وأشباح كثيرة أخرى، تكتسب أشكالاً أكثر فأكثر رسوخاً، وأسمع أصواتها تهمس في ردهات بيتي. لابد أن الزعماء القبليين السبعة يستقرون نهائياً في السماء أو في الجحيم، لأنهم لم يأتوا قط لتعذيبي. لست خرفة، مثلما يحدث للمسنين عادة، فأنا لا أزال قوية، ورأسي ثابت بين كتفي، لكنني أضع إحدى قدمي في الجانب الآخر من الحياة، ولهذا أرى وأسمع ما لا ينتبه إليه الآخرون. أنت تقلقين يا إيزابيل عندما أتكلم هكذا؛ وتنصحينني بأن أصلي، فالصلاة تطمئن الروح كما تقولين. روحي مطمئنة، ولستُ خائفة من الموت، بل لم أخفه قط، حتى عندما كان الخوف منه معقولاً، فما بالك الآن، وقد عشتُ زيادة على ما ينبغي أن أعيشه. أنتِ وحدك ما يستبقيني في هذه الدنيا. وأعترف لك بأنني لا أشعر بأي فضول لرؤية أحفادي يكبرون ويعانون، أُفضِّل أن أحمل معي ذكرى ضحكاتهم الطفولية. إنني أصلي بحكم العادة، وليس كعلاج للغم. لم ينقصني الإيمان قط، لكن علاقتي بالرب راحت تتبدل مع مرور السنوات. فأحياناً، ودون تفكير، أدعوه نغينيتشين، وأخلط بين عذراء الرحمة والأرض الأم المقدسة في معتقدات المابوتشي، لكنني لستُ أقل كاثوليكية مما كنت عليه في السابق ـ فلينجني الرب!ـ، وكل ما هناك هو أن مسيحيتي قد توسعت قليلاً، مثلما يحدث للملابس الصوفية عندما تُستخدم طويلاً. لم تبق لي إلا أسابيع قليلة في الحياة، أعرف ذلك لأن قلبي ينسى أن ينبض أحياناً، فأصاب بدوار، وأسقط أرضاً وأفقد الشهية. ليس صحيحاً أنني أحاول إماتة نفسي جوعاً لمجرد مضايقتك، مثلما تتهمينني يا بنتي، وإنما لأنني أجد للطعام مذاق الطحين، ولا أستطيع ابتلاعه، لهذا أكتفي برشفات من الحليب. لقد هزلتُ

جداً، أبدو مثل هيكل عظمي يغطيه الجلد، كما في أزمنة المجاعة، والفرق الوحيد هو أنني كنت شابة آنذاك. العجوز الهزيلة مثيرة للشفقة، لقد صارت أذناي كبيرتين جداً، ويمكن لنسمة خفيفة أن تطرحني أرضاً على وجهي. يمكن لي أن أخرج محلقة في أي لحظة. لابد لي من اختصار هذه القصة، وإلا فإن موتى كثيرين سيظلون حبيسي دواة الحبر. موتى، جميع رجال غرامياتي صاروا من الموتى، وهذا هو ثمن العيش طويلاً مثلما عشت.

الفصل الخامس

السنوات المأساوية، 1543 -1549

بعد تدمير سنتياغو، اجتمع المجلس ليقرر مصير جاليتنا الصغيرة المهددة بالفناء. وقبل أن تتغلب فكرة الرجوع إلى كوسكو التي تدعمها الأكثرية، فرض بيدرو دي بالديبيا هيبة سلطته، وأرفقها بسلسلة من الوعود التي يصعب تحقيقها ليتوصل إلى جعلنا نبقى. وقرر أن أول ما يتوجب عمله هو طلب النجدة من البيرو، وبعد ذلك تحصين سنتياغو بسور قادر على صدّ الأعداء، كأسوار المدن الأوربية. وأكد أن الأمور الأخرى ستُحل تباعاً، وأنه يتوجب علينا الإيمان بالمستقبل، وأنه سيكون هناك ذهب، وفضة، ومنحُ أراضٍ، وتوزيع هنود للعمل فيها. هنود؟ لا أدري عن أي هنود كان يتكلم، لأن الهنود التشيليين لم يُظهروا أي إشارة تدل على إذعانهم.

أصدر بيدرو أوامره إلى رودريغو دي كيروغا بأن يجمع الذهب المتوفر، ابتداء من قطع النقد القليلة التي ادخرها بعض الجنود خلال حياتهم ويخبئونها في أحذيتهم، وحتى الديك الذهبي الوحيد في الكنيسة، والمقدار الضئيل المستخرج من منجم الفسل في مارغا ـ مارغا. قدم كل ذلك للحداد، فقام بصهره وصنع منه درعاً كاملاً لفارس، وشكيمة لجام وركابين للفرس، ومهمازين وزخارف للسيف. ومزيناً بكل هذا الذهب الخالص، من أجل إبهار الناس وجذبهم إلى تشيلي، جرى إرسال القائد الشجاع ألونسو دي مونروي إلى البيرو، عبر طريق الصحراء، مع خمسة جنود وستة الأحصنة الوحيدة غير الجريحة أو بارزة العظام. باركهم الكاهن

غونثالث دي مارموليخو، ورافقناهم لمرحلة من الطريق، ثم ودّعناهم بأسى، لأننا لم نكن نعرف إذا ما كنا سنراهم ثانية.

لقد بدأت بالنسبة إلينا سنوات بؤس قاسية، أرغب في عدم تذكرها، مثلما أرغب في نسيان موت بيدرو دي بالديبيا، لكننا لا نستطيع التحكم بالذاكرة ولا بالكوابيس. كانت قوة من الجنود تتناوب الحراسة في النهار والليل، بينما تحول الآخرون إلى زُراع وبنائين، يزرعون الأرض، ويعيدون بناء البيوت، ويرفعون السور عالياً لحماية المدينة. وكنا نحن النساء نعمل جنباً إلى جنب مع الجنود والياناكونا. كان لدينا القليل من الملابس، لأن معظمها تلف في الحريق؛ فكان الرجال يمضون بإزار يغطي وسطهم، مثل المتوحشين، ونسيت النساء الخفر وصرن يتجولن بالقمصان. كان هذان الشتاءان شديدي القسوة، وأصيب الجميع بالمرض، باستثنائي أنا وكاتالينا، لأن لنا جلد بغلة، مثلما كان يقول غونثالث دي مارموليخو بإعجاب. ولم تكن لدينا أطعمة، باستثناء بعض الأشياء البرية في الوادي: صنوبر، ثمار ذات مذاق مرّ، جذور، يأكلها البشر والخيول وبهائم الحظائر على السواء. أما حفنات البذور التي نجت من الحريق فاستُخدمت بذاراً، وفي العام التالي حصلنا منها على عدة مكاييل من القمح، زُرعت بدورها، بحيث لم نستطع صنع الخبز إلا في السنة الثالثة. الخبز، غذاء الروح، كم كنا نفتقده! وعندما لم يعد لدينا ما يثير اهتمام الكوراكا بيتاكورا للمقايضة، أدار لنا ظهره وافتقدنا أكياس الذرة والفاصولياء التي كنا نحصل عليها منه في السابق بالحسنى. فصار على الجنود القيام بغزوات على القرى لسرقة الحبوب، والطيور، والبطانيات، وكل ما يجدونه، مثل قطاع الطريق. أعتقد أن معشر بيتاكورا من الكيتشوا لم يفتقدوا الحاجيات الضرورية، أما الهنود التشيليون فأتلفوا زرعهم بأنفسهم، وصمموا على الموت جوعاً إذا كان ذلك يقضي علينا. وبضغط المجاعة، راح سكان القرى يتفرقون باتجاه الجنوب. والوادي الذي كان يعج بالنشاط من قبل، أقفر من

الأسر، ولكن ليس من المحاربين. فميتشيمالونكو وقواته لم يتوقفوا عن مضايقتنا، وكانوا جاهزين دوماً لمهاجمتنا بسرعة البرق والاختفاء فوراً في الغابات. كانوا يحرقون زرعنا، ويقتلون ماشيتنا، وينقضون علينا إذا ما خرجنا دون حماية مسلحة، بحيث صرنا سجناء ضمن أسوار سنتياغو. لا أدري كيف كان ميتشيمالونكو يُطعم رجاله، لأن الهنود توقفوا عن الزراعة. «إنهم يكتفون بأكل القليل، يمكنهم قضاء شهور ببضع حفنات من الصنوبر»، هذا ما أخبرني به فيليب، الصبي المابوتشي، وأضاف أن المحاربين يحملون جراباً معلقاً إلى أعناقهم، فيه حفنة من حبوب الصنوبر المحمصة، يستطيعون العيش عليها لأسبوع.

بعناده وتفاؤله المعهودين اللذين لا يضعفان أبداً، كان الحاكم يجبر الناس خائري القوى والمرضى على فلاحة الأرض، وصنع الطوب، وبناء السور المحصن، وحفر الخندق حول المدينة، والتدرب على القتال وألف عمل آخر، مؤكداً أن الكسل يزيد من تحطيم معنويات الإنسان. وهذا صحيح. فليس بيننا من كان سينجو من القنوط لو أتيح له الوقت للتفكير في مصيره، غير أنه لم يكن لدينا متسع لذلك، فالانهماك في العمل كان يتواصل منذ الفجر حتى ساعة متقدمة من الليل. وإذا ما توفر لنا بعض الوقت، نصلي، بحيث لا يكون لدينا فائض منه على الإطلاق. وطوبة فطوبة راح يعلو سور بارتفاع قامتين حول سنتياغو؛ وبلوح من الخشب بعد آخر، انتصبت الكنيسة والبيوت. وغرزة فغرزة، كنت أنا والنساء نرفو ونرقع الأسمال التي لم نعد نغسلها كي لا تتفكك خيوطها في الماء. ولم نكن نرتدي الملابس اللائقة إلى هذا الحد أو ذاك، إلا في المناسبات الخاصة جداً. وقد كانت هذه المناسبات موجودة أيضاً، فليس كل شيء حسرات وحسب. كنا نحتفل بالأعياد الدينية، وحفلات الزفاف، وطقوس التعميد أحياناً. من المحزن رؤية وجوه الأهالي الكئيبة، محاجر عيونهم الغائرة، أيديهم المتحولة إلى ما يشبه المخالب، واليأس المسيطر عليهم. لقد هزلتُ كثيراً، حتى إنني حين أستلقي

على ظهري في الفراش، تبرز عظام ردفي، وأضلاعي، وعظمي الترقوة، وأتمكن من تحسس أعضاء جسمي الداخلية التي لا يكاد يغطيها سوى الجلد. تصلبتُ من الخارج، جف جسدي، لكنّ قلبي ازداد ليناً. كنت أشعر بحب أمومي نحو أولئك الناس المنكوبين، وأحلم بثدييّ مترعين بحليب يُشبعهم جميعهم. وجاء يوم نسيتُ فيه المجاعة، واعتدتُ ذلك الإحساس بالخواء والخفة الذي يصيبني بالهلوسة أحياناً. لم تكن تظهر لي، في لحظات الهلوسة تلك، خنازير كاملة مشوية ومزينة بتفاحة في فمها وجزرة في مؤخرتها، مثلما يحدث لبعض الجنود الذين لا يتكلمون عن شيء آخر، بل كنتُ أرى مشاهد غائمة يكتنفها الضباب، ويجوبها الموتى. خطر لي مداراة البؤس بالتشدد في النظافة، نظراً لوجود المياه بوفرة. بدأت صراعاً ضد القمل والبراغيث والوساخة، لكن ذلك أدى إلى بدء اختفاء الجرذان والصراصير وحشرات أخرى تنفع في الحساء؛ عندئذ تخلينا عن استخدام الصابون والدعك.

الجوع شيء غريب، إنه يقضي على الطاقة، ويجعلنا بطيئين وكئيبين، لكنه يُفتّح الذهن ويحفز الشبق. فالرجال الذين صاروا إلى هياكل عظمية شبه عارية تثير الشفقة، واصلوا ملاحقة النساء، وهن المتضورات جوعاً كنّ يحبلن. لقد ولد خلال المجاعة عدد من الأطفال في المستوطنة، لكن معظمهم لم يستطيعوا البقاء على قيد الحياة. كما مات في هذين الشتائين عدد من الأطفال الذين كانوا لدينا في البدء، ومن ظل منهم حياً كان بارز العظام، منتفخ البطن، له عينا عجوز هرم. إعداد الحساء المشترك الهزيل للإسبان والهنود صار تحدياً أشد وطأة من الهجمات المفاجئة التي يشنها ميتشيمالونكو. كنا نغلي الماء في قدور كبيرة، مع أعشاب مما هو متوفر في الوادي - إكليل الجبل، غار، بولدو، مايتين - ثم نضيف إليه ما نجده لدينا: حفنة من الذرة أو الفاصولياء من مؤونتنا الاحتياطية التي كانت تتناقص بسرعة كبيرة، بعض البطاطا أو درنات الغابة، وأي نوع آخر من العلف: جذور، جرذان، سحالي، جداجد، ديدان. وبأمر من خوان غوميث،

المأمور القضائي في مدينتنا الصغيرة، كان تحت تصرفي جنديان مسلحان في الليل والنهار لمنع سرقة المؤن القليلة الموجودة في القبو والمطبخ، ومع ذلك كانت تختفي حفنات من الذرة أو بعض البطاطا. كنتُ أصاب بالبكم حيال هذه السرقات المحزنة، لأن غوميث سيعمد إلى معاقبة الخدم بالجلد، ولن يؤدي ذلك إلا إلى زيادة وضعنا سوءاً. لقد كان لدينا ما يكفي من المعاناة، ولا حاجة بنا إلى إضافة المزيد. كنا نخدع المعدة بمغلي النعناع، والزيزفون. وإذا ما مات حيوان داجن، نستخدم الجيفة بكاملها: بالجلد نستر أبداننا، ويُستخدم الشحم في صنع الشموع، وندخّن اللحم لحفظه، وتذهب الأحشاء إلى قدور الطبخ، والأظلاف لصنع أدوات للعمل. أما العظام فتستخدم لمنح مذاق للحساء، فتُغلى مرة بعد أخرى، إلى أن تذوب في المرق كما الرماد. كنا نغلي قطعاً من الجلود الجافة ليمصها الأطفال في خداع للجوع. الجراء التي ولدت في تلك السنة انتهت إلى القدور فور فطامها، لأننا لا نستطيع إطعام مزيد من الكلاب، لكننا بذلنا كل جهدنا في الإبقاء على حياة الكلاب الأخرى، لأنها تشكل خط الهجوم الأول ضد السكان الأصليين، وهكذا نجا كلبي الوفي بلتسار.

كان فيليب يتمتع بدقة خلقية في الرماية، فحيث يضع عينه يصل السهم، وهو مستعد على الدوام للخروج إلى الصيد. صنع له الحداد سهاماً حرابها من الحديد، أشد فعالية من حجارته المشحوذة، وكان الصبي يعود من جولاته بأرانب برية أو عصافير، وحتى بقطٍ بريّ من الجبل في بعض الأحيان. كان الوحيد الذي يتجرأ على الخروج وحيداً إلى المناطق المحيطة، متكيفاً مع الغابة، وغير مرئي للعدو. أما الجنود فيخرجون في جماعات، فلا يتمكنون بخروجهم هذا من اصطياد فيل، إذا ما كان للأفيال وجود في العالم الجديد. وبالطريقة نفسها، وفي تحرز للخطر، كان فيليب يأتي بحزم كبيرة من العلف للحيوانات، وبفضله استطاعت الخيول البقاء منتصبة على قوائمها، رغم هزالها.

يخجلني رواية ذلك، لكن الشكوك تخامرني بأنه كانت هناك في بعض المناسبات حالات أكل لحم بشري بين هنود اليانا كونا، وكذلك بين بعض رجالنا اليائسين، مثلما حدث بعد ثلاثة عشر عاماً بين هنود المابوتشي، عندما امتدت المجاعة إلى بقية الأراضي التشيلية. وقد استغل الإسبان ذلك مبرراً لإخضاعهم، وتحضيرهم وتنصيرهم، إذ لم يكن هناك دليل على الهمجية أكبر من أكل اللحم البشري؛ ولكن المابوتشي لم يفعلوا ذلك قط قبل مجيئنا. لقد كانوا في بعض الحالات، وهي نادرة جداً، يلتهمون قلب العدو لاكتساب قوته وسطوته، ولكنه كان طقساً وليس عادة شائعة. لقد تسببت الحرب الأروكانية بانتشار المجاعة. لم يكن باستطاعة أحد زراعة الأرض، لأن أول ما كان يفعله الهنود والإسبان على السواء، هو حرق زرع الفريق الآخر وقتل ماشيته، وبعد ذلك جاء الجفاف و*الشيفالونفو* أو التيفوس الذي تسبب في وفيات مهولة. وكانت العقوبة الأعظم في جائحة الضفادع التي سممت الأرض بلعاب نتن. في هذه الفترة الرهيبة، كان الإسبان، وقد صاروا قلة قليلة، يقتاتون على ما يتنازعون عليه مع المابوتشي؛ لكن هؤلاء كانوا آلافاً مؤلفة، يهيمون على وجوههم في الحقول القاحلة. وقد دفعهم افتقاد الطعام إلى أكل لحم أشباههم. لابد أن الرب سيأخذ بعين الاعتبار أنهم لم يقدموا على ذلك تلذذاً، وإنما بدافع الحاجة والضرورة. لقد كتب أحد مدوني الأخبار، ممن شاركوا في حملات العام 1555، أن الهنود كانوا يهرعون لشراء قطع من اللحم البشري مثل من يشتري لحم اللاما. إنه الجوع... ومن لم يعان الجوع ليس له الحق في إطلاق الأحكام. لقد روى لي رودريغو دي كيروغا أن الهنود في جحيم غابات تشونتشو القائظة، كانوا يلتهمون رفاقهم أنفسهم. لكنه امتنع عن ذكر إذا ما كان الإسبان قد شاركوا في تلك الخطيئة. إلا أن كاتالينا أكدت لي أن البيراكوتشا ليسوا مختلفين عن غيرهم من البشر، وأن بعضهم يستخرجون الموتى من القبور ليشووا لحم أفخاذهم، ويخرجون لاصطياد الهنود من أجل الهدف

نفسه. عندما أخبرتُ بيدرو بذلك، أجبرني على الصمت وهو يرتجف من الغضب، فهو يرى أنه من المستحيل أن يقدم مسيحي على مثل تلك الأعمال المشينة؛ عندئذ اضطررت إلى تذكيره بأنه، بفضلي، يستطيع أن يأكل أفضل قليلاً من الآخرين في المستوطنة، ولهذا عليه أن يصمت. تكفي رؤية السعادة الجنونية التي تظهر على من يتمكن من اصطياد فأر عند ضفة نهر المابوتشو كي ندرك أن أكل اللحم البشري يمكن أن يحدث.



فيليب، أو فيليبيّو، مثلما كانوا يسمون الفتى المابوتشي، تحول إلى ظل لبيدرو، وصار شخصية مألوفة في المدينة، عوذة حظ للجنود الذين يستمتعون بطريقته في محاكاة أساليب وصوت الحاكم، دون نية في السخرية، وإنما بدافع الإعجاب والتقدير. وكان بيدرو يتظاهر بعدم ملاحظة ذلك، لكنني أعرف أنه كان يشجع اهتمام الفتى الصامت وإسراعه إلى خدمته. فقد كان فيليب يلمع له دروعه بالرمل، ويشحذ سيفه، ويطلي له أحزمته إذا ما حصل على قليل من الدهن، ويعنى قبل ذلك كله بحصانه سلطان، كما لو أنه أخوه. كان بيدرو يعامله بتلك اللامبالاة المرحة التي يعامل بها المرء كلباً وفياً؛ فهو لا يحتاج إلى التكلم معه، لأن فيليب يحدس رغبات التايتا. أمر بيدرو أحد الجنود بتعليم الفتى استخدام البندقية «كي يدافع عن نساء البيت في غيابه»، كما قال، وهو ما أغضبني، لأنني أنا من كنت أدافع، ليس عن النساء وحدهن، وإنما عن الذكور أيضاً. كان فيليب فتى تأملياً وصامتاً، يستطيع البقاء ساعات دون حراك، مثل ناسك عجوز. فكانوا يقولون عنه: «إنه كسول مثل أبناء عرقه كلهم». وبحجة دروس تعلم *المابودونغو* - وهو واجب يكاد لا يستطيع التسامح معه، لأنه يحتقرني لكوني امرأة -، تحريت منه عن معظم ما أعرفه عن هنود المابوتشي. الأرض المقدسة في نظرهم تمنح، والناس يأخذون منها ما هم بحاجة إليه ويشكرون، لا يأخذون أكثر، ولا يراكمون؛ والعمل أمر عصي

علـى فهمهـم، لأنـه لا وجـود لمسـتقبل. مـا هـي فائـدة الـذهب؟ الأرض ليسـت لأحد، والبحر ليس لأحد؛ ومجرد فكـرة امتلاكهمـا أو اقتسـامهما تثير فـي فـيليب الصـارم الضـحك. والأشـخاص أيضـاً ليسـوا تـابعين لآخـرين. كيـف يمكن لجماعة *الهوينكا* شراء النـاس وبيعهم كمـا لـو أنهـم ملـك لهم؟ وفـي بعض الأحيان يقضي الفتى يومين أو ثلاثة أيام صـامتاً، منعـزلاً، بـلا طعـام، وعند سؤاله عما أصابه، يكون الجواب هو نفسـه: «هنـاك أيـام سـعيدة وأيـام حزينة. وكل شخص هو سيد صمته». كانت علاقته سيئة مع كاتالينـا الـتي لا تثـق بـه، لكنهمـا يتبـادلان روايـة الأحـلام، فكلاهمـا يريـان أن البوابـة مفتوحة على الدوام بين نصفـي الحياة، النهـاري والليلـي، ومـن خـلال الأحـلام تتواصل الألوهية معهم. ويؤكدان أن عدم الانصياع لمـا فـي الأحـلام يؤدي إلى نكبـات عظيمـة. ولم يسـمح فـيليب لكاتالينـا قـط أن تقـرأ لـه طالعـه فـي خـرزات وأصـداف العرافـة الـتي يشـعر تجاههـا بخـوف مشـعوذ، مثلمـا كـان يرفض تذوق أعشابها الطبية.

كـان محظوراً على الخـدم امتطـاء الخيـول تحت طائلـة التعـرض للجلـد، لكن فيليب مُنح استثناء، وبمـا أنـه من يطعـم الخيـول، فقـد كـان بمقـدوره ترويضـهـا دون عنـف، بـالهمس لهـا بلغـة *المـابودونغو*. تعلـم ركـوب الخيـل كفجـري، وكـان لمـآثره وقـع كـبير فـي هـذه البلـدة الكئيبـة. كـان يلتصـق بالدابة حتى يصير جزءاً منها، وينطلق على إيقاعهـا، دون أن يكرههـا علـى أي شـيء. لم يكـن يسـتخدم السـروج والمهـاميز، ويوجـه الحصـان بضـغط خفـيـف مـن ركبتيـه، ويمسـك اللجـام بفمـه لتظـل يـداه طليقـتين مـن أجـل استخدام القوس والسهام. ويمكنه القفز لامتطاء الجواد وهو منطلق بأقصـى سـرعة، والاسـتدارة وهـو علـى صـهوته ليصـير نظـره باتجـاه الـذيل، أو التعلـق بذراعيه وساقيه بحيث ينطلق وصـدره ملتصـق ببطن الحيـوان. كـان الرجـال يجتمعون حوله، ولا يستطيع أحد منهم مجاراته مهما حاولوا ذلك. وفـي بعـض الأحيـان يختفـي عـدة أيـام فـي رحـلات صـيده؛ وعنـدما نقـدر أنـه قـد لقـي

مصرعه على يد ميتشيمالونكو، يعود سليماً معافى وعلى كتفه عنقود من العصافير التي اصطادها لإثراء حسائنا عديم الطعم. كان بالديبيا يشعر بالقلق عند اختفائه؛ وقد هدده بالسوط في أكثر من مناسبة إذا ما خرج دون إذن منه، لكنه لم ينفذ تهديده قط، لأننا كنا نعتمد على حصيلة صيده. كان الجذع الدامي الذي تنفذ عليه عقوبات الجلد ينتصب في منتصف الساحة، لكنه لم يكن يسبب لفيليب أي خوف كما يبدو. وكان قد تحول في تلك الأثناء إلى مراهق نحيل، وطويل القامة بالمقارنة مع أبناء عرقه، مجرد عظام وعضلات، ملامحه تنم عن الذكاء، وعيناه ثاقبتان. كان قادراً على أن يحمل على كاهله وزناً أثقل مما يستطيع حمله أي رجل بالغ، ويبدي ازدراء مطلقاً تجاه الألم والموت. كان الجنود يعجبون بقدرته على التحمل، ويعمد بعضهم، على سبيل التسلية، إلى اختباره. وقد اضطررت إلى منعهم من تحديه في الإمساك بجمرة مشتعلة بيديه، أو غرس أشواك مطلية بفلفل حار في جسده. وكان يسبح صيفاً وشتاء لساعات في مياه نهر مابوتشو شديدة البرودة على الدوام. وقد أوضح لنا أن الماء الجليدي ينعش القلب، ولهذا تغطس الأمهات المابوتشي أطفالهن في الماء فور ولادتهم. وكان الإسبان الذين يهربون من الاستحمام كهروبهم من النار، يجلسون فوق السور لرؤيته وهو يسبح، ويتراهنون على قدرته على التحمل. كان يغطس أحياناً في مياه النهر الصاخبة لوقت طويل، وعندما يبدأ المتفرجون بدفع قيمة الرهان للرابحين، يظهر فيليب سليماً.

أسوأ ما عانيناه في تلك السنوات هو الإحساس بالهجران والعزلة. كنا ننتظر نجدة دون أن نعرف إذا ما كانت ستأتي، فكل شيء يعتمد على مساعي الضابط مونروي. ولم تستطع حتى شبكة جواسيس سيسيليا من الحصول على أخبار عنه وعن الشجعان الخمسة الآخرين الذين رافقوه. لكننا لم نكن نمني أنفسنا بالأوهام، لأن مرور تلك الحفنة من الرجال بين الهنود المعادين، ثم اجتيازهم الصحراء للوصول إلى هدفهم سيكون أشبه

بالمعجزة غير ممكنة التحقيق. وكان بيدرو يقول لي إن المعجزة الحقيقية هي في تمكن مونروي من الحصول على مساعدة في البيرو، حيث لا وجود لمن يرغب في استثمار أموال في فتح تشيلي. فزينة حصانه الذهبية قد تُبهر الفضوليين، لكنها لن تؤثر في السياسيين والتجار. لقد ضاقت علينا الدنيا إلى بضع كوادرات ضمن سور من الطين، مع الوجوه المنهوكة نفسها، والأيام التي تنقضي دون أخبار، والروتين الأبدي، وخروج الفرسان في فترات متباعدة للبحث عن طعام أو لصد جماعة هنود متمادية في الجرأة، والمشاركة في الصلوات، والمواكب، والجنازات. حتى القداديس اختُزلت إلى أدنى الحدود، لأنه لم يبق لدينا إلا نصف زجاجة من النبيذ لمباركتها واستخدامها في القداس، وسيكون استخدام مشروب التشيتشا الهندي تدنيساً للمقدسات. أجل، الماء لم يكن ينقصنا، فعندما يمنعنا الهنود من الوصول إلى النهر، أو يسدون بالحجارة قنوات الري التي شُقت في زمن الإنكا، كنا نحفر الآبار. ولم نكن بحاجة إلى موهبتي في تحديد أماكن الماء، لأنه موجود بوفرة في أي مكان نحفره. ولأننا كنا نفتقر إلى الورق لتدوين محاضر المجلس البلدي والأحكام القضائية، فقد استخدمنا شرائح من الجلد، لكن الكلاب الجائعة أكلتها في لحظة سهو منا، ولهذا لا يوجد إلا قدر ضئيل من السجلات الرسمية للعوز والبؤس الذي عانيناه في تلك السنوات.

انتظار وانتظار، هكذا كانت تمضي أيامنا. ننتظر الهنود والأسلحة في أيدينا، ننتظر وقوع جرذ في المصايد، ننتظر أخبار مونروي. كنا أسرى داخل المدينة، محاطين بالأعداء، شبه موتى من الجوع. ولكن كان هناك نوع من الكبرياء في النكبة والفقر. وفي الاحتفالات، كان الجنود يرتدون دروعهم كاملة على اللحم العاري أو يحمون أجسادهم من حديد الدروع بقطعة من جلد أرنب أو فار، لأنهم لا يملكون ملابس يلبسونها تحت الدروع. ولكنهم يحافظون على دروعهم لامعة كالفضة. ورداء الكهنوت الوحيد

لدى غونثالث دي مارموليخو كان متيبساً من الرفو والرقع والوساخة، لكنه كان يضع فوقه أثناء القداس قطعة من شرشف مطرز أنقذه من الحريق. ومثل سيسيليا ونساء القادة الأخريات، كنت أفتقر إلى ثياب وقورة، لكننا كنا نقضي ساعات في تسريح شعورنا، وكنا نصبغ شفاهنا باللون الوردي من ثمرة شجيرة مرة المذاق، وسامة على حد قول سيسيليا. لم تمت أي واحدة منا بسمها، لكنها سببت لنا حالات إسهال قبيحة جداً. وكنا نشير إلى بؤسنا على الدوام بنبرة مازحة، لأن التذمر بجد سيكون ضرباً من النذالة والضعف. لم يكن هنود الياناكونا يفهمون هذه الطريقة في المزاح، ويمضون ككلاب مضروبة حالمين بالعودة إلى البيرو. وقد هربت بعض النساء منهن وسلمّن أنفسهن إلى المابوتشي، حيث لن يعانين الجوع على الأقل، ولم ترجع أي منهن إلينا. ولكي نحول دون أن تحذو الأخريات حذوهن، نشرنا إشاعة أن المابوتشي قد أكلوهن، بالرغم من أن فيليب كان يؤكد أن المابوتشي مستعدون دوماً لإلحاق زوجة أخرى بأسرهم.

- وما الذي يحل بالزوجات عندما يموت الزوج؟ - سألته بلغة *المابودونغو*، وأنا أفكر في موت المحاربين الذي تخلفه المعارك.

فأجابني:

- يفعلن ما يتوجب عليهن فعله: يرثهن الابن البكر جميعهن باستثناء أمه.

- وأنت أيها المخاطي، ألا تريد الزواج؟ - قلتُ له مازحة.

- ليس هذا هو الوقت المناسب لسرقة امرأة - أجابني بجد.

في تقاليد المابوتشي، كما روى لي، يقوم العريس، بمساعدة أخوته وأصدقائه، بسرقة الفتاة التي يرغب فيها. وفي بعض الأحيان تقتحم عصبة الشبان بيت الفتاة عنوة، فيقيدون الأبوين ويحملونها وهي تضرب بساقها في الهواء، لكنهم يقومون بعد ذلك بإصلاح الضرر، إذا ما ارتضت الفتاة العريس، فيدفع هذا عدداً مناسباً من الماشية والمنافع الأخرى لحمييه. وهكذا يصير الزواج رسمياً. ويمكن للرجل امتلاك عدة زوجات، ولكن

عليه أن يقدم الأشياء نفسها لكل واحدة منهن، وأن يعاملهن بالتساوي. وكثيراً ما يتزوج من أختين أو أكثر، كي لا يفرق بينهن. وقد كان من عادة الكاهن غونثالث دي مارموليخو حضور دروسي في لغة *المابودونغو*، فأوضح لفيليب أن هذا الفجور المتمادي هو دليل أكثر من دامغ على وجود الشيطان بين أبناء المابوتشي الذين سينتهي بهم المطاف، ما لم يقبلوا التعميد بالماء المقدس، إلى أن تشوى أجسادهم على جمر الجحيم. فسأله الفتى عما إذا كان الشيطان موجوداً كذلك بين الإسبان، فهم يأخذون دزينة من النساء الهنديات دون أن يدفعوا لآبائهن أياً من حيوانات اللاما والغواناكو، مثلما يقتضي الواجب، ويقومون فوق ذلك بضربهن، ولا يعاملونهن بالتساوي، وعندما يرغبون يبدلونهن بأخريات. ربما سيلتقي الإسبان والمابوتشي في الجحيم أيضاً، وسيواصلون هناك قتل بعضهم بعضاً إلى أبد الآبدين، هذا مؤكد. وقد اضطررتُ للخروج بسرعة وتعثر من الحجرة كي لا أنفجر في الضحك أمام لحية الكاهن الموقرة.

لقد خُلقنا أنا وبيدرو للعمل بجهد، وليس للاسترخاء والراحة. فتحدي مواصلة العيش ليوم آخر والحفاظ على معنويات المستوطنين كان يملؤنا بالنشاط. ولم نكن نسمح لأنفسنا باليأس إلا عندما نكون وحدنا على انفراد؛ لكن ذلك لم يكن يستمر طويلاً. إذ سرعان ما نبدأ بالسخرية من أنفسنا. فأقول له: «أُفضّل أن أظل هنا أمضغ الجرذان معك، على أن أرتدي البروكار في قصور مدريد». فيرد علي: «من الأفضل القول إنك تفضلين البقاء هنا كحاكمة، على أن تذهبي لصنع حلوى الشعير والسكر في بلاسينثيا». ونسقط متعانقين على الفراش ونحن نضحك كصبيين. لم نكن متحدين أكثر مما كنا عليه آنذاك، ولم نمارس الحب بشغف ودراية أفضل مما مارسناه في تلك الفترة. وعندما أفكر في بيدرو، تكون تلك اللحظات هي التي أكتنزها؛ هكذا أريد أن أتذكره، مثلما كان في الأربعين وبضع سنوات، منهوكاً من الجوع، لكنه عالي المعنويات، ومصمم، وممتلئ

بالأوهام. وأضيف أنني أرغب في تذكره عاشقاً، ولكن ذلك سيكون زيادة في القول، لأنه كان عاشقاً على الدوام، حتى بعد انفصالنا. أعرف أنه مات وهو يفكر فيّ. ففي سنة موته، العام 1553، كنتُ في سنتياغو، وكان هو يقاتل في توكابيل، على بعد فراسخ كثيرة، لكنني عرفت أنه كان يحتضر ويموت، وعندما أبلغوني بالخبر، بعد عدة أسابيع، لم أذرف دمعة واحدة. كنتُ قد استنفدت الدموع.



في منتصف شهر كانون الأول، بعد سنتين من انطلاق القائد مونروي في مهمته الخطرة، وبينما كنا نعدّ العدة لاحتفال متواضع بأعياد الميلاد، بأناشيد ومذود مرتجل، وصل إلى أبواب سنتياغو رجل مستنفد القوى يغطيه الغبار، فلم يُسمح له بالدخول، لأن الحراس لم يتمكنوا في البدء من التعرف عليه. كان واحداً من هنودنا الياناكونا؛ وقد أمضى يومين وهو يركض، وتدبر أمره في الوصول إلى المدينة متسللاً خفية عبر الغابات التي تغص بالسكان المحليين المعادين. وهو فرد من جماعة صغيرة تركها بيدرو على أحد شواطئ الساحل على أمل أن تصل نجدة من البيرو. وكان أولئك الرجال قد أعدوا عدداً من المواقد على بروز صخري في الشاطئ ليشعلوا فيها النار إذا ما ظهرت سفينة في الأفق. وأخيراً رأى الحراس الذين يراقبون الأفق منذ زمن أزلي، شراعاً في البحر، فأعطوا الإشارة المطلوبة والبهجة تملؤهم. وكانت السفينة التي يقودها صديق قديم لبيدرو دي بالديبيا آتية بالمساعدة المنتظرة.

ـ عليك أن ترسل أناساً وخيولاً لجلب الحمولة يا تاتاي. هذا فقط ما أمرني بقوله ربان السفينة ـ قال الهندي وهو يلهث مستنفداً.

خرج بيدرو دي بالديبيا بأقصى سرعة على جواده ومعه عدد من القادة باتجاه الشاطئ. من الصعب وصف البهجة التي سيطرت على المدينة. فقد

جعل الإحساس العظيم بالفرج أولئك الجنود المتصلبين ينفجرون في البكاء. وكان الاستبشار كبيراً إلى حد لم يلتفت معه أحد إلى الكاهن عندما دعا إلى صلاة شكر. كان الأهالي جميعهم يطلّون من فوق السور مترصدين الطريق، مع أننا كنا نعرف أن الزائرين سيحتاجون أياماً للوصول إلى سنتياغو.

تعبير من الرعب ارتسم على وجوه القادمين في السفينة عندما رأوا ظهور بالديبيا وجنوده على الشاطئ، وكذلك عندما وصلوا إلى المدينة وخرجنا لاستقبالهم. فوفر لنا ذلك فكرة تقريبية عن حجم البؤس الذي نحن فيه. كنا قد اعتدنا على مظهرنا كهياكل عظمية، وعلى الأسمال والوساخة، ولكننا عندما لاحظنا أننا محط شفقة، أحسسنا بخجل عميق. وبالرغم من أننا تزوقنا بأفضل ما نستطيع، وكانت سنتياغو تبدو لنا بديعة على ضوء الصيف المشع، إلا أن الزائرين أبدو أشد الانطباعات تحسراً، حتى إنهم حاولوا إهداء ملابس إلى بالديبيا وضباط آخرين، مع أنه ليست هناك إهانة أشد على الإسباني من تلقي صدقة. ما لم نستطع دفع ثمنه، سُجل كديون، وكفل بالديبيا الآخرين، لأنه لم يكن لدينا ذهب ندفعه. وقد رضي بذلك التجار الذين استأجروا السفينة من البيرو، إذ أنهم ضاعفوا ما استثمروه ثلاثة أضعاف، وكانوا واثقين من أنهم سيستردون الديون، فكلمة بالديبيا في رأيهم ضمانة أكثر من كافية. وكان بينهم التاجر نفسه الذي أقرض بيدرو المال في كوسكو، بفائدة ربوية، من أجل تمويل الحملة. وقد جاء ليقبض ديونه مضاعفة، لكنه اضطر إلى الوصول إلى اتفاق عادل، بعد أن أدرك، وهو يرى حال مستوطنتنا، أنه لن يتمكن بأي طريقة أخرى من استرداد أي شيء. اشترى لي بيدرو من حمولة السفينة ثلاثة قمصان من الكتان، وآخر من قماش قطني فاخر، وأثواباً للاستخدام اليومي، وفستاناً من الحرير، وجزمة للعمل وحذاءً نسائياً، وصابوناً، وكريماً للوجه وزجاجة عطر... ترف كنت أظن أنني لن أعود لرؤيته إلى الأبد.

من أرسل السفينة هو القائد مونروي. فبينما نحن نتحمل المنغصات في

سنتياغو، تمكن هو ومرافقوه الخمسة من الوصول إلى كوبيابو، حيث وقعوا في قبضة الهنود. وقد جرى قتل أربعة من الجنود فوراً، أما مونروي الذي كان يمتطي حصانه الذهبي ومعه رجل آخر، فظلا على قيد الحياة بضربة حظ فريدة؛ أنقذهما جندي إسباني هارب من العدالة في البيرو، ويعيش في تشيلي منذ عدة سنوات. كان الرجل قد فقد كلتا أذنيه لأنه لص، ودفعه العار إلى الهرب وعدم الاتصال بأحد من أبناء موطنه، والتجأ إلى السكان الأصليين وعاش بينهم. كان قطع اليد هو عقوبة السرقة، وهذه عادة ظلت شائعة في إسبانيا منذ أزمنة المسلمين. أما إذا كان السارق جندياً، فإنهم يفضلون جدع أنفه أو صلم أذنه، كي لا يصير المتهم عاجزاً عن القتال. وقد تمكن مصلوم الأذنين من التدخل للحيلولة دون أن يقتل الهنود القائد، معتقداً أنه رجل واسع الثراء، نظراً للذهب الذي يحمله، وإنقاذ مرافقه كذلك من الموت. كان مونروي رجلاً لطيفاً ويتمتع بموهبة الكلام؛ وقد استلطفه الهنود إلى حدّ أنهم لم يعاملوه كأسير، وإنما كصديق. وبعد أربعة شهور من ذلك الأسر السعيد، تمكن القائد ومرافقه الإسباني من الهرب على حصان، ولكن من دون طقم الذهب الإمبراطوري طبعاً. ويقال إن مونروي أحب خلال تلك الشهور ابنة زعيم القبيلة وتركها حبلى، لكن هذا الأمر قد يكون تباهياً من القائد نفسه أو من نسج الخيال الشعبي، كتلك القصص الخرافية التي يكثر تداولها بيننا. والمهم أن مونروي استطاع الوصول إلى البيرو والحصول على تعزيزات، وشجع عدداً من التجار، وأرسل السفينة إلى تشيلي، وجاء هو نفسه براً ومعه سبعون جندياً، وقد وصلوا بعد بضعة شهور من مجيء السفينة. ألونسو دي مونروي الوسيم والوفيّ، والشجاع العظيم، مات في البيرو بعد نحو سنتين في ظروف غامضة. هناك من يقول إنه مات مسموماً، وآخرون يقولون إنه قضى في وباء أو بلسعة رتيلاء، بل هناك من يعتقد أنه مازال حياً في إسبانيا التي رجع إليها بصمت بعد أن ملّ الحروب.

حملت إلينا السفينة جنوداً، وأغذية، ونبيذاً، وأسلحة، وذخائر، وملابس، وأدوات، وحيوانات داجنة. هذا يعني الكنوز التي كنا نحلم بها. ولكن الأهم هو الاتصال بالعالم المتحضر؛ فنحن لم نعد وحيدين في أقصى ركن من الكوكب. كما جاءت لزيادة عدد مستوطنينا خمس إسبانيات هن زوجات وقريبات بعض الجنود. ولأول مرة منذ مغادرتي كوسكو استطعت مقارنة نفسي بنساء أخريات من موطني، وإدراك كم تغيرت. قررت التخلي عن استخدام جزمة الرجال وملابسهم، وإلغاء جدل شعري والاستعاضة عنه بتسريحة أكثر أناقة، وطلاء وجهي بالكريما التي أهداها إليّ بيدرو؛ وباختصار، الاهتمام بالأناقة الأنثوية التي استبعدتها لسنوات. عاد التفاؤل يملأ قلوب جماعتنا، وشعرنا بأننا قادرون على مواجهة ميتشيمالونكو، وحتى الشيطان نفسه، إذا ما جاءا إلى سنتياغو. ومن المؤكد أن *الكاسيكي* الماكر أدرك ذلك من بعيد، لأنه لم يعد إلى مهاجمة المدينة، وإن كان لابد لنا من القتال ضده بكثرة في المناطق المحيطة، وملاحقته إلى معاقله. وفي كل واحدة من تلك المواجهات يُقتل عدد كبير من الهنود يدفعنا إلى التساؤل من أين يخرج المزيد منهم.

فعَّل بالديبيا الوصايات التي خصني أنا وبعض القادة بها. وأرسل مبعوثين إلى السكان الأصليين المسالمين يرجوهم العودة إلى الوادي، حيث عاشوا دائما قبل مجيئنا، لأن المزارع دون أنفس هي أراض غير نافعة. وقد رجع كثيرون من أولئك الهنود الذين هربوا خوفاً من الحرب ومن نهب الملتحين. وهكذا بدأنا نزدهر. وتمكن الحاكم من إقناع الكوراكا بيتاكورا كذلك بأن يقدم لنا أعداداً من هنود الكيتشوا، وهم أكثر قدرة على العمل من الهنود التشيليين، وبوجود ياناكونا جدد تمكن بيدرو من استغلال منجم مارغا ـ مارغا ومناجم أخرى علم بوجودها. لم يكن هناك عمل أقسى من العمل في المناجم. لقد رأيتُ فيها مئات الرجال وأعداداً مماثلة من النساء، بعضهن حوامل، وأخريات يحملن أطفالهن معلقين على ظهورهن،

ويغطسن في المياه الباردة حتى خصورهن، يغسلن الرمل لاستخراج الذهب منه، منذ الفجر حتى غياب الشمس، معرضات للأمراض، تحت وطأة سياط مراقبي العمال وتعسف الجنود.



اليوم، عند مغادرتي الفراش، خانتني قواي لأول مرة في حياتي المديدة. غريب هذا الإحساس بأن الجسد ينتهي بينما الذهن مازال يخترع مشاريع جديدة. ارتديت ملابسي بمساعدة الخادمات من أجل الذهاب إلى القداس، مثلما أفعل كل يوم، لأني أحب الذهاب لتحية سيدتنا عذراء الرحمة، وقد صارت الآن سيدة كنيستها، وكُلِّلت بتاج من الذهب المرصع بالزمرد: فقد كنا صديقتين لوقت طويل. إنني أفضل الذهاب إلى قداس الصباح الأول، قداس الفقراء والجنود، لأن ضوء الكنيسة في هذه الساعة يبدو آتياً من السماء مباشرة. شمس الصباح تدخل من النوافذ العالية وتخترق أشعتها الممر الأوسط كأنها الرماح، مضيئة تماثيل القديسين في مواضعها. وهي تضيء أيضاً في بعض الأحيان الأرواح المحيطة بي، والمختفية وراء الأعمدة. إنها ساعة هادئة، مناسبة تماماً للصلاة. ليس هناك ما هو أشد غموضاً من اللحظة التي يتحول فيها الخبز والنبيذ إلى جسد يسوع ودمه. لقد شهدتُ هذه المعجزة آلاف المرات على امتداد حياتي، لكنها مازالت تفاجئني وتستثير انفعالاتي كما في يوم مناولتي الأولى. لا يمكنني تجنب ذلك، فأنا أبكي في كل مرة أتناول فيها خبز القربان. وطالما أنا قادرة على الحركة، سأواصل الذهاب إلى الكنيسة ولن أتخلى عن واجباتي: المستشفى، الفقراء، دير الراهبات الأغسطينيات، بناء البيوت، إدارة ممتلكاتي وتدوين هذه الأخبار والوقائع التي قد تطول أكثر مما هو ملائم.

مازلت أشعر بأنني لستُ مهزومة أمام التقدم في السن، بالرغم من أنني أعترف بأني صرت بليدة وكثيرة النسيان، ولم أعد قادرة على الإنجاز الجيد

لما كنت أقوم به من قبل دون التفكير فيه مرتين؛ الوقت لن يجبرني على الاستسلام. ومع ذلك، لم أتخلّ عن عادتي القديمة الصارمة بالاغتسال واللبس المتأنق؛ أريد أن أظل مزهوة حتى النهاية، كي يجدني رودريغو نظيفة وأنيقة عندما نلتقي معاً في الجانب الآخر. سبعون سنة لا تبدو لي عمراً مديداً... يمكن لي، إذا ما استطاع قلبي التحمل، أن أعيش عشرة أعوام أخرى، وفي هذه الحالة سأتزوج من جديد، لأنه لابد من الحب من أجل مواصلة العيش. إنني واثقة من أن رودريغو سيتفهم ذلك، مثلما كنت سأفعل أنا في الحالة المعاكسة. لو أنه معي، لاستمتعنا معاً حتى نهاية وجودنا، بتمهل ودون صخب. أظن أن أكثر ما كان يخشاه هو أن يبدو مضحكاً، فالرجال يضعون كثيراً من الكبرياء في هذه المسألة؛ غير أن هناك أساليب كثيرة للحب، وأنا ابتكرت بعض الأساليب كي نواصل المداعبات والمرح، حتى في الشيخوخة، كما كنا في أفضل أزمنتنا. إنني أفتقد يديه، رائحته، منكبيه العريضين، شعره الناعم على الرقبة، حفيف لحيته، لهاث أنفاسه في أذني عندما نكون وحيدين في الظلام. أشعر بحاجة كبيرة إلى احتضانه، إلى الاضطجاع معه، إلى حدّ انني لا أتمكن أحياناً من كبح صرخة مخنوقة. أين أنت يا رودريغو؟ كم أفتقدك!

في هذا الصباح ارتديت ملابسي، وخرجت إلى الشارع على الرغم من إحساسي بالإنهاك في عظامي وقلبي، فاليوم هو الثلاثاء وعليّ أن أذهب إلى حيث تعيش مارينا أورتيث دي غايتي. يحملني الخدم على كرسي ذي مساند، لأنها تسكن قريباً ولا حاجة لإخراج العربة. التباهي غير محبب في هذه المملكة، وأخشى أن تكون أبهة العربة التي أهداها إليّ رودريغو خطيئة. مارينا تصغرني ببضعة أعوام، لكنني أشعر بأنني فتاة صغيرة بالمقارنة معها. فقد تحولت إلى متدينة موسوسة وقبيحة، وليسامحني الله على سوء لساني. «عليك أن تضعي حارساً على شفتيك يا أماه»، هذا ما تنصحينني به يا إيزابيل وأنت تضحكين كلما سمعتني أتكلم على هذا

النحو، مع أنني أظن أنك تستمتعين بهذري؛ كما أنني اكتسبت يا ابنتي الحق في قول ما لا يتجرأ الآخرون على قوله. تجاعيد وجه مارينا وتدللها يثيران فيَّ نوعاً من الرضا، لكنني أناضل ضد هذا الشعور غير الكريم، لأني لا أرغب في قضاء وقت أطول من اللازم في المطهر. لم أشعر بالإعجاب قط بالناس العاجزين وضعيفي الشخصية، من أمثال مارينا. إنهم يثيرون فيَّ الشفقة. وحتى أقاربها الذين أحضرتهم معها من إسبانيا، وصاروا الآن من سكان سنتياغو المثرين، نسوها تماماً. وأنا لا أُخطئهم كثيراً، فهذه السيدة الطيبة مملة جداً. لكنها لا تعيش فقيرة على الأقل، فهي تعيش ترملاً وقوراً، بالرغم من أن هذا لا يعوضها عن سوء طالعها كامرأة مهجورة. كيف ستكون وحدة هذه المرأة عاثرة الحظ التي تنتظر زياراتي بلهفة، وإذا ما تأخرت عنها أجدها تنتحب. نتناول معاً فناجين من الشوكولاتة بينما أنا أخفي تثاؤبي، ونتحدث عن الأمر المشترك الوحيد بيننا: بيدرو دي بالديبيا.

تقيم مارينا في تشيلي منذ خمس وعشرين سنة. جاءت في حوالي العام 1554، متأهبة لتولي دورها كزوجة للحاكم، ومعها حاشية من أسرتها ومن المتملقين المصممين على الاستمتاع بثروات بيدرو دي بالديبيا وسلطته، بعد أن منحه ملك إسبانيا لقب مركيز ووسام سنتياغو. ولكن مارينا فوجئت لدى وصولها بأنها قد صارت أرملة. فقبل بضعة شهور من مجيئها لقي زوجها نحبه على يد هنود المابوتشي، حتى قبل أن يعلم بأمر التشريفات والألقاب الممنوحة له من الملك. والأدهى من ذلك أن كنوز بالديبيا التي انتشرت الإشاعات حولها، لم تكن إلا هباءً. كانت قد وُجهت إلى الحاكم تهمة الإثراء الفاحش، وأنه احتفظ لنفسه بأكثر الأراضي اتساعاً وخصوبة، وأنه يستغل جيشاً من الهنود لمنفعته الخاصة، لكنه أثبت في نهاية الأمر أنه أفقر من أي قائد من رجاله، حتى إنه اضطر إلى بيع بيته في ساحة السلاح كي يسدد ديونه. بل إن المجلس البلدي لم يتكرم بتخصيص معاش تقاعدي لمارينا أورتيث دي غايتي، الزوجة الشرعية لفاتح تشيلي، وهو جحود شائع جداً في

هذه الأنحاء، بل وله اسم خاص: «الوفاء التشيلي». كان عليّ أن أشتري لها بيتاً وأن أتولي مسؤولية نفقاتها، كي لا يشدني شبح بيدرو من أذنيّ. لحسن الحظ أنني مازلت قادرة على إرضاء غروري ببعض الأمور، مثل إنشاء مؤسسات، وتأمين مدفن في الكنيسة أُدفن فيه، والقيام بأود حشد من الأهالي، وتوريث ابنتي ثروة جيدة، ومدّ يد العون إلى زوجة عشيقي القديم. وما هي اليوم أهمية أننا كنا ضرتين في أحد الأيام؟

لقد انتبهت للتو إلى أنني قد كتبت صفحات كثيرة، دون أن أوضح لماذا كانت هذه الأراضي هي المملكة الوحيدة في أمريكا. فقد رغب إمبراطورنا المقدس كارلوس الخامس في تزويج ابنه فيليبي من ماري ستوارد، ملكة إنكلترا. في أي عام حدث ذلك؟ في السنة نفسها التي لقي فيها بيدرو مصرعه على ما أعتقد. وكان الأمير الشاب بحاجة إلى لقب ملك كي يتمكن من الزواج، ولأن أباه لم يكن يفكر آنذاك في التنازل له عن العرش، قرر أن يجعل من تشيلي مملكة، وفيليبي عاهلها، وهو ما لم يُحسِّن مصيرنا، لكنه منحنا لقباً.

في السفينة نفسها التي وصلت بها مارينا ـ وكان عمرها آنذاك اثنتين وأربعين سنة، وكانت قصيرة النظر لكنها جميلة، ذلك النوع من الجمال الشاحب للشقراوات الناضجات ـ جاء أيضاً دانييل بيلالكاثار وابنة أختي كونستانثا اللذين كنتُ قد ودعتهما في العام 1538. ظننت أنني لن أعود إلى رؤية ابنة أختي تلك التي بدل أن تصير راهبة، مثلما اتفقنا، تزوجت متعجلة وهي في الخامسة عشرة من مدون الوقائع والأخبار الذي أغواها في السفينة. المفاجأة التي استولت علينا كانت عظيمة، لأني كنت أظن أن الغابات قد ابتلعتهما ولقيا حتفهما فيها. بينما لم يخطر ببالهما يوماً أن الأمر سينتهي بي إلى تأسيس مملكة. ظلا قرابة السنتين في تشيلي، لدراسة ماضي المابوتشي وعاداتهم، عن بعد بالطبع، لأن التوغل بينهم لم يكن ممكناً آنذاك، بينما الحرب في أوجها. وكان بيلالكاثار يقول إن

المابوتشي يشبهون بعض الشعوب الآسيوية التي رآها في رحلاته. كان يعتبرهم محاربين عظماء، ولا يخفي إعجابه بهم، مثلما حدث في ما بعد لذلك الشاعر الذي نظم ملحمة شعرية عن أراوكانيا. هل أتيت على ذكر هذا الشاعر من قبل؟ ربما لم أذكره، لكن الوقت صار متأخراً للعودة إلى الاهتمام بأمره. كان اسمه إرثيًا. وعندما أدرك الزوجان بيلالكاثار أنهما لن يستطيعا الاقتراب من هنود المابوتشي لرسمهم وتوجيه أسئلة مباشرة إليهم، واصلا رحيلهما وتجوالهما في العالم. كانا شريكين متكاملين في مهمتهما العلمية، فكلاهما ينهشه الفضول النهم نفسه، والاستخفاف نفسه بالمخاطر التي تكتنف مهماتهما الجنونية.

لقد غرس دانييل بيلالكاثار في رأسي فكرة تأسيس مؤسسة للتعليم، فقد رأى أنه من الزهو الزائف أن نعتبر تشيلي مستعمرة متحضرة بينما عدد من يعرفون القراءة فيها لا يتجاوز عدد أصابع يد واحدة. عرضتُ الأمر على غونثالث دي مارموليخو، وناضلنا معاً طوال سنوات لتأسيس مدارس، لكن أحداً لم يولِ المشروع اهتماماً. يا للناس الجهلة! يخشون إذا ما تعلم الشعب القراءة، أن يبدأ التفكير، ومن التفكير إلى التمرد لا توجد سوى نفحة بسيطة.

لم يكن هذا اليوم، كما قلت، يوماً طيباً بالنسبة إلي. فبدلاً من الاهتمام بقصة حياتي، رحت أهيم متجولة. ففي كل يوم أتكلف مشقة أكبر في التركيز على الوقائع، لأني أشرد؛ هناك ضجيج شديد في هذا البيت، مع أنكِ تؤكدين أنه البيت الأكثر هدوءاً في سنتياغو.

ـ إنها أفكارك وحدها يا أماه. لا وجود هنا لأي ضجيج، بل على العكس، فالأرواح تتعذب هنا ـ قلتِ لي في الليلة الفائتة.

ـ أجل، هذا هو بالضبط ما أعنيه يا إيزابيل.

إنكِ مثل أبيك، عملية وعقلانية، ولهذا لا تحسين بالجموع التي تمر دون إذن في حجرات بيتي. مع التقدم في السن يرق الحجاب الذي يفصل هذا

العالم عن العالم الآخر، وأبدأ برؤية ما هو غير مرئي. أعتقد أنكِ ستجددين هذا المكان بعد موتي، ستوزعين وتهدين أثاثي القديم، وتطلين الجدران بطبقة أخرى من الكلس، ولكن عليك أن تتذكري أنك وعدتني بحفظ هذه الأوراق التي كتبتها من أجلك، ومن أجل ذريتك أيضاً. وإذا كنت تفضلين يمكنك تسليمها إلى رهبان أخوية الرحمة أو الرهبان الدومينكانيين الذين يدينون لي ببعض الخدمات. تذكري أيضاً أنني سأترك رصيداً من المال لنفقات مارينا أورتيث دي غايتي حتى آخر يوم في حياتها، ولتقديم الطعام للفقراء المعتادين على تلقي طبقهم اليومي عند باب هذا البيت. أظن أنني أخبرتك بهذا كله من قبل، فاعذريني إذا ما كنت أكرر كلامي. إنني واثقة من أنك ستنفذين طلباتي يا إيزابيل، لأنك خرجت في هذا الأمر أيضاً مثل أبيك: مستقيمة القلب، وكلمتك مقدسة.



انقلب وضع مستوطنتنا فور تنظيم اتصال مع البيرو، وبدء وصول مؤن وأناس يريدون التجريب. وبفضل السفن الشراعية التي صارت تروح وتجيء، استطعنا التوصية على الضروريات من أجل الازدهار. اشترى بالديبيا حديداً، وذخائر حربية، ومدافع. وأوصيتُ أنا على أشجار وبذور من إسبانيا تنمو على أحسن وجه في هذا المناخ التشيلي، وعلى نعاج، ومعزى، وماشية. وقد أرسلوا لي، بطريق الخطأ، ثماني بقرات واثني عشر ثوراً؛ مع أن ثوراً واحداً كان كافياً. وأراد أغيرّي أن يستغل ذلك الخطأ ليفتتح أول ميدان لمصارعة الثيران، غير أن الحيوانات وصلت ذاهلة بعد الرحلة البحرية الطويلة، وغير نافعة للنطاح. ولكنها لم تضع هباء، إذ حوّلنا عشرة منها إلى الاستخدام في الحراثة والنقل، وقام الثوران المتبقيان بخدمة البقرات على أحسن وجه، حتى صار لدينا الآن وفرة في المواشي، ابتداء من مراعي كوبيابو حتى وادي المابوتشي. وبنينا طاحونة وأفران خبز عامة، وصار لدينا محجر ومنشرة أخشاب، وحددنا مواقع لصنع الطوب واللَّبن، وأقمنا ورش دباغة، وفخار، وخيزران، وشموع، وسروج،

وأثاث. وكان هناك خياطان، وكاتبان عموميان، وطبيب ـ لا ينفع في أي شيء لسوء الحظ ـ وطبيب بيطري رائع. ومع الخطى المتسارعة في نمو المدينة، أُفرغ الوادي من الأشجار، إذ كان اندفاعنا في أعمال البناء هائلاً. لا يمكنني القول إن الحياة كانت مريحة، لكننا لم نعد إلى افتقاد الغذاء، حتى أن الياناكونا سمنوا وصاروا كسالى في العمل. ولم نواجه مشاكل عصيبة، باستثناء جائحة الفئران التي اصطنعها السحرة الهنود بفنون خبيثة لمضايقة المسيحيين. فلم نعد قادرين على حماية البذار، ولا البيوت والملابس، فالفئران تأكل كل شيء باستثناء المعادن. وقدمت لنا سيسيليا الحل المستخدم في البيرو: جرار مملوءة بالماء حتى منتصفها. نضع في الليل عدداً منها في كل بيت، وفي الصباح نجد حتى خمسمئة فأر غارق فيها، لكن الجائحة لم تنته إلا بعد أن حصلت سيسيليا على سحر كيتشوا يُبطل سحر سحرة الهنود التشيليين.

كان بالديبيا يتوسل إلى جنوده كي يأتوا بزوجاتهم من إسبانيا، عملاً بأوامر الملك، وقد فعل بعضهم ذلك، لكن معظمهم فضل العيش مع عدة خليلات هنديات شابات على العيش مع إسبانية ناضجة. فكان يتزايد باطراد في مستوطنتنا عدد الأطفال المولدين الذين لا يعرفون آباءهم. وكان على الإسبانيات اللواتي جئن للانضمام إلى أزواجهن أن يغضضن النظر ويتقبلن هذا الوضع، وهو في العمق غير مختلف كثيراً عما هي عليه الحال في إسبانيا. ومازالت شائعة في تشيلي عادة البيت الكبير، حيث تعيش الزوجة والأبناء الشرعيين، والبيوت الأخرى «الصغيرة» للخليلات وأبناء الزنا. لابد أنني الوحيدة التي لم تتسامح مع زوجها في هذا الشأن، مع أنه يمكن لأمور غير معروفة أن تكون قد جرت من وراء ظهري.

أُعلنت سنتياغو عاصمة للمملكة. وصار فيها مزيد من السكان ومزيد من الأمن؛ فهنود ميتشيمالونكو ظلوا بعيدين عنها. وقد أتاح لنا ذلك، بين ما أتاحه، تنظيم رحلات، ونزهات للغداء في الريف، وحفلات صيد على ضفاف نهر مابوتشو، وكانت قبل ذلك منطقة محرمة. خصصنا أيام أعياد

لتكريم القديسين، وأخرى للهو والتسلية مع الموسيقى، يشارك فيها الإسبان والهنود والزنوج والخلاسيين على السواء. وكانت تقام مصارعات ديوك، وسباقات كلاب، وألعاب الكرات الخشبية، ولعبة الطابة. وواصل بيدرو دي بالديبيا، وهو اللاعب المتحمس، تنظيم مباريات لعب الورق في بيتنا، والفرق الوحيد أن المراهنات عندئذ تكون وهمية. إذ لم يكن لدى أي شخص مرابطي واحد، لكن الديون كانت تُسجل بحرص المرابين، مع أن الجميع يعرفون أنها لن تُسدد أبداً.

وعندما استقر البريد مع البيرو وإسبانيا، صار بإمكاننا إرسال الرسائل وتلقيها، ولم يكن وصولها يتأخر أكثر من سنة أو سنتين. بدأ بيدرو بكتابة رسائل مطولة إلى الإمبراطور كارلوس الخامس، يتحدث فيها عن تشيلي، عن الفقر الذي نعانيه، عن نفقاته وديونه، وعن أسلوبه في إحقاق العدالة، وكيف أن هنوداً كثيرين يموتون رغم أسفه الشديد، وهناك بالتالي نقص في من يعملون في المناجم والأرض. ويطلب من الإمبراطور في أثناء ذلك منحه ألقاباً، لأن الحكام يستحقون نيلها، لكن مطالبه المشروعة تظل دون ردّ. كان يريد جنوداً، أناساً، سفناً، تأكيداً لسلطته، اعترافاً بأعماله. وكان يقرأ لي الرسائل بصوت آمر، وهو يتمشى في القاعة، ممتلئ الصدر بالزهو، ولم أكن أقول شيئاً. وكيف لي أن أبدي الرأي في مراسلاته مع أوسع ملوك الأرض قوة وسطوة، القيصر المقدس الذي لا يُهزم، كما يسميه بالديبيا. لكنني بدأت ألاحظ أن عشيقي قد تغير، فقد أدارت السلطة رأسه، وصار متعجرفاً. كان يشير في رسائله إلى مناجم ذهب غنية، هي خيالية أكثر منها واقعية. إنه الطُعم لاجتذاب الإسبان كي يأتوا ويعمروا، لأنه هو ورودريغو دي كيروغا وحدهما كانا يدركان أن ثروة تشيلي الحقيقية ليست الذهب والفضة، وإنما في مناخها الطيب وأرضها الخصبة التي تدعو للبقاء والاستقرار؛ أما المستوطنون الآخرون فكانوا لا يزالون يداعبون حلم الثراء السريع والرجوع إلى إسبانيا.

من أجل ضمان التبادل السلس مع البيرو، أمر بالديبيا بتأسيس مدينة في الشمال، مدينة سيرينا، وميناء قريب من سنتياغو، ميناء بالباريسو، ثم التفت بعد ذلك بنظره نحو نهر بيو ـ بيو، بنية إخضاع هنود المابوتشي. لقد أوضح لي فيليب أن هذا النهر مقدس، لأنه ينظم الجريان الطبيعي للمياه، ويُهدئ ببرودته غضب البراكين، وتنمو بفضل مروره كل النباتات، ابتداء من الأشجار الضخمة الوارفة، حتى الفطور السرية غير المرئية والشفافة. ووفقاً للوثائق التي أعطاها بيثارّو لبالديبيا، فإن سلطة هذا الأخير تمتد حتى مضيق ماجلان، إلا أنه لم يكن هناك من يعرف كم يبعد ذلك المضيق المشهور الذي يصل المحيط الشرقي بالمحيط الغربي. وفي تلك الأيام وصلت من البيرو سفينة يقودها ربان إيطالي شاب يدعى باستيني، فمنحه بالديبيا لقب أميرال وأرسله لاستكشاف الجنوب. وفي إبحار باستيني بمحاذاة الساحل، رأى مناظر بديعة لغابات عميقة، وأرخبيلات، ومناطق جيليدية، لكنه لم يجد المضيق الذي يبدو أنه أبعد إلى الجنوب أكثر مما هو متوقع. وفي أثناء ذلك، كانت تصلنا أخبار سيئة من البيرو، حيث تحول الوضع السياسي إلى حالة كارثية؛ فهم يخرجون هناك من حرب أهلية ليدخلوا في أخرى جديدة. كان غونثالو بيثارّو، أحد أخوة المركيز المتوفى، قد استولى على السلطة في تمرد سافر ضد إمبراطورنا، وكان الفساد والخيانة والأحكام المسبقة قد شاعت في تلك الولاية مما اضطر الإمبراطور كارلوس الخامس أخيراً إلى إرسال الكاهن العنيد لاغاسكا كي يفرض النظام. لن أستهلك حبراً في شرح مشاكل مدينة الملوك في تلك المرحلة، لأنني أنا نفسي لم أفهمها، لكنني أذكر لاغاسكا لأن رجل الدين هذا، بوجهه المغطى بقروح الجدري، اتخذ قراراً سيغير مسار حياتي.

كان بيدرو يتحرق لهفة ليس لفتح المزيد من الأراضي التشيلية التي يدافع عنها هنود المابوتشي حتى الموت، وإنما كذلك للمشاركة في أحداث البيرو والاتصال بالحضارة. كانت قد مضت عليه ثماني سنوات بعيداً عن مراكز القرار، وكان يرغب سراً في السفر إلى الشمال ليلتقي بعسكريين

آخرين، والمتاجرة، والشراء، والظهور هناك باعتباره فاتح تشيلي، وليضع سيفه في خدمة الملك ضد المتمرد غونثالو بيثارّو. أكان قد تعب مني؟ ربما؛ لكن الشكوك لم تراودني آنذاك، فقد كنتُ واثقة من حبه الذي كان في نظري طبيعياً مثل ماء المطر. وإذا كنتُ قد لاحظت قلقه، فقد افترضت أنه متضايق قليلاً من حياة القعود والاستقرار، ذلك أن استثارة الأزمنة الأولى في سنتياغو، عندما كنا نظل ممتشقين سيوفنا في الليل والنهار، قد انقضت وأفسحت المجال لحياة أكثر بطالة وراحة.

ـ إننا بحاجة إلى جنود من أجل الحرب في الجنوب، وعائلات من أجل تعمير بقية الأراضي، لكن البيرو تتجاهل مبعوثيّ ـ قال لي بيدرو في إحدى الليالي، مخفياً أسبابه الحقيقية.

ـ أتراك تنوي الذهاب بنفسك؟ إني أحذرك من أن غيابك يوماً واحداً سيحوّل الوضع هنا إلى كارثة. فأنت تعرف ما الذي يدبره صديقك ديلا أوث ـ قلت ذلك لمجرد أن أقول شيئاً، دون أن أدري أنه كان قد اتخذ قراره.

ـ سأترك بيّاغرا مكاني، إن له قبضة قوية.

ـ وكيف ستغري الناس في البيرو بالمجيء إلى تشيلي؟ فليسوا جميعهم مثاليين مثلك يا بيدرو. الرجال يندفعون حيث توجد الثروة وليس المجد.

ـ سترى كيف سأفعل ذلك.

كانت الفكرة فكرته، ولم تكن لي أي علاقة بها. أعلن بيدرو بطبل وصنج أنه سيُرسل سفينة باستيني إلى البيرو، ويمكن للراغبين في الرحيل وأخذ ذهبهم معهم أن يفعلوا ذلك. أثار هذا الخبر حماسة هذيانية، ولم يعد هناك حديث آخر في سنتياغو طيلة أسابيع. سأذهب! سأعود بأموالي إلى إسبانيا! كان هذا هو حلم كل رجل يأتي من القارة القديمة إلى العالم الجديد: العودة ثرياً. ولكن عندما حانت لحظة تسجيل المسافرين، لم يحسم الأمر في انتهاز الفرصة سوى ستة عشر مستوطناً، باعوا ممتلكاتهم بأسعار زهيدة، حزموا أمتعتهم، وجمعوا ذهبهم استعداداً للرحيل. وكان بين المسافرين الذين انطلقوا في قافلة باتجاه

الميناء مرشدي الروحي، الكاهن غونثالث دي مارموليخو، وكان عمره قد تجاوز الستين، وقد ابتدع الوسائل ليجمع ثروة حقيقية وهو في خدمة الرب. وذهبت كذلك السيدة ديات، وهي «سيدة» إسبانية وصلت إلى تشيلي قبل سنتين من ذلك في إحدى السفن. ولم يكن لديها «كسيدة» إلا القليل. إذ كنا نعرف أنها ذكر يرتدي زي النساء. «ما تملكه السيدة بين ساقيها هي بيضات وقضيب»، أخبرتني كاتالينا. «يا للأفكار التي تخطر لك! ولماذا يرضى رجل بارتداء ملابس النساء؟»، سألتها. «ولماذا سيكون يا سيدتي، من أجل سلب الرجال الآخرين نقودهم وحسب...»، أوضحت لي. كفانا نميمة وثرثرات.

وفي اليوم الموعود، صعد المسافرون إلى السفينة، ورتبوا صناديقهم المسمرة في القمرات المخصصة لهم، والذهب في داخلها، بحرص شديد. وفي هذه اللحظة ظهر على الشاطئ بالديبيا وقادة آخرون، يرافقهم عدد من الخدم، ليقيموا للمغادرين وليمة وداع. أسماك وقواقع لذيذة أُخرجت من البحر لتوها، مع نبيذ من قبو الحاكم الخاص. وضعوا مظلات من قماش سميك على الرمل، وتناولوا الغداء كأمراء، متباكين قليلاً للخطابات المؤثرة، لاسيما السيدة ذات القضيب، العاطفية والمتغنجة جداً. أصر بالديبيا على أن يحدد المستوطنون كميات الذهب التي يحملونها معهم، لتجنب أية مشاكل لاحقة، وبدا إجراء حكيماً حظي بتأييد الجميع. وبينما الكاتب يدون في دفتره بحرص الأرقام التي يقدمها المسافرون، ركب بالديبيا الزورق الوحيد المتوفر، وقاده خمسة بحارة أشداء باتجاه السفينة، حيث كان بانتظاره عدد من أشد قادته وفاء، يريد الذهاب معهم ليضع نفسه في خدمة قضية الملك في البيرو. وحين انتبه المسافرون الغافلون للخدعة، راحوا يولولون غضباً واندفع بعضهم إلى الماء في إثر الزورق، لكن الوحيد الذي وصل إليه تلقى ضربة مجذاف كادت أن تدق عنقه. يمكنني أن أتصور قنوط أولئك المفتقرين وهم يرون السفينة ترفع قلوعها وتتوجه نحو الشمال، حاملة ممتلكاتهم الدنيوية.

كان على القائد الفظ بيّاغرا، الذي لا يعرف التروي، أن يحل محل بالديبيا باعتباره نائباً للحاكم، ويواجه المستوطنين الغاضبين على الشاطئ. مظهره القوي، ووجهه الأحمر الثابت بين الرجال، وإيماءته العابسة، ويده الممسكة بمقبض السيف، فرضت النظام. أوضح لهم أن بالديبيا انطلق إلى البيرو للدفاع عن سيدهم الملك، والحصول على تعزيزات لمستوطنة تشيلي، لهذا وجد نفسه مضطراً إلى فعل ما فعله، لكنه وعد بإعادة كل قرش أخذه من حصته في منجم مارغا ـ مارغا. وانتهى إلى القول: «من أعجبه ذلك يحسن صنعاً، ومن لم يعجبه عليه أن يحلّ الأمر معي». فلم يطمئن كلامه أحداً.

يمكنني تفهم مسوغات بيدرو الذي رأى في هذه الخدعة، وهي غريبة عن طبعه المستقيم، الحل الوحيد لمشكلة تشيلي. لقد وضع في إحدى كفتي الميزان الضرر الذي ألحقه بهؤلاء الأبرياء السبعة عشر، وفي الكفة الثانية ضرورة دفع عملية الفتح قُدماً، وفائدة آلاف الأشخاص، فرجحت الكفة الثانية. لو أنه تشاور معي في الأمر، لكنت أيدت قراره بكل تأكيد، وإن كنتُ سأنجزه بطريقة أكثر لطفاً ـ ولكنت رافقته أيضاً ـ، لكنه لم يُطلع على سره سوى معاونيه القادة الثلاثة. أتراه فكر في أنني قد أحبط الخطة بالثرثرات؟ لا، فخلال السنوات التي قضيناها معاً، أثبّتُ تكتمي وشراستي في الدفاع عن حياته ومصالحه. لكنني أظن أنه خشي أن أعمد إلى منعه من السفر. لقد غادر دون أن يحمل معه إلا أقل الضروريات، لأنه إذا حزم أمتعته كما يجب، فسوف أنتبه إلى ما يدبره. وسافر دون أن يودعني، مثلما فعل زوجي خوان دي مالفا قبل سنوات.



خدعة بالديبيا، وهي لم تكن شيئاً آخر سوى خدعة، مهما كانت القضية التي تستر بها، بدت هدية من السماء لسانتشو ديلا أوث الذي صار بإمكانه حينئذ أن يتهمه بجريمة محددة: لقد خدع الناس، سرق ثمرة سنوات من عمل جنوده وبؤسهم. وهو ما يستحق عليه الموت.

عندما علمتُ أن بيدرو قد رحل، أحسست بأنني ضحية الخيانة أكثر من المستوطنين المخدوعين. فقدتُ السيطرة على أعصابي لأول وآخر مرة في حياتي. وحطمتُ خلال يوم كامل كل ما وجدته في متناول يدي وصرختُ بأعلى صوتي، سترون الآن من أنا، إنيس سواريث، فأنا لا أسمح لأحد بأن يرمي بي مثل خرقة بالية، ولهذا أنا حاكمة تشيلي الحقيقية والجميع يعرفون كم هم مدينون لي، وماذا كان يمكن لمدينة البراز هذه أن تصير إليه من دوني، فأنا من شققت القنوات بيدي، وعالجت كل المرضى والجرحى لدينا، زرعتُ، وحصدتُ، وطبخت كي لا يعانوا الجوع؛ وكما لو أن هذا كله غير كافٍ، حملت السلاح كأفضل الجنود، وبيدرو مدين لي بحياته، لقد أحببته وخدمته ومنحته السعادة، وليس هناك من يعرفه خيراً مني، ولا من يتحمل نزواته مثلي، وغيرها وغيرها من الترهات، إلى أن قيدتني كاتالينا ونساء أخريات إلى السرير وذهبن لإحضار نجدة. ظللت أطلق اللعنات والدموع، وقد أصابني مس شيطاني، بينما خوان دي مالغا قابع عند طرف السرير يسخر مني. وبعد قليل جاء غونثالث دي مارموليخو مسرعاً. كان مغموماً، لأنه أكبر المخدوعين سناً، ويرى أنه لن يستطيع قط تعويض خسارته. ولكنه لم يسترد أملاكه مع الفوائد في ما بعد وحسب، بل كان عند موته، بعد عدة سنوات، أغنى رجل في تشيلي. كيف توصل إلى جمع تلك الثروة؟ إنه سر غامض. أظن أنني أنا من ساعدته في جمع جزء من ثروته، فقد اشتركنا معناً في تربية الخيول، وهي فكرة كانت تجول في خاطري منذ بداية الرحلة إلى تشيلي. وصل الكاهن إلى بيتي مستعداً للقيام بطقوس لطرد الشياطين مني؛ لكنه عندما أدرك أن ما أصابني هو سخط عارم من العشيق الذي أغاظني، اكتفى برشي بماء مبارك وترديد صلاة «يا قديسة مريم» بضع مرات، وهو علاج أعاد لي السكينة.

وفي اليوم التالي جاءت سيسيليا لزيارتي، وكانت قد صارت أماً لعدة أبناء، لكن الأمومة لم تخلّف أي أثر في مظهرها الملكي، وفي وجهها كأميرة إنكا. وبفضل موهبتها في التجسس، ووضعها كزوجة للمأمور القضائي خوان

غوميث، كانت تعرف كل ما يحدث في المستوطنة، بما في ذلك نوبة غضبي الأخيرة. وجدتني في السرير، وكنت لا أزال مستفدة من اليوم السابق.

- سأجعل بيدرو يدفع الثمن يا سيسيليا! - بادرتها بالقول بدل التحية.

- إنني أحمل لك أخباراً طيبة يا إنيس. لن تضطري إلى الانتقام منه، لأن آخرين سيفعلون ذلك بدلاً منك.

- ماذا تقولين؟

- المستاؤون، وهم كثر في سنتياغو، يخططون لاتهام بالديبيا أمام المحكمة الملكية في البيرو. فإذا لم يفقد رأسه على منصة الإعدام، فسوف يقضي بقية حياته على الأقل في السجن. فانظري كم أنت محظوظة يا إنيس!

- هذه فكرة سانتشو ديلا أوث! - هتفتُ وأنا أقفز من السرير لارتداء ملابسي.

- أكان بإمكانك أن تتصوري أنه يمكن لهذا السفيه أن يقدم لك مثل هذه الخدمة الكبيرة؟ لقد دفع ديلا أوث إلى التداول رسالة يطالب فيها بعزل بالديبيا، وقد وقع على الرسالة كثيرون من سكان المدينة. فمعظم الناس يريدون التخلص من بالديبيا وتعيين ديلا أوث حاكماً بدلاً منه - أطلعتني سيسيليا.

- هذا الألعوبة لن يستسلم أبداً! - دمدمتُ وأنا أعقد رباط الجزمة.

قبل شهر من ذلك كان النديم الشرير قد حاول اغتيال بالديبيا. ومثل كل الخطط التي تخطر له، كانت هذه الخطة مبهرجة أيضاً: يتظاهر بأنه مريض جداً، ويندس في الفراش، ويعلن أنه يحتضر ويريد أن يودع أصدقاءه وأعداءه على السواء، بمن في ذلك الحاكم. وهيأ أحد أتباعه ليكون وراء ستارة، مسلحاً بمدية ليطعن بالديبيا من الخلف، وهو منحن على السرير ليسمع همسات المحتضر المزعوم. هذه التفاصيل المضحكة وتبجحه بها ضيعت ديلا أوث، لأني كنت أعلم بمكائده دون أي جهد من جانبي. وقد نبهتُ بيدرو حينذاك إلى الخطر مرة أخرى، لكنه أطلق في أول الأمر قهقهة مدوية، ولم يصدقني. إلا أنه وافق بعد ذلك على التحري بعمق حول الموضوع. وأدت التحقيقات إلى اعتبار

ديلا أوث مذنباً، وحُكم عليه بالشنق للمرة الثانية أو الثالثة، فقد نسيت عددها. ومع ذلك، عفا عنه بيدرو في اللحظة الأخيرة، للمحافظة على العادة.

انتهيتُ من ارتداء ملابسي، وودعت سيسيليا بكلمة اعتذار، وذهبت مسرعة للتحدث إلى القائد بيّاغرا ولأعيد على مسمعه كلمات الأميرة وأؤكد له أنه إذا ما توصل ديلا أوث إلى النجاح في مسعاه، فإن أول من سيفقدون رؤوسهم سيكونون رجال بيدرو الأوفياء، وهو نفسهم في المقدمة.

أراد فرانثيسكو بيّاغرا أن يعرف المزيد، وقد احمر وجهه غضباً.

ـ هل لديك أدلة يا دونيا إنيس؟

ـ لا، إنها إشاعات فقط يا دون فرانثيسكو.

ـ هذا يكفيني.

سارع إلى اعتقال المتآمر، وأمر بقطع رأسه في عصر ذلك اليوم بالذات، دون أن يمنحه الوقت للاعتراف أمام الكاهن. ثم أمر بالتجول بالرأس في المدينة، محمولاً من شعره، قبل أن يغرسه على رمح ليكون عبرة للمترددين، كما هو معهود في مثل هذه الحالات. كم من الرؤوس رأيتها تُعرض بهذه الطريقة في حياتي؟ من المستحيل حصرها. امتنع بيّاغرا عن ملاحقة بقية المتآمرين المختبئين كالفئران في بيوتهم، لأن ذلك يعني أن عليه اعتقال جميع الأهالي، إذ كان الاستياء ضد بالديبيا يشمل سنتياغو بأسرها. وهكذا وضع ذلك القائد، في ليلة واحدة، حداً لجرثومة الحرب الأهلية، وخلصنا في الوقت نفسه من العلقة الطفيلية التي كان يمثلها سانتشو ديلا أوث.

❖ ❖ ❖

تأخر بيدرو دي بالديبيا شهراً في الوصول إلى كاياو، بسبب توقفه في عدة أماكن في الطريق إلى الشمال، بانتظار أن تصله أخبار من سنتياغو؛ كان يريد التأكد من أن بيّاغرا يعمل على تصريف الأوضاع ببراعة، ويغطي له ظهره. علم بأمر تمرد سانتشو ديلا أوث، لأن رسولاً تمكن من حمل الخبر السيئ

إليه، لكنه لم يكن راغباً في أن يكون مسؤولاً مباشرة عن نهايته، لأن ذلك قد يورطه في مشاكل مع العدالة. وقد أسعده كثيراً أن يتولى نائبه الوفيّ حلّ مسألة المؤامرة على طريقته، وإن يكن أبدى المفاجأة والاستياء مما حدث، فهو لم ينسَ أن لخصمه اتصالات قوية مع شخصيات في بلاط كارلوس الخامس.

ولكي أغفر له، أرسل بيدرو فارساً سريعاً ليحمل لي، من بلدة سيرينا، رسالة حب وخاتماً غريب الشكل من الذهب. مزقتُ الرسالة، وأهديت الخاتم إلى كاتالينا شريطة أن تخفيه عن ناظري، لأنه يجعل دمي يفور.

وفي الطريق إلى الشمال، اجتمع الحاكم مع جماعة من عشرة فرسان وزودهم بدروع وأسلحة وخيول، مستفيداً من ذهب المخدوعين المفتقرين في سنتياغو، وانطلق معهم ليضع نفسه تحت راية الكاهن لاغاسكا، الممثل الشرعي لملك إسبانيا في البيرو. ومن أجل اللقاء مع جيش لاغاسكا، كان على النبلاء ارتقاء قمم جبال الأنديز الجليدية، والتقدم بدفع الخيول بالإكراه، إذ أنها كانت تنهار لافتقادها الهواء في الأعالي، بينما كان داء المرتفعات يصيب الفرسان أنفسهم بتمزقات في آذانهم، ونزف من ثقوب عديدة في أجسادهم. كانوا يعرفون أن لاغاسكا الذي يفتقر تماماً لأي خبرة عسكرية، وإن كان رجلاً صلباً وقوي الإرادة، سيخوض مواجهة مع جيش قوي، على رأسه قائد متمرس وشجاع. فمع أنه يمكن اتهام الجنرال غونثالو بيثارّو بأي تهمة، باستثناء القول إنه جبان رعديد. قوات لاغاسكا التي أنهكها المرض وشلها البرد خلال الرحلة عبر سلسلة الجبال، وأرعبها الخوف من تفوق العدو، استقبلت بالدييبا وضباطه العشرة كما لو أنهم الملائكة المنتقمون. ورأى لاغاسكا أن هؤلاء النبلاء الذين جاؤوا بمعجزة لنجدته، سيلعبون دوراً حاسماً. عانقهم شاكراً، وسلّم القيادة لبيدرو دي بالدييبا، فاتح تشيلي الأسطوري، بتعيينه قائداً ميدانياً. استعادت القوات الثقة بنفسها فوراً، إذ صارت تشعر بانتصارها المؤكد بوجود هذا القائد على رأسها. بدأ بالدييبا بتعزيز معنويات الجنود بكلمات دقيقة هي حصيلة سنوات من التعامل مع مرؤوسيه، ثم بادر إلى تقويم قواهم وعتادهم.

وعندما تبين له أنه حيال مهمة شاقة، أحس باستعادة الشباب؛ ولم يره ضباطه بمثل تلك الحماسة قط منذ أزمنة تأسيس سنتياغو.

من أجل الوصول إلى مدينة كوسكو، حيث يتوجب عليه مواجهة جيش المتمرد غونثالو بيثارّو، استخدم بالديبيا دروب الإنكا الضيقة، المحفورة على السفوح المطلة على هاويات سحيقة. كان يتقدم مع قواته مثل رتل من النمل بين كتل الجبال البنفسجية المهيبة: صخور، ثلج، قمم ضائعة بين السحاب، رياح ونسور كندور. كانت تبرز من شقوق صخرة في بعض الأحيان جذور متحجرة، فيتمسك بها الرجال ليستريحوا لحظة خلال صعودهم الرهيب. كانت قوائم الخيول تنزلق على الصخر، فيضطر الجنود لتثبيتها من أعرافها للحيلولة دون وقوعها في أعماق الهاويات. كان المشهد بهاء طاغياً ومتوعداً. إنه عالم ضياء متوهج وظلمات كوكبية. فالرياح والبَرد نحتت أشكال شياطين في ملتقى الذرى الجبلية؛ والثلج الحبيس في الصدوع الصخرية يتلألأ بألوان الفجر. في الصباح تنبثق الشمس نائية وباردة، ملونة القمم بخطوط برتقالية وحمراء؛ وفي المساء يختفي الضوء فجأة مثلما أشرق في الصباح، فتغرق سلسلة الجبال في السواد القاتم. الليالي تبدو أبدية، وليس هناك من يستطيع التقدم في الظلام. فينكمش الرجال والبهائم على أنفسهم مرتجفين ومعلقين على شفير الهاويات.

ومن أجل التخفيف من داء المرتفعات ومنح الرجال المنهوكين بعض الطاقة، جعلهم بالديبيا يمضغون أوراق الكوكا، مثلما يفعل هنود الكيتشوا منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة. وعندما علم أن غونثالو بيثارّو قطع الجسور المعلقة لمنعهم من اجتياز الأنهار والجروف العميقة، أمر الياناكونا بأن يجدلوا حبالاً من نباتات المنطقة، وهو عمل ينجزونه بسرعة عجيبة. تقدم مع جماعة من الشجعان دون أن يكون مرئياً، مستغلاً ضباب سلسلة الجبال، حتى بلغ أحد المعابر التي قطعها بيثارّو، حيث أمر الهنود بجدل كل ستة حبال معاً، على طريقة الكيتشوا التقليدية، وصنع جسور معلقة منها. وفي اليوم التالي وصل لاغاسكا مع الجيش، فوجد المشكلة قد حلّت. واستطاعوا أن ينقلوا إلى

الجانب الآخر قرابة ألف جندي، وخمسين حصاناً، وعدد كبير من الياناكونا وأسلحة ثقيلة، بالتأرجح على جسر الحبال المعلق فوق الهاوية السحيقة، وسط ولولة الريح. وكان على بالديبيا بعد ذلك أن يجبر الجنود المنهوكين على الصعود مسافة فرسخين على جبل وعر، حاملين العتاد على ظهورهم، وساحبين المدافع بالحبال حتى الموقع الذي اختاره ليتحدى منه غونثالو بيثارّو. وما إن نصب الأسلحة في أماكن استراتيجية من الجبل، حتى قرر منح الرجال يومين لاستعادة قواهم، بينما راح هو، في محاكاة لمعلمه مركيز بيسكارا، يتفحص مواقع المدفعية ورماة البنادق بنفسه، ويتحدث إلى كل جندي ليعطيه التعليمات ويهيئ خطة المعركة. يخيل إليّ أنني أراه على صهوة جواده، بدروعه الجديدة، نشطاً، متلهفاً، يحسب مسبقاً تحركات العدو، ويعدّ للهجوم كلاعب الشطرنج الجيد الذي كانه. لم يعد شاباً، فهو في الثامنة والأربعين، وقد ازدادت سمنته قليلاً، وما زال جرح وركه يزعجه. لكنه مازال قادراً على البقاء ممتطياً جواده ليومين بليلتيهما دون راحة، وأعرف أنه كان يشعر في تلك اللحظة بأنه لا يُهزم. لقد كان واثقاً من النصر إلى حدّ أنه وعد لاغاسكا بأن تكون الخسائر أقل من ثلاثين جندياً، وقد وفى بوعده.

ما إن دوت أول صلية من قذائف المدافع بين الجبال، حتى أدرك أنصار بيثارّو أنهم أمام جنرال عظيم. وما لبث عدد كبير من الجنود غير المرتاحين لفكرة القتال ضد الملك أن غادروا صفوف غونثالو بيثارّو لينضموا إلى لاغاسكا. ويُروى أن القائد الميداني لقوات بيثارّو، وهو ثعلب عجوز يتمتع بسنوات طويلة من الخبرة العسكرية، حدس على الفور ضد من سيقاتل، فقد قيل إنه قال: «هناك جنرال واحد فقط في العالم الجديد قادر على مثل هذه الاستراتيجية: دون بيدرو دي بالديبيا، فاتح تشيلي». لم يخذله عدوه، ولم يمنحه هدنة أيضاً. وبعد ساعات من القتال والخسائر الكبيرة، اضطر غونثالو بيثارّو إلى الاستسلام وتسليم سيفه إلى بالديبيا. وبعد أيام قليلة جرى قطع رأسه في كوسكو، ومعه قائده الميداني العجوز.

أنجز لاغاسكا مهمته في إخماد التمرد وإعادة البيرو إلى كارلوس الخامس؛ وصار عليه الآن أن يحتل منصب غونثالو بيثارّو الذي أطيح به، مع ما يعنيه ذلك من سلطات واسعة. إنه مدين بانتصاره للقائد بالديبيا، فكان أول ما فعله هو تثبيت لقبه كحاكم لتشيلي، وهو اللقب الذي منحه إياه أهالي سنتياغو، ولم يكن التاج الإسباني قد ثبته حتى ذلك الحين. كما منحه فوق ذلك صلاحية تجنيد جنود ونقلهم إلى تشيلي، على ألا يكونوا ممن شاركوا في تمرد بيثارّو أو من هنود البيرو.

هل تَذكُرني بيدرو وهو يمشي ظافراً في شوارع كوسكو؟ أم أنه كان ينتفخ زهواً ولا يفكر إلا بنفسه؟ لقد تساءلتُ ألف مرة عن السبب الذي منعه من أن يأخذني معه في تلك الرحلة. لو أنه فعل ذلك، لكان قدرنا قد اختلف تماماً. لقد ذهب في مهمة عسكرية، هذا صحيح، لكنني كنت رفيقته في الحرب كما في السلام. أتراه يخجل مني؟ عشيقة، حظية، خليلة. لقد كنتُ في تشيلي دونيا إنيس سواريث، الحاكمة، ولم يكن هناك من يتذكر أننا لسنا زوجين شرعيين. وأنا نفسي كنت أنسى ذلك. لابد أن النساء قد حاصرن بيدرو في كوسكو، وبعد ذلك في مدينة الملوك، فهو البطل المطلق للحرب الأهلية، وفاتح تشيلي وسيدها، ويُفترض أنه ثري ولا يزال جذاباً؛ ويشرف أي امرأة أن تستسلم لذراعيه. كان الكلام يدور أيضاً عن مؤامرة لاغتيال لاغاسكا، رجل التعصب المتشدد، وتنصيب بيدرو دي بالديبيا مكانه، غير أنه لم يكن هناك من يتجرأ على قول ذلك للمعني مباشرة، لأنه سيعتبر مثل هذا القول إهانة لشرفة. فسيف آل بالديبيا كان على الدوام في خدمة الملك بكل إخلاص، ولن ينقلب ضده أبداً، ولاغاسكا هو ممثل الملك.

ليس هناك، وأنا في هذه السن، ما يستحق تقليب التخمينات حول النساء اللاتي عاشرهن بيدرو في البيرو، لاسيما أن ضميري لم يكن نظيفاً جداً: ففي تلك الفترة بدأت صداقتي الغرامية مع رودريغو دي كيروغا. وعليّ

أن أعترف مع ذلك بأنه لم يتخذ أي مبادرة من جانبه، ولم يبدِ ما يشير إلى أنه فهم رغباتي الغامضة. كنتُ أعرف أنه لن يخون أبداً صديقه بيدرو دي بالديبيا، ولكنني حافظت على تلك المودة المتبادلة مثلما حافظ هو عليها. أتراني تحولت نحو كيروغا بدافع الغضب؟ كي أنتقم من تخلي بيدرو عني؟ لستُ أدري، وكل ما جرى أنني تبادلت ورودريغو الحب كخطيبين عفيفين، بمشاعر عميقة ومتلهفة، لم نصفها قط في كلمات، وإنما في نظرات وإيماءات وحسب. لم تكن عاطفة متأججة من جانبي، كتلك التي أحسست بها تجاه خوان دي مالغا أو بيدرو دي بالديبيا، وإنما رغبة غامضة في أن أكون قريبة من رودريغو، ومشاطرته حياته، والعناية به. كانت سنتياغو مدينة صغيرة، من المستحيل فيها الإبقاء على سر مكتوم، لكن سمعة رودريغو كانت نظيفة لا تشوبها شائبة، فلم يحاول أحد نشر الإشاعات عنا، بالرغم من أننا كنا نلتقي يومياً عندما لا يكون منشغلاً بالحرب. ولم تكن تنقصنا الذرائع، إذ كان يساعدني في مشاريعي لبناء الكنيسة، والبيوت، والمقبرة والمستشفى؛ وتوليت أنا مسؤولية رعاية ابنته.

لا يمكنك أن تتذكري ذلك يا إيزابيل، لأنك كنتِ في الثالثة من عمرك وحسب. ففي تلك السنة توفيت، في جائحة التيفوس، أمك إولاليا التي أحبتك كثيراً مثلما أحبت رودريغو. واقتادك أبوك من يدك إلى بيتي وقال لي: «أرجوكِ أن تعني بها بضعة أيام يا دونيا إنيس، فأنا مضطر للذهاب من أجل تصفية الحساب مع بعض المتوحشين، لكنني سأرجع سريعاً». كنتِ طفلة صموتاً وقوية، لك وجه لاما، والعينان العذبتان نفسهما برموشهما الطويلة، وتعبير الفضول نفسه، والشعر المجموع في غديرتين منتصبتين مثل أذني حيوان. ورثتِ عن أمك البشرة التي لها لون الكراميلا، وعن أبيك التقاطيع الأرستقراطية.. مزيج بديع. إنني أتذكركِ منذ لحظة اجتيازك عتبة بيتي محتضنة حصاناً خشبياً نحته لك رودريغو. ولم أُعِد قط إلى أبيك، استبقيتك معي بذرائع مختلفة إلى أن تزوجنا أنا ورودريغو، وعندئذ

صرت ابنتي شرعياً. لقد كانوا ينتقدونني لأني أدللك وأعاملك معاملة البالغين، وكانوا يقولون إنني أربي مسخاً؛ فتصوري الصدمة التي تلقتها ألسنة السوء عندما رأت النتيجة.



خلال هذه السنوات التسع التي انقضت في استيطان تشيلي، خضنا عدة معارك كبيرة، وما لا حصر له من المناوشات مع الهنود التشيليين، لكننا لم نقتصر على التمكن من الاستقرار وحسب، بل أسسنا كذلك مدناً جديدة. وكنا نعتقد أننا آمنون، لكن سكان تشيلي الأصليين لم يتقبلوا قط وجودنا على أرضهم، مثلما سيتأكد لنا في السنوات التالية. كان هنود ميتشيمالونكو، في الشمال، يستعدون منذ سنوات لتمرد واسع، لكنهم ما كانوا يجرؤون على مهاجمة سنتياغو مثلما فعلوا في العام 1541؛ غير أنهم ركزوا جهودهم بالمقابل على بلدات الشمال الصغيرة، حيث أن المستوطنين الإسبان شبه عزل.

في صيف العام 1549 توفي دون بينيتو بمرض في بطنه، بعد أن أكل أصدافاً بحرية فاسدة. كان محبوباً جداً من الجميع، وكنا نعتبره بطريرك المدينة. لقد وصلنا إلى وادي المابوتشو مدفوعين بأوهام هذا الجندي العجوز الذي كان يقارن تشيلي بجنة عدن. وقد كان يتعامل معي على الدوام بشهامة وإخلاص مثاليين، ولهذا أحسست باليأس لأني لم أستطع مساعدته في احتضاره. لقد مات بين ذراعي، متلوياً من الألم، ومسمماً حتى نقي العظام. وكنا في أوج الجنازة التي حضرها جميع السكان، عندما ظهر في سنتياغو جنديان بأسمال مهلهلة، يوشكان على السقوط أرضاً من الإنهاك، وأحدهما مصاب بجراح خطيرة. كانا آتيين من سيرينا، يسيران ليلاً ويختبئان في النهار من الهنود. وقالا إن الحارس الوحيد في مدينة سيرينا الصغيرة، وحديثة التأسيس، لم يكد يعطي إشارة الإنذار في إحدى الليالي

إلا وكانت جموع من الهنود المزهوين تنقض على البلدة. لم يتمكن الإسبان من الدفاع عن أنفسهم، وخلال ساعات قليلة لم يبق من سيرينا أي شيء. قام المهاجمون بتعذيب الرجال والنساء حتى الموت، وهشموا الأطفال بقذفهم ليرتطموا بالصخور، وحوّلوا البيوت إلى رماد. وخلال تلك الفوضى، تمكن الجنديان من الإفلات، وبمشقات غير محدودة، حملا الخبر الرهيب إلى سنتياغو. أكدا لنا أنه تمرد عام وشامل، وأن القبائل قد استعدت للحرب، وأنها صارت جاهزة لتدمير كل المواقع الإسبانية.

استولى الذعر على سكان سنتياغو؛ وخيل إلينا أننا نرى شراذم المتوحشين تجتاز الخندق المحيط بالمدينة، وتتسلق الأسوار وتنقض علينا بالغضب الشيطاني. ووجدنا أنفسنا مرة أخرى منقسمي القوى، إذ كان قسم من الجنود قد خصص لمدن الشمال الصغيرة، وكان بيدرو دي بالديبيا غائباً مع عدد من القادة، والتعزيزات الموعودة لم تكن قد وصلت بعد. كان من المستحيل حماية المناجم والمزارع التي هُجرت، بينما كان الناس يلتجئون إلى سنتياغو. النساء اليائسات اعتكفن في الكنيسة ليصلين ليلاً ونهاراً، بينما الرجال، بمن فيهم المسنون والمرضى، يستعدون للدفاع عن المدينة.

قرر المجلس البلدي، في اجتماع موسع، أن يذهب بيّاغرا مع ستين رجلاً لمواجهة الهنود في الشمال، قبل أن ينظموا أنفسهم للمجيء إلى سنتياغو. وظل أغيري في الحاضرة لتولي مسؤولية الدفاع عنها، وكُلف خوان غوميث باستخدام أي وسيلة للحصول على معلومات عن الحرب، وهو ما يعني بكلمات أخرى تعذيب المشتبه بهم. كانت صرخات الهنود الخاضعين للتعذيب تساهم في زيارة توتير أعصابنا المتوترة. ولم تفد توسلاتي بالرحمة وحجتي في أنه لا يمكن التوصل من خلال التعذيب إلى الحقيقة، لأن الضحايا يعترفون بما يرغب جلادهم سماعه. لقد كانت الأحقاد، والخوف، والرغبة في الانتقام كبيرة إلى حدّ احتفال الناس بأخبار حملات بيّاغرا العقابية التي توازي في فظاعاتها فظائع الهمجيين. فقد تمكن بأساليبه الوحشية من إخماد

التمرد وإلحاق الهزيمة بقوات السكان الأصليين خلال أقل من ثلاثة أشهر، وتجنيب سنتياغو الهجوم المعادي. وفرض على زعماء القبائل اتفاقية سلام، لكن أحداً لم يكن ينتظر أن تكون الهدنة دائمة؛ وكان أملنا الوحيد يتمثل في أن يعود الحاكم بأسرع وقت مع ضباطه، ويحضر معه جنوداً من البيرو.

بعد شهور من حملة بيّاغرا العسكرية، أرسل المجلس البلدي فرانثيسكو أغيرّي إلى الشمال بمهمة إعادة إعمار المدن التي سيطر عليها الهنود واجتذاب حلفاء، غير أن القائد الباسكي استغل الفرصة ليفلت الزمام لطبعه المندفع والقاسي. كان ينقض على الدساكر الهندية دون رحمة، يجمع الذكور، ابتداء من الأطفال حتى الشيوخ، فيحبسهم في براكات من الخشب ويحرقهم أحياء. وهكذا أوشك على إبادة السكان الأصليين عن بكرة أبيهم، وكان عليه ـ مثلما راح يروي وهو يضحك ـ أن يُحبّل الأرامل من أجل إعادة إعمار الأرض بالسكان. ولن أضيف مزيداً من التفاصيل لخشيتي من أن هذه الصفحات تتضمن من القسوة أكثر مما يمكن لروح مسيحية أن تتسامح معه. ففي العالم الجديد لم يكن هناك من يبحث عن الضوابط عند ممارسة العنف. ماذا أقول؟ فعنف كالذي كان يمارسه أغيرّي موجود في كل مكان وفي كل الأزمنة. لا شيء يتغير، فنحن الكائنات البشرية نكرر الخطايا نفسها مرة بعد أخرى، إلى أبد الآبدين. كان ذلك يحدث في بلاد الهند، بينما كارلوس الخامس يصدر في إسبانيا القوانين الجديدة التي يؤكد فيها أن الهنود هم من رعايا التاج، وينبه الأوصياء على الهنود بأنه لا يمكن لهم إجبارهم على العمل بالإكراه، أو معاقبتهم جسدياً، وأنه عليهم التعاقد معهم وفق عقد مكتوب، وأن يدفعوا لهم أجورهم نقداً، وأنه على الفاتحين فوق ذلك أن يتقربوا من السكان الأصليين بالحسنى، وأن يطلبوا منهم بعبارات مهذبة تقبل رب المسيحيين وملكهم، وأن يتنازلوا عن أرضهم ويضعوا أنفسهم تحت أمرة السادة الجدد. ومثل غيرها من قوانين النوايا الطيبة، ظلت تلك القوانين مجرد حبر على الورق. وقد كان تعليق أغيرّي في هذا الشأن: «لابد أن جنون مليكنا أكبر مما

كنا نتوقعه، إذا ما كان يفكر في أن قوانينه هذه قابلة للتنفيذ. وكان محقاً. فما الذي فعله الناس في إسبانيا عندما جاءهم غرباء ليفرضوا عليهم عاداتهم ودياناتهم؟ قاتلوهم حتى الموت طبعاً.

في أثناء ذلك، تمكن بيدرو من جمع عدد لا بأس به من الجنود في البيرو، وبدأ رحلة العودة براً عبر طريق صحراء أتاكاما المعروف. وبعد أسابيع من المسير، لحق به بأقصى سرعة رسولٌ من لاغاسكا، وأبلغه بوجوب عودته إلى مدينة الملوك حيث يوجد ملف ضخم من الاتهامات ضده. فما كان من بالديبيا إلا أن ترك القوات تحت قيادة ضباطه واستدار عائداً ليواجه العدالة. لم تفده في شيء المساعدة التي قدمها إلى الملك ولاغاسكا من أجل إلحاق الهزيمة بغونثالو بيثارّو وإعادة السلام إلى البيرو، وجرت محاكمته بالرغم من كل ذلك.

فضلاً عن الأعداء الحاسدين الذين اكتسبهم بالديبيا في البيرو، كان هناك نمامون ذهبوا من تشيلي بهدف تدميره. الاتهامات ضده زادت على الخمسين، لكنني لا أتذكر إلا المهمة منها، وتلك التي تخصني. اتهموه بأنه نصّب نفسه حاكماً دون تصريح بذلك من فرانثيسكو بيثارّو الذي منحه لقب نائب للحاكم وحسب؛ وبأنه أمر بقتل سانتشو ديلا أوث وإسبان أبرياء آخرين، مثل الشاب إسكوبار الذي حكم عليه بدافع الغيرة. وأكدوا أنه سرق أموال المستوطنين، لكنهم لم يقولوا إن بيدرو قد سدد معظم تلك الديون من نتاج منجم مارغا - مارغا، مثلما وعد. وقالوا إنه استولى على أفضل الأراضي وعلى آلاف الهنود، دون أن يذكروا أنه تحمل مختلف نفقات المستعمرة، وأنه يمول الجنود، ويقرض الأموال دون فائدة، وأنه كان يعمل، باختصار، كخازن لتشيلي بأمواله الخاصة، لأنه لم يكن في يوم من الأيام بخيلاً أو جشعاً. وأضافوا أنه منح ثروة طائلة للمدعوة إنيس سواريث التي يعيش معها في مساكنة فضائحية دون زواج. وكان أكثر ما أثار حفيظتي بعد ذلك، عندما علمتُ بالتفاصيل، هو أن أولئك الأوغاد أكدوا أنني أتلاعب ببيدرو مثلما أشاء،

وأن الحصول على أي شيء من الحاكم يتطلب دفع رشوة لخليلته. لقد عانيت مصاعب كثيرة في فتح تشيلي، وكرستُ حياتي لتأسيس هذه المملكة. ولا مجال هنا لسرد ما حققته بجهودي، فكل شيء مدون في ملفات المجلس البلدي، ويمكن لمن يخامره الشك الذهاب للاطلاع عليها. صحيح أن بيدرو كرمني بأراض جيدة وبهنود تحت وصايتي يعملون فيها، مما ولّد أحقاداً في أناس دنيئين وقصيري الذاكرة، ولكن من غير الصحيح أنني اكتسبت كل ذلك في الفراش. لقد تنامت ثروتي لأنني أشرفت على إدارتها بحكمة الفلاحة الجيدة التي ورثتها عن أمي، فلترقد روحها بسلام، والقائلة: «ليكن ما يخرج أقل مما يدخل»، وهي فلسفتها بشأن المال. إنها معادلة لا يمكن لها أن تخيب. أما بيدرو ورودريغو، فلم يهتما قط بإدراة شؤون أملاكهما وأعمالهما، لكونهما نبيلين إسبانيين؛ فمات بيدرو فقيراً، وعاش رودريغو غنياً بفضلي.

وبالرغم من تعاطف لاغاسكا مع المتهم الذي يدين له بالكثير، إلا أنه استمر بالمحاكمة حتى النهاية. لم يكن هناك حديث آخر في البيرو، ولا اسم آخر غير اسمي تتداوله الألسن: إنها ساحرة خبيثة، تستخدم أشربة مسحورة تسبب الجنون للرجال، وكانت مومساً في إسبانيا، وبعد ذلك في كارتاخينا، وأنني أحتفظ بحيويتي ونشاطي بشرب دم أطفال حديثي الولادة، وفظائع أخرى أخجل من ترديدها. أثبت بيدرو براءته، مفنداً الاتهامات واحدة فواحدة، ومن خرجت خاسرة في النهاية هي أنا. فقد أعاد لاغاسكا التأكيد مرة أخرى على تسميته حاكماً، وأعاد إليه ألقابه وتشريفاته، وطالبه فقط بتسديد ديونه في فترة معقولة؛ أما بشأني، فقد اتخذ ذلك الكاهن ـ وهو يستحق أن يُطبخ في قدور جهنم ـ قراراً بالغ القسوة. أمر الحاكم بتجريدي من ممتلكاتي وتوزيعها على القادة، والانفصال عني فوراً وإرسالي إلى البيرو أو إسبانيا، حيث ستتاح لي فرصة التكفير عن خطاياي في أحد الأديرة.

❖ ❖ ❖

ظل بيدرو غائباً طوال سنة ونصف السنة، ورجع من البيرو مع مئتي جندي، وصل ثمانون منهم معه في سفينة، وجاء الباقون براً. عندما علمتُ أنه آت أصابتني حمى النشاط إلى حد أصبتُ معه الخادمات بالجنون. جعلتهن جميعهن يعملن على طلاء البيت، وغسل الستائر، وزراعة زهور في الأصص، وتحضير الحلويات التي يحبها، وتطريز الشرائف، وخياطة ملاءات جديدة. كان صيفاً، وكنا قد بدأنا ننتج في البساتين المحيطة بسنتياغو الفاكهة والخضار الإسبانية، إلا أنها كانت أطيب مذاقاً. فكنت أنهمك مع كاتالينا في صنع المربيات والحلوى التي يفضلها بيدرو. ولأول مرة منذ سنوات، أبديت أهتماماً بمظهري، حتى إنني صنعت قمصاناً وتنانير بديعة لأستقبله كعروس. كنتُ في حوالي الأربعين، لكنني أشعر بأنني شابة وجذابة، ربما لأن جسدي لم يتبدل، مثلما هي حال النساء اللواتي بلا أبناء، ولأني كنت أرى نفسي منعكسة في عيني رودريغو دي كيروغا الخجولتين؛ لكنني كنت أخشى أن يلمح بيدرو التجاعيد الخفيفة حول العينين، والأوردة في الساقين، واليدين متصلبتي الجلد من العمل. قررت الامتناع عن تأنيبه. فما حدث قد حدث. كنت أرغب في المصالحة معه، والعودة إلى الأزمنة التي كنا فيها عاشقين كما في الأساطير. لدينا الكثير من التاريخ المشترك، عشر سنوات من النضال والهوى لا يمكن أن تضيع عبثاً. أخرجتُ رودريغو دي كيروغا من مخيلتي، فهو وهم غير مجدٍ وخطر، وذهبت لزيارة سيسيليا لأتقصى أسرارها في الحفاظ على الجمال التي تثير الكثير من النميمة في سنتياغو، لأن جمال تلك المرأة كان أعجوبة حقيقية؛ خلافاً للعالم بأسره، كان شبابها يتجدد مع مرور السنوات.

كان بيت خوان وسيسيليا أصغر بكثير من بيتنا وأكثر تواضعاً منه، لكنها تزينه بصورة بديعة بأثاث وزينات من البيرو، بعضها من قصر أتاوالبا القديم. الأرض مفروشة بعدة طبقات من السجاد الصوفي متعدد الألوان ذي الرسوم والأشكال الإنكية، تغطس الأقدام فيه عند المشي عليه. وداخل

البيت يعبق برائحة القرفة والشكولاتة التي تسعى هي للحصول عليها، بينما نحن نكتفي بعشبة المتة والأعشاب المحلية الأخرى. لقد اعتادت خلال طفولتها في قصر أتاوالبا على ذلك الشراب، حتى إنها في أزمنة خراب سنتياغو، عندما كنا نعاني الجوع، لم تكن تبكي طلباً لكسرة خبز، وإنما رغبة في تناول شراب الشكولاتة. قبل وصولنا نحن الإسبان إلى العالم الجديد، كان تناول الشكولاتة ينحصر في الأسرة الحاكمة، والكهنة وعسكريي المراتب العليا، لكننا اعتدنا على ذلك الشراب بسرعة. كنا نجلس على حشايا، وتقدم لنا خادماتها شراب الشكولاتة الشذي في طاسات من الفضة المشغولة بزخارف كيتشوية. ومع أن سيسيليا ترتدي الملابس الإسبانية دوماً أمام الملأ، إلا أنها كانت تستخدم وراء أبواب بيتها أزياء بلاط الإنكا، لأنها أكثر راحة: تنورة تنزل مستوية حتى الكاحلين، وجلباب مطرز، يثبت عند الخصر بحزام ذي ألوان لامعة. كانت حافية، ولم أستطع إلا أن أقارن قدميها الدقيقتين كأميرة بقدمي الفلاحة الخشنة اللتين لي. وكان شعرها مفلتاً، وزينتها الوحيدة قرطان ثقيلان من الذهب، ورثتهما عن أسرتها، ووصلا إليها في تشيلي عبر السبل السرية الغامضة التي وصل به أثاثها.

- إذا ما أمعن بيدرو النظر في تجاعيدك، فهذا يعني أنه لم يعد يحبك، ولن يبدل مشاعره أي شيء تفعلينه - حذرتني عندما أعريت لها عن شكوكي.

لست أدري إذا ما كانت كلماتها مجرد نبوءة أم إنها كانت تعرف أشد الأسرار تكتماً، ومطلعة على ما كنت أنا نفسي أجهله. ولكي ترضيني، شاطرتني ما لديها من مراهم ومحاليل وعطور، فاستعملتها عدة أيام وأنا أنتظر وصول عشيقي بفارغ الصبر. ومع ذلك، انقضى أسبوع، ثم أسبوع آخر وآخر، دون أن يظهر بيدرو في سنتياغو. كان يقيم في السفينة الراسية في مرسى كونكون، ويدير شؤون الحكم بواسطة مبعوثين يحملون رسائل منه، لكن أياً من رسائله لم توجه إليّ. من المستحيل أن أفهم ما الذي كان يجري، فكنت أتقلب في عدم اليقين، بين الغضب والأمل،

مرعوبة من فكرة أنه لم يعد يحبني، ومترقبة أدنى الإشارات الإيجابية. طلبت من كاتالينا أن ترى طالعي، لكن الودع لم يكشف عن شيء هذه المرة، أو ربما لم تتجرأ هي على إخباري بما رأته. كانت الأيام والأسابيع تمضي دون أن تأتيني أخبار من بيدرو؛ لم أعد آكل، ولم أعد أنام تقريباً. كنت أعمل في النهار حتى الإنهاك، وأتجول خلال الليل مثل ثور في ردهات البيت وحجراته، محدثة شرراً في الأرض بضربات كعبي المتلهفة. لم أبكِ، لأنني في الحقيقة لم أكن أشعر بالحزن، بل بالغضب. ولم أكن أصلي، لأني رأيت أن سيدتنا عذراء الرحمة لن تفهم المشكلة. راودتني الرغبة ألف مرة في الذهاب لزيارة بيدرو في السفينة لأعرف دفعة واحدة ما الذي ينويه ـ إنها رحلة يومين على الحصان ـ، لكنني لم أتجرأ على الذهاب، لأن الغريزة نبهتني إلى أنه يتوجب علي عدم تحديه في مثل هذه الظروف. أعتقد أنني توجست نكبتي، لكن الكبرياء منعني من صياغتها في كلمات. لم أشأ أن يراني أحد مهانة، وخاصة رودريغو دي كيروغا الذي لم يوجه إليّ أية أسئلة لحسن الحظ.



وأخيراً، في عصر يوم شديد الحر، حضر إلى بيتي الكاهن غونثالو دي مارموليخو بمظهر مستنفد من التعب؛ كان قد ذهب إلى بالبارايسو ورجع منها خلال خمسة أيام، وكانت مؤخرته مضعضعة من ركوبه الطويل على الحصان. استقبلته بزجاجة من أفضل ما لدي من نبيذ؛ كنت متلهفة، لأني أعرف أنه يحمل لي أخباراً. أيكون بيدور قادماً في الطريق؟ أيريدني أن ألتحق به؟ لم يسمح لي مارموليخو بمواصلة الأسئلة، سلمني رسالة مغلقة وذهب مطأطئ الرأس ليشرب كأس نبيذه تحت شجيرة الجهنمية في البهو، ريثما أقرأ الرسالة. كان بيدرو يطلعني، بكلمات قليلة ومحددة جداً، على قرار لاغاسكا. كرر لي احترامه وتقديره، دون أن يأتي على ذكر الحب، ورجاني أن أصغي بانتباه إلى ما سيقوله لي غونثالو دي مارموليخو. بطل

حملات الفلاند وإيطاليا، وتمرد البيرو، وفاتح تشيلي، وأشجع العسكريين في العالم الجديد وأوسعهم شهرة، لم يتجرأ على مواجهتي، ولهذا أمضى شهرين مختبئاً في سفينة. ما الذي أصابه؟ بدا لي مستحيلاً تخيل الأسباب التي دفعته إلى الخروج هارباً مني. ربما أكون قد تحولت إلى ساحرة معتوهة، إلى امرأة مسترجلة؛ ربما وثقتُ أكثر مما يجب بقوة حبنا، حتى إنني لم أتساءل قط إذا ما كان بيدرو يحبني مثلما أحبه، فقد اعتبرتُ ذلك حقيقة لا تقبل النقاش. لا، حسمتُ أمري أخيراً. الذنب ليس ذنبي. فلستُ أنا من تبدلت، بل هو. لقد ارتعب حين أحس أنه يشيخ وأراد العودة إلى أن يكون العسكري البطل والعاشق الشاب الذي كانه قبل سنوات. أنا أعرفه جيداً، وإلى جانبي لا يستطيع إعادة ابتكار نفسه أو أن يبدأ من جديد بلبوس جديدة. من الصعب عليه أن يخفي ضعفه أو سنه أمامي، ولأنه لا يستطيع خداعي، أبعدني جانباً.

- اقرأ هذا من فضلك يا أبتاه، وقل لي ما يعنيه - قلتُ هذا، وقدمت الرسالة للكاهن.

- أعرف مضمونها يا بنتي. لقد منحني الحاكم شرف الوثوق بي، وطلب النصح مني.

- هل هذا الخبث هو من بنات أفكارك أنت إذاً؟

- لا يا دونيا إنيس، إنها أوامر لاغاسكا، أعلى سلطة تمثل الملك والكنيسة في هذا الجزء من العالم. الوثائق معي هنا، ويمكنك أن تريها بنفسك. معاشرتك لبيدرو أثارت فضيحة.

- الآن، عندما لم يعودوا بحاجة إليّ، صار حبي لبيدرو فضيحة، أما عندما وجدتُ لهم الماء في الصحراء، وعالجت المرضى، ودفنت الموتى، وأنقذت سنتياغو من الهنود، كنت قديسة آنذاك.

- أعرف شعورك يا بنتي...

- لا يا أبتاه، لا يمكنك أن تتصور شعوري. إنها لسخرية شيطانية أن تكون الخليلة وحدها هي المذنبة، حتى لو كانت بلا زوج، وكان العشيق

متزوجاً. لا تفاجئني دناءة لاغاسكا، فهو كاهن في نهاية المطاف؛ ما يفاجئني هو جبن بيدرو.

- لم يكن له خيار آخر يا إنيس.

- بالنسبة لرجل كريم المولد، هناك على الدوام خيارات عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن الشرف. إنني أنبهك أيها الأب، أنا لن أغادر تشيلي، فأنا من فتحت هذه البلاد وأسستها.

- حذار من الوقوع في الاستكبار يا إنيس! لا أظنك ترغبين في مجيء محكمة تفتيش لتحل هذه القضية على طريقتها.

- هل تهددني؟ - سألته وأنا أشعر بالقشعريرة التي يسببها لي ذكر اسم محاكم التفتيش.

- ليس هناك ما هو أبعد عن نيتي بتهديدك يا بنتي. إنني أحمل تكليفاً من الحاكم باقتراح حلّ عليك من أجل البقاء في تشيلي.

- وما هو؟

- يمكنك الزواج... - استطاع الكاهن أن يقول ذلك وهو يهرش، ويتلوى في الكرسي، ثم أضاف -: هذه هي الطريقة الوحيدة التي تتيح لك البقاء في تشيلي. وهناك رجالٌ يسعدهم الزواج من امرأة لها مثل مزاياك، ولديها دوطة ضخمة مثلك. وإذا ما سجلتِ أملاككِ باسم زوجك، فلن يتمكنوا من مصادرتها.

لم يستطع صوتي الخروج لهنيهة. وجدت صعوبة في تصديق أنه يعرض عليّ هذا الحل الملتوي، آخر حل يمكن أن يخطر لبالي.

- الحاكم يريد مساعدتك، بالرغم من أن هذا يعني تخليه عنك. ألا ترين أنه تصرفٌ نزيه، ودليل على الحب والامتنان؟ - أضاف الكاهن.

كان يهوّي بيده بعصبية، مبعداً ذباب الصيف، بينما أنا أذرع البهو بخطوات واسعة، محاولة تهدئة نفسي. لم تكن الفكرة ثمرة وحي مفاجئ، فقد اقترحها بيدرو دي بالديبيا على لاغاسكا في البيرو، ووافق هذا الأخير

عليها. هذا يعني أن مصيري قد تقرر من وراء ظهري. بدت لي خيانة بيدرو بالغة الخطورة، واجتاحتني موجة حقد، كماء آسن، من قدمي إلى رأسي، مالئة فمي بالمرارة. كنت أرغب في تلك اللحظة بقتل الكاهن بيدي العاريتين، وكان لابد لي من بذل جهد هائل كي أدرك أنه حامل الرسالة وحسب؛ وأن من يستحق الانتقام هو بيدرو وليس هذا العجوز المسكين الذي يتعرق خوفاً في مسوحه الكهنوتي. وفجأة، أحسستُ بضربة تشبه الطعنة في صدري، قطعت أنفاسي وجعلتني أرتعش. طفر قلبي كحصان متوحش، وبطريقة لم أشعر بمثلها قط. صعدت دمائي كلها إلى صدغي، تراخت ساقايّ، وغاب عني النور. تمكنتُ من الانهيار متهاوية على كرسي، ولولا ذلك لوقعت أرضاً. استمرت الغشاوة للحظات، وسرعان ما استعدتُ الوعي ووجدت نفسي أسند رأسي إلى ركبتي. انتظرتُ وأنا في ذلك الوضع إلى أن انتظم النبض في صدري واستعدتُ إيقاع تنفسي. عزوت إغماءتي القصيرة إلى الغضب والحر، دون أن يخامرني الشك في أن قلبي قد تحطم، وانه عليّ أن أعيش ثلاثين سنة أخرى بهذا التمزق.

ـ أعتقد أن بيدرو الذي طالما رغب في مساعدتي، قد أزعج نفسه أيضاً باختيار زوج لي، أليس كذلك؟ ـ سألتُ مارموليخو عندما تمكنتُ من الكلام.

ـ لدى الحاكم اسمان في ذهنه...

ـ قل لبيدرو إنني أقبل الصفقة، وسأتولى اختيار زوجي المستقبلي بنفسي، لأني أنوي الزواج عن حب وأن أكون سعيدة.

ـ إنيس، أعود لأحذرك من أن العجرفة خطيئة كبرى.

ـ قل لي أمراً يا أبتاه. هل صحيح ما تقوله الإشاعة عن أن بيدرو قد أحضر معه خليلتين؟

لم يُجب غونثالو دي مارموليخو، مؤكداً بصمته الإشاعات التي وصلتنا. فقد استبدل بيدرو امرأة في الأربعين باثنتين في العشرين. وهما إسبانيتان، ماريا دي إنثيو وخادمتها الغامضة خوانا خيمينث التي تشاطر

بيدرو فراشه أيضاً، كما يقال، وتتحكم بالاثنين بفنون شعوذاتها. شعوذات؟ هذا ما قالوه عني أيضاً. يكفي في بعض الأحيان مسح العرق عن جبهة رجل متعب كي يأكل من اليد التي داعبته. ولا حاجة للسحر والشعوذة من أجل ذلك. أن تكون إحدانا وفية ومرحة، وأن تصغي ـ أو تتظاهر على الأقل بأنها تصغي ـ، وأن تطهو طعاماً لذيذاً؛ وتراقب الرجل، دون أن يلحظ هو ذلك، لتجنبه ارتكاب الحماقات؛ وأن تستمتع وتجعله يستمتع في كل مضاجعة، وأشياء أخرى بسيطة جداً هي الوصفة المناسبة. يمكنني إيجاز ذلك بجملتين: يد حديدية، وقفاز حريري.

أتذكر عندما حدثني بيدرو عن قميص نوم له فتحة على شكل الصليب كانت تستخدمه زوجته مارينا، أنني عاهدت نفسي على ألا أخفي جسدي عن الرجل الذي يشاطرني فراشي. وقد حافظت على هذا العهد، وفعلت ذلك دون أثر من الحياء حتى اليوم الأخير الذي أمضيته مع رودريغو، بحيث لم يلاحظ هو قط أن لحمي قد ترهل، مثل أي عجوز أخرى. الرجال الذين لمسوني كانوا سذجاً: تصرفتُ كما لو أنني جميلة، فصدقوا ذلك. إنني وحيدة الآن وليس لدي من أسعده في الحب، لكنني أستطيع أن أؤكد أن بيدرو كان سعيداً طيلة الوقت الذي أمضاه معي، وكذلك رودريغو، حتى عندما كان مرضه يمنعه من أن يكون المبادر. أعذريني يا إيزابيل. أعرف أنك ستقرئين هذه السطور المضطربة بعض الشيء، ولكن من الملائم لك أن تتعلمي. لا تلتفتي إلى ما يقوله الكهنة، فهم لا يعرفون شيئاً عن هذه الأمور.



لقد صارت سنتياغو مدينة يقطنها خمسمئة شخص، لكن الإشاعات تنتقل فيها بسرعة كما في قرية صغيرة، ولهذا صممتُ على عدم إضاعة الوقت في التصنع. واصل قلبي طفراته القوية عدة أيام بعد حديثي مع الكاهن. أعدّت لي كاتالينا ماء الكوتشايويو، وهو نوع من الطحالب

البحرية المجففة، بعد أن نقعته في الماء في الليلة السابقة. ومنذ ثلاثين سنة أشرب هذا السائل اللزج عند الاستيقاظ، فقد اعتدت على طعمه المقزز، وبفضله مازلت حية. وفي يوم الأحد التالي، ارتديت أكثر ملابسي أناقة، وأخذتُكِ من يدك يا إيزابيل، إذ كنت تعيشين معي منذ بضعة شهور، واجتزت الساحة باتجاه بيت رودريغو دي دكيروغا في الساعة التي يخرج بها الناس من القداس، كي لا يظل أحد دون أن يراني. كانت ترافقنا كاتالينا، ملتحفة بشالها الأسود، وهي تردد عبارات سحرية بلغة الكيتشوا، لأنها أكثر فعالية من الصلوات المسيحية في مثل هذه الحالات، ويلحق بنا بلتسار بخببه ككلب عجوز. فتح لي الباب هندي واقتادني إلى الصالة، بينما ظل المرافقون في الفناء الترابي المغطى بذرق الدجاج. ألقيت نظرة على ما حولي وأدركت أن هناك عملاً كثيراً ينتظرني لتحويل هذا العنبر العسكري، عاري الجدران والقبيح، إلى مكان صالح للسكن. توقعت أن لا وجود حتى لسرير محترم لدى رودريغو، وأنه ينام على سرير عسكري؛ وقد كنتِ محقة يا إيزابيل في تأقلمك السريع مع وسائل الراحة في بيتي. لابد من استبدال هذا الأثاث الخشن المصنوع من خشب ونعل، وطلاء الجدران، وشراء ما يلزم لإكساء الجدران والأرضية، وبناء ردهات ظليلة وأخرى مشمسة، وزراعة أشجار وأزهار، وبناء نوافير في الفناء، واستبدال سقف القش بآخر من القرميد؛ وباختصار، سيكون لدي ما يشغلني لسنوات. إنني أحب المشاريع. بعد لحظات دخل رودريغو متفاجئاً، لأني لم أزره من قبل في بيته. كان قد خلع الرداء الذي يلبسه أيام الآحاد، وارتدى سروالاً ضيقاً وقميصاً أبيض واسع الكمين ومفتوحاً عند الصدر. بدا لي شاباً فتياً، وراودتني رغبة في الخروج هاربة من حيث دخلت. بكم سنة يصغرني هذا الرجل؟

ـ صباح الخير يا دونيا إنيس. هل حدث شيء؟ كيف حال إيزابيل؟

ـ لقد جئت لأعرض عليك الزواج يا دون رودريغو. ما رأيك؟ ـ واجهته

مباشرة، لأنه لا يمكن التحدث مداورة في مثل هذه الظروف.

لابد لي من القول، على شرف كيروغا، أنه أخذ اقتراحي بخفة كوميديا. أشرق وجهه، ورفع ذراعيه إلى السماء، وأطلق صرخة هندي طويلة غير متوقعة من رجل بمثل رصانته. كانت قد بلغته بالطبع الأقاويل عما جرى في البيرو مع لاغاسكا، والحل الغريب الذي خطر للحاكم؛ فجميع القادة علقوا على الأمر، لاسيما العازبين منهم. وربما فكر في أنه قد يكون من سأختاره، لكنه كان متواضعاً إلى حد عدم السماح لنفسه بالاعتقاد أن الأمر مؤكد. أردتُ أن أشرح له شروط الاتفاق، لكنه لم يسمح لي بالكلام. فقد احتضنني بذراعيه بسرعة، ورفعني عن الأرض، وأطبق فمي بشفتيه. عندئذ أدركتُ أنني كنت انتظر أيضاً هذه اللحظة منذ قرابة السنة. تشبثتُ بقميصه بكلتا يدي، ورددت له القبلة بعاطفة كنت أحملها في أعماقي منذ زمن طويل، هاجعة أو مدارة، عاطفة كنت أحتفظ بها لبيدرو دي بالديبيا، وتصبو إلى أن تُعاش قبل أن ينقضي شبابي. أحسست برغبته المؤكدة، بيديه على خاصرتي، على عنقي، على شعري، وشفتيه في وجهي ونحري، وبرائحته كرجل شاب، وصوته يهمس باسمي، وأحسست أنني مترعة بالسعادة. كيف يمكن الانتقال في لحظة واحدة من ألم إحساسي بأنني مهجورة إلى سعادة الشعور بأنني محبوبة؟ لابد أني كنت شديدة التقلب في تلك الأزمنة... وقد أقسمت في تلك اللحظة أنني سأظل مخلصة لرودريغو حتى الموت، ولم ألتزم بهذا القسم بحذافيره وحسب، بل أحببته طوال ثلاثين سنة، محبة تزداد يوماً بعد يوم. تبين لي أن حبه سهل جداً. لقد كان رودريغو محل تقديرٍ واحترام على الدوام، وهذا ما يتفق عليه الجميع، لكن أفضل الرجال تكون لديهم في العادة عيوب لا تتبدى إلا في الحميمية. لم تكن هذه هي حالة هذا الرجل النبيل، والجندي، والصديق، والزوج. لم يحاول قط دفعي إلى نسيان بيدرو دي بالديبيا، بل كان يحترمه ويحبه، حتى إنه ساعدني على حفظ ذكراه كي تكرمه تشيلي ـ شديدة

الجحود ـ بما يستحقه، لكنه أبدى استعداده لأن يحبني وتوصل إلى ذلك.

عندما استطعنا أخيراً إنهاء عناقنا واستعادة أنفاسنا، خرجتُ لأعطي تعليمات لكاتالينا، بينما كان رودريغو يسلم على ابنته. بعد نصف ساعة من ذلك، نقل رتل من الهنود صناديق أمتعتي، ومركعي، وتمثال سيدتنا عذراء الرحمة إلى بيت رودريغو دي كيروغا، بينما سكان سنتياغو الذين ظلوا ينتظرون في ساحة السلاح بعد انتهاء القداس، يصفقون. احتجت لأسبوعين كي أنهي إعدادات الزفاف، لأني لم أشأ الزواج بتكتم، وإنما بأبهة واحتفال. كان من المستحيل تزيين البيت خلال ذلك الوقت القصير، لكننا ركزنا الجهود على زراعة أشجار وشجيرات في الفناء، وتحضير أقواس أزهار، وتعليق مظلات ووضع موائد طويلة للوليمة. قام الأب غونثالو دي مارموليخو بعقد قراننا في ما صار اليوم الكاتدرائية، لكنها كانت آنذاك مجرد كنيسة في طور البناء، بحضور أناس كثيرين، بيض، وزنوج، وهنود، وخلاسيين. أصلحنا على مقاسي فستان زفاف أبيض تملكه سيسيليا، إذ لم يكن لدينا متسع من الوقت لنوصي على القماش من أجل خياطة فستان آخر. «تزوجي بفستان أبيض يا إنيس، فرودريغو يستحق أن تكوني حبه الأول»، قالت سيسيليا، وكانت محقة في قولها. جرت طقوس الزفاف بقداس مُغنى، ثم قدمنا وجبة تضم أطباقاً من اختصاصي: فطائر، طيور مسلوقة مع الخضار، حلوى الذرة، بطاطا محشوة، فاصولياء مع الفلفل، خروف وجدي مشويان، خضراوات من مزرعتي، والحلويات المختلفة التي كنت أُعدها لمجيء بيدرو دي بالديبيا. وأرفقت الوليمة بأنبذة أخرجتها دون وخز ضمير من قبو الحاكم، لأنها لي أيضاً. ظلت أبواب بيت رودريغو مشرعة طيلة يوم بكامله، وكل من أراد الأكل والاحتفال معنا كان مرحباً به. وبين الحشد، كان يتراكض عشرات الأطفال الخلاسيين والهنود. وعلى كراسٍ مصفوفة في نصف دائرة، كان يجلس شيوخ المستوطنة. وقدرت كاتالينا أن ثلاثمئة شخص مروا في البيت في ذلك اليوم، لكنها

لم تكن يوماً دقيقة في الحساب، ويمكن لمن حضروا أن يكونوا أكثر مما قدرته. وفي اليوم التالي انطلقت أنا وروديغو معك يا إيزابيل، ومع كوكبة من الياناكونا لقضاء بضعة أسابيع حب في مزرعتي. ورافقنا كذلك عدد من الجنود، لحمايتنا من الهنود التشيليين الذي اعتادوا مهاجمة المسافرين الغافلين. أما كاتالينا وخادماتي المخلصات اللواتي جئتُ بهن من كوسوكو، فبقين لترتيب بيت روديغو بأحسن طريقة ممكنة؛ بينما ظل الخدم الآخرون حيث هم. عندئذ فقط، تجرأ بالديبيا على النزول إلى البر مع خليلته، ورجع إلى سنتياغو، فوجدها نظيفة، مرتبة، وجيدة التموين، ولا أثر لي فيها.

الفصل السادس

حرب تشيلي، 1549 -1553

يُلاحظ أن خطي قد تغير في القسم الأخير من هذه القصة. خلال الشهور الأولى كنت أكتب بيدي، لكنني صرت أتعب الآن بعد كتابة بضعة سطور قليلة، وأُفضّل أن أملي عليكِ ما أريد كتابته، فخطي يبدو أشبه بخربشة الذباب، أما خطكِ أنت يا إيزابيل فناعم ومنمق. أنت تفضلين الحبر الذي بلون الصدأ، وهو شيء مستجد يأتي من إسبانيا وأجد مشقة في قراءته. ولكن، بما أنك تقدمين لي جميلاً بمساعدتي، لا يمكنني أن أفرض عليك استخدام دواة حبر أسود. سنتقدم بسرعة أكبر إذا أنت لم تحاصريني بأسئلتك الكثيرة يا بنتي. إنني أبتهج لسماعك. فأنت تتكلمين القتشالية باللهجة التشيلية المترنمة والزلقة؛ لم نستطع أنا ورودريغو أن نلقنك لفظ الخاءات والثاءات الأصيلة. هكذا كان يتكلم المطران غونثالو دي مارموليخو، وهو إشبيلي. لقد توفى منذ زمن بعيد، هل تتذكرينه؟ لقد كان العجوز المسكين يحبك كجد. كان يعترف في ذلك الحين بأن له من العمر سبعاً وسبعين سنة، بالرغم من أنه كان يبدو بطريركاً توراتياً تجاوز المئة عام، بلحيته البيضاء وتلك النزوة التي جاءته في أيامه الأخيرة بالإعلان عن اقتراب نهاية العالم. إحدى تجاراته الرابحة كانت تربية الخيول التي كنا شريكين فيها. وكنا نجرب تهجين سلالات جديدة، وحصلنا على حيوانات قوية، أنيقة ووديعة، أمهار تشيلي المشهورة التي صارت معروفة الآن في كل أنحاء القارة، لأنها خيول كريمة

مثل الخيول العربية، وأكثر قوة منها. لقد توفى المطران في السنة نفسها التي ماتت فيها كاتالينا الطيبة. أصيب هو بداء الرئة، ولم تنفع أي أعشاب طبية في علاجه، أما هي فقضت عليها قرميدة سقطت من السماء خلال هزة أرضية وأصابت قذالها. كانت ضربة صائبة، لم تتمكن معها من الانتباه إلى الهزة الأرضية. وفي تلك الفترة نفسها توفى بيّاغرا أيضاً، وكان يرتعد خوفاً من خطاياه، حتى إنه ارتدى مسوح القديس فرانثيسكو. لقد عُين حاكماً لتشيلي لفترة قصيرة، وسيُحفظ ذكره كواحد من أشد العسكريين اندفاعاً ومجازفة، لكنه لن يحظى بتقدير أحد، لأنه كان بخيلاً. فالبخل نقيصة نشمئز نحوها بالاشمئزاز نحن الإسبان الأسخياء على الدوام.

لا وقت للتفاصيل يا بنتي، لأننا إذا ما تريثنا، فسوف يبقى هذا العمل ناقصاً وغير مكتمل، وليس هناك من يروقه قراءة مئات الصفحات ليجد أن القصة لا تنتهي نهاية واضحة. ما هي نهاية هذه القصة؟ النهاية هي موتي على ما أعتقد، فطالما ظل لدي نَفَسٌ من الحياة، ستكون لدي ذكريات لملء صفحات. ثمة الكثير مما يستحق أن يروى في حياة مثل حياتي. كان عليّ أن أبدأ كتابة هذه الذكريات منذ زمن بعيد، لكنني كنتُ مشغولة؛ فإنشاء مدينة وجعلها تزدهر يتطلب الكثير من العمل. لم أبدأ الكتابة إلا بعد موت رودريغو، وبعد أن انتزع الحزن مني الرغبة في عمل أشياء أخرى كانت تبدو لي مستعجلة وملحة من قبل. من دونه، أقضي الليالي كلها تقريباً في السهر، والأرق ملائم جداً للكتابة. إنني أتساءل أين هو زوجي، تراه ينتظرني في مكان ما أم أنه هنا بالذات، في هذا البيت، يرصد في الظلال، يحميني بتكتم، مثلما كان يفعل في الحياة. كيف هو الموت؟ وماذا يوجد في الجانب الآخر؟ أهو ليل وصمت فحسب؟ يخيل إلي أن الموت هو انطلاق كسهم في الظلام باتجاه القبة السماوية، فضاء غير متناه، حيث يتوجب عليّ أن أبحث عن أحبائي واحداً فواحداً. يذهلني أنني الآن، بينما أنا أفكر كثيراً في الموت، مازلت أشعر برغبة في تحقيق مشروعات وإرضاء طموحاتي. لابد

أنها نزعة الكبرياء.. الرغبة في ترك أثر وذكرى مني، مثلما كان يقول بيدرو. يخيل إليّ أننا في هذه الحياة لا نتوجه إلى أي مكان، مهما أسرعنا؛ بل نمضي، خطوة فخطوة، نحو الموت. ولهذا سنواصل في ما يلي قص الحكاية، إلى حيث تسعفنا الأيام، لاسيما أن لدي فائضاً من الوقائع والأحداث.

بعد زواجي من رودريغو، قررت تجنب بيدرو، في البداية على الأقل، إلى أن أتخلص من الضغينة التي حلّت محل الحب الذي عشته خلال عشر سنوات. لقد صرت أكرهه بقدر ما أحببته من قبل؛ وصرت أرغب في جرحه بقدر ما حميته من قبل. تضخمت عيوبه في عيني، فلم يعد يبدو لي نبيلاً، وإنما جشعاً وبخيلاً. لقد كان من قبل قوياً، داهية، وصارماً؛ فصار بديناً، مخادعاً، وقاسياً. فكنت أُفرِّج عن نفسي أمام كاتالينا وحدها، لأن هذا الحقد على العشيق القديم يُخجلني. تمكنتُ من إخفائه عن رودريغو الذي حالت استقامته دون انتباهه إلى شحنة مشاعري الخبيثة. وبما أنه بعيد عن الخسة، فإنه لا يتصور وجودها لدى آخرين. وإذا ما بدا له غريباً عدم ظهوري في سنتياغو عندما يكون بيدرو دي بالديبيا في المدينة، فإنه لم يقل لي ذلك. انهمكتُ في تحسين حالة بيوتنا الريفية، ومددت إقامتي فيها أطول ما يمكن بحجة البذار، وزراعة الورود، وتربية الخيول والبغال، بالرغم من أنني كنت أشعر في أعماقي بالضجر هناك، وأتشوق إلى عملي في المستشفى. كان رودريغو يسافر من المدينة إلى الريف كل أسبوع، ويطحن كليتيه في العدو السريع على الحصان، كي يراني أنا وابنته. الهواء الطلق، والعمل الجسدي، وصحبتك يا إيزابيل، وجراء بلتسار العجوز، كلها ساعدتني. كنت أُكثر من الصلاة في تلك الفترة، أحمل تمثال سيدتنا عذراء الرحمة إلى الحديقة، فأجلس معها تحت شجرة وأحدثها عن شجوني وهمومي. وهي من جعلتني أرى أن القلب مثل صندوق، إذا ما امتلأ بالقذارة، فلن يكون فيه متسع لأشياء أخرى. ولن أستطيع أن أحب رودريغو وابنته إذا ما كان قلبي ممتلئاً بالمرارة، هكذا حذرتني السيدة العذراء. والضغينة، مثلما تقول كاتالينا، تجعل

البشرة صفراء، وتسبب رائحة خبيثة، ولهذا كنت أكثر من شرب نقوع تنظيف البدن. وبالصلوات والنقوع شفيت من الحقد على بيدرو خلال شهرين. في إحدى الليالي حلمتُ أن مخالب نسر كُندور تنمو لي، وأنني أنقض عليه وانتزع عينيه. كان حلماً بديعاً، شديد الحيوية، وعندما استيقظت أحسست بأنني أخذت بثأري. غادرت الفراش عند الفجر، وتأكدت من أنني لم أعد أشعر بألم الكتفين والعنق الذي عذبني طيلة أسابيع؛ لقد تلاشى ثقل الحقد غير المجدي. سمعت أصوات الاستيقاظ: الديكة، الكلاب، مكنسة الأغصان في يد البستاني على الشرفة، أصوات الخادمات. كان صباحاً دافئاً ومضيئاً. خرجت إلى الفناء حافية، وداعب النسيم بشرتي تحت قميص النوم. فكرتُ في رودريغو، وجعلتني الرغبة في ممارسة الحب معه أرتعش، كما في شبابي، عندما كنت أهرب إلى بساتين بلاسينثيا كي أضاجع خوان دي مالغا. تثاءبتُ ملء رئتي، تمطيت مثل قط، ووجهي إلى الشمس، وأمرت على الفور بتجهيز الخيول للعودة معكِ إلى سنتياغو في ذلك اليوم بالذات، دون أي أمتعة أخرى سوى الملابس التي أرتديها والأسلحة. لم يكن رودريغو يسمح لنا بالتحرك خارج البيت دون حماية، خوفاً من عصابات الهنود التي تجوب الوادي، لكننا انطلقنا في الرحلة دون اهتمام. وقد حالفنا الحظ واستطعنا الوصول إلى سنتياغو عند الغروب، دون منغصات. أطلق حراس المدينة نداء الإنذار من أبراج مراقبتهم عندما رأوا الغبار الذي تثيره الخيول. خرج رودريغو لاستقبالي مذعوراً، خشية أن تكون مصيبة قد حلت بنا، لكنني قفزت لأطوق عنقه، قبّلته من فمه واقتدته من يده إلى الفراش. في تلك الليلة بدأ حبنا حقاً، أما ما سبق فكان تمريناً. وخلال الشهور التالية تعلمنا تعرّف كل منا على الآخر، والاستمتاع معاً. حبي له كان مختلفاً عن الشهوة التي كنت أشعر بها مع خوان دي مالغا، وعن العاطفة تجاه بيدرو دي بالديبيا، لقد كان شعوراً ناضجاً وسعيداً، دون خلافات، وصار أشد زخماً مع مرور الزمن، إلى أن لم أعد قادرة على العيش من دونه. انتهت رحلاتي المتوحدة إلى الريف، ولم نعد

نفترق إلا عندما تدعو متطلبات الحرب رودريغو. هذا الرجل بالغ الجدية أمام العالم، كان رقيقاً وحانياً في خلواتنا؛ يدللنا معاً. لقد كنا ملكتيه، أتتذكرين يا إيزابيل؟ وهكذا تحققت نبوءة قواقع كاتالينا السحرية في أنني سأكون ملكة. وخلال الثلاثين سنة التي عشناها معاً، لم يفقد رودريغو يوماً طيب المزاج، مهما بلغ اشتداد الضغوط الخارجية. كان يشاطرني الحديث في شؤون الحرب، والحكم والسياسة، ومخاوفه وأحزانه، دون أن يؤثر شيء من ذلك كله على علاقتنا. كان يثق برؤيتي للأمور، يطلب رأيي، ويصغي إلى نصائحي. ولم تكن هناك حاجة إلى المداورة معه كي أتجنب إغضابه، مثلما كان يحدث مع بالديبيا، ومثلما يحدث مع الرجال عموماً، إذ يكونون سريعي الغضب عادة في ما يتعلق بسلطاتهم.

أعتقد أنكِ لا ترغبين في أن أتحدث في هذا الشأن يا إيزابيل، لكنني لا أستطيع إغفاله، لأنه مظهر من مظاهر أبيك لابد لك من التعرف إليه. فقبل الزواج مني، كان رودريغو يعتقد أن الشباب والقوة كافيان لممارسة الحب، وهذا خطأ شائع جداً. وقد فوجئتُ عندما التقينا في الفراش أول مرة، فقد تصرف بتعجل فتى في الخامسة عشرة. عزوت ذلك إلى أنه انتظرني لوقت طويل، مغرماً بي بصمت، ودون أمل، طوال تسعة أعوام، مثلما اعترف هو نفسه لي، لكن أسلوبه الأخرق في الحب لم يطرأ عليه أي تبدل في الليالي التالية. يبدو لي أن أمك إولاليا، وكانت تحبه بغيرة شديدة، لم تعلمه أي شيء. فتحملتُ أنا مسؤولية تعليمه، ويمكنك أن تتصوري كيف توليت هذه المهمة بمتعة كبيرة، بعد تخلصي من الحقد على بالديبيا. وكنت قد فعلت الشيء نفسه معه من قبل، عندما تعارفنا في كوسكو. خبرتي بالقادة الإسبان محدودة، لكنني أستطيع القول لك إنني وجدت من كانوا من نصيبي قليلي الدراية في الأمور الغرامية، إلا أن لديهم استعداداً للتعلم. لا تضحكي يا ابنتي، فما أقوله صحيح. إنني أروي لك هذه الأمور لعلها تكون ذات نفع لك. لستُ أدري كيف هي علاقتك الحميمة بزوجك. ولكن، إذا كانت لديك شكوك، أنصحك بأن

تتحدثي معي في الموضوع، لأنك لن تجدي بعد موتي من تحدثينه في الأمر. الرجال هم مثل الكلاب والخيول، لابد من ترويضهم، غير أن نساء قليلات قادرات على عمل ذلك، فهن أنفسهن لا يعرفن شيئاً، لم يتوفر لهن معلم مثل خوان دي مالفا. ومعظمهن يتورطن فوق ذلك في الوساوس، وما عليك إلا أن تتذكري قميص نوم مارينا أورتيث دي غايتي ذا الفتحة. هكذا يتضاعف الجهل الذي يقضي عادة على الغراميات المستندة إلى أطيب النوايا.

وما كدت أرجع إلى سنتياغو وأبدأ المتع والغراميات الطيبة مع رودريغو، حتى استيقظت المدينة في صباح أحد الأيام على بوق إنذار أحد الحراس. فقد وجدوا رأس حصان مغروساً على حربة الرمح نفسه الذي عرضت عليه رؤوس بشرية كثيرة على امتداد السنوات. وعند تفحصه عن قرب، تبين أنه رأس سلطان، حصان الحاكم المفضل. ظلت صرخة رعب مكتومة في صدور الجميع. لقد كان حظر التجول قد فرض في سنتياغو لمنع السرقات، ولم يكن بإمكان أي هندي أو زنجي أو خلاسي أن يتجول ليلاً، تحت طائلة العقوبة بمئة جلدة على اللحم العاري، مشدوداً إلى العمود المغروس في الساحة. والعقوبة نفسها تطبق أيضاً إذا ما أقاموا حفلات دون تصريح، وإذا ما سكروا أو راهنوا في ألعاب الميسر؛ لأنها رذائل مقصورة على الأسياد وحدهم. وكان حظر التجول يعني استبعاد جميع سكان المدينة الخلاسيين والوطنيين من دائرة الاتهام، إلا أن أحداً لم يتصور أن يكون الجاني إسبانياً في مثل ذلك العمل المستنكر. أصدر بالديبيا الأمر للمأمور القضائي خوان غوميث باستخدام التعذيب ضد كل من يشتبه به من أجل الكشف عن مقترف تلك الإهانة.

❖ ❖ ❖

بالرغم من أنني شفيت من أحقادي على بيدرو دي بالديبيا، إلا أنني كنت أفضل ألا أراه إلا في أضيق الحدود. وقد كنا نلتقي بكثرة على أي حال، لأن مركز سنتياغو صغير جداً وبيوتنا متقاربة، لكننا لم نكن نشارك

في النشاطات الاجتماعية نفسها. فالأصدقاء يحرصون على عدم دعوتنا معاً. وعندما كنا نلتقي في الشارع أو في الكنيسة، نتبادل التحية بانحناءة احترام رصينة من الرأس، ولا شيء أكثر. ومع ذلك، لم يطرأ، بالمقابل، أي تبدل على علاقته برودريغو. فقد واصل بيدرو إغداق ثقته عليه، وكان رودريغو يرد عليه بالوفاء والمحبة. وكنتُ أنا بالطبع هدفاً لتعليقات خبيثة.

- لماذا يظل الناس أدنياء وثرثارين يا إنيس؟ - قالت لي سيسيليا ذات يوم.

- يضايقهم أنني لم أستسلم لدور العشيقة المهجورة وفضَّلت عليه دور الزوجة السعيدة. إنهم يبتهجون لرؤية إذلال النساء القويات، مثلك ومثلي. لا يغفرون لنا أننا نتفوق ونفوز بينما يخفق آخرون كثيرون - أوضحتُ لها.

- لستُ أستحق أن أقارن بك يا إنيس، فليس لدي مثل قوة طبعك - قالت سيسيليا ضاحكة.

- قوة الطبع فضيلة محمودة في الذكور، لكنها تعتبر نقيصة في بنات جنسنا. فالنساء القويات يعرِّضن للخطر توازن العالم الذي يُفضِّلُ الرجال. لهذا يسعون إلى مضايقتهن وتدميرهن. لكنهن مثل الصراصير، إذا ما سحقوا واحداً منها، تخرج أخريات من الأركان - قلتُ لها.

أما بشأن ماريا دي إنثيو، فأتذكر أن أياً من الجيران الأساسيين لم يكن يستقبلها، على الرغم من كونها إسبانية وخليلة الحاكم. فقد اقتصر الجميع على معاملتها كما لو أنها مدبرة منزله. أما المرأة الأخرى، خوانا خيمينث، فكانوا يسخرون منها في غيابها قائلين إن سيدتها دربتها على القيام في الفراش بأمور لا تتحمل معدتها هي القيام بها. فإذا كان ما يقال صحيحاً، فإنني أتساءل عن الرذائل التي ورطتنا بها بيدرو، هذا الرجل ذو العادات الحسية السليمة والمباشرة، والذي لم يولِ اهتماماً لكتيبات الشذوذ الفرنسية التي أشاع تداولها فرنثيسكو دي أغيرّي، اللهم إلا مرحلة الفتى المسكين إسكوبار، عندما حاول إذلالي كعاهرة للتهرب من الذنب الذي اقترفه. وبالمناسبة، لن يفوتني أن أقول، في هذه الصفحات، إن إسكوبار لم يصل إلى البيرو، لكنه

لم يمت كذلك عطشاً في الصحراء، مثلما يُعتقد. فقد علمتُ بعد سنوات طويلة أن هندي الياناكونا الشاب الذي رافقه، اقتاده عبر دروب سرية إلى ضيعة آبائه الضائعة بين قمم سلسلة الجبال، حيث مازال كلاهما يعيش حتى اليوم. قبل انطلاقه باتجاه الصحراء، وعد إسكوبار الكاهن غونثالو مارموليخو بأن يتحول إلى كاهن إذا ما قيض له الوصول سالماً إلى البيرو، لأن الرب سيكون قد أشار إليه بإصبعه عندما أنقذه من المشنقة أولاً، ثم من الصحراء بعد ذلك. لكنه لم ينجز وعده، وكانت لديه بالمقابل عدة زوجات من الكيتشوا، وعدد من الأبناء الخلاسيين، ناشراً بذلك الديانة المقدسة على طريقته. وبالعودة إلى الخليلتين اللتين جاء بهما بالديبيا من كوسكو، فقد علمتُ من كاتالينا أنهما تحضران له أشربة من عشبة القرنفل. ربما كان بيدرو يخشى فقدان طاقته الذكورية، وهي لا تقل أهمية في نظره عن شجاعته كجندي، ولهذا كان يشرب ذلك الشراب، ويستخدم امرأتين لاستثارته. ومع أنه لم يكن قد بلغ بعد السن التي تتقلص بها قدرته، إلا أن صحته كانت تخونه، ويشعر بآلام من جراحه القديمة. وقد كان مصير هاتين المرأتين محفوفاً بالمغامرات. فبعد موت بالديبيا، اختفت آثار خوانا خيمينث، ويقال إن هنود المابوتشي قد اختطفوها في كمين في الجنوب. وتحولت ماريا دي إنثيو إلى امرأة نزقة، وانهمكت في تعذيب خادماتها الهنديات. ويُروى أن عظام الخادمات عاثرات الحظ مدفونة في البيت الذي صار الآن ملكاً لمجلس المدينة، وفي الليل يُسمع أنينهن، ولكن هذه قصة أخرى لن يتاح لي الوقت لروايتها.

استبقيتُ ماريا وخوانا بعيدتين عني. لم أكن أفكر في التكلم معهما أبداً؛ غير أن بيدرو سقط عن الحصان في أحد الأيام، وكُسر عظم إحدى ساقيه؛ عندئذ استدعوني لأنه لا وجود لمن يعرف خيراً مني علاج هذا النوع من الإصابات. فكان أن دخلتُ أول مرة إلى البيت الذي كان بيتي، والذي شيدته بيدي، فلم أتعرف إليه على الرغم من أن الأثاث نفسه موجود في الأماكن نفسها. استقبلتني خوانا، وهي غاليسية قصيرة القامة، لكنها وافرة المفاتن،

وذات تقاطيع لطيفة، فحيتني بانحناءة احترام كخادمة، واقتادتني إلى الحجرة التي كنت أتقاسمها مع بيدرو من قبل. وهناك كانت ماريا تتباكى وتضع قطع قماش مبللة بالماء على جبهة الجريح الذي يرقد وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. اندفعت ماريا نحوي لتقبل يدي منتحبة بامتنان وذعر ـ إذا ما توفي بيدرو، فسيكون مصيرها غامضاً جداً ـ، لكنني أزحتها جانباً بلطف، كي لا أُغضبها، ودنوتُ من السرير. عندما رفعت الملاءة ورأيت الساق المكسورة إلى نصفين، فكرتُ أن أفضل ما تستدعيه الحالة هو البتر من فوق الركبة، قبل أن تتعفن الساق، لكن هذا النوع من العمليات كان يخيفني على الدوام، ولم أكن أشعر بأنني قادرة على عمل ذلك بالجسد الذي أحببته من قبل.

أوكلت أمري إلى السيدة العذراء، وتأهبت لعلاج الضرر بأفضل ما أستطيع، يساعدني في ذلك البيطار والحداد، إذ كان قد ثبت أن الطبيب مجرد سكير لا جدوى منه. لقد كان كسراً من تلك الكسور السيئة التي يصعب علاجها. فكان عليّ أن أعيد وضع العظام إلى مكانها بالتلمس، وبمعجزة تمكنت من وضعها في حالة جيدة إلى هذا الحد أو ذاك. وكانت كاتالينا تغيّب المصاب عن الوعي بمساحيقها السحرية الممزوجة بالخمر، لكنه كان يئن حتى وهو نائم؛ وقد تطلب الأمر الاستعانة بعدة رجال لتثبيته في كل جولة علاج. قمت بالعمل دون خبث ولا أحقاد، محاولة تقليص آلامه ما أمكن، وإن كان ذلك مستحيلاً. وللحقيقة أقول إن جحوده لم يخطر لي ببال. لقد شعر بيدرو مرات عديدة أنه سيموت من الألم، حتى إنه أملى وصيته على غونثالث دي مارموليخو، وختمها وأمر بحفظها وراء ثلاثة أقفال في مقر المجلس البلدي. وعندما فتحوها، بعد موته، اشترط بين ما اشترطه، أن يحلّ رودريغو دي كيروغا حاكماً محله. أعترفُ بأن الخليلتين الإسبانيتين اعتنيتا ببيدرو باهتمام بالغ، وبفضل ذلك الاهتمام، جزئياً، تمكن من العودة إلى المشي، وإن كان عليه أن يظل أعرج طيلة ما تبقى من حياته.

❖ ❖ ❖

لم يكن خوان غوميث بحاجة إلى تعذيب أي شخص كي يكتشف المذنب في جريمة قتل سلطان. فبعد نصف ساعة فقط، عُرف أن الفاعل هو فيليب. لم أستطع أن أصدق الأمر في البدء، لأن الشاب المابوتشي كان متعلقاً بذلك الحيوان إلى حدّ العبادة. ففي إحدى المرات، أصاب الهنود سلطان بجرح في مارغا ـ مارغا، فتولى فيليب العناية به طيلة أسابيع. كان ينام معه، ويقدم له الطعام بيده، وينظفه ويعالجه إلى أن استعاد الحصان عافيته. هكذا كانت المحبة المتبادلة بين الفتى والحصان، حتى إن بيدرو بدأ يشعر بالغيرة منه؛ لكنه فضّل عدم التدخل لأنه لا وجود لمن يعتني بسلطان خيراً من فيليب. وقد بلغت مهارة الفتى المابوتشي في التعامل مع الخيول حدّ الأسطورة. وكان بالدبيبا يفكر في تعيينه مشرفاً على الخيول عندما يبلغ السن المناسبة، وهي وظيفة محترمة جداً في المستوطنة، حيث تربية الخيول مهمة أساسية. لقد قتل فيليب صديقه الأصيل بقطع وريد العنق الكبير، كي لا يتألم، ثم جز رأسه بمنجل ماتشيتي. وتحدى حظر التجول، منتهزاً انتشار الظلام، ليغرس الرأس في الساحة، ويهرب بعد ذلك. ترك ملابسه وممتلكاته القليلة في حزمة في الإسطبل المغطى بالدم. انطلق عارياً، تتدلى من عنقه التميمة نفسها التي جاء بها قبل سنوات. إنني أتخيله يركض حافياً على الأرض الطرية، يستنشق ملء رئتيه أريج الغابة السري: الغار، والكييّاي، وإكليل الجبل، ويخوض في المستنقعات والجداول البلورية الصافية، ويجتاز سباحة مياه الأنهار الجليدية، وفوق رأسه السماء غير المتناهية. إنه حر أخيراً. لماذا اقترف تلك الفعلة الهمجية ضد الحيوان الذي طالما أحبه؟ التفسير الغامض الذي قدمته كاتالينا، وهي التي لم تتعاطف معه قط، كان دقيقاً: «ألا ترين أن المابوتشي قد ذهب إلى قومه وحسب، يا ماميتاي؟».

أعتقد أن بيدرو دي بالدبيبا قد انفجر غيظاً حيال ما جرى، وأقسم أن ينزل أشد العقوبات هولاً بسائسه المفضل، لكنه اضطر بعد ذلك إلى تأجيل

الانتقام، لأن لديه قضايا أخرى أشد إلحاحاً. كان قد توصل للتو إلى تحالف مع عدوه الرئيسي، الزعيم ميتشيمالونكو، وقد بدأ بإعداد الترتيبات لحملة كبرى يشنها على جنوب البلاد لإخضاع هنود المابوتشي. فالزعيم العجوز الذي لم تخلّف فيه السنون أي أثر، أدرك أنه من الملائم له التحالف مع *الهوينكا*، بعد أن عجز عن هزيمتهم. فحملة أغيرّي الانتقامية خلّفته عملياً بلا رجال يضمهم إلى قواته؛ ففي الشمال لم يبق سوى النساء والأطفال، ونصف هؤلاء هم من الخلاسيين. وفي الخيار بين الموت أو القتال ضد المابوتشي في الجنوب الذين دخل مؤخراً في مشاكل معهم لأنه لم يستطع إنجاز وعده لهم بتدمير الإسبان، اختار ميتشيمالونكو التحالف مع هؤلاء الأخيرين، فبهذا ينقذ كرامته على الأقل، ولا يجد نفسه مضطراً إلى تقديم رجاله للعمل في الأرض وفي استخراج الذهب للهوينكا.

أما أنا بالمقابل، فلم أستطع انتزاع فيليب من ذهني. بدا لي قتل سلطان عملاً رمزياً: بمثل ضربات الماتشيتي تلك قَتَلَ الحاكم، ولم يتراجع بعد إقدامه على ذلك العمل قط، فقد قطع علاقته بنا إلى الأبد، وحمل معه المعلومات التي اكتسبها خلال سنوات من التخفي الذكي. تذكرتُ الهجوم الهندي الأول على مدينة سنتياغو الوليدة، في ربيع العام 1541، وبدا لي أنني تنبهت إلى الدور الحاسم الذي لعبه فيليب في حياتنا. في تلك المناسبة غطى الهنود أنفسهم بملاءات سوداء كي يتقدموا في الليل دون أن يراهم حراسنا، مثلما فعلت في أوروبا قوات مركيز بيسكارا حين التحف الجنود بملاءات بيضاء على الثلج. لقد سمع فيليب هذه القصة عندما كان بيدرو يرويها في أكثر من مناسبة، ونقل الفكرة إلى زعماء القبائل. واختفاءاته المتواترة لم تكن مصادفة، بل هي استجابة لتصميم مسبق شرس، يكاد يكون من المستحيل تصوره لدى الطفل الذي كانه آنذاك. كان قادراً على الخروج من المدينة للصيد دون أن يتعرض لأي إزعاج من القوات المعادية التي تحاصرنا، لأنه واحد منهم. كانت رحلات صيده ذريعة للذهاب إلى معشره والاجتماع

بهم، وإطلاعهم على أخبارنا. وكان هو من جاء بخبر أن قوات ميتشيمالونكو تتجمع بالقرب من سنتياغو، وهو من ساعد في مكيدة إبعاد بالديبيا عن المدينة ومعه نصف رجالنا، وهو من أخبر الهنود باللحظة المناسبة للهجوم علينا. أين كان هذا الفتى خلال الهجوم على سنتياغو؟ لقد نسيناه في خضم تلك المعركة الرهيبة. قد يكون اختبأ أو ساعد أعداءنا، وربما ساهم في تأجيج الحرائق؛ لست أدري. لقد انكب فيليب، طوال سنوات، على دراسة الخيول، وترويضها وتربيتها؛ وكان يستمع باهتمام لقصص الجنود، ويتعلم الإستراتيجية العسكرية؛ وكان يتقن استخدام أسلحتنا، ابتداء من السيف وحتى البندقية والمدفع؛ ويعرف نقاط قوتنا وضعفنا. كنا نظن أنه يقدر بالديبيا، فيدعوه تايتا، ويخدمه خيراً من الجميع، لكنه في الحقيقة كان يتجسس عليه بينما هو ينمي في أعماقه الأحقاد ضد غزاة أرضه. وقد عرفنا في ما بعد أنه ابن زعيم هندي، والأخير من سلالة طويلة من الزعماء، شديد الاعتزاز بسلالته من المحاربين مثلما كان بالديبيا يعتز بسلالته. إنني أتخيل الحقد الرهيب الذي كان يملأ قلب فيليب. والآن، يركض هذا المابوتشي ذو الثمانية عشر عاماً، القوي والنحيل مثل قصبة، يركض عارياً وسريعاً نحو غابات الجنوب الرطبة، حيث تنتظره القبائل.

❖ ❖ ❖

كان اسمه الحقيقي لاوتارو، وقد توصل لأن يكون أشهر زعماء القبائل في أراوكانيا، وشيطاناً مخيفاً في نظر الإسبان، وبطلاً في نظر شعب المابوتشي، وأميراً في الملحمة الحربية. تحت قيادته انتظمت الشراذم الهندية المضطربة في فرق مشاة وخيالة، مثل أفضل جيوش أوروبا. ومن أجل إيقاع الخيول دون قتلها ـ فهي ثمينة بالنسبة إليهم مثلما هي بالنسبة إلينا ـ استخدموا البوليادورا، وهو سلاح مؤلف من كرتين حجريتين متصلتين بطرفي حبل، يقذفونها لتلتف على قوائم الفرس كي يسقط الحيوان

أرضاً، أو حول عنق الفارس لإنزاله عن حصانه. وجَّه جماعته لسرقة الخيول وعكف على تربيتها وترويضها؛ وفعل الشيء نفسه مع الكلاب. درب رجاله لتحويلهم إلى أفضل فرسان في العالم، مثلما كان هو نفسه، بحيث صار جيش المابوتشي جيشاً لا يُقهر. استبدل عصي القتال القديمة، وهي ثقيلة وخرقاء، بهراوى قصيرة، أكثر فعالية بكثير. وفي كل معركة كان يستولي على أسلحة العدو لاستخدامها واستنساخ مثلها. وأقر نظام اتصال بالغ الدقة والفعالية، بحيث يمكن لآخر محاربيه تلقي الأوامر من زعيمه خلال لحظات، وفرض انضباطاً صارماً لا يمكن مقارنته إلا بانضباط الجيوش الإسبانية المشهورة. وحوّل النساء إلى محاربات شرسات، واستخدم الأطفال في نقل المؤن والعتاد والرسائل. كان يعرف طبيعة الأرض جيداً، ويُفضّل الغابة لإخفاء جيوشه، لكنه عندما وجد ذلك ضرورياً، أقام حصوناً صغيرة في مواقع يصعب الوصول إليها، حيث كان يدرب رجاله، بينما جواسيسه يبلغونه عن كل خطوة يخطوها العدو، من أجل استباقه. ومع ذلك، لم يستطع أن يبدل عادة محاربيه السيئة في السُّكر بخمر التشيتشا و*الموداي* إلى أن يفقدوا الوعي بعد كل انتصار. ولو أنه توصل إلى ذلك، لتمكن المابوتشي من إبادة جيشنا في الجنوب. وبعد انقضاء ثلاثين سنة، مازالت روح لاوتارو تتقدم صفوف قواته، وسيظل اسمه يتردد عبر القرون، ولن نستطيع هزيمته أبداً.

عرفنا ملحمة لاوتارو بعد وقت قصير، عندما انطلق بيدرو دي بالديبيا إلى اراوكانيا لتأسيس مدن جديدة بحلم توسيع الفتح حتى مضيق ماجلان. «إذا كان بيثارّو قد فتح البيرو بمئة وبضعة جنود، قاتلوا ضد خمسة وثلاثين ألف رجل في جيش أتاوالبا، فسيكون من المخجل أن يتمكن بعض المتوحشين التشيليين من وقف تقدمنا»، أعلن ذلك أمام اجتماع مجلس المدينة. أخذ معه مئتي جندي جيدي التجهيز، وأربعة قادة، منهم الشجاع خيرونيمو دي الديريتي، ومئات الياناكونا لحمل حزم الأمتعة، وقد رافقه كذلك

ميتشيمالونكو ممتطياً حصانه الذي أهداه إليه، على رأس عصاباته غير المنضبطة، ولكنها تتميز بالشجاعة. وكان الفرسان يرتدون دروعاً كاملة؛ بينما يرتدي المشاة دروع الزرد ويحملون التروس، وحتى الياناكونا كانوا يعتمرون الخوذة لحماية رؤوسهم من ضربات هراوى المابوتشي الرهيبة. الشيء الوحيد غير المتناغم مع الكبرياء العسكري هو أنهم اضطروا إلى حمل بالديبيا في محفة، كما لو أنه إحدى الخليلات، لأن آلام ساقه المكسورة، ولم تكن قد شفيت تماماً بعد، تحول دون ركوبه الحصان. وقبل الانطلاق، أوفد فرانثيسكو أغيرّي الرهيب ليتولى إعادة إعمار سيرينا وتأسيس مدن أخرى في الشمال الذي أقفر تقريباً بسبب حملات الإبادة التي شنها أغيرّي نفسه من قبل، وبسبب الانسحاب الجماعي لقبيلة ميتشيمالونكو. عيّن رودريغو دي كيروغا ممثلاً له في سنتياغو، باعتباره القائد الوحيد الذي يحظى بإجماع على طاعته واحترامه. وهكذا، في واحدة من مفاجآت الحياة غير المتوقعة، عدتُ مجدداً لأكون الحاكمة، وهو المنصب الذي مارسته على الدوام عملياً، وإن لم يكن لقبي الشرعي من قبل.



هرب لاوتارو من سنتياغو في أشد ليالي الصيف ظلمة، دون أن يراه الحراس، ودون أن يستثير الكلاب التي تعرفه. ركض على ضفة نهر المابوتشي، متخفياً بين خضرة القصب والسرخس. لم يستخدم جسر الحبال الذي أقامه *الهوينكا*، ألقى بنفسه إلى المياه السوداء، وسبح بصرخة سعادة مكتومة في صدره. المياه الباردة تغسله من الداخل والخارج، تطهره من رائحة *الهوينكا*. يجتاز النهر بضربات قوية من ذراعيه، ويخرج من الجانب الآخر كمن ولد من جديد. «*إنتشي لاوتارو!* أنا لاوتارو!»، يصرخ بأعلى صوته. ينتظر دون حراك على الضفة، بينما الهواء الدافئ يبخر الرطوبة عن جسده. يسمع نعيق *تشون -تشون*، وهو روح له جسد طائر ووجه إنسان، ويرد بنداء مشابه؛ وعندئذ يشعر بحضور دليلته، غواكولدا. لابد له من بذل

جهد لرؤيتها، بالرغم من أن عينيه قد اعتادتا على الظلمة، لأن لها موهبة الريح، فهي غير مرئية، والكلاب لا تشمها. غواكولدا، تكبره بخمس سنوات، إنها خطيبته. يعرفها منذ الطفولة ويعرف أنه لها مثلما هي له. لقد كان يراها في كل مرة يخرج فيها من المدينة ليقدم معلومات إلى القبائل. إنها وسيلة الاتصال، المراسلة السريعة. وهي من قادته إلى مدينة الغزاة عندما كان صبياً في الحادية عشرة، وزودته بتعليمات واضحة بالمداراة والمراقبة؛ وهي من رأته عن قرب عندما التصق بالكاهن الذي يرتدي السواد ولحق به. وغواكولدا هي من أخبرته، في اللقاء الأخير، بأن عليه أن يهرب في الليلة التالية التي لا قمر فيها، لأن زمنه مع العدو قد انتهى، فقد صار يعرف كل ما هو ضروري ومعشره ينتظرونه. وحين رأته يصل هذه الليلة، متخلصاً من ملابس *الهوينكا*، عارياً، حيته غواكولدا *«مَري مَري»*، ثم قبّلته من فمه أول مرة، لحست وجهه، لمسته كامرأة لتقر حقها فيه. *«مَري مَري»*، ردّ لاوتارو الذي كان يعرف أن موعده مع الحب قد أزف، وعما قريب سيتمكن من سرقة غواكولدا من بيتها، يحملها على كاهله ويهرب بها، كما هو الصواب. يخبرها بذلك، وتبتسم هي، ثم تقوده في ركض خفيف باتجاه الجنوب، ودائماً نحو الجنوب. تميمة لاوتارو التي لا تُنتزع أبداً من عنقه هي من غواكولدا.

بعد أيام يصل الشابان إلى هدفهما. ويقوم أبو لاوتارو، وهو زعيم يحظى باحترام واسع، بتقديم ابنه إلى الزعماء الآخرين، كي يسمعوا ما سيقوله الابن.

ـ العدو آت على الطريق، إنهم *الهوينكا* أنفسهم الذين انتصروا على أخوتنا في الشمال ـ أوضح لاوتارو ـ. إنهم يقتربون من نهر بيو ـ بيو، النهر المقدس، ومعهم أعوانهم الياناكونا، وخيول وكلاب. ويأتي معهم ميتشيمالونكو الخائن، يرافقه جيشه من الجبناء ليقاتل ضد أخوته في الجنوب. الموت لميتشيمالونكو! الموت للهوينكا!

يتكلم لاوتارو طيلة أيام، يقول إن البنادق ليست سوى دوي وريح، وأن

عليهم أن يخشوا السيوف والرماح والفؤوس والكلاب أكثر منها؛ وإن قادة الهوينكا يرتدون دروعاً لا تخترقها السهام والرماح الخشبية؛ ولابد من استخدام الهراوى معهم لتدويخهم، وإنزالهم عن الخيول بالحبال؛ وعندما يصيرون على الأرض، يكون ضياعهم، فمن السهل عندئذ سحلهم وتمزيقهم، لأن ما تحت الحديد هو مجرد لحم.

ـ حذار! إنهم رجال لا يعرفون الخوف. المشاة منهم لا يحمي الحديد إلا صدورهم ورؤوسهم، ومعهم تنفع السهام. حذار! فهم أيضاً لا يخافون. لابد من تسميم السهام كي لا يتمكن الجرحى من العودة إلى القتال. أما الخيول فهي حيوية، يجب الاستيلاء عليها حية، وخاصة الأفراس، لتربيتها. وسيكون من الضروري إرسال أطفال في الليل إلى مقربة من معسكرات *الهوينكا* لرمي لحم مسموم إلى الكلاب، إذ تكون مقيدة دوماً. وسنصنع شِراكاً. نحفر حفراً عميقة، ونغطيها بالأغصان، فتسقط الخيول وتنغرس فيها الرماح المثبتة في القاع. ميزة المابوتشي هي كثرتهم العددية، والسرعة، ومعرفتهم بالغابة ـ يقول لاوتارو ـ. ليس صحيحاً أن *الهوينكا* لا يُهزمون، إنهم ينامون أكثر من المابوتشي، ويكثرون من الأكل والشرب، ويحتاجون لحمالين لأنهم مثقلون بوزن معداتهم. سنزعجهم دون توقف، سنكون مثل الدبابير وذباب الخيل ـ يقول آمراً ـ، في البدء سنُتعبهم، وبعد ذلك نقتلهم. *الهوينكا* بشر، يموتون مثل المابوتشي، لكنهم يتصرفون كالشياطين. في الشمال أحرقوا أبناء قبائل بكاملها وهم أحياء. يريدوننا أن نتقبل إلهم المسمر على صليب، إله الموت، وأن نخضع لملكهم، وهو لا يعيش هنا ولا نعرفه؛ ويريدون احتلال أرضنا، وأن نكون عبيداً لهم. لماذا؟ أسأل أنا أولئك الناس. لا لشيء يا أخوتي. إنهم لا يعرفون الحرية. لا يفهمون الكرامة، ينصاعون، يجثون على الأرض، ويحنون رؤوسهم. لا يعرفون شيئاً عن العدالة أو الثواب. *الهوينكا* مجانين، لكنهم مجانين أشرار. وأنا أقول لكم يا أخوتي إننا لن نكون أسرى لديهم أبداً، سنموت ونحن نقاتل. سنقتل

الرجـال، لكننـا سـنأخذ أطفـالهم ونسـاءهم أحيـاء. وسـتكون نسـاؤهم *شينورات* لنا ، وإذا هـم رغبوا نبـادلهم الأطفـال بـالخيول. هـذا عـدل. سنكون صامتين وسريعين، مثل السمك، ولن يعرفوا أبـداً أننـا قريبـون منهم؛ وعندئـذ ننقض عليهم فجـأة. سنكون صيادين صبورين. هـذا الصـراع طويـل الأمـد. فليتهيأ الجميع.

❖ ❖ ❖

بينمـا القائـد الشـاب لاوتـارو يضـع الترتيبـات الإستراتيجية فـي النهـار، ويختبئ مع غواكولدا في الدغل لممارسة الحـب ليلاً، كانـت القبائـل تختـار للحرب زعماءها الـذين سيكونون قـادة السـرايا، ويخضعـون بـدورهم لأوامـر *النيدولتوكي*، أي زعيم الزعماء لاوتارو. هـواء المساء دافئ فـي الموقـع الأجـرد من الغابة، ولكـن مـا إن يخيم الليل حتـى تبـدأ البرودة. كانت المباريات قـد بدأت قبل أسابيع، وتنافس المرشحون للزعامة، وجرت التصفيـة بينهم واحداً بعـد آخـر. فالأقويـاء والقـادرون علـى الصـمود وحـدهم، مـن يتمتعـون بربـاطـة الجـأش وقـوة الإرادة، هـم الـذين يستطيعون التطلـع إلى أن يكونـوا زعمـاء الحـرب. يقفـز أحـد أشـد الأقويـاء إلى الحلبـة. يقـدم نفسـه: «*إنتشـي كاوبوليكـان*». إنـه عـارٍ إلا مـن وزرة صـغيرة تغطـي عضـوه، لكنـه يحمـل أشـرطة رتبتـه معقـودة علـى ذراعيـه وجبهتـه. يقترب شـابان مـن جـذع الشـجرة الضـخم الـذي أُعـد سلفاً، ويرفعانـه بصـعوبة، كـل منهمـا مـن أحـد طرفيـه. يعرضانه كي يراه الحشد ويقدر ثقل وزنه، ثم يضعانه بعـد ذلك بحـذر علـى ظهر كاوبوليكـان المتين. يميل خصـر الرجـل وركبتـاه حين يتلقـى الحمولـة المهولـة ويبـدو للحظـة أنـه سيسـقط مسـحوقاً، لكنـه ينتصـب فـوراً. عضـلات جسده تتوتر، والبشرة تلمع بالعرق، تنتفخ أوردة الرقبة موشكة على التمـزق. تفلت صرخة مكتومة من دائرة الحاضرين عندما يبدأ كاوبوليكـان، ببطء شديد، المشي فـي خطوات قصيرة، مقننـاً قـواه كـي تكفيـه طيلـة السـاعات اللازمـة. عليـه أن يهـزم آخـرين لا يقلـون عنـه قـوة. ميزتـه الوحيـد هـي إصـراره

الصارم على أن يموت في الاختبار قبل أن يتنازل عن الموقع الأول. إنه يتطلع إلى قيادة رجاله إلى المعركة، ويرغب في أن يستمر ذكره، ويريد أن ينجب أبناء من فريسيا، الفتاة التي اختارها، وأن يحمل أولئك الأبناء دمه باعتزاز. يعدّل وضع الجذع المستند إلى رقبته، وإلى كتفيه وذراعيه. لحاء الجذع القاسي يمزق جلده، وخيوط رفيعة من الدم تسيل على ظهره العريض. يستنشق بعمق أريج الغابة الزخم، يشعر بالراحة وهو يتلقى النسيم والندى. عينا فريسيا التي ستصير امرأته إذا ما خرج ظافراً من الاختبار، تحدقان بعينيه، دون أي أثر من الشفقة، لكنهما عينان محبتان. إنها تطالبه بنظرتها بالفوز: ترغب فيه، لكنها لن تتزوج إلا من الأفضل. تتألق في شعرها زهرة كوبيهوي، زهرة الغابات الحمراء التي تنمو في الهواء، إنها قطرة من دم الأرض الأم، أهداها إليها كاوبوليكان الذي ارتقى أكثر الأشجار علواً ليقطفها.

يمشي المحارب بصورة دائرية وثقل العالم على كتفيه، ويقول: «نحن حلم الأرض، هي تحلم بنا. وفي النجوم أيضاً كائنات يُحلم بها، ولهم أعاجيبهم الخاصة بهم. إننا أحلام داخل أحلام أخرى. نحن متزوجون من الطبيعة. نحيي الأرض المقدسة، أمنا التي نغني لها بلغة أشجار الأروكاريا والقرفة، بلغة الكرز ونسور الكُندور. فلتأت الرياح المزهرة حاملة صوت الأسلاف كي تتصلب نظرتنا. فلتبحر بسالة الزعماء القدماء في دمائنا. يقول المسنون أنه زمن الفأس. أجداد الأجداد يحرسوننا ويسندون ذراعنا. إنها ساعة المعركة. علينا أن نموت. فالموت والحياة هما الشيء نفسه...». صوت المحارب المتقطع يتكلم ويتكلم لساعات ابتهال دون كلل، بينما الجذع الضخم يتوازن على كتفيه. يستذكر أرواح الطبيعة كي تدافع عن الأرض، عن مياهها العظيمة، وعن توالي فجرها. يستذكر الأسلاف كي يحولوا أذرع الرجال إلى رماح. يستذكر نمور البوما في الجبل كي تمد النساء بالصلابة والشجاعة. المتفرجون يتعبون، يبللهم رذاذ مطر الليل الخفيف،

ويشعل بعضهم مواقد صغيرة للاستضاءة، يمضغون حبوب ذرة محمصة: آخرون ينامون أو يذهبون، لكنهم يرجعون في ما بعد ويبدون إعجابهم. *الماتشي* (العرافة) العجوز ترش كاوبوليكان بحزمة من أغصان القرفة مبللة بدم القربان، لمنحه الصلابة. المرأة تشعر بالخوف، فقد ظهرت لها، في الليلة الماضية، في الحلم الأفعى ـ الثعلب، *نييرو ـ فيلو*، والثعبان ـ الديك، *بيويتشين*، ليقولا لها إن دماء الحرب ستكون غزيرة، وستصبغ نهر بيو ـ بيو بالأحمر حتى نهاية الأزمنة. تقرّب فريسيا من شفتي كاوبوليكان المتيبستين قرعة فيها ماء. ويرى هو يدي حبيبته القاسيتين على صدره، تتلمس عضلاته المتحجرة، لكنه لا يحس بهما، مثلما لم يعد يشعر بالألم أو التعب. يواصل الكلام متقطعاً، يمشي نائماً. وهكذا تنقضي الساعات، الليلة كلها، وهكذا يبزغ فجر اليوم الجديد، وينفذ الضوء من بين أوراق الأشجار السامقة. المحارب يطفو في الضباب البارد الذي ينفصل عن الأرض، أول الأشعة الذهبية تغمر جسده، ويواصل هو خطواته الراقصة. ظهره أحمر بالدم، والخطاب يتدفق. «إننا في *هوالان*، موسم الثمار المقدس، حين تمنحنا الأم المقدسة الغذاء، موسم الصنوبر وولادة صغار الحيوانات والنساء، أبناء وبنات نغينيتشين. قبل أن يأتي موسم الراحة، موسم البرد ونوم الأرض الأم، سيأتي *الهوينكا*».

انتشر الخبر في الجبال، وتوافد محاربو القبائل الأخرى، وامتلأت الساحة الجرداء في الغابة بالناس. وبدأت الدائرة التي يمشي فيها كاوبوليكان تضيق. إنهم ينعشونه الآن، *الماتشي* ترشه مجدداً بدم طازج، وفريسيا ونساء أخريات يغسلن جسده بجلود أرانب مبللة، يقدمن له الماء، يُدخلن قليلاً من الطعام في فمه، كي يبتلع دون أن يتوقف عن إلقاء خطابه الشعري، لم يرين شيئاً كهذا من قبل. الشمس تسخن الأرض وتشتت الضباب، يمتلئ الجو بفراشات شفافة. وأعلى من قمم الأشجار، يبرز على خلفية السماء البركان المهيب بعمود دخانه الأبدي. «مزيداً من الماء

للمحارب»، تقول المانشي. وكابوليكان الذي كسب الجولة منذ بعض الوقت، يواصل المشي والكلام. تصل الشمس إلى سمتها وتبدأ بالانحدار إلى أن تختفي بين الأشجار، وهو لا يتوقف. آلاف المابوتشي توافدوا خلال هذه الساعات، وملأت الحشود المساحة الجرداء والغابة كلها، يأتي آخرون من الجبال، تدوي الطبول والنايات معلنة المأثرة في الرياح الأربع. لم تعد عينا فريسيا تنفصلان عن عيني كاوبوليكان، إنهما تدعمانه، توجهان خطاه.

وأخيراً، بعد حلول الليل، يأخذ المحارب نفساً ويرفع الجذع فوق رأسه. يبقيه هناك للحظات، ثم يرميه بعيداً. لقد صار هناك معاون للاوتارو. «أووووووووووم! أوووووووووووم!» الصرخة الهائلة تدوي في أرجاء الغابة، ترن بين الجبال، تسافر إلى كل أنحاء أراوكاريا وتصل إلى مسامع *الوينكا*، على بعد فراسخ كثيرة. «أوووووووووووم!».



احتاج بالديبيا لما يقارب الشهر كي يصل إلى أراضي المابوتشي، وتمكن خلال هذا الوقت من استعادة عافيته بما يكفي لامتطاء الحصان في بعض الأحيان، وبصعوبة كبيرة. وما كاد الإسبان يقيمون معسكرهم حتى بدأت هجمات العدو اليومية. كان رجال المابوتشي يجتازون سباحة الأنهار نفسها التي تُوقف تقدم الإسبان العاجزين عن اجتيازها دون مراكب بسبب ثقل دروعهم وعتادهم. وبينما يتصدى البعض بصدورهم العارية للكلاب وهم يعلمون أنهم سيؤكلون أحياء، لكنهم مصممون على إنجاز مهمة كبحها، ينقض الآخرون على الإسبان. يخلفون عشرات الموتى ويحملون الجرحى القادرين على النهوض، ويختفون في الغابة قبل أن يتمكن الجنود من تنظيم صفوفهم للحاق بهم. أصدر بالديبيا الأمر بأن يتولى نصف جيشه الضئيل الحراسة، بينما يستريح النصف الآخر، في مناوبات من ست ساعات. وعلى الرغم من الهجمات، واصل الحاكم التقدم، متجاوزاً كل

مناوشة أو كمين. توغل أكثر فأكثر في أراوكانيا دون أن يواجه قوات كبيرة من السكان الأصليين، وإنما جماعات متفرقة، تنهك هجماتها المفاجئة والصاعقة جنوده، لكنها لا توقفهم، فهم معتادون على مواجهة أعداء أكثر عدداً بمئات المرات. وكان ميتشيمالونكو هو الوحيد الذي يشعر بالقلق، لأنه يعرف جيداً مع من ستكون مواجهته عما قريب.

وهذا ما حدث. أول مواجهة جدية مع المابوتشي وقعت في شهر كانون الثاني 1550، عندما وصل *الوينكا* إلى ضفة نهر بيو ـ بيو، الخط الفاصل لأراضي المابوتشي التي لا يمكن اختراقها. أقام الإسبان معسكرهم عند ضفة بحيرة، في موقع جيد الحماية، بحيث كان ظهرهم محمياً بمياه النهر الجليدية والصافية. لم يخطر لهم أن الأعداء قد يأتون إليهم عبر الماء، كذئاب بحر سريعة وصامتة. لم ير الحراس شيئاً، وكان الليل يبدو هادئاً، إلى أن سمعوا فجأة جلبة صراخ، وصيحات، ونايات، وطبول، واهتزت الأرض تحت وقع الأقدام العارية لمئات ومئات المحاربين من رجال لاوتارو. خرجت قوة الفرسان الإسبانية، المتأهبة دوماً، للقائهم، لكن الوطنيين لم يخافوها، مثلما كان يحدث لهم من قبل أمام اندفاع الخيول، وإنما وقفوا في مواجهتها كجدار وهم يثبتون الرماح إلى خصورهم. هاجت الخيول، واضطر الفرسان إلى التقهقر، وفي أثناء ذلك أطلق رماة البنادق صليتهم الأولى. كان لاوتارو قد نبه رجاله إلى أن حشو الأسلحة النارية يتطلب بضع دقائق، يكون الجندي خلالها أعزل؛ وهذا يوفر لهم الوقت للهجوم. ذهل بالديبيا حيال انعدام الخوف المطلق لدى رجال المابوتشي الذين يلتحمون بالجنود ذوي الدروع، فنظم قواته مثلما كان يفعل في إيطاليا، في سرايا متراصة محمية بالدروع، وتبرز من كتلة الجنود المتماسكة حراب الرماح والسيوف، بينما كان ميتشيمالونكو ورجاله يشنون الهجوم في الخلف. استمرت المعركة الشرسة حتى الليل، حيث انتهت بتراجع جيش لاوتارو الذي لم يتشتت في هروب متعجل، وإنما في انسحاب منظم يضبطه إيقاع الطبول.

ـ لم يُرَ فـي العـالم الجديـد مثيل لهؤلاء المحـاربين ـ قـال خيرونيمـو دي ألديريتي مستنفداً.

ـ لم أواجه فـي حيـاتي قـط عـدواً بهـذه الشراسـة. إنني أخـدم الملك منـذ ثلاثين سنة، وقـد قاتلت ضد بلدان كثيرة، لكنني لم أر مثل عنـاد هـؤلاء النـاس فـي القتال ـ أضاف بالديبيا.

ـ ماذا سنفعل الآن؟

ـ سنؤسس مدينـة فـي هـذا المكـان. فهـو يتمتـع بكل الميـزات الجيـدة: شاطئ صحي، نهر عريض، أخشاب، إمكانية صيد الأسماك.

ـ وآلاف المتوحشين فـي محيط المكان ـ أشار ألديريتي.

ـ سنبني موقعـاً محصنـاً فـي البـدء. سـنوجه الجميـع، باسـتثناء الجرحـى والحراس، إلى العمل فـي قطع الأشجار وبناء عنـابر وسـور مـع خنـدق. وسـنرى بعد ذلك إذا ما كـان هؤلاء المتوحشون سيتجرؤون علينا.

لقـد تجـرؤوا بـالطبع. فمـا كـاد الإسـبان ينتهـون مـن بنـاء السـور، حتـى حضر لاوتارو بجيش جـرار، قـدره الحـراس المذعورون بمئـة ألـف رجل. «إنهـم أقل من نصف هذا العدد، وبإمكاننا إلحاق الهزيمة بهم. القـديس سنتياغو، ولنتكـاتف إسـبانيا!»، خطـب بالـديبيا مشـجعاً جنـوده؛ وكـان مبهـوراً بجـرأة العـدو وسـلوكه أكـثـر مـن انبهـاره بأعـداد قواتـه. كـان رجـال المابوتشـي يتقـدمون بانضـباط تـام، فـي أربـع فـرق يقـود كـل فرقـة منهـا زعـيم حـرب. والضجيج الرهيب الـذي يخيفـون بـه عـدوهم، تعـزز الآن بنايـات مصـنوعة مـن عظام الإسبان القتلى فـي معارك سابقة.

ـ لن يتمكنوا من اجتياز الخندق والسـور. سـنوقف تقـدمهم بالبنـادق ـ اقـترح الديريتي.

ـ يمكن لهم، إذا ما ظللنا فـي الحصـن، أن يحاصـرونا حتـى نمـوت جوعـاً ـ قال بالديبيا.

ـ يحاصروننا؟ لا أظن أنهم سيفكرون فـي ذلك، فهـذا تكتيك لا يعرفـه المتوحشون.

ـ أخشى أن يكونوا قد تعلموا الكثير منا. علينا أن نخرج لمواجهتهم.

ـ إنهم كثيرون جداً، لن نستطيع مواجهتهم.

ـ بل نستطيع بعون الله ـ أجابه بالديبيا.

أمر خيرونيمو دي ألديريتي بأن يخرج مع خمسين فارساً لمواجهة أول سرية من المابوتشي، وكانت تتقدم بثبات باتجاه البوابة، على الرغم من صلية بارود البنادق الأولى التي خلفت كثيرين منهم مطروحين على الأرض. استعد القائد وجنوده لتنفيذ الأمر دون تذمر، مع أنهم كانوا واثقين من أنهم ذاهبون إلى موت مؤكد. ودّع بالديبيا صديقه بعناق مؤثر. لقد تعارفا منذ زمن طويل، وتجاوزا معاً ما لا حصر له من المخاطر.



المعجزات موجودة، لا شك في ذلك. وفي هذا اليوم بالذات حدثت معجزة، ليس ثمة تفسير آخر، وهو ما سيردده لقرون وقرون أحفاد ونسل الإسبان الذين شهدوا الواقعة، وسيرددها بكل تأكيد كذلك أبناء المابوتشي من الأجيال التالية.

وقف خيرونيمو دي ألديريتي على رأس فرسانه الخمسين المتأهبين، وبإشارة منه فُتحت الأبواب على مصاريعها. خرجت فرقة الفرسان مندفعة لتُقابَل بصرخات الهنود وضجيجهم الفظيع. وخلال لحظات قليلة، أحاط حشد هائل من المحاربين بالفرسان الإسبان، وأدرك ألديريتي فوراً أن الاستمرار سيكون عملاً انتحارياً. أمر رجاله بإعادة التجمع، لكن كرات البوليادورا التي فرضها لاوتارو كانت تلتف على قوائم الخيول وتمنعها من المناورة. ومن فوق الأسوار، أطلق رماة البنادق الصلية الثانية، لكنها لم تخفف من اندفاع المهاجمين. استعد بالديبيا للخروج من أجل تعزيز سرية الفرسان، وإن كان ذلك يعني ترك الحصن بلا دفاع في مواجهة الفرق الهندية الثلاث الأخرى المحيطة به، إذ لم يكن بإمكانه السماح بأن يقضوا

على خمسين من رجاله دون أن يمد لهم يد المساعدة. ولأول مرة في حياته العسكرية، خشي أن يكون قد اقترف خطأ تكتيكياً لا سبيل إلى إصلاحه. بطل البيرو الذي ألحق هزيمة ماحقة قبل وقت قصير بجيش غونثالو بيثارّو، كان مرتبكاً أمام أولئك المتوحشين. كان الصراخ رهيباً، الأوامر لا تُسمع، وفي تلك الفوضى سقط أحد الفرسان الإسبان بطلقة بندقية أخطأت الهدف. وفجأة، عندما كان مابوتشيو الفرقة الأولى قد سيطروا على الموقف، أخذوا يتراجعون بسرعة، ولحقت بهم على الفور تقريباً الفرق الثلاث الأخرى. وخلال دقائق غادر المهاجمون ميدان المعركة وهربوا إلى الغابات كالأرانب.

الإسبان الذين فوجئوا، لم يدروا ما الذي يحدث، وخشوا أن يكون ذلك تكتيكاً جديداً من العدو، إذ لم يجدوا تفسيراً آخر لذلك الانسحاب المفاجئ الذي أنهى المعركة وهي لم تكد تبدأ بعد. بادر بالديبيا إلى عمل ما تمليه عليه خبرته العسكرية: أمر بمطاردتهم. وهذا ما وصفه في إحدى رسائله إلى الملك: «وما كاد فرساننا يصلون حتى استدار الهنود مولين الأدبار، وحذت الفرق الثلاث الأخرى حذوهم. وقد قتلنا منهم ألفاً وخمسمئة أو ألفي هندي، وجرحنا كثيرين آخرين، وفقدنا بعض جنودنا».

لقد أكد من كانوا حاضرين أن المعجزة كانت مرئية للجميع، فقد ظهر شكل ملائكي، متلألئ كالبرق، وانحدر فوق الميدان، مضيئاً النهار بنور خارق. البعض اعتقدوا أنهم تعرفوا فيه على الحواري سنتياغو بشخصه، ممتطياً فرساً أبيض، وواجه المتوحشين، ووجه إليهم عظة بليغة، أمرهم فيها بالاستسلام للمسيحيين. ورأى آخرون صورة سيدتنا عذراء الرحمة، على هيئة سيدة باهرة الجمال ترتدي الذهب والفضة، وتطفو في الأعالي. أما الهنود الأسرى فاعترفوا بأنهم رأوا لهباً رسم قوساً كبيراً في القبة السماوية وانفجر بدوي هائل، مخلفاً في الجو ذيلاً من نجوم. وفي السنوات التالية، قدم مدّعو العلم روايات أخرى، فقالوا إنه نيزك سماوي، أي شيء يشبه صخرة هائلة

انفصلت عن الشمس وهوت إلى الأرض. أنا لم أرَ قط واحداً من هذه النيازك، وقد أذهلني أن تكون لها هيئة القديس سنتياغو أو العذراء، وأن تسقط في الوقت والمكان المناسبين للإسبان. لا أدري إذا كانت معجزة أو نيزك، لكن ما حدث هو أن الهنود هربوا مذعورين وظل المسيحيون أسياد الميدان، واحتفلوا بنصر لم يحققوه.

وحسب الأخبار التي وصلت إلى سنتياغو، فقد أسر بالديبيا حوالي ثلاثمئة محارب هندي - وإن يكن هو نفسه قد أقر، أمام الملك، بمئتين فقط - وأمر بتطبيق العقوبة عليهم: كانوا يبترون أيديهم اليمنى بضربة فأس، ويجدعون أنوفهم بسكين. وبينما كان بعض الجنود يجبرون الأسرى على وضع أذرعهم على مقطع من جذع شجرة، كي يهوي الجلادون الزنوج عليها بحد الفأس، كان جنود آخرون يكوون المعصم بتغطيسه في دهن يغلي، وهكذا لا ينزف الضحايا ويستطيعون إيصال العبرة إلى قبيلتهم. وبعد ذلك يتولى فريق ثالث جدع أنوف هنود المابوتشي التعساء. لقد مُلئت سلال بالأيدي والأنوف المبتورة، وغطت الدماء الأرض. وفي رسالته إلى الملك، قال بالديبيا إنه جمع الهنود بعد أن أقر العدالة، وتكلم إليهم، إذ كان بينهم بعض زعماء الهنود وسادتهم. وأعلن أنه «فعل ذلك بعد أن أرسل إليهم مرات ومرات يدعوهم إلى السلام ولم يتقيدوا به». أي أنه كان على من تلقوا التعذيب أن يتحملوا فوق ذلك خطبة حماسية بالإسبانية. ومن كانوا منهم قادرين على الوقوف، ابتعدوا متعثرين باتجاه الغابة كي يذهبوا لعرض أعضائهم المبتورة على رفاقهم. وكان كثيرون من مبتوري الأيدي يسقطون مغمى عليهم، لكنهم يعودون للنهوض بعد ذلك، وينصرفون ممتلئين بالغضب. وعندما لم يعد الجلادون قادرين على رفع الفؤوس والسكاكين من التعب والغثيان، اضطر الجنود إلى الحلول محلهم. ثم ألقوا بسلال الأيدي والأنوف المبتورة إلى النهر، فطفت متهادية باتجاه البحر، يحملها التيار المضرج بالدم.

عندما علمتُ بما حدث، سألت رودريغو عن الهدف من تلك المجزرة التي

ستؤدي، حسب رأيي، إلى نتائج وخيمة، لأنه لا يمكن لنا بعد مثل هذه الواقعة أن ننتظر الرحمة من جانب المابوتشي، وإنما أسوأ أشكال الانتقام. فأوضح لي رودريغو بأن هذه الأمور قد تكون ضرورية في بعض الأحيان من أجل إخافة العدو.

ـ وهل كنت ستقدم على مثل هذا العمل؟ ـ أردت أن أعرف.

ـ لا أظن ذلك يا إنيس. ولكنني لم أكن هناك، ولا يمكن لي أن أحكم على قرارات الجنرال.

ـ لقد عشتُ مع بيدرو الحلاوة والمرارة طيلة عشر سنوات يا رودريغو، وهذا العمل لا يتطابق مع الشخص الذي أعرفه. لقد تبدل بيدرو كثيراً، ودعني أقل إنني سعيدة لأنه لم يعد له وجود في حياتي.

ـ الحرب هي الحرب. وأرجو من الله أن تنتهي سريعاً ونتمكن من تأسيس هذه البلاد بسلام.

ـ إذا كانت الحرب هي الحرب، فعلينا أن نبرر كذلك المجازر التي اقترفها فرانثيسكو أغيرّي في الشمال ـ قلت له.

بعد ذلك الانتقام الوحشي، أمر بالديبيا بأخذ المؤن والبهائم التي صودرت من الهنود ونقلها إلى الحصن. وأرسل مراسلين ليعلنوا في المدن أنه خلال أربعة أشهر، بعون الحواري سنتياغو وسيدتنا العذراء، سيتمكن من فرض السلام في هذه الأراضي. وبدا لي أنه يتعجل في إعلان النصر.



خلال السنوات الثلاث التي كانت قد تبقت له في الحياة، التقيت بيدرو بالديبيا مرات قليلة جداً، وكنت أحصل على أخباره من آخرين. بينما كنا أنا ورودريغو نزدهر دون أن نلحظ ذلك، فأينما صوبنا بصرنا تتكاثر الماشية، وينمو الزرع وينبثق الذهب من الصخر، كان الحاكم منهمكاً في بناء الحصون وتأسيس المدن في الجنوب. يبدأ أولاً بغرس الصليب والراية،

وإذا كان هناك كاهن، يقيم قداساً، ثم ينصب شجرة العدالة، أو منصة الإعدام، ويبدأ الرجال بقطع الأشجار لبناء السور الحامي والبيوت. أصعب ما في الأمر كان الحصول على سكان. لكن الجنود والعائلات كانوا يتوافدون شيئاً فشيئاً. وهكذا ظهرت مدن كونثيبثيون، وإمبريال، وبيّاريكا وغيرها، وقد أقيمت هذه المدينة الأخيرة بالقرب من مناجم الذهب التي اكتشفت في أحد روافد نهر بيو- بيو. وقد كان إنتاج هذه المناجم كبيراً إلى حد أنه لم يعد هناك من يتداول في التجارة إلا تبر الذهب، ولو لشراء الخبز، واللحم، والثمر، والخضار وغيرها من البضائع؛ ولم يكن هناك نقد في التداول سوى الذهب. صار التجار، والخمارون، والباعة يتجولون حاملين الموازين للبيع والشراء. وهكذا تحقق حلم الفاتحين، ولم يعد هناك من يتجرأ على تسمية تشيلي «بلاد المهلهلين» أو «مقبرة الإسبان». وتأسست كذلك مدينة بالديبيا، وقد سميت بهذا الاسم بإلحاح من قادة الجيش، وليس غروراً من الحاكم. وشعارها يعبر عنها: «نهر ومدينة من الفضة». وكان الجنود يروون أنه في شعاب سلسلة الجبال توجد مدينة القياصرة المشهورة، وهي كلها من الذهب والأحجار الكريمة، تحميها أمازونيات جميلات، أي أنها أسطورة إلدورادو نفسها، غير أن بيدرو دي بالديبيا، وهو الرجل العملي، لم يضيع الوقت والجنود في البحث عنها.

كانت تشيلي تتلقى تعزيزات عسكرية عديدة عبر البر والبحر، ولكنها لم تكن كافية على الدوام لاحتلال هذه الأراضي الفسيحة على الساحل والغابات والجبال. ومن أجل التودد إلى جنوده، كان الحاكم يوزع أراضي وهنوداً بسخائه المعهود، لكنها هدايا من كلام، ونوايا شاعرية، ذلك أن الأراضي لا تزال بكراً والهنود جامحين. فمن غير الممكن إجبار المابوتشي على العمل إلا بالقوة الوحشية. كانت ساق بيدرو قد شفيت، مع أنها ظلت تؤلمه دوماً، لكنه صار قادراً على امتطاء الحصان. فكان يجوب اتساعات الجنوب دون راحة مع جيشه الصغير، متوغلاً في الغابات الرطبة

والمظلمة، تحت القبة الخضراء العالية التي يشكلها تشابك أشد الأشجار نبلاً، والمكللة بكبرياء شجرة الأراوكاريا التي تشرئب نحو السماء بهندستها القاسية. كانت قوائم الخيول تدوس فرشة من الدُّويال الشذيّ، بينما الفرسان يشقون الطريق بسيوفهم وسط دغل السرخس الكثيف الذي لا يمكن اختراقه أحياناً. كانوا يجتازون مجاري غدران مياه شديدة البرودة، تظل العصافير متجمدة على ضفافها، وهي المياه نفسها التي تغطّس فيها أمهات المابوتشي أبناءهن حديثي الولادة. وكانت البحيرات مرايا صافية لزخم زرقة السماء، وهادئة بحيث يمكن عدّ الحصى في القاع. والعناكب تنسج دانتيلها المخرم والمتلألئ بالندى بين أشجار السنديان والريحان والبندق. وطيور الغابة تشدو مجتمعة: الحساسين، السمان، العنادل، الشحارير، وحتى نقار الخشب الذي يضبط الإيقاع بنقرات تاك - تاك - تاك المتواصلة. وكان مرور الفرسان يثير سحباً من الفراشات، وتدنو الغزلان الفضولية لتحييهم. ويرشح الضوء من بين الأوراق ليرسم ظلالاً في المشهد؛ ويتصاعد الضباب من الأرض دافئاً، ويغطي الدنيا بأنفاسه السحرية. أمطار ومزيد من الأمطار، أنهار، بحيرات، شلالات ماء بيضاء وزبدية، عالم من السوائل. وفي العمق، تظهر على الدوام الجبال المكللة بالثلج، والبراكين التي يتصاعد منها الدخان، والسحب المسافرة. فالمشهد في الخريف ذهب ودم، مرصع وبديع. كانت روح بيدرو دي بالديبيا تفلت منه وتبقى عالقة بين الجذوع السامقة المكسوة بالطحالب، ذلك المخمل الفاخر. إنها جنة عدن، الأرض الموعودة، الفردوس. وبعينين مضمختين، كان الغازي المغزو يمضي مستكشفاً البلاد التي تنتهي عندها الأرض: تشيلي.

في أحد الأيام، بينما هو يمضي مع جنوده في غابة أشجار بندق، سقطت من أعلى الأشجار المتشابكة قطع كبيرة من الذهب. لم يصدق الجنود تلك الأعجوبة، فترجلوا عن خيولهم بسرعة، وانقضوا على الكتل الصفراء، بينما راح بالديبيا المذهول مثل جنوده، يحاول إصدار الأوامر.

كانوا يتنازعون الذهب، عندما أحاط بهم مئة من رماة السهام المابوتشي. وكان لاوتارو قد علمهم التسديد إلى نقاط الضعف في الجسد، حيث لا تتوفر للإسبان حماية الدروع الحديدية. وخلال أقل من عشر دقائق امتلأت الغابة بالقتلى والجرحى. وقبل أن يتمكن الأحياء من الإتيان برد فعل، كان الوطنيون قد اختفوا بالتكتم نفسه الذي ظهروا به قبل لحظات. وقد تبين له بعد ذلك أن الشرك كان مجرد أحجار من النهر مغلفة بطبقة رقيقة من الذهب.

وبعد بضعة أسابيع، كانت مفرزة أخرى من الإسبان تجوب المنطقة، فسمعت أصواتاً نسائية. تقدم الجنود على خيولهم مسرعين، وأزاحوا نباتات السرخس المتشابكة من طريقهم، فوجدوا أنفسهم أمام مشهد فاتن: جماعة من الفتيات يستحممن في النهر، وعلى رؤوسهن أكاليل من الزهر، ولا تغطي أجسادهن سوى شعورهن السوداء الطويلة. واصلت الحوريات الأسطوريات استحمامهن دون أن يبدين أي خوف عندما همز الجنود خيولهم واندفعوا لعبور النهر وهم يطلقون صرخات الابتهاج. لكن الملتحين الشبقين لم يصلوا بعيداً، فقد كان قاع النهر مخاضة وحل غطست فيها الخيول حتى خواصرها. ترجّل الرجال كي يسحبوا البهائم إلى اليابسة، لكنهم كانوا مقيدين في دروعهم الثقيلة، فراحوا يغطسون بدورهم في الوحل. وهنا ظهر أيضاً رماة السهام إياهم من رجال لاوتارو، ورموهم بسهامهم بينما كانت حسناوات المابوتشي العاريات يحتفلن بالمجزرة على الضفة الأخرى.

سرعان ما أدرك بالديبيا أنه في مواجهة قائد لا يقل عنه براعة، يعرف نقاط ضعف الإسبان، لكن ذلك لم يقلقه كثيراً. كان واثقاً من النصر. فمهما بلغ تدرب محاربي المابوتشي على القتال والمراوغة، لا يمكن مقارنتهم بالقدرات العسكرية لضباطه وجنوده المجربين. وكان يقول إنها مسألة وقت فقط، وستكون منطقة أراوكانيا له. ولم يتأخر كثيراً في معرفة الاسم الذي كان الجميع يتداولونه: لاوتارو، الزعيم الذي تجرأ على تحدي الإسبان. لم يخطر له قط أنه يمكن لهذا الزعيم أن يكون فيليب نفسه،

سائسه القديم، ولن يكتشف ذلك إلا في يوم موته. كان بالديبيا يتوقف في قرى المستوطنين النائية، ويبث فيهم الشجاعة بخطب حماسية تتضح بتفاؤل لا يُهزم. وكانت ترافقه خوانا خيمينث، مثلما كنت أرافقه أنا من قبل، بينما ماريا دي إنثيو تمضغ استياءها في سنتياغو. كان الحاكم يدبج رسائل إلى الملك ليؤكد له أن المتوحشين قد أدركوا ضرورة احترام مقاصد جلالته وفضائل الديانة المسيحية، وأنه قد سيطر على هذه الأراضي البديعة، والخصبة، والهادئة، والتي لم يعد ينقصها شيء سوى إرسال إسبان وخيول. وبين فقرة وأخرى، يلتمس منه منحه مكرمات جديدة، لكن الإمبراطور يتجاهلها.

وكان باستيني، الذي صار أميرالاً على أسطول مؤلف من سفينتين قديمتين، يواصل ارتياد الساحل من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، مصارعاً تيارات عاتية، وأمواجاً سوداء مرعبة، ورياحاً متجبرة تمزق الأشرعة، في بحث دون طائل عن الممر الواصل بين المحيطين. وسيكون ربان آخر هو من سيجد مضيق ماجلان في العام 1554. لقد مات بيدرو دي بالديبيا دون أن يعرف ذلك، ودون أن يحقق حلمه في توسيع فتوحاته حتى تلك النقطة على الخريطة. لكن باستيني توصل في رحلاته تلك إلى اكتشاف أماكن حالمة، يصفها ببلاغة إيطالية، متجنباً الحديث عن الفظائع التي كان رجاله يقترفونها. غير أن أخبار تلك الجرائم عُرفت، مثلما يحدث عادة على المدى الطويل. فقد روى مدون أخبار كان يرافق باستيني، أن البحارة استُقبلوا في مرسى طبيعي ناء بالطعام والهدايا من قبل وطنيين لطيفين، فكان الرد عليهم باغتصاب النساء، وقتل عدد كبير من الرجال وأسر آخرين. وقد اقتادوا الأسرى المقيدين بالسلاسل في ما بعد إلى مدينة كونثيبثيون، حيث عرضوهم كما لو أنهم حيوانات ضارية. وقد رأى بالديبيا أن هذه الواقعة، مثل وقائع أخرى كثيرة يسيء فيها الجند التصرف، لا تستحق أن يُهدر الحبر والورق من أجلها. فلم يذكرها في رسائله إلى الملك.

كان قادة آخرون يجوبون الوديان جيئة وذهاباً على صهوات جيادهم،

ويرتقون سلسلة الجبال، ويتوغلون في الغابات، ويُبحرون في البحيرات، ناشرين آثار حضورهم الفظ في تلك المناطق الفاتنة. وقد اعتادوا على خوض مناوشات صغيرة مع شراذم من الهنود، غير أن لاوتارو كان يتوخى عدم إظهار قوته الحقيقية خلال استعداده، بأقصى الحذر، في أعمق أعماق الأراضي الأراوكانية. وكان ميتشيمالونكو قد قُتل في إحدى المصادمات مع لاوتارو، وانضم بعض محاربيه إلى أبناء جلدتهم، لكن بالديبيا تمكن من الاحتفاظ بأكبر عدد منهم. وكان الحاكم يصر على مواصلة الفتح باتجاه الجنوب، ولكنه كلما احتل مزيداً من الأراضي، تضاءلت قدرته على السيطرة. فقد كان عليه أن يترك جنوداً في كل مدينة لحماية المستوطنين، وتخصيص آخرين للاستطلاع، ومعاقبة السكان الأصليين، وسرقة المواشي والأغذية. فكان الجيش موزعاً في جماعات صغيرة تفقد التواصل في ما بينها لشهور عديدة.

وفي الشتاء القاسي، يلوذ الفاتحون في قرى المستوطنين التي يسمونها مدناً، لأنه من الصعب عليهم التحرك بعتادهم الثقيل في الأراضي المستنقعية والموحلة، تحت أمطار لا تتوقف، ووسط الصقيع الصباحي، وتحمّل رياح الثلوج التي تخترق العظام. فمنذ شهر أيار حتى أيلول، تدخل الأرض في مرحلة سكون، يصمت كل شيء، ولا يبقى سوى صوت المياه المتدفقة في الأنهار، ووقع المطر، وعواصف الرعود والبروق التي تكسر صمت السبات الشتوي. وفي فترة السكون والظلام المبكر هذه، تتلبس الشياطين بالديبيا، وتختنق روحه بالهواجس وتأنيب الضمير. فعندما لا يكون على صهوة حصانه وسيفه على خاصرته، يخيم الظلام على روحه، وتسيطر عليه القناعة بأن سوء الطالع يلاحقه. كنا نسمع في سنتياغو إشاعات تقول إن الحاكم قد تبدل كثيراً، وإنه يشيخ بسرعة، وإن رجاله لا يولونه الثقة العمياء كما في السابق. وحسب قول سيسيليا، بدأ نجمه بالصعود عندما تعرّف إلي، وراح ينحدر بعد انفصاله عني، وهي نظرية مرعبة، لأنني لا أرغب

في تحمل مسؤولية نجاحاته ولا جريرة إخفاقاته. فكل شخص هو سيد مصيره. كان بالديبيا يقضي شهور البرد تلك في البيت، متدثراً بعباءات صوفية، يتدفأ على مدفأة جمر ويكتب رسائله إلى الملك. وكانت خوانا خيمينث تقدم له أكواب المتة، وهو شراب عشبة فيه شيء من المرارة، يساعد على تحمل آلام الجراح القديمة.

وفي أثناء ذلك، كان محاربو لاوتارو، غير المرئيين، يراقبون *الهوينكا* من الآجام المتشابكة، مثلما أمرهم زعيم الزعماء، *النيدولتوكي*.



في العام 1553، سافر بالديبيا إلى سنتياغو. لم يكن يعلم أنها ستكون زيارته الأخيرة، لكن الشكوك كانت تخامره في ذلك، إذ عادت الأحلام السوداء تعذبه. فهو يحلم، كما في السابق، بمذابح ويستيقظ مرتجفاً بين ذراعي خوانا. كيف أعرف ذلك؟ لأنه كان يعالج نفسه بلحاء شجر *اللاوتي* كي يتخلص من الكوابيس. فكل شيء يُعرف في هذه البلاد. عندما وصل، وجد مدينة تحتفل باستقباله، مدينة مزدهرة وحسنة التنظيم، لأن رودريغو دي كيروغا حلّ محله بحكمة. لقد تحسنت حياتنا خلال تينك السنتين. بيت رودريغو أعيد بناؤه تحت إشرافي وتحول إلى دارة تليق بمعاون الحاكم. وقد توفر لي فائض من الاندفاع لبناء منزل آخر على بعد بضعة شوارع، كي أهديه إليكِ يا إيزابيل عندما تتزوجين. وكانت لدينا بيوت أخرى مريحة في مزارعنا الريفية؛ فأنا أحب البيوت الفسيحة، عالية السقوف، ذات الردهات وحدائق الأشجار المثمرة والنباتات الطبية والأزهار. والفناء الثالث أخصصه للحيوانات الداجنة المحروسة جيداً كي لا تُسرق. وأسعى لأن أوفر للخدم حجرات لائقة؛ فأنا أغضب عندما أرى مستوطنين آخرين يؤمنون لخيولهم أمكنة أفضل من تلك التي يخصصونها للبشر. ولأنني لم أنسَ أصولي البائسة، فإنني أتفاهم دون صعوبات مع الخدم الذين أظهروا

لي الوفاء على الدوام. إنهم أسرتي. في تلك السنوات، كانت كاتالينا، وهي لا تزال قوية وسليمة، تتولى إدارة الأمور المنزلية، ولكنني كنت أبقي عيني مفتوحتين كي لا تقترف إساءات بحق الخدم. كانت تنقصني ساعات من الوقت لانجاز مهماتي، بسبب انهماكي في أعمال متنوعة، وفي البناء ومساعدة رودريغو في شؤون الحكم، فضلاً عن أعمال الإحسان التي لا تبلغ الكفاية أبداً. فرتل الهنود الفقراء الذين يتناولون الطعام كل يوم في مطبخنا يمتد ملتفاً حول ساحة السلاح؛ فكانت كاتالينا تكثر من الشكوى من الازدحام والوساخة، مما دفعني إلى افتتاح مطعم في شارع آخر. وفي سفينة من بنما جاءت دونيا فلور إلى تشيلي، وهي زنجية سنيغالية، وطاهية بارعة، تولت مسؤولية مشروع المطعم. أنت تعرفين من أعني يا إيزابيل، إنها المرأة نفسها التي تعرفينها. لقد جاءت إلى تشيلي حافية، وهي ترتدي اليوم الحرير وتعيش في منزل تحسدها عليه أشهر سيدات سنتياغو. لقد كانت أطباقها شهية إلى حدّ بدأ السادة معه بالشكوى، لأن الهنود يأكلون خيراً منهم؛ عندئذ خطر لدونيا فلور أنه يمكننا تمويل إطعام الفقراء ببيع مأكولات فاخرة للأغنياء، وكسب نقود بذلك. وهكذا صارت ثرية، في ساعة سعد بالنسبة لها، ولكننا لم نحل المشكلة، لأنها ما إن امتلأت صناديقها بالذهب، حتى نسيت المتسولين الذين عادوا للانتظار أمام باب بيتي. ومازلنا على هذه الحال حتى الآن.

عند معرفة أن بالديبيا آت في طريقه إلى سنتياغو، لاحظتُ القلق على رودريغو، فهو لا يدري كيف سيدير الوضع دون أن يُغضب أحداً؛ كان موزعاً بين منصبه الرسمي، ووفائه للصديق، والرغبة في حمايتي. وكنا قد أمضينا سنتين دون رؤية عشيقي القديم، وبدا لنا غيابه مريحاً جداً. وبوصوله لن أعود أنا الحاكمة (زوجة الحاكم)، وتساءلت ساخرة إذا ما كانت ماريا دي إنثيو على مستوى الظروف. لقد كنت أجد صعوبة في تصورها مكاني.

ـ أنا أعرف ما الذي تفكر فيه يا رودريغو. اطمئن، لن تكون ثمة

مشاكل مع بيدرو ـ قلت له.

ـ ربما سيكون من المناسب أن تذهبي إلى الريف مع إيزابيل...

ـ لا أفكر في الخروج هاربة يا رودريغو. فهذه مدينتي أيضاً. سأمتنع خلال وجوده عن المشاركة في شؤون الحكم، ولكن أمور حياتي الأخرى ستبقى على حالها. وأنا واثقة من قدرتي على لقاء بيدرو دون أن يصيب الوهن ركبتي ـ قلت ضاحكة.

ـ لن يكون هناك مفر من لقائك به بكثرة يا إنيس.

ـ ليس هذا وحسب يا رودريغو. بل سنقيم مأدبة على شرفه.

ـ أتقولين مأدبة؟

ـ بالطبع، فنحن نشكل السلطة الثانية في تشيلي، وعلينا تكريمه. سندعوه مع خليلته ماريا دي إنثيو، وإذا شئت مع الأخرى أيضاً. ولكن ما هو اسمها؟

نظر إليّ بتلك الملامح المتشككة التي تسببها له مبادراتي، لكنني طبعت قبلة سريعة على جبهته وأكدت له أنه لن تكون هناك فضيحة من أي نوع. والحقيقة أنني كنت قد كلفت عدة نساء لإعداد شراشف الموائد، بينما كانت دونيا فلور، وقد تعاقدتُ معها لهذه المناسبة، تجمع مكونات المأكولات التي ستُعدها، ولاسيما أصناف الحلوى المفضلة لدى الحاكم. كانت السفن تأتي بالدبس والسكر، ومع أن هذه المواد غالية الثمن في أوروبا، إلا أن أسعارها كانت باهظة جداً في تشيلي؛ ولكننا لا نستطيع إعداد كل أنواع الحلوى مع العسل، وهكذا أذعن في دفع ما يطلبونه ثمناً لها. كنت أرمي إلى إبهار المدعوين بأطباق لم يرها أحد من قبل في عاصمتنا. «من الأفضل لك أن تفكري جيداً في ما ستضعينه يا سينيوراي»، ذكرتني كاتالينا. وقد كلفتها بكي فستان أنيق جداً من حرير برّاق ذي لون نحاسي، وصلني حديثاً من إسبانيا، ويُبرز لون شعري... حسن يا إيزابيل، لست بحاجة لأن أعترف لك بأنني أحافظ على لون شعري باستخدام الحنة،

مثل العربيات والغجريات، لأنك تعرفين هذا. الفستان ضيق عليّ بعض الشيء، هذا صحيح، فحياة الراحة وحب رودريغو زادا من زهو روحي وجسدي، ولكنني سأبدو على أي حال أفضل من ماريا دي إنثيو التي تلبس مثل مومس، أو من خادمتها المتيقظة التي لا يمكن لها منافستي. لا تضحكي يا بنتي. أعرف أن كلامي هذا يبدو خسة من جانبي، إلا أنه صحيح: فهاتان المرأتان عاديتان جداً.

رتب بيدرو دي بالديبيا دخوله الظافر إلى سنتياغو تحت أقواس من أغصان الشجر والأزهار، ووسط تهليل المجلس البلدي وحشود الأهالي. واصطف رودريغو دي كيروغا مع ضباطه وجنوده بدروعهم اللامعة وخوذهم ذات قنازع الريش في ساحة السلاح. وكانت ماريا دي إنثيو تقف أمام باب البيت الذي كان بيتي، منتظرة حبيبها وهي تتلوى بضحكات الدلال والتغنج. يا للمرأة الكريهة! أما أنا فامتنعت عن الظهور، واكتفيت بمراقبة المشهد من بعيد، مترصدة من وراء إحدى النوافذ. بدا لي أن بيدرو قد كبر سنوات كثيرة بصورة مفاجئة، ولا أدري إذا ما كان السبب هو عجرفته، أم بدانته، أم إنهاك الرحلة.

في تلك الليلة استراح الحاكم بين ذراعي خليلته، وفي اليوم التالي بدأ العمل بالدأب المعروف عنه. تلقى من رودريغو تقريراً كاملاً ومفصلاً عن وضع المستوطنين والمدينة، وراجع حسابات أمين الخزينة، واستمع إلى طلبات المجلس البلدي، ولبى واحداً فواحداً طلبات الأهالي الذين جاؤوا بالتماسات أو مطالبين بالعدالة. لقد تحول إلى رجل مختال، عديم الصبر، متغطرس، ومستبد، لا يتحمل أدنى معارضة دون أن يتفجر بالتهديد والوعيد. لم يعد يطلب النصح أو يستشير أحداً في قراراته، بل يتصرف كملك مطلق. كان قد أمضى وقتاً طويلاً في الحروب، وقد اعتاد على أن يكون مطاعاً دون أي تذمر من قواته. ويبدو أنه يعامل ضباطه وأصدقاءه بهذه الطريقة أيضاً، لكنه كان ودوداً مع رودريغو دي كيروغا؛ لأنه أدرك أن هذا القائد لا

يمكنه أن يتحمل أي إهانة. وحسب قول سيسيليا التي لا يفلت منها شيء، فإن خليلاته وخادماته يخفن منه إلى حدّ الرعب، لأن بالديبيا يفرغ عليهن إحباطاته، ابتداء من آلام العظام وحتى صمت الملك الذي لا يرد على رسائله.

المأدبة على شرف الحاكم كانت إحدى أكثر المآدب التي أقمتها في حياتي المديدة استعراضية. فمجرد إعداد قائمة المدعوين كانت مهمة معقدة، ذلك أننا لم نستطع أن نضم إليها الخمسمئة مقيم إسباني في العاصمة مع أسرهم. فعدد كبير من الشخصيات لم تصلهم بطاقة الدعوة. كانت سنتياغو تفور بالتعليقات والأحاديث، والجميع يريدون حضور الحفلة، وصارت تصلني هدايا غير متوقعة، وفيض من رسائل الصداقة من أشخاص كانوا يكادون يتجاهلونني في اليوم الفائت. ولكن، كان علينا حصر القائمة بالقادة القدماء الذين جاؤوا معنا إلى تشيلي في العام 1540، وبموظفي التاج والمجلس البلدي. وجئنا بهنود مساعدين من المزارع وألبسناهم زياً موحداً أنيقاً، غير أننا لم نستطع إجبارهم على انتعال أحذية، لأنهم لا يطيقونها. أضأنا المكان بمئات الشموع، ومصابيح زيت ومشاعل من راتينج الصنوبر لتعطير الجو. بدا البيت رائعاً، تتوزع فيه أصص ممتلئة بالزهور، وصوان كبيرة مترعة بفواكه الموسم وأقفاص طيور. وقدمنا نبيذاً مميزاً من البيرو، ونوعاً من النبيذ التشيلي الذي بدأت أنا ورودريغو بإنتاجه. أجلسنا ثلاثين مدعواً إلى المائدة الرئيسية، ومئة آخرين في قاعات أخرى وفي الباحات. وصممت في تلك الليلة على أن أجلس إلى المائدة مع الرجال، مثلما يفعلون في فرنسا كما سمعت، بدلاً من جلوسهن على حشايا على الأرض، مثلما هي العادة في إسبانيا. ذبحنا خنازير وخرافاً لنقدم تشكيلة متنوعة من الأطباق، فضلاً عن الطيور المحشوة والسمك الذي جئنا به من الساحل حياً في ماء البحر. كانت هناك منضدة مخصصة للحلوى، والكعك، والرقائق المحلاة، والكريما، وحلوى الحليب، والفواكه. وكان النسيم يحمل إلى المدينة روائح المأدبة: ثوم، لحم مشوي، كراميلا. وجاء المدعوون بكامل

أناقتهم، مع أنهم نادراً ما كانوا يُخرجون الثياب الفاخرة من قاع الصناديق. وكانت سيسيليا طبعاً هي أجمل النساء، بفستان مائل إلى الزرقة، مشدود بحزام من الذهب، ومتزينة بمجوهراتها كأميرة إنكية. وقد جاءت معها بصبي زنجي، وقف وراء مقعدها ليهوّي لها بمروحة من الريش، تفصيل أذهلنا نحن الحاضرين جميعنا. حضر بالديبيا مع ماريا دي إنثيو التي لم تكن سيئة المظهر، ولابد لي من الاعتراف بذلك، لكنه لم يُحضر معه خليلته الأخرى، لأن ظهوره مع خليلتيه سيكون صفعة على وجه مجتمعنا الصغير المتكبر. قبّل يدي وجاملني بالعبارات المناسبة لمثل هذه الحالات. وبدا لي أنني لمحت في نظرته مزيجاً من الحزن والغيرة، ولكنها قد تكون رؤية من بنات أفكاري. عندما جلسنا إلى المائدة، رفع كأسه ليشرب نخب رودريغو ونخبي، باعتبارنا مضيفيه، وألقى خطبة قصيرة مؤثرة، قارن فيها بين مرحلة المجاعة القاسية في سنتياغو، قبل عشر سنوات فقط، والوفرة الحالية.

- في هذه المأدبة الملكية يا دونيا إنيس، لا ينقص إلا شيء واحد فقط...

- لا تتسرع بالقول ذلك يا صاحب السعادة - أجبته.

وفي هذه اللحظة بالذات دخلتِ أنت يا إيزابيل مرتدية الأورغنزا ومكللة بأشرطة ملونة وزهور، حاملة طبقاً مغطى بفوطة من الكتان الأبيض، وفيه فطيرة للحاكم. احتفى الحاضرون بالفكرة بتصفيق مدوٍ، لأن الجميع يتذكرون أزمنة السنوات العجاف، عندما كنا نصنع الفطائر من أي شيء في متناول أيدينا، بما في ذلك السحالي.

أقيم حفل راقص بعد العشاء، غير أن بالديبيا الذي كان راقصاً رشيقاً، يتمتع برهافة السمع والظرف الطبيعي، لم يشارك في الرقص، متذرعاً بألم في عظامه. وما إن انصرف المدعوون وانتهى الخدم من توزيع بقايا المأدبة على الفقراء الذين جاؤوا للاستماع إلى الحفلة من ساحة السلاح، حتى أغلقت البيت وأطفأت الشموع، وسقطنا أنا ورودريغو منهكين في

الفراش. أسندت رأسي إلى صدره، كما هي عادتنا، ونمت دون أحلام ست ساعات متواصلة، وهو وقت أبدي بالنسبة لي أنا المؤرقة على الدوام.



بقي الحاكم في سنتياغو ثلاثة أشهر. واتخذ في هذه الفترة قراراً لابد أنه فكر فيه كثيراً: أرسل خيرونيمو دي ألديريتي إلى إسبانيا ليسلم ستين ألف بيزو ذهباً إلى الملك، هو الخمس الذي يشكل حصة التاج، لكنه مبلغ مضحك إذا ما قورن بالسفن التي كانت تخرج من البيرو محملة بهذا المعدن. وحمل معه رسائل إلى الملك تتضمن عدة التماسات، من بينها منحه لقب مركيز ووسام القديس سنتياغو. لقد تبدل بالديبيا في هذا الشأن أيضاً، فهو لم يعد الرجل الذي يتباهى بازدراء الألقاب والتشريفات. أضف إلى ذلك أنه، وهو الذي كان يمقت العبودية، يلتمس إذناً بشحن ألفي عبد زنجي مع إعفائه من الضرائب. والمهمة الثانية التي أوكلها إلى ألديريتي تتمثل في الذهاب لزيارة زوجته مارينا أورتيث دي غايتي التي مازالت تعيش في البيت المتواضع في كاستويرا، وإعطائها نقوداً ودعوتها للمجيء إلى تشيلي لتشغل موقع زوجة الحاكم إلى جانب زوجها الذي لم تره منذ سبعة عشر عاماً. يفتنني أن أعرف كيف تلقت ماريا وخوانا هذا الخبر. ويؤسفني أن خيرونيمو ألديريتي لم يستطع أن يعود بالرد الإيجابي من الملك. لقد استمر غيابه قرابة ثلاث سنوات، حسب ما أذكر، بسبب تأخر الإبحار في المحيط، ولأن الملك لم يكن بالرجل ذي القرارات المتعجلة. ولدى عودة القائد، وبينما هو يجتاز برزخ بنما، أصيب بوباء تروبيكالي نقله إلى الحياة الأفضل. لقد كان خيرونيمو ألديريتي هذا جندياً جيداً وصديقاً وفياً، وآمل أن يمنحه التاريخ المكانة التي يستحقها. وفي أثناء ذلك، مات بيدرو دي بالديبيا أيضاً دون أن يعلم بأنه قد نال أخيراً الألقاب التي التمسها.

عندما تلقت مارينا أورتيث دي غايتي دعوة زوجها للسفر إلى هذه

المملكة، وكانت تتخيلها مثل فينسيا، ومن يدري سبب تصورها هذا، وتلقت كذلك مبلغ السبعة آلاف وخمسمئة بيزو ذهباً لنفقاتها، اشترت تاجاً مذهباً، وتجهزت بملابس إمبراطورية واصطحبت معها حاشية كبيرة تضم عدداً من أفراد أسرتها. لكن المرأة المسكينة وصلت إلى تشيلي لتجد نفسها أرملة؛ واكتشفت هنا أن بيدرو قد خلّفها مفلسة، وأدهى من ذلك أن أبناء أخوتها، وكانت مولعة بهم، ماتوا جميعهم، قبل انقضاء ستة أشهر، في الحرب مع الهنود. لا يمكنني إلا الإشفاق عليها.

خلال الفترة التي أمضاها بيدرو دي بالديبيا في سنتياغو، لم ير أحدنا الآخر إلا في مرات قليلة، وخلال لقاءات اجتماعية، محاطين بأشخاص آخرين يراقبوننا بخبث، ويأملون بضبطنا في موقف حميم أو يحاولون التكهن بمشاعرنا. ما كان يمكن لإحدانا في هذه المدينة أن تخطو خطوة واحدة دون أن يرصدها الآخرون من النوافذ وينتقدونها. ولماذا أتكلم بصيغة الماضي؟ إننا الآن في العام 1580، والناس مازالوا مثلما كانوا في الثرثرة والقيل والقال. بعد أن أمضيت أشد سنوات شبابي زخماً مع بيدرو، صرت أشعر بلا مبالاة غريبة بحضوره، يبدو لي معها أن الرجل الذي أحببته بعاطفة جامحة كان شخصاً آخر. وقبل قليل من إعلانه عن موعد عودته إلى الجنوب، حيث يفكر القيام بزيارات للمدن الجديدة، ومواصلة البحث عن مضيق ماجلان المتهرب، جاء لمقابلتي غونثالث دي مارموليخو.

ـ أردت أن أخبرك يا بنتي أن الحاكم قد التمس من الملك أن يعينني مطراناً على تشيلي ـ قال لي.

ـ هذا خبر تعرفه سنتياغو بأسرها يا أبتاه. أخبرني الآن بالسبب الحقيقي لزيارتك.

ـ يا لجرأتك يا إنيس! ـ قال الكاهن ضاحكاً.

ـ هيا، تقيأ ما لديك يا أبتاه.

ـ الحاكم راغب في التحدث إليك على انفراد يا بنتي. ولا يمكن لهذا

اللقاء، كما هو منطقي، أن يتم في بيتك أو في بيته أو في مكان عام. لابد من الحفاظ على المظاهر. وقد عرضتُ عليه أن يلتقي بك في منزلي...

ـ أيعرف رودريغو بالأمر؟

ـ الحاكم يرى أن لا حاجة إلى إزعاج زوجك بمثل هذه الصغائر يا إنيس.

خامرتني الشكوك بالرسول والرسالة والسر، فأبلغت رودريغو بالأمر في ذلك اليوم بالذات، من أجل تجنب المشاكل، وعندئذ عرفت أنه على علم بالأمر، لأن بالديبيا نفسه طلب منه الإذن للقاء بي على انفراد. لماذا يريدني إذاً أن أخفي ذلك عن زوجي؟ ولماذا لم يخبرني رودريغو بالأمر؟ أعتقد أن الأول أراد اختباري، ولكنني لا أظن أن هذا هو ما أراده الثاني؛ فرودريغو لا يعمد إلى مثل هذه المكائد.

ـ وهل تعلم ما الذي يريد بيدرو التحدث معه بشأنه؟ ـ سألتُ زوجي.

ـ إنه يرغب في أن يوضح لك سبب تصرفه على ذلك النحو يا إنيس.

ـ لقد انقضى ما يزيد على ثلاث سنوات! أيريد الآن أن يأتي ليوضح لي؟ يبدو لي الأمر مستغرباً جداً.

ـ إذا كنتِ غير راغبة في التحدث إليه، فسوف أخبره بذلك مباشرة.

ـ الا يزعجك أن ألتقي به على انفراد؟

ـ إنني أثق بكِ ثقة مطلقة يا إنيس. ولن أسيئ لك بالغيرة أبداً.

ـ أنت لا تبدو إسبانياً يا رودريغو. لابد أن دماء هولندية تسري في عروقك.

ذهبتُ في اليوم التالي إلى بيت غونثالث دي مارموليخو، أكبر بيوت سنتياغو وأكثرها فخامة بعد بيتي. مما لا شك فيه أن ثروات الكاهن ذات منشأ إعجازي. استقبلتني مدبرة منزله، وهي امرأة حكيمة من هنود الكيتشوا، عارفة بأعشاب الاستشفاء، وصديقة مقربة مني، وغير مضطرة إلى إخفاء أنها تعيش منذ سنوات حياة مادية مع مطران المستقبل. اجتزنا عدة قاعات، تفصل بينها أبواب مزدوجة ومزخرفة صنعها حرفي ماهر أحضره

الكاهن من البيرو، ووصلنا إلى حجرة صغيرة، حيث يوجد مكتبه والقسم الأكبر من كتبه. كان الحاكم يلبس بتأنق، جبة حمراء قاتمة مشقوقة الكمين، وبنطالاً ضارباً إلى الخضرة، وقبعة حريرية سوداء لها ريشة أنيقة. تقدم ليصافحني. وانسحبت مدبرة المنزل بتكتم وأغلقت الباب. عندئذ رأيت نفسي على انفراد مع بيدرو، فأحسست بوجنتي ترتعشان وبقلبي يخفق بشدة، وفكرت في أنني لن أتمكن من تحمل نظرة هاتين العينين الزرقاوين، واللتين كثيراً ما قبّلت أهدابهما وهو نائم. مهما كانت التبدلات التي طرأت على بيدرو، فقد بدا للحظة أنه الحبيب نفسه الذي لحقتُ به إلى نهاية العالم. وضع بيدرو يديه على كتفي وجعلني أستدير باتجاه النافذة، كي يراني عل الضوء.

ـ إنك باهرة الجمال يا إنيس! كيف يمكن ألا يبدو عليك مرور الزمن؟

ـ تنهد متأثراً.

ـ إنك بحاجة إلى زجاج عينين للرؤية ـ قلتُ له وأنا أخطو خطوة إلى الوارء لأتخلص من يديه.

ـ قولي لي إنك سعيدة. من المهم جداً بالنسبة لي أن تكوني سعيدة.

ـ ولماذا؟ أهو تأنيب الضمير؟

ابتسمتُ، وضحك هو ايضاً، وتنفسنا كلانا براحة، فقد انكسر الجليد. أخبرني بتفاصيل المحاكمة التي واجهها في البيرو، وحكم لاغاسكا عليه؛ وقال إن فكرة زواجي من رجل آخر خطرت له هو، كطريقة وحيدة لإنقاذي من النفي والفقر.

ـ عندما اقترحتُ هذا الحل على لاغاسكا، كنت أُغمد خنجراً في صدري يا إنيس، ومازلت أنزف حتى الآن. لقد أحببتكِ على الدوام، أنت المرأة الوحيدة في حياتي، أما الأخريات فلا يؤخذن في الحسبان. ومعرفتي أنك متزوجة من رجل آخر يسبب لي ألماً فظيعاً.

ـ لقد كنتَ غيوراً على الدوام.

ـ لا تسخري مني يا إنيس. إنني أعاني كثيراً لأنك لست إلى جانبي، ولكنني سعيد برؤيتك ثرية، وبأنك تزوجت من أفضل نبيل في هذه المدينة.

ـ في ذلك اليوم، عندما أرسلت غونثالث دي مارموليخو ليطلعني على الخبر، ألمح لي بأنك قد اخترت عريساً لي. أكان رودريغو؟

ـ إنني أعرفك جيداً بحيث لا يمكنني أن أفرض عليك شيئاً يا إنيس، وأقل من ذلك زوجاً لك.

ـ إنني أطمئنك إذاً، وأقول لك إن الحل الذي خطر لك كان رائعاً. فأنا سعيدة وأحب رودريغو كثيراً.

ـ أكثر مني؟

ـ أنت لم أعد أكن لك ذلك النوع من الحب يا بيدرو.

ـ وهل أنت متأكدة من ذلك يا إنيس روحي؟

عاد لتثبيتي من كتفي وجذبني نحوه باحثاً عن شفتي. أحسست بدغدغة لحيته الشقراء، ودفء أنفاسه، فأدرت وجهي جانباً ودفعته بعيداً عني برفق.

ـ أكثر ما كان يعجبك في يا بيدرو هو الوفاء. ومازلت أحافظ على هذه الصفة، لكنني أدين بها الآن لرودريغو ـ قلت له بحزن، لأنني أحسست بأن وداعنا في تلك اللحظة هو وداع إلى الأبد.

❖ ❖ ❖

سافر بيدرو دي بالديبيا من جديد ليواصل عمليات الفتح وتعزيز المدن السبع والحصون حديثة التأسيس. وقد اكتُشفت عدة مناجم تحتوي عروقاً غنية، مما اجتذب مستوطنين جدد، بمن في ذلك بعض سكان سنتياغو ممن اختاروا التخلي عن مزارعهم الخصبة في وادي المابوتشي، والذهاب مع أسرهم إلى غابات الجنوب الغامضة، مفتونين باحتمالات العثور على الذهب والفضة. كان هناك عشرون ألف هندي يعملون في المناجم، وصار الإنتاج

بجودة ما تنتجه البيرو تقريباً. وكان خوان غوميث واحداً من المستوطنين الذين ذهبوا، غير أن سيسيليا وأبناءهما لم يرافقوه. «أنا سأبقى في سنتياغو. وإذا كنت تريد الذهاب للغرق في تلك المستنقعات، فهذا شأنك»، قالت له سيسيليا، دون أن تتصور أن كلماتها ستكون نذير شؤم.

وعندما ودّع رودريغو دي كيروغا صديقه بالديبيا، نصحه بألا يتوسع في أراض أكثر مما يمكنه السيطرة عليه. فبعض الحصون لم يكن فيها أكثر من حفنة من الجنود، وكانت هناك عدة مدن بلا حماية.

ـ لا وجود لأي خطر يا رودريغو، فالهنود لم يسببوا لنا إلا مشاكل قليلة. لقد أُخضعت المنطقة.

ـ يبدو لي مستغرباً أن هنود المابوتشي لم يحاربونا مثلما كنا نتوقع، بالرغم من أن شهرة جموحهم قد وصلت إلينا ونحن في البيرو، قبل أن نبدأ فتح تشيلي.

ـ لقد أدركوا أننا عدو قوي جداً، وتفرقوا ـ أوضح له بالديبيا.

ـ إذا كان الأمر كذلك، أرجو لك التوفيق؛ ولكن كن على حذر.

تعانقا بحرارة، وانطلق بالديبيا دون أن يشغل باله بتحذيرات كيروغا. وخلال عدة شهور تالية، لم نحصل على أخبار مباشرة عنه، إنما كانت تصلنا إشاعات بأنه يعيش حياة تركي باذخ، مستلقياً بين الوسائد والحشايا، ويسمن في بيته في كونثيبثيون الذي سماه «قصر الشتاء». وقيل إن خوانا خيمينث كانت تخبئ الذهب المستخرج من المناجم، والذي ينقل في مراكب صغيرة، كي لا يجري تقاسمه ولا يُصرح به لموظفي الملك. ويضيفون بحسد أن الذهب المتراكم كثير جداً، وأكثر منه ذلك المتبقي في مناجم كيلاكويا، وأن بالديبيا صار أوسع ثراء من الملك كارلوس الخامس نفسه. هكذا هم الناس، يتعجلون في الحكم على الآخرين. وأذكّرك يا إيزابيل بأن بالديبيا لم يخلّف عند موته مرابطياً واحداً. اللهم إلا إذا كانت خوانا خيمينث، وبدلاً من أن تكون قد اختُطفت على يد الهنود،

مثلما هو الاعتقاد الشائع، تمكنت من سرقة تلك الثروة والهرب إلى مكان ما، فكنز بالديبيا لم يوجد قط.

«توكابيل» هو اسم أحد الحصون التي بُنيت لإنهاك الهنود من سكان البلاد الأصليين وحماية مناجم الذهب والفضة، بالرغم من أنه لم يكن فيه سوى اثني عشر جندياً، يقضون أيامهم في مراقبة الغابة، والضجر. كانت الشكوك تخامر القائد المسؤول عن الحصن بأن المابوتشي يحضرون لمؤامرة ما، بالرغم من أن علاقته بهم كانت سلمية. فقد كان الهنود يحملون المؤن إلى الحصن، مرة أو مرتين في الأسبوع؛ وكان يأتي الأشخاص أنفسهم دوماً، واعتاد الجنود الذين صاروا يعرفونهم على تبادل بعض الإشارات الودودة معهم. ومع ذلك، كان هناك شيء ما في سلوك الهنود دفع القائد إلى اعتقال عدد منهم، وتوصل من خلال تعذيبهم إلى معرفة أن هناك تمرداً كبيراً للقبائل يجري الإعداد له. وأستطيع أن أقسم بأن ما اعترف به الهنود هو ما يرغب لاوتارو في أن يعرفه الإسبان، لأن هنود المابوتشي لم ينثنوا من قبل قط أمام التعذيب. أرسل قائد الحصن في طلب تعزيزات، لكن بالديبيا لم يولِ اهتماماً كبيراً لتلك المعلومات، واكتفى بإرسال خمسة جنود على الخيول كمساعدة لحصن توكابيل.

كان ربيع العام 1553 ينقضي في غابات إقليم أراوكانيا العطرة. الهواء دافئ ومرور الجنود الخمسة يثير سحباً من الحشرات الشفافة والطيور الصاخبة. وفجأة، مزقت سلام ذلك المشهد الرعوي صرخات جهنمية، ووجد الإسبان أنفسهم على الفور محاطين بحشد من المهاجمين. ثلاثة منهم سقطوا مخترقين بالرماح، لكن اثنين استطاعا الاستدارة والانطلاق بأقصى سرعة نحو أقرب حصن إليهم لطلب النجدة.

وفي أثناء ذلك حضر إلى توكابيل الهنود أنفسهم الذين يأتون بالمؤن عادة، حيوا الجنود بأقصى ما في الدنيا من خضوع، كما لو أنهم لم يعلموا بالتعذيب الذي تعرض له رفاقهم. فتح لهم الجنود أبواب الحصن وسمحوا لهم

بالدخول مع الحزم التي يحملونها. وعندما صاروا في الفناء، فتح هنود المابوتشي أكياسهم، وأخرجوا الأسلحة المخبأة فيها وانقضوا على الجنود. تمكن هؤلاء من تجاوز ذهول المفاجأة، وطاروا مسرعين في طلب سيوفهم ودروعهم للدفاع عن أنفسهم. وخلال الدقائق التالية وقعت مذبحة للمابوتشي وأُسر عدد كبير منهم، لكن المكيدة حققت هدفها المنشود، إذ بينما كان الإسبان مشغولين بمن هم في الداخل، كان آلاف المحاربين المحليين الآخرين قد أحاطوا بالحصن. خرج القائد مع ثمانية من رجاله على الخيول لمواجهتهم، وهو قرار بالغ الشجاعة ولكنه غير مجدٍ، لأن أعداد العدو كبيرة جداً. وبعد قتال بطولي، تراجع من بقي حياً من الجنود إلى الحصن، حيث تواصلت المعركة غير المتكافئة طيلة ما تبقى من النهار، إلى أن تراجع المهاجمون أخيراً مع حلول الظلام. لم يبق في حصن توكابيل سوى ستة جنود، هم من ظل حياً من الإسبان، ومعهم عدد كبير من الياناكونا والهنود الأسرى. اتخذ القائد قراراً يائساً لإخافة المابوتشي الذين ينتظرون طلوع الفجر ليعودوا مجدداً إلى الهجوم. كان قد سمع بأسطورة أنني أنقذت مدينة سنتياغو بإلقاء رؤوس زعماء القبائل باتجاه قوات الأهالي، فقرر استنساخ الفكرة. أمر بذبح الأسرى، ثم رمى الرؤوس من فوق الأسوار. قوبلت تلك الحركة بدوي مديد، أشبه بموجة بحر رهيبة.

خلال الساعات التالية، راح حصار المابوتشي المحيط بالحصن يتعاظم، إلى أن أدرك الإسبان الستة أن إمكانية نجاتهم الوحيدة هي في محاولة اختراق الصفوف المعادية على الخيول، في كنف ظلام الليل، والوصول إلى أقرب حصن منهم، في بورين. هذا يعني أنهم سيتركون الهنود المتعاونين لمصيرهم، لأنه لا خيول لديهم. لا أدري كيف تمكن أولئك الإسبان من تنفيذ مهمتهم الجسورة، فالغابة كانت تعج بالمحاربين الوطنيين الذين توافدوا من أماكن بعيدة باستدعاء من لاوتارو، للقيام بالتمرد الكبير. ربما سمحوا لهم بالمرور لهدف في نفوسهم. على أي حال، مع أول أنوار الفجر،

انـدفع الهنـود الـذين أمضـوا الليـل فـي محيط المكـان، وتوغلـوا فـي حصـن توكابيـل المهجـور، ووجـدوا فـي الفنـاء بقيـة رفـاقهم الـدامين. وجـرت إبـادة الياناكونا التعساء الذين ظلوا في الحصن.

وصل خبر الهجوم الأول الظافر إلى لاوتارو بسرعة كبيرة، بفضل نظام الاتصال الذي وضع هو نفسه تصوراً له. وكان الشاب *نيدولتوكي* (زعيم الزعماء) قد أنجز للتو زواجه من غواكولدا، بعد أن دفع الدوطة اللازمة. لم يشارك في حفلة السكر التي أقيمت، لأنه لم يكن محباً للخمر، وكان مشغولاً جداً في التخطيط للخطوة التالية من الحملة. وكان هدفه بيدرو دي بالديبيا.



كان خوان غوميث قد وصل إلى الجنوب قبل أسبوع من ذلك، ولم يكن قد تمكن بعد من التفكير في مناجم الذهب التي قادته إلى الانفصال عن أسرته، وإذا به يتلقى نداء استغاثة من حصن بورين، حيث كان الجنود الستة الناجون من حصن توكابيل قد انضموا إلى الأحد عشر جندياً الموجودين هناك. ومثل كل وصي على هنود، كان عليه أن يبادر إلى الحرب عند استدعائه، وألا يتردد في عمل ذلك. انطلق غوميث على جواده إلى حصن بورين، وترأس مفرزة الجنود الصغيرة. وبعد أن سمع تفاصيل ما جرى في توكابيل، أيقن أن الأمر ليس مجرد مناوشة، مثل غيرها من المناوشات الكثيرة السابقة، وإنما هو تمرد جماعي لقبائل الجنوب كلها. تهيأ للصمود بأفضل طريقة ممكنة، لكن ما يمكنه القيام به ليس كبيراً بالنظر إلى ضآلة الوسائل المتاحة له.

بعد أيام من ذلك، وعند الفجر، سمعوا الصرخات المعهودة، ورأى الحراس عند سفح الرابية فرقة من المابوتشي تتوعد بالصراخ، ولكنها ظلت ثابتة في مكانها. قدر خوان غوميث بأن هناك حوالي خمسمئة محارب معادٍ

مقابل كل واحد من رجاله، ولكنه يمتلك مزية الأسلحة، والخيول، والانضباط التي منحت سمعة كبيرة للجنود الإسبان. وكانت لديه خبرة واسعة في القتال ضد الهنود، ويعرف أنه من الأفضل خوض الصراع معهم في ميدان مفتوح، حيث يمكن للخيالة المناورة، ويستطيع رماة البنادق أن يُبرزوا تفوقهم. قرر الخروج لمواجهة العدو بالقوة المتوفرة لديه: سبعة عشر خيالاً، وأربعة رماة بنادق، وحوالي مئتين من هنود اليانكونا المتعاونين.

فُتحت أبواب الحصن وخرجت القوة يتقدمها خوان. وبإشارة منه، اندفع الخيالة نزولاً على التل بسرعة كبيرة وهم يلوحون بسيوفهم، ففوجئوا بأن شمل الهنود لم يتشتت في هذه المرة، وإنما انتظروهم بصفوف منتظمة. ولم يكونوا عراة كذلك، بل كانت صدروهم محمية بواقيات، ورؤوسهم بقلنسوات مصنوعة من جلد الفقمة القاسية مثل دروع الإسبان. وكانوا يمتشقون رماحاً طولها ثلاثة أذرع، ويوجهونها إلى صدور الخيول، وهراواة ثقيلة قصيرة الأذرع، أسهل استخداماً من هراواتهم السابقة. لم يتحركوا من أماكنهم، وتلقوا مواجهة اندفاع الخيول التي انغرست فيها الرماح. أصيب عدد من الخيول، لكن الجنود استعادوا السيطرة بسرعة. وعلى الرغم من أعداد القتلى الرهيبة التي أوقعتها أسلحة الإسبان الحديدية، إلا أن محاربي المابوتشي لم ييأسوا.

بعد انقضاء ساعة، سُمع دوي التم ـ تم المعروف للطبول فتوقف حشد الهنود وتراجع، ثم اختفى في الغابة مخلفاً الميدان مزروعاً بالقتلى والجرحى. لكن راحة الإسبان لم تدم سوى لحظات قليلة، إذ اندفع آلاف المحاربين البدلاء ليحلوا محل من انسحبوا. ولم يجد الجنود خياراً آخر غير مواصلة القتال. وراح محاربو المابوتشي يكررون هذه الاستراتيجية كل ساعة: تُقرع الطبول، تختفي القوات المتعبة وتدخل المعركة قوات أخرى نشطة، بينما كان الإسبان يُستنفدون. أدرك خوان غوميث أنه من المستحيل مواجهة هذه المناورة البارعة بجنوده محدودي العدد. لقد قسم المابوتشي قواتهم في أربع

فرق دوارة، وبينما تكون إحدى الفرق في المعركة، تستريح الثلاث الأخرى بانتظار دورها. ولم يجد بداً من إصدار الأمر بالتراجع إلى الحصن، لأن معظم رجاله كانوا قد أصيبوا بجراح، وهم بحاجة إلى التقاط أنفاسهم وشرب الماء.

في الساعات التالية، عالجوا الجرحى كيفما استطاعوا، وتناولوا طعاماً. وعند الغروب، قدر خوان غوميث أنه عليهم أن يحاولوا شن هجوم جديد، كي لا يمنحوا العدو فرصة للراحة خلال الليل. وأعلن عدد من الرجال الجرحى أنهم يفضلون الموت في المعركة؛ فهم يعرفون أن الموت سيكون مؤكداً وبلا أمجاد، إذا ما تمكن الهنود من دخول الحصن. لم يكن لدى غوميث في هذه الجولة سوى اثني عشر فارساً وستة مشاة، لكن ذلك لم يرعبه. هيأ جنوده، وبث فيهم الحماسة بكلمات متأججة، وأوكل نفسه إلى الرب والحواري شفيع إسبانيا، وأمرهم بالهجوم.

استمر تصادم الحديد والهراوى نصف ساعة، وبدا أن عزيمة المابوتشي قد وهنت، فهم لا يقاتلون بالشراسة التي أبدوها في الصباح، وقبل الوقت المتوقع انسحبوا بنداء من طبولهم. انتظر غوميث مجيء الموجة التالية البديلة، كما في الصباح، لكن ذلك لم يحدث. أصابه ذلك بالارتباك، وأمر بالعودة إلى الحصن. لم يفقد في هذه الجولة أياً من رجاله. وخلال تلك الليلة والنهار التالي، انتظر الإسبان هجوم العدو دون أن يناموا، محشورين في دروعهم وممسكين بسيوفهم، ولكن العدو لم يظهر، إلى أن اقتنعوا أخيراً أنهم لن يعودوا، فركعوا في فناء الحصن، وشكروا القديس سنتياغو على ذلك الانتصار الغريب. لقد هزموهم دون أن يدروا كيف. قدر خوان غوميث أنه لا يمكن لهم أن يظلوا معزولين في الحصن، ينتظرون على الجمر الصرخات الرهيبة التي تنبئ بعودة المابوتشي. أفضل الخيارات أن ينتظروا حلول الليل، لأن الهنود نادراً ما يتحركون فيه، خوفاً من الأرواح الشريرة، فيرسلون مبعوثين سريعين إلى بيدرو دي بالديبيا لإطلاعه على ذلك النصر الذي لا

يجدون تفسيراً له، وتتبيهه إلى أنهم يواجهون تمرداً شاملاً تقوم به القبائل، وإذا لم يسحقوه فوراً، فسوف يفقدون كل الأراضي التي فتحوها جنوبي نهر بيو- بيو. انطلق الرسولان باسرع ما يتيحه لهما الظلام والخضرة المتشابكة، خائفين من أن ينقض عليهما الهنود عند أي منعطف، لكن ذلك لم يحدث. واستطاعا مواصلة رحلتهما دون عوائق، ووصلا إلى هدفهما عند الفجر. بدا لهما خلال الطريق أن هنود المابوتشي يرصدونهم من بين آجام السرخس، وعندما لم يتعرضا لأي هجوم، عزوا ظنونهما إلى توتر أعصابهما. لم يكن بمقدورهما أن يتصورا أن لاوتارو يريد لبالديبيا أن يتلقى الخبر، وأنه من أجل ذلك تركهما يمضيان في طريقهما، مثلما فعل مع الرسل الذين حملوا رسالة الردّ من الحاكم، وفيها يخبر غوميث بأنه سيلتقي به في أطلال حصن توكابيل في يوم عيد الميلاد. فهكذا خطط بكل دقة *النيدولتوكي* (زعيم الزعماء) الذي علم من جواسيسه المنتشرين في كل مكان بمضمون الرسالة، وابتسم راضياً؛ فها هو ذا بالديبيا حيث يريده. أمر إحدى فرقه بمحاصرة حصن بورين، لإبقاء خوان غوميث حبيساً ومنعه من إنجاز التعليمات التي تلقاها، بينما تولى هو إحكام المصيدة التي أعدها للتايتا بالديبيا في توكابيل.



كان بالديبيا قد أمضى شهور الكسل الشتوية في كونثيبيون، يرى المطر ويتسلى بألعاب الورق، تحت رعاية خوانا خيمينث. لقد بلغ الثالثة والخمسين من العمر، لكن عرجه وبدانته المفرطة جعلاه يهرم قبل موعده. كان بارعاً في لعب الورق، وكان الحظ يحالفه في اللعب، فيكسب على الدوام تقريباً. وكان الحاسدون يؤكدون أنه يضيف إلى ذهب المناجم ما ينتزعه من المقامرين الآخرين، ويذهب المجموع ليصب في صناديق خوانا السرية والغامضة والتي لم يُعثر عليها حتى اليوم. كان الربيع قد تفجر بالبراعم والعصافير، عندما وصلت الأخبار المشوشة عن تمرد للوطنيين،

بدت له مبالغات. ولمجرد أن يؤدي واجبه، وليس بدافع القناعة، جمع حوالي خمسين جندياً وانطلق دون رغبة للقاء مع خوان غوميث في توكابيل، مستعداً لسحق المابوتشي المتجرئين، مثلما فعل من قبل.

قام برحلة الخمسة عشر فرسخاً مع فرسانه الخمسين ونحو ألف وخمسمئة ياناكونا، في مسيرة بطيئة، إذ كان عليه أن يجاري سير الحمالين. وبعد قليل من الانطلاق، أرعبه الكسل الذي بدأ به المسير، لأن غريزة الجندي فيه نبهته إلى الخطر. كان يشعر بأنه مراقب من عيون ترصده من بين الآجام الكثيفة. لقد بدأ يفكر في موته منذ أكثر من سنة، وراودته الهواجس بأن ذلك قد يحدث قريباً، لكنه لم يشأ إثارة قلق رجاله بشكوك أنهم مراقبون. وعلى سبيل الاحتياط، أمر جماعة من خمسة جنود أن تتقدم لتستطلع الطريق، وواصل التقدم بالإيقاع نفسه وهو يحاول تهدئة أعصابه بالنسيم الفاتر ورائحة الصنوبر العطرة. وعندما لم يرجع من أوفدهم لاستطلاع الطريق بعد مرور ساعتين، ازدادت حدة قلقه. وبعد فرسخ من ذلك، أشار أحد الفرسان بصرخة رعب إلى شيء يتدلى معلقاً بغصن شجرة. إنها ذراع بشرية لا تزال في كم سترة. أمر بالديبيا بمواصلة التقدم بتأهب واليد على السلاح. وبعد مسافة قصيرة أخرى، رأوا ساقاً ما زالت تنتعل جزمتها، وكانت معلقة كذلك على شجرة، وبعدها أشلاء أخرى، أرجل، أذرع، رؤوس، تتدلى كثمار دامية من أشجار الغابة. «فلننتقم لهم!»، تعالت صرخات الجنود الغاضبين والمستعدين للاندفاع على خيولهم بحثاً عن القتلة، غير أن بالديبيا أجبرهم على كبح جموحهم. فأسوأ ما يمكن لهم أن يفعلوه هو تفرقهم. وقرر أنه لابد لهم من البقاء معاً حتى بلوغ حصن توكابيل.

كان الحصن يقوم على قمة رابية جرداء، إذ كان الإسبان قد قطعوا الأشجار لبنائه، غير أن قاعدة الرابية كانت محاطة بالخضرة. ويمكن من أعلى الرابية رؤية نهر غزير. صعد الخيالة إلى الرابية، ووصلوا أولاً إلى أطلال الحصن التي يلفها الدخان، ثم لحقت بهم أرتال الياناكونا البطيئة المحملة

بالعتاد والتجهيزات. انتظر محاربو المابوتشي إلى أن وصل آخر الرجال إلى أعلى التل، ليعلنوا عن وجودهم بأصوات تبعث على القشعريرة من ناياتهم المصنوعة من عظام بشرية، وفقاً للتعليمات التي تلقوها من لاوتارو.

لم يكن قد أتيح للحاكم الترجل عن حصانه بعد، فنظر من خلال جذوع السور المحترقة، ورأى المحاربين منتظمين في سرايا متراصة، محميين بدروع ورماحهم تستند إلى الأرض. وكان زعماء الحرب في مقدمة الصفوف، يحميهم حراس مختارون من أفضل الرجال. وفكر مذهولاً في أن البرابرة قد اكتشفوا بالغريزة طريقة قتال الجيوش الرومانية القديمة، وهي الطريقة نفسها التي تستخدمها القوات الإسبانية. ولا يمكن لقائدهم إلا أن يكون ذلك الزعيم الذي سمع عنه كثيراً خلال الشتاء: لاوتارو. أحس بموجة غضب تجتاحه، ولاحظ أن جسده مبلل بالعرق. وهتف: «سأُميت هذا اللعين شر ميتة!».

شر ميتة. هناك ميتات كثيرة من هذه في مملكتنا، تُثقل على ضميرنا إلى الأبد. ولابد لي من وقفة أوضح فيها أن بالديبيا لم يتمكن من إنجاز تهديده ضد لاوتارو الذي مات وهو يقاتل إلى جانب غواكولدا بعد سنوات من ذلك. وخلال وقت قصير، استطاع هذا العبقري العسكري أن يزرع الرعب في مدن الإسبان الجنوبية، مما اضطرهم إلى إخلائها، وتمكن من الوصول مع قواته إلى مقربة من سنتياغو. في أثناء ذلك كان السكان المابوتشي منهوكين من الجوع والأوبئة، غير أن لاوتارو واصل القتال بجيشه الصغير، والمنضبط جداً، والذي كان يضم نساء وأطفالاً. أدار الحرب بمكر عبقري وشجاعة فائقة خلال سنوات قصيرة، لكنها كانت كافية لنفخ روح التمرد المابوتشي الذي مازال متواصلاً حتى الآن. وحسب ما قاله لي رودريغو دي كيروغا، فإن قلة ضئيلة من القادة العسكريين في التاريخ العالمي يمكن مقارنتهم بذلك الشاب الذي حوّل كومة من قبائل العراة إلى أشد الجيوش رهبة في أميركا. وبعد موته حل محله التوكي

كاوبوليكان، وهو لا يقل عنه شجاعة، لكنه لا يدانيه في المكر والذكاء، وقد وقع أسيراً في ما بعد وحُكم عليه بالموت على الخازوق. ويؤكد الرواة أن امرأته فريسيا، حين رأته يُقتاد مكبلاً بالسلاسل، ألقت عند قدميه بابنه ذي الشهور القليلة، وصرخت بأنها لا تريد إرضاع نسل رجل مهزوم. لكن هذه القصة كما يبدو ليست إلا واحدة أخرى من أساطير الحرب، مثل أسطورة العذراء التي ظهرت في السماء خلال إحدى المعارك. تحمل كاوبوليكان، دون أنّة واحدة، العذاب المرعب على الخازوق الحاد الذي كان يخترق أحشاءه ببطء، وهذا ما يرويه ثوريتا، أم أنه ثونيغا؟ بالله عليك، لقد صرت أنسى الأسماء، ومن يدري كم من الأخطاء في هذه الرواية. ولحسن الحظ أنني لم أكن موجودة عندما عذبوا كاوبوليكان، مثلما لم أرَ أي واحدة من عقوبات «الإخلال بالنظام»، حيث يبترون بضربة ماتشيتي نصف القدم اليمنى للهندي المتمرد. لكن ذلك لم يفقدهم العزيمة، فقد كانوا يواصلون القتال رغم عرجهم. وعندما بتروا يدي زعيم آخر، يدعى غالفارينو، ثبت السلاح بربطه إلى ذراعيه كي يعود إلى المعركة. بعد كل هذه الأهوال، لا يمكن لنا أن ننتظر الرحمة من الهنود. فالقسوة تولد مزيداً من القسوة في دورة أزلية.

قسم بالديبيا رجاله إلى جماعات يتقدمها جنود الخيالة ويتبعهم الياناكونا، وأمرهم بالنزول من الرابية. لم يستطع إرسال الخيالة عدواً، كما هي العادة، لأنه أدرك أن ذلك سيؤدي إلى انغراس رماح المابوتشي في صدرو الخيول. يبدو أن المابوتشي قد تعلموا التكتيكات الأوربية. كان لابد لهم أولاً من نزع سلاح الرماحين. وقد حقق الإسبان والياناكونا انجازاً في اللقاء الأول، وبعد قليل من القتال الكثيف والضاري، إنما المقتضب، تراجع محاربو المابوتشي باتجاه النهر. تعالت صرخات النصر محتفلة بانسحابهم، وأمر بالديبيا رجاله بالرجوع إلى الحصن. كان جنوده واثقين من انتصارهم، أما هو فشعر بقلق كبير، لأن المابوتشي تصرفوا بانضباط ونظام دقيق. ومن

فوق الرابية، رآهم يشربون الماء ويغسلون جراحهم في النهر، وهي وسيلة راحة يفتقدها رجاله. وفي هذه اللحظة سُمعت صرخات مدوية، وظهرت من الغابة قوات هندية جديدة، مستريحة ومنتظمة الصفوف، مثلما حدث في معركة بورين ضد رجال خوان غوميث، وهو أمر كان بالديبيا يجهله. ولأول مرة أدرك القائد العام خطورة الوضع، بعد أن كان يظن نفسه السيد المطلق في إقليم أراوكانيا.

تواصلت المعركة بالطريقة نفسها خلال ما تبقى من ذلك النهار. الإسبان الجرحى والعطشى والمنهوكين، يواجهون في كل جولة قوات من محاربي المابوتشي المستريحين الذين يأكلون جيداً، بينما القوات المنسحبة تبترد في النهر. انقضت الساعات والإسبان والياناكونا يتساقطون، بينما تعزيزات خوان غوميث المنتظرة بلهفة لا تصل.



لا أحد في تشيلي يجهل أحداث عيد الميلاد المأساوية تلك في العام 1553، غير أن هناك عدة روايات، وأنا سأرويها مثلما سمعتها من شفتي سيسيليا. فبينما كان بالديبيا وقوته الضئيلة يدافعون عن أنفسهم بمشقة في توكابيل، كان غوميث محتجزاً في بورين، حيث استبقاه المابوتشي محاصراً حتى اليوم الثالث، دون أن يُظهروا ما يشير إلى وجودهم. كان قد انقضى الصباح وشطراً من بعد الظهر، عندما لم يعد غوميث قادراً على التحمل، وخرج أخيراً مع وحدة صغيرة لتفحص الغابة. لم يجد شيئاً. لم يكن هناك هندي واحد في مجال الرؤية. عندئذ ارتاب في أن حصار الحصن كان إستراتيجية لإلهائه ومنعه من الالتحاق ببيدرو دي بالديبيا، مثلما أمر هذا الأخير. وهكذا، بينما هم معطلون في بورين، كان الحاكم ينتظرهم في توكابيل، وإذا ما كان قد هوجم، كما هو متوقع، فإن وضعه يجب أن يكون يائساً. ودون أدنى تردد، أمر خوان غوميث الأربعة عشر رجلاً

الأصحاء المتبقين أن يمتطوا أفضل الخيول ويلحقوا به فوراً إلى توكابيل.

ساروا على خيولهم طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي وجدوا أنفسهم على مقربة من الحصن. تمكنوا من رؤية الرابية، ودخان الحريق، وجماعات متفرقة من محاربي المابوتشي، مخمورين بالحرب والشراب، يرفعون رؤوساً وأطرافاً بشرية؛ هي بقايا الإسبان والياناكونا المهزومين في اليوم السابق. أصاب الهلع الأربعة عشر رجلاً، وأدركوا أنهم محاصرون ومعرضون للمصير نفسه الذي لاقاه رجال بالديبيا، لكن المحاربين الهنود المسممين بالخمر كانوا يحتفلون بالنصر ولم يتصدوا لهم. دفع الإسبان خيولهم المنهوكة وارتقوا التل وهم يشقون طريقهم بالسيوف بين السكارى القليلين الذين اعترضوا سبيلهم. كان الحصن قد تحول إلى كومة من الحطب المدخن. بحثوا عن بيدرو دي بالديبيا بين الجثث وأشلاء الأجساد الممزقة، لكنهم لم يجدوه. وأتاحت لهم خابية ماء متسخ أن يرووا ظمأهم وظمأ خيولهم، ولكنهم لم يجدوا متسعاً من الوقت لعمل المزيد، إذ بدأ يرتقي السفح في هذه اللحظة آلاف وآلاف الهنود. لم يكونوا من السكارى الذين رأوهم من قبل، بل خرجوا من بين الأشجار باتزان وانتظام.

الإسبان الذين لم يكن بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم في الحصن المدمر، حيث هم عالقون، عادوا لامتطاء البهائم المنهكة، واندفعوا نزولاً على السفح، مستعدين لشق طريقهم بين الأعداء. وخلال برهة قصيرة وجدوا أنفسهم محاطين بمحاربي المابوتشي، وبدأت معركة دون مواقع ستتواصل طوال النهار. من المستحيل تصديق أن الرجال والخيول الذين جاؤوا من بورين طوال ليلة بكاملها، سيصمدون ساعة بعد ساعة في القتال طوال ذلك اليوم الشاق، لكنني رأيت الإسبان يقاتلون وقاتلتُ معهم، وأعرف ما الذي نحن قادرون على تحمله. وأخيراً تمكن رجال غوميث من التجمع معاً والهرب، تلحق بهم عن قرب قوات لاوتارو. لم يعد بإمكان الخيول تقديم المزيد، وكانت الغابة مملوءة بالجذوع الساقطة وبعقبات أخرى تمنع الخيول من

الجـري، ولكنهـا لا تمنـع الهنـود الـذين يتبعـون الفرسـان بـين الأشـجار ويعترضونهم.

عندئذ قـرر أولئك الرجـال الأربعـة عشـر، أشـجع الشـجعان، أن يضحوا بأنفسهم واحداً بعد الآخر لوقف تقدم العدو، بينما يحاول رفاقهم مواصلة التقدم. لم يناقشوا الأمر، ولم يضربوا قرعة، ولم يأمرهم أحد بذلك. صرخ أولهم مودعـاً الآخـرين، وأوقـف مطيتـه واسـتدار ليواجـه مطـارديهم. انـدفع ممتشـقاً سيفه ومصـمماً علـى القتـال حتـى الـنفس الأخير، لأن أسـره حيـاً سيكون أسوأ بألف مرة. وخلال دقائق قليلة كانت مئة يد تُنزله عن صهوة البهيمة وتنقض عليه بالسيوف والخناجر نفسها التي انتزعوها من الإسبان المهزومين مع بالديبيا.

الـدقائق القليلـة الـتي وفرهـا ذلـك البطـل لأصـدقائه أتاحـت لهـم التقـدم قليلاً، ولكـن سـرعان مـا لحـق بهـم محـاربو المابوتشـي. فقـرر جنـدي آخـر التضحية بنفسه، فصرخ بكلمة الوداع الأخيرة، وتوقف في مواجهة حشد الهنود المتعطشين للدم. ثم فعل ثالث مثل ذلك. وهكذا سقط ستة من الجنود واحـداً بعـد الآخـر. أمـا الثمانيـة الآخـرون، وبيـنهم مصـابون بجـراح خطـرة، فواصلوا جريهم اليائس إلى أن وصلوا إلى ممر ضيق، فكـان علـى آخـر منهم أن يضحي بنفسه كي يمر الآخرون. وقد أجهزوا عليه أيضاً خلال دقائق قليلة. وفي هذه النقطة انهار حصان خوان غوميث المنهوك والنازف من جراح سهام عديدة في خاصرتيه، وسقط على الأرض. كان الليل قد خيم في أثناء ذلك في الغابة، وصار التقدم شبه مستحيل.

ـ اصعد على ردف حصاني أيها القائد ـ عرض عليه أحد الجنود.

ـ لا! واصلوا قدماً ولا تتأخروا بسببي ـ أمرهم غوميث، وهو يعرف أنه جريح، مقدراً أن الحصان لن يتحمل ثقل رجلين.

اضطر الرجال إلى الانصياع لأمره، وواصلوا قدماً، متلمسين طريقهم في الظلام، على غير هدى، بينما توغل هو في الغابة الكثيفة. وبعد

ساعات طويلة ورهيبة، تمكن الناجون الستة من الوصول إلى حصن بورين وإنذار رفاقهم هناك قبل أن يسقطوا منهوكي القوى. انتظروا هناك لوقت يكاد لا يكفي لوقف نزف جراحهم ومنح الخيول قسطاً من الراحة، قبل أن ينطلقوا في مسيرة شاقة باتجاه إمبريال التي لم تكن آنذاك سوى قرية صغيرة. كان الياناكونا يحملون الجرحى الذين لهم أمل في الحياة على محفات، أما من كانوا يحتضرون فتم الإجهاز عليهم بصورة سريعة ومشرفة كي لا يجدهم محاربو المابوتشي أحياء.

وفي أثناء ذلك، كانت قدما خوان غوميث تخوضان في الوحل، فأمطار الشتاء الذي انتهى للتو، حوّلت المنطقة إلى مستنقع كثيف. وبالرغم من أنه كان ينزف نتيجة إصابته بعدة سهام، وكان منهوكاً، عطشاً، ولم يأكل منذ عدة أيام، إلا أنه لم يذعن للموت. كانت الرؤية شبه منعدمة، وعليه أن يتقدم بمشقة، متلمساً طريقه بين الأشجار والآجام. لا يمكنه انتظار الصباح، لأن الليل هو حليفه الوحيد. سمع بوضوح صرخات النصر التي أطلقها محاربو المابوتشي عندما عثروا على حصانه المطروح أرضاً، وصلى متمنياً أن يكون الحيوان الذي رافقه في معارك كثيرة قد مات. فمن عادة الهنود تعذيب الحصان الجريح انتقاماً من صاحبه. أشارت له رائحة الدخان إلى أن مطارديه قد أشعلوا مشاعل، وأنهم يبحثون بين الخضرة، موقنين من أنه لا يمكن للفارس أن يكون قد ابتعد. خلع دروعه وملابسه وأخفاها في الوحل، ثم توغل عارياً في المستنقع. لقد صار محاربو المابوتشي قريبين جداً، بحيث يمكنه سماع أصواتهم ورؤية ضوء المشاعل.

وعند هذه النقطة من الحكاية، يتبدى مزاج سيسيليا الذي يبدو إسبانياً بسخريته من أجواء الموت، فتتلوى من الضحك وهي تروي لي وقائع تلك الليلة المرعبة. «لقد انتهى زوجي إلى الغرق في مستنقع، تماماً مثلما حذرته بما سيحدث له»، قالت الأميرة. فقد بادر خوان غوميث إلى قطع قصبة، وغطس على الفور بالكامل في مستنقع الوحل النتن. لم يدر كم

أمضى من الوقت في الوحل، وهو عارٍ وجراحة مفتوحه، مسلماً روحه للرب ومفكراً بأبنائه وبسيسيليا، هذه المرأة الجميلة التي غادرت قصراً لتلحق به إلى نهاية العالم. لقد مرّ محاربو المابوتشي عدة مرات بجانبه وهم يكادون ملامسته، غير أن الرجل الذي يبحثون عنه كان مدفوناً في المستنقع، يمسك بسيفه، ويتنفس بصعوبة من خلال فتحة القصبة.

عند ضحى اليوم التالي، رأى الرجال الذاهبون إلى إمبريال كائناً كابوسياً، يغطيه الدم والوحل، يجرجر نفسه بين الخضرة المتشابكة. ومن السيف الذي لم يفلته من يده، تعرفوا فيه على خوان غوميث، قائد الأربعة عشر جندياً الشهيرين.



لأول مرة منذ موت رودريغو، استطعتُ في الليلة الفائتة أن أستريح عدة ساعات. وفي تأرجحي بين النوم واليقظة عند الفجر، أحسست بضغط على صدري يكاد أن يسحق قلبي ويمنعني من التنفس، ولكنني لم أشعر بالغم، وإنما براحة كبيرة وسعادة، لأنني أدركت أنها ذراع رودريغو، وأنه ينام إلى جانبي كما في أفضل أزمنتنا. ظللت ثابتة دون حراك، بعينين مغمضتين، ممتنة لهذا الثِقل اللطيف. رغبت في أن أسأل زوجي إذا ما كان قد جاء أخيراً لأخذي معه، وأن أقول له إنه جعلني سعيدة جداً طيلة الثلاثين سنة التي قضيناها معاً، وإنني لم أتحسر إلى على فترات غيابه الطويلة كمحارب. ولكنني خشيت أن يختفي إذا ما تكلمتُ إليه؛ فقد تأكد لي خلال شهور الوحدة هذه كم هي خوافة أرواح الموتى. ومع أول أنوار الصباح التي تسللت من فتحات النوافذ الصغيرة، انسحب رودريغو من جانبي، مخلفاً أثر ذراعه عليّ ورائحته على الوسادة. وحين جاءت الخادمات، لم يكن قد بقي أي أثر منه في الحجرة. وعلى الرغم من السعادة التي منحتني إياها ليلة الحب غير المتوقعة تلك، فقد بدا لي أنني استيقظت بوجه عليل، ذلك أن نساء الخدمة

ذهبن لاستدعائك يا إيزابيل. لستُ مريضة يا بنتي، لا شيء يؤلمني، وأشعر أنني أفضل حالاً من أي وقت آخر، فدعك إذاً من النظر إليّ بهذه النظرة المأتمية؛ لكنني سأبقى لقليل من الوقت، لأني أشعر بالبرد. وإذا كنتِ لا تتضايقين، فإنني أرغب في انتهاز هذه الفرصة كي أملي عليك ما تكتبين.

مثلما تعرفين، خرج خوان غوميث حياً من تلك المحنة، بالرغم من أن شفاء جروحه الملتهبة تطلب شهوراً. تخلى عن فكرة البحث عن الذهب، ورجع إلى سنتياغو حيث مازال يعيش مع امرأته الرائعة التي لابد أن تكون قد بلغت السبعين من عمرها، ولكنها مازالت مثلما كانت في الثلاثين، بلا تجاعيد ولا شيب، ولا أدري إذا ما كان ذلك بفعل معجزة أو شعوذة. لقد كان شهر كانون الأول المنهك هذا هو بداية ثورة المابوتشي، حرب لا هوادة فيها لم تهدأ خلال أربعين سنة، ولا يُعرف متى ستنتهي؛ فما دام هناك هندي وحيد وإسباني وحيد، ستتواصل إراقة الدماء. يجب عليّ أن أكرههم يا إيزابيل، لكنني لا أستطيع ذلك. إنهم أعدائي، غير أنني أقدرهم؛ فلو كنتُ مكانهم لقاتلتُ حتى الموت دفاعاً عن أرضي، مثلما يموتون هم.

إنني أتجنب منذ أيام الحديث عن النهاية التي انتهى إليها بيدرو دي بالديبيا. لقد حاولت عدم التفكير في ذلك طيلة سبع وعشرين سنة، ولكنني أعتقد أن الوقت قد حان للتحدث في الأمر. أريد إقناع نفسي بأقل الروايات قسوة، وبأن بيدرو قد قاتل إلى أن سقط بضربة هراوة على راسه، غير أن سيسيليا ساعدتني على اكتشاف الحقيقة. لم يستطع سوى هندي ياناكونا واحد الهرب من كارثة حصن توكابيل ليروى ما الذي حدث في يوم عيد الميلاد ذاك، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن المصير الذي صار إليه الحاكم. وبعد شهرين من ذلك، جاءت سيسيليا لزيارتي وقالت لي إن فتاة من المابوتشي، وصلت حديثاً من أراوكانيا، وتعمل خادمة في بيتها. وقد علمت سيسيليا أنه قد عُثر على الهندية التي لا تعرف كلمة واحدة بالقشتالية، على مقربة من توكابيل. ومرة أخرى استفدتُ من لغة *المابودونغو*

التي تعلمتها من فيليب ـ صار اسمه الآن لاوتارو ـ جاءت بها سيسيليا إلى بيتي وتمكنتُ من التكلم معها. كانت شابة في حوالي الثامنة عشرة من عمرها، ناعمة التقاطيع ومتينة الظهر. ولأنها لا تعرف لغتنا، بدت أشبه بالغبية، ولكنني عندما تكلمت إليها بلغة *المابودونغو*، تبين لي أنها متوقدة الذكاء. وهذا هو ما تقصيته من ذلك اليااكونا الناجي من توكابيل، وما روته لي هذه الفتاة المابوتشي التي كانت حاضرة عند إعدام بالديبيا.

كان الحاكم في أنقاض الحصن، يقاتل بيأس مع حفنة من الشجعان ضد آلاف الهنود المابوتشي الذين يتبدلون بسرايا أخرى مستريحة، بينما لا يستطيعون هم إراحة أذرعهم وسيوفهم. مضى النهار كله وهم يقاتلون. وعند الغروب، فقد بالديبيا الأمل بمجيء خوان غوميث ومعه تعزيزات. كان رجاله منهوكي القوى، والخيول تنزف مثلما هم الرجال ينزفون، بينما يتوالى بعناد نزول سرايا أخرى من الأعداء من الجبال.

ـ أيها السادة، ماذا علينا أن نفعل الآن؟ ـ سأل بالديبيا الرجال التسعة الذين مازالوا يقفون معه.

ـ وماذا تريد سعادتك أن نفعل سوى القتال حتى الموت؟ ـ ردّ عليه أحد الجنود.

ـ فلنفعل ذلك بشرف إذاً أيها السادة!

واندفع الإسبان العنيدون العشرة، يتبعهم من تبقى من اليااكونا، ليقاتلوا ويموتوا في المواجهة، سيوفهم مرفوعة عالياً، واسم الحواري سنتياغو على شفاههم. وخلال دقائق قليلة، انتُزع ثمانية من الجنود عن صهوات جيادهم بالبوليادورا والحبال، وجرى سحلهم على الأرض وقتلهم على يد مئات من المابوتشي. ولم يتمكن أحد سوى بيدرو دي بالديبيا وكاهن وهندي يااكونا وفيّ من كسر طوق الحصار والهرب من الممر الوحيد المفتوح أمامهم، أما الدروب الأخرى فكان العدو يسدها. وكان هناك يااكونا آخر في الحصن، تحمل دخان الحرائق تحت كومة من الأنقاض،

وتمكن من الهرب حياً بعد يومين من ذلك، عندما كان محاربو المابوتشي قد انسحبوا. أما الطريق الذي كان مفتوحاً أمام بالديبيا، فقد اختاره لاوتارو ببراعة. لأنه طريق مسدود، يؤدي عبر الغابة المظلمة إلى مستنقع، حيث انغرست قوائم الخيول في الوحل، مثلما قدّر لاوتارو بالضبط. لم يعد بإمكان الهاربين التراجع لأن العدو وراءهم. وعلى نور المساء رأوا مئات الوطنيين يخرجون من الآجام، بينما هم يغطسون أكثر فأكثر في ذلك الوحل النتن الذي تنبعث منه رائحة كبريت جهنمي. وقبل أن يبتلعهم المستنقع، أنقذهم محاربو المابوتشي، إذ ليست هذه هي الطريقة التي خططوا لأن يقضوا عليهم بها.

وحين رأى أنه ضائع لا محالة، أراد بالديبيا مفاوضة العدو على حريته، متعهداً بمغادرة المدن التي أُسست في الجنوب، وبأن يهجر الإسبان منطقة أراوكانيا إلى الأبد، وأن يقدم إليهم فوق ذلك أغناماً وممتلكات أخرى. وكان على الياناكونا أن يترجم ما قاله، ولكنه قبل أن ينتهي، انقض عليه الهنود وقتلوه. فقد تعلموا ازدراء وعود *الوينكا*. أما الكاهن الذي صنع صليباً من عودين، وحاول أن يقدم للهندي المسحة الأخيرة، مثلما قدمها قبل ذلك إلى الحاكم، فهشموا جمجمته بضربة هراوة. وعندئذ بدأت عذابات بيدرو دي بالديبيا، العدو البغيض، والتجسيد الحي لكل الإساءات والقسوة التي نزلت بشعب المابوتشي. بتوجب عليهم عدم نسيان آلاف الموتى، والرجال الذين أحرقوا، والنساء اللواتي اغتصبن، والأطفال الذين مُزقوا، ومئات الأيدي المبتورة التي ألقيت في النهر، والأقدام والأنوف المقطوعة، والسياط، والسلاسل، والكلاب.

أجبروا الأسير على مشاهدة تعذيب هنود الياناكونا المتعاونين الذين ظلوا أحياء في توكابيل، وتدنيس حرمة جثث الإسبان. جرجروه عن الحصان، عارياً، حتى المعسكر الذي ينتظرهم فيه لاوتارو. وفي الطريق، مزقت الأحجار والأغصان الغابة الحادة جلده، وعندما ألقوا به عند

قدمي *النيدولتوكي* (زعيم الزعماء)، كان قد تحول إلى خرقة يغطيها الوحل والدم. أمر لاوتارو بأن يقدموا له ماء، كي يستيقظ من غيبوبته، ثم قيدوه إلى عمود. وكرمز ساخر، كسر السيف الطليطلي الذي كان رفيق بيدرو دي بالديبيا، وغرس نصفيه في الأرض عند قدمي الأسير. وعندما استعاد هذا قواه بما يكفي لفتح عينيه ومعرفة أين هو، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام خادمه القديم.

- فيليب! - هتف آملاً، فهو وجه مألوف على الأقل، ويمكنه التحدث إليه بالقشتالية.

صوب إليه لاوتارو بصره بازدراء غير محدود.

- ألم تعرفني يا فيليب؟ إنني انتايتا - ألح الأسير.

بصق لاوتارو في وجهه. فقد انتظر هذه اللحظة طيلة اثنتين وعشرين سنة.

وبأمر من *النيدولتوكي*، راح محاربو المابوتشي الغاضبون يمرون واحداً بعد آخر أمام بيدرو دي بالديبيا حاملين أصداف محار مشحوذة، يقطعون بها لقيمات من جسده. أضرموا ناراً، وانتزعوا بتلك الأصداف لحم فخذية وذراعيه وساقيه، ثم شووا اللحم وأكلوه أمام عينيه. استمرت هذه الحفلة الجهنمية ثلاث ليال ونهارين، دون أن تهرع أمنا المنية لنجدة الأسير عاثر الحظ. وأخيراً، عند فجر اليوم الثالث، وحين رأى لاوتارو أن بالديبيا آخذ بالموت، سكب ذهباً مصهوراً في فمه، كي يُتخَم بالمعدن الذي طالما أحبه، والذي سبب الكثير من الآلام للهنود في المناجم.

آه، يا للألم، يا للألم! هذه الذكريات هي طعنة رمح هنا، في منتصف صدري. كم هي الساعة يا بنتي؟ لماذا تلاشى الضوء؟ الساعات تراجعت، لابد أنه الفجر من جديد. أظن أنه سيكون الفجر إلى الأبد...

لم يُعثر قط على رفات بيدرو دي بالديبيا. يقال إن المابوتشي التهموا جسده في طقس مرتجل، وأنهم صنعوا نايات من عظامه، وأن جمجمته مازالت تستخدم إناءً يشرب منه الزعماء خمر *المو داي*. انت تسألينني يا بنتي

لماذا أتمسك بالرواية الرهيبة التي قدمتها خادمة سيسيليا، بدلاً من الرواية الأخرى، الأكثر رحمة، عن أن بالديبيا قد قُتل بضربة هراوة على رأسه، مثلما كتب الشاعر، ومثلما هي عادة هنود الجنوب. سوف أخبرك يا بنتي. خلال تلك الأيام الثلاثة المشؤومة من كانون الأول 1553 كنتُ مريضة جداً. بدا ذلك كما لو أن روحي تعرف ما كان عقلي لا يزال يجهله آنذاك. صور رهيبة كانت تمر أمام عيني، كما في كابوس لا أستطيع الاستيقاظ منه. بدا لي أنني أرى في بيتي السلال الممتلئة بالأيدي المبتورة والأنوف المجدوعة، وأرى في فناء البيت الهنود المكبلين بالسلاسل وأولئك الذين وُضعوا على الخازوق؛ كان الهواء يعبق برائحة اللحم البشري المحروق، ونسيم الليل يحمل إليّ وقع ضربات السياط. لقد كلّفت هذه الفتوح آلاماً هائلة... لا يمكن لأحد أن يتسامح مع كل تلك القسوة، وخاصة هنود المابوتشي الذين لا ينسون الإساءة أبداً، مثلما هم لا ينسون ما يتلقونه من الجميل. كانت الذكريات تعذبني، وكنتُ كمن أصابها مس من الشيطان. أنت تعرفين يا إيزابيل أنني، بفضل الله، كنتُ سليمة على الدوام، باستثناء بعض طفرات القلب؛ ولهذا لا أجد تفسيراً آخر لمرضي في تلك الأيام. بينما كان بيدرو يتحمل نهايته الرهيبة، كانت روحي ترافقه عن بعد، تبكيه وتبكي كل ضحايا هذه السنوات. أصابني الوهن، مع تقيؤ شديد وحمى شديدة التأجج، وقد خشي الجميع على حياتي. وفي نوبات هذياني كنت أسمع بوضوح صرخات بيدرو وصوته يودعني لآخر مرة: «وداعاً يا إنيس، يا حبيبة روحي...»



هل يلتقي الحب والمجد ، في رواية ملحمية أو في الواقع والحلم معا ؟ هل يستحق الحب أن ترمي امرأة نفسها في أرض المخاطر المجهولة في آخر العالم؟ هل تستطيع امرأة وحيدة فريدة أن تحطم القيود الاجتماعية في القرن السادس عشر أو القرن الحادي والعشرين ؟ هذه بعض الأسئلة التي تجيب عليها إيزابيل ألليندي التي تكتب عن الحب بحب وعمق وجنون .

ISBN 978-2-84305-873-x
9 782843 058738